

سطور 6

جواسيس جدعون

التاريخ السرى للموساد

تقديم:
عادل حمودة

جوردون توماس

ترجمة:
أحمد عمر شاهين ـ مجدى شرشر



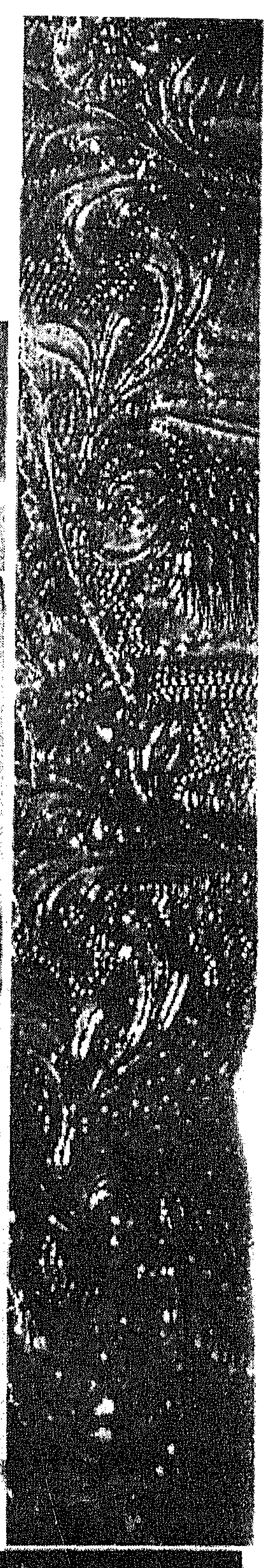
التاريخ السرى للموسا

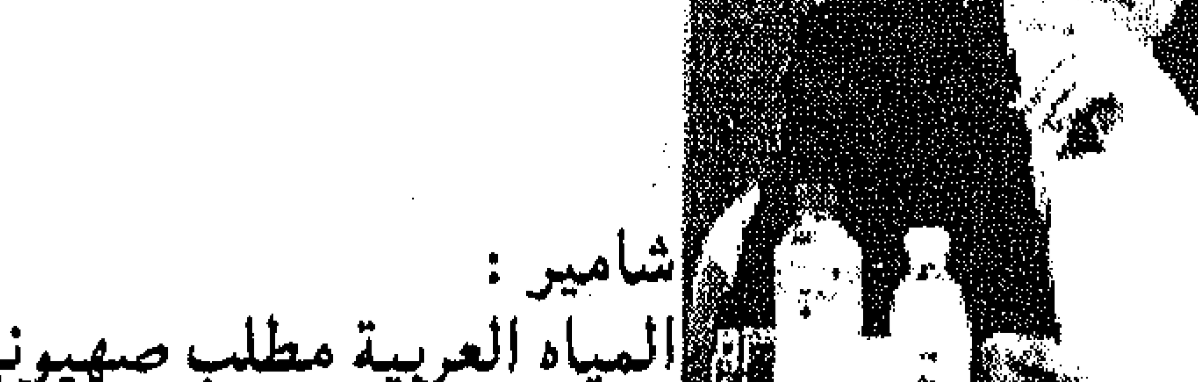
تأليف : جوردون توماس

ترجمة : آحمد عمر شاهين - مجدى شرش

تقديم عادل حمود

الإخراج الفنى : جوبي



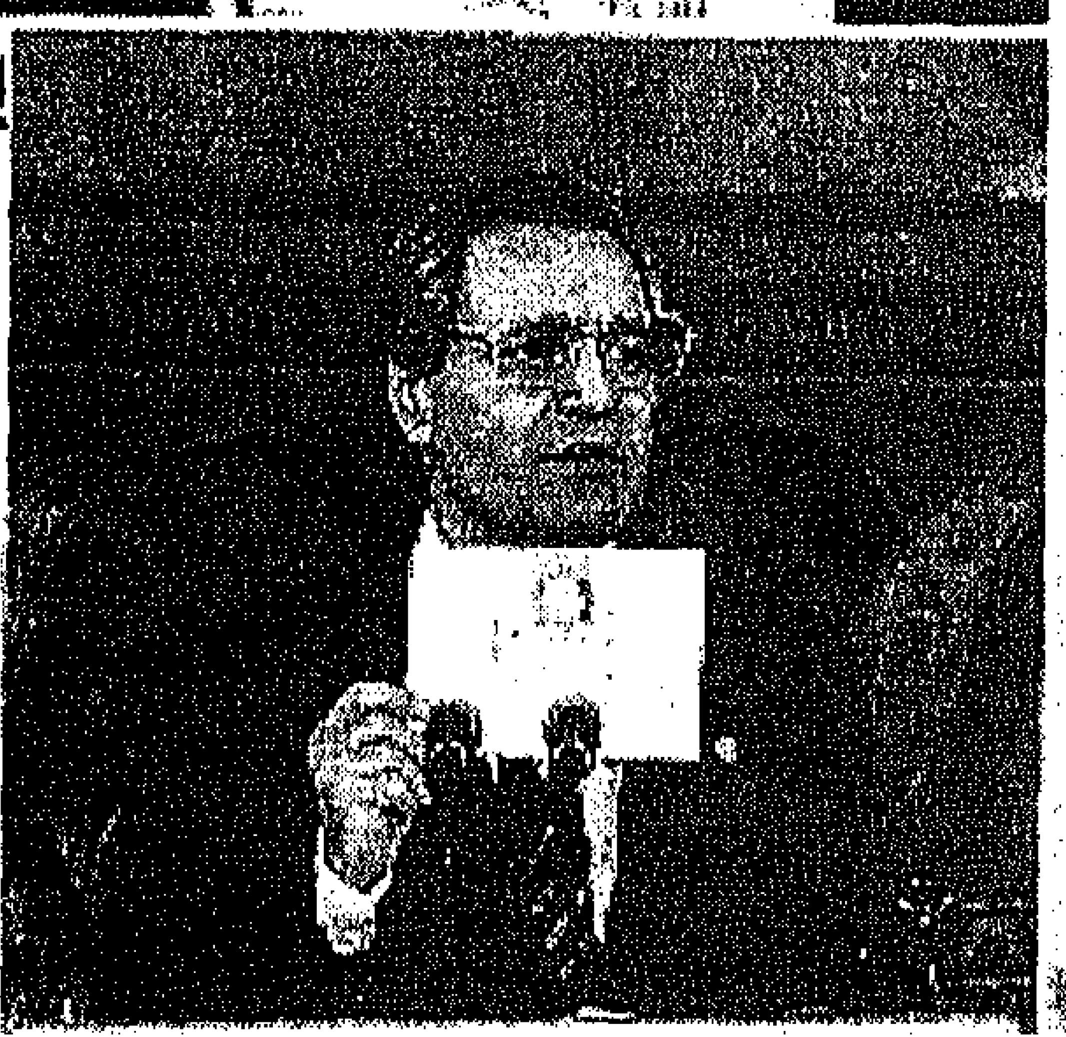


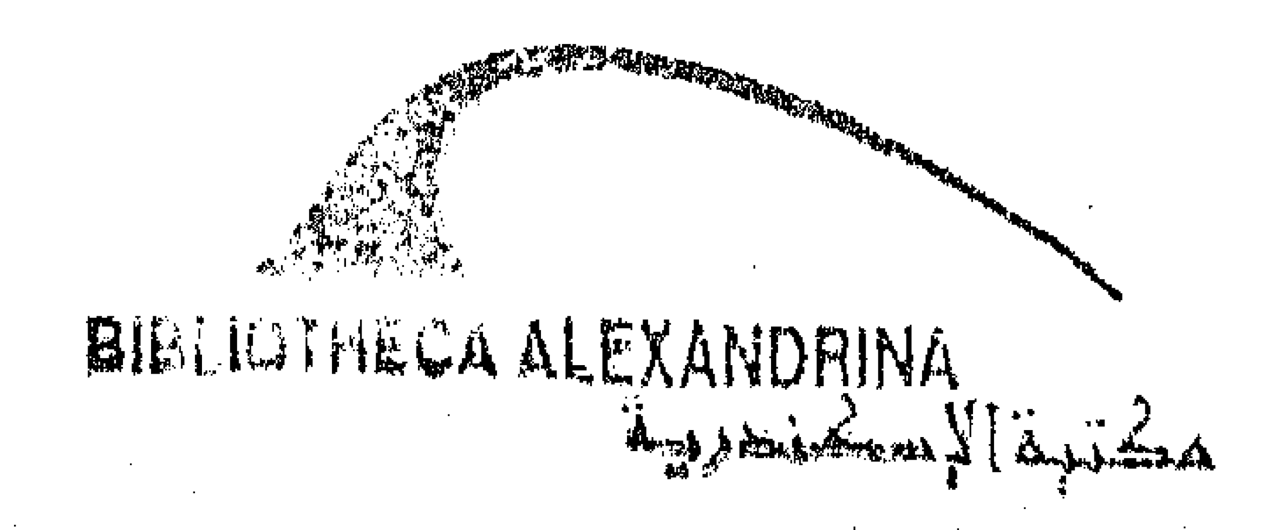
شامير :
المياه العربية مطلب صهيوني





إسرائيل الكبرى كما يريدها شارون





فاروق الشرع :
شامير مطلوب للعدالة كمجرم حرب

كتاب سطور



هذه ترجمة كاملة لكتاب

Gideon's Spies

The Secret History of the Mossad

By : Gordon Thomas

St. Martin's Press - New York 1999

إن الكتاب يحاول إعادة الثقة في قوة الموساد..

وهناك شك في أنه نجح في ذلك.. لأنه نسب بطولات للموساد لا دليل حقيقي عليها.. ولكن حتى لو نجحت (الموساد) في ذلك.. فهي قد دفعت ثمن هذا النجاح غالياً باعترافها بأنها مستعدة أن تقتل وتذبح وتكشف وتسجن أكثر الناس وفاء له.. ومن ثم فالخسارة التي يقدمها الكتاب للموساد أكبر من المكسب المتوقع تحقيقه..



قبل أن تقرأ عملية تجميل

الموساد

عادل حمودة

فى شارع الملك «شاؤول» فى «تل أبيب» يقع مبنى إدارى. .لا يلفت النظر . . وليس فيه ما يميزه عن باقى المبانى الإدارية التى يشتهر بها هذا الشارع الرئيسى فى المدينة الأولى فى إسـرائيل . . فى مـدخله على اليـمين بنك . . وفى الدور فـوق الأرضى كافيتريا . . ومحلات تجارية لبيع الثياب والحلوى ولعب الأطفال . . ولكن . . فى هذا المبنى غير المميز وغير المتوقع يوجد المقر الرئيسى للمخابرات الإسرائيلية . . المشهورة باسم «الموساد» . . يوجد فى الدور الأرضى على اليسـار . . فى مواجهة البنك . . حيث مدخل صغير جداً . . ضيق جداً من الخشب . . يجلس على مكتب بجـواره رجل أمن واحد . . لكنه رغم ذلك يؤدى إلى عالم عريض من الإثارة والشكوك .

عما يجرى وراء هذه البوابة الخشبية الصغيرة صدر فى العالم حوالى ٥٦٠٠ كتاب عن الموساد بكل لغات العالم . . من الإنجليزية إلى اليابانية . . ومن الروسيـة إلى الإسبانية . . ومن العربية إلى العبرية . وهو رقم من الكتب لم يحظ به جهاز مخابرات آخر فى العالم سوى وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) . . وأغلب هذه الكتب مكتوبة بأقلام كُتّاب محترفين . . قادرين على شد انتباه القارئ والسيطرة عليه . . وكأنه يعيش فى عالم من الغموض والمغامرات . . وهو أمر مقصود ليصبح الخوف من

الموساد هو خوف تحت الجلد.. ويسيطر على القلب.. ويغسل العقل.. وهو ما يعترف به ضابط المخابرات الإسرائيلى السابق «فيكتور ستروفسكى» الذى انشق عن الموساد ونشر كتابه «بطريق الخداع» الذى أقام الدنيا ولم يقعدها فى صيف ١٩٩٠.. فهو يقول: «إن فى الموساد (كما فى وكالة المخابرات الأمريكية) إدارة خاصة.. شديدة الأهمية لتزوير الحقائق.. وكتابة الأساطير التى تروج عن قوة المخابرات الإسرائيلية.. وقدرتها على تنفيذ عملياتها.. وعلى حماية عملائها.. وعلى تحطيم أعدائها.. بحيث يبدو كل رجل من رجالها كسوبرمان.. يقفز فوق القطارات السريعة.. ويخرج من بالوعة الحمام.. ويمسك بكتيبة من الأعداء بقبضة واحدة.. وهذه الإدارة مسئولة عن معظم ما يكتب عن الموساد بكل اللغات.. ومن ثم فإن أكثر من ٩٦٪ من الكتب عنها هى صناعة محلية.. دعائية.».

وحتى يعفى ستروفيسكى الناس من سطوة هذه الكتب ويعيد إليهم الوعى المفقود بفعل التنويم والسحر والتخدير يعترف بحقيقة هامة هى أن الموساد كلما وقعت فى مأزق.. وكلما ارتكبت حماقة.. وكلما عانت من الفشل.. سارعت بإجراء عملية تجميل لها بواسطة كُتّاب جاهزين لأن يضعوا كل ما هو متاح من أصباغ ومساحيق

وشعر مستعار.. لكن.. ما الذى يمكن أن تفعله «الماشطة» فى الوجه «العكر» كما يقول المثل الشعبى المصرى؟

آخر دليل على صدق ملاحظة ستروفسكى هى الكتاب الذى بين يديك الآن «جواسيس جدعون: الحروب السرية للموساد».. الذى كتبه جوردن توماس وهو إسرائيلى.. يهودى.. من أصل بريطانى.. تربى فى مصر أيام الاحتلال، وتعلم فى فلسطين أيام الانتداب.. وكبر فى جنوب أفريقيا أيام العنصرية.. ولمع فى الولايات المتحدة أيام التدريب فى المخابرات المركزية.. وهو بهذا التاريخ لابد وأن يكون واحداً من أخطر الذين يفهمون فى صناعة الكتب المثيرة والجذابة والدعائية أيضاً عن الموساد.. ويعرف متى يتكلم؟.. وما الذى يقوله؟.. ومتى وكيف يقوله؟.. وما الذى يحجبه؟.. ومتى وكيف يكشفه؟.

والكتاب يأتى فى وقت عانت فيه الموساد من سلسلة متتالية ومزمنة من الفشل.. وفى وقت حاصرت فيه الفضائح الشخصية والمالية أبرز القيادات فيها.. ولذلك لا مفر (طبقاً لنصيحة شاهد من أهلها هو ستروفسكى) أن نعتبره محاولة سريعة وخاطفة للنفخ فى صورة الموساد ومنحها قوة هى فى حاجة إليها ـ فى وقت حرج حاصرها فيه السقوط من كل جانب ـ للخروج من أزمتها ولو باستعراض أمجادها القديمة.. وفى الوقت نفسه لا مانع من كشف أسرار عمليات جديدة حتى تبدو الكتابة طازجة.. وجذابة.. ومغرية بالقراءة.

فى ربيع عام ١٩٩٨ زرت الجنوب اللبنانى وتحمس الشباب الذى رافقنى فى الرحلة للتوقف فى مكان ما وراحوا يشرحون لى بحماس كيف قبضت المقاومة اللبنانية على مجموعة «الكوماندوز» الإسرائيلية التى تسللت بحراً.. وكيف أدى سقوطها إلى فضيحة عالمية مدوية للموساد.. وفى العام نفسه تصادف أن كنت فى قبرص.. بالتحديد فى ليماسول بالقرب من القاعدة البحرية التى كان اثنان من عملاء الموساد يتجسسون عليها ساعة أن انقضت عليهما أجهزة الأمن القبرصية.. وكانت فضيحة عالمية مدوية أخرى للموساد.. وضاعف من شدة هذه الفضائح أن القبض على عملاء الموساد جرى فى دول لا تتمتع فيها أجهزة المخابرات ببراعة عالية أو شهرة واضحة.. بل إنها دول تكاد أجهزة المخابرات فيها أن تكون جزءاً من الأمن الداخلى العام.. وهو

ما يعنى أن عملاء الموساد الذين سقطوا كانوا أقل براعة.. وأقل قدرة على الاحتراف الذى اشتهروا به منذ تأسس جهاز المخابرات فى إسرائيل وقبل إعلان الدولة.

وسبق هذا الفشل فى صيدا وليماسول فشل كان مدوياً كذلك فى عمان عندما نجا خالد مشعل ممثل حركة حماس فى الأردن من محاولة اغتياله.. مما اضطر رئيس الحكومة الإسرائيلية فى ذلك الوقت بنيامين نتانياهو إلى الاعتذار علناً للملك حسين.. واضطر أيضاً إلى إطلاق سراح زعيم حماس الشيخ أحمد ياسين.

وامتد الفشل إلى سويسرا.. بعد أن عجزت الموساد عن اغتيال عبد الله زين أحد نشطاء حزب الله اللبنانى.. وكشفت الصحافة الأوربية تفاصيل الفضيحة التى انتهت بأن قدم مدير الموساد فى ذلك الوقت دانى ياتوم استقالته.. وقبلت دون أن يحظى بمكاسب التقاعد.. وهو ما يعنى أنه طرد أكثر منه استقالة.. وقد ورثه أفرايم هاليفى الذى سعى جاهداً إلى تحسين سمعة الموساد ومعالجة التمزق الحاد الذى أصابها.. فكانت عملية اختطاف الزعيم الكردى عبد الله أوجلان الذى ساهمت فيها الموساد من خلال التصنت على اتصالاته وشراء عملاء كانوا من أقرب الناس إليه.. وكان هذا الكتاب الذى اضطر إلى كشف أسرار جديدة لعمليات قديمة لوضع مزيد من المساحيق والأصباغ على وجه الموساد التى أصيبت بالترهل وزحمة التجاعيد.

ولعل أخطر هذه الأسرار هو الاعتراف بأن ليبيا بريئة من عملية تفجير طائرة «بان أمريكان» فوق بلدة «لوكيربى» ومقتل ١٧٩ راكباً على متنها.. وهى القضية التى تسببت فى فرض الحصار على ليبيا حوالى ١٠ سنوات.. فقد اتضح أنه كان على متن الطائرة ٣ عملاء لوكالة المخابرات الأمريكية و٤ ضباط كبار فى المخابرات العسكرية الأمريكية.. واحد منهم هو الميجور تشارلس ماكى الضابط المسئول عن المخابرات العسكرية الأمريكية فى بيروت الذى لوحظ - عند فحص حطام الطائرة - أن إحدى حقائبه كانت فارغة تماماً.. وهو ما لفت انتباه جوردن توماس (مؤلف الكتاب) الذى توصل إلى أنه من غير المعقول أن يحمل الرجل حقيبة فارغة إلا من الهواء.. فكان أن كشف أن الحقيبة كانت متخمة بمستندات تثبت أن الموساد تتاجر فى المخدرات فى الشرق الأوسط.. وأنها باعت السلاح سراً إلى إيران.. وقد سارعت الموساد بالتعاون مع السلطات البريطانية إلى مكان حطام الطائرة وسرقت المستندات التى كانت فى

حقيبة تشارلس ماكى.. وهذا سر وجودها فارغة.

وتكتمل الرواية بما سبق أن فجره ستروفسكى بأن الموساد زورت أدلة إدانة ليبيا فى حادث لوكيربى.. فقد أرسلت رسالة من موقع قرب طرابلس (فى لبيبا) من جهاز إرسال وضعته هناك تقول: «المهمة انتهت بنجاح».. وكان الهدف توريط لبيبا.. وهو ما حدث بالفعل.. وقد قيل إن الموساد أنقذت الفاعل الأصلى وهو إيران فى مقابل صفقات سلاح.. وحماية اليهود فى إيران حتى يحين موعد هجرتهم إلى إسرائيل.. وهو ما يجعلنا نتوقف بالتحليل لنرى حقيقة هذه الرواية.. فلو كانت الموساد هى التى دبرت أدلة اتهام ليبيا فقد أخفت هذه الحقيقة ولم تكشفها إلا بعد أن انفرجت أزمة لوكيربى وقبلت ليبيا تسليم المتهمين بتفجير الطائرة.. وفى نفس الوقت قررت الموساد استغلال هذه المعلومات فى اتهام إيران بأنها الفاعل الأصلى.. ليكون مصيرها مثل مصير ليبيا.. وهو الحصار.. على أن ما قيل إن الموساد تتاجر فى المخدرات هو فى الحقيقة ليس مفاجأة.. فقد سبق أن كشف ذلك ستروفيسكى أيضاً.. قبل حوالى ١٠ سنوات.

ولا يمكن أن تمر حقيقة أن الموساد فتشت حطام الطائرة الأمريكية مرور الكرام.. فهذه إحدى وسائل المخابرات الإسرائيلية لمعرفة أسرار الحوادث الكبرى حتى لو لم تكن إسرائيل طرفاً فيها.. وقد كشفت هذه الوسيلة فى حادث تفجير طائرة «العال» الإسرائيلية فوق مدينة امستردام عاصمة هولندا فى خريف ١٩٩٢.. فقد دخلت الطائرة فى مجمع سكنى وقتلت ١٨٥ هولندياً كانوا فى بيوتهم يقضون أجازة نهاية الأسبوع.. وكانت الطائرة تحمل مواد وغازات تدخل فى صناعة أسلحة غير تقليدية.. وهو ماجعل ٤٠ رجلاً من عملاء الموساد يفتشون بين حطام الطائرة حتى لا يكون هناك ما يدين الموساد أو إسرائيل.

ولم يعاقب أحد إسرائيل على سقوط هذه الطائرة فوق رءوس الهولنديين.. بل إن التحقيق فيها لم ينشر إلا بعد وقوع الحادث بحوالى ٧ سنوات.. وهو ما جعل ستروفيسكى يكشف المزيد من أسرار الموساد فى إخفاء و«فبركة» الحقائق حسب مصلحتها وهو يرسل شهادته فى قضية لوكيربى إلى المحكمة التى تحاكم المتهمين الليبيين.. وكما أشرت فإن ستروفيسكى دق بكتابه «طريق الخداع» أول مسمار فى

نعش الموساد.. وفيه تحدث عن تجربته.. وقياداته.. وفساد الجهاز.. والتزوير في عملياته.

وربما يبدو غريباً أن أذكر أن ثمة علاقة عابرة وغير مباشرة قد حدثت بيني وبين ستروفيسكي وإن لم أره وجهاً لوجه.. لقد اعترف ستروفيسكي في الفصل التمهيدي لكتابه وكان بعنوان «عملية سفنكس» أو عملية اغتيال عالم الذرة المصري يحيي المشد في فندق ميرديان باريس.. وقد كنت قد سبقته في تحقيق القضية بالوثائق الفرنسية وشهادة الشهود من عائلة المشد وزوجته وأوراقه.. وتعجبت عندما وجدت ستروفيسكي يستند أحياناً إلى ما قلته وكأنه كاتب يكتب عن المشد لا ضابط مخابرات يكشف ما يعرفه عن اغتياله.. والغريب أيضاً أنه نشر الكثير من المعلومات الخاطئة التي وجدت نفسي أصححها في التقديم الذى كتبته للترجمة العربية للكتاب.. ومن يرجع إلى هذا التقديم يتأكد له أن ليس كل ما يقوله رجال المخابرات السابقين في كتبهم ومذكراتهم يتسم بالدقة.. أو هو من نتاج خبراتهم.. وأنهم أحياناً قد يقتبسون من كتابات سابقة وكأنهم رجال صحافة لا رجال مخابرات.. وهي ملاحظة شديدة الأهمية لابد أن نعرفها ونحن نقرأ هذه النوعية الخطرة من الكتب والتي لابد أيضاً أن نقرأها حتى نعرف حقيقة العدو الذى يصر على أن يحاربنا رغم كل ما يدعيه من رغبته في السلام.. بل إنه في ظل السلام ونهاية الصراع العسكري تشتعل الحرب الباردة وهي حرب تكون الجاسوسية والقوى الإعلامية على رأس أدواتها.. وهو ما نجده الآن بين العرب وإسرائيل.

على أنه لابد أن نعترف أن كتاب ستروفيسكي فيه الكثير من فضائح الموساد.. وقد بدأ في رصدها وهو لا يزال ضابطاً تحت التمرين في أكاديمية الموساد.. وهي في مكان منعزل عند تل منحدر في تل أبيب.. وكان ذلك في أغسطس ١٩٨٤.. فقد شاهد على حمام السباحة قيادات الموساد الكبار عرايا.. هم ومجندات تتراوح أعمارهن ما بين ١٨ و ٢٠ سنة.. والغريب أن هذه الحفلات كانت تجرى في وجود الطلاب وهم جواسيس تحت التمرين.. يجلسون أمام هذه القيادات في اليوم التالي لتلقي الدروس والخبرات.

وكانت هناك فضيحة أخرى.. ففي شمال تل أبيب منطقة تسمي «بار بارك» تنتظر

فيها العاهرات الرجال الذين يأتون بسياراتهم ليذهبن معهم خلف التلال الرملية لبعض الوقت.. ثم يرحلون.. وقد قرر بعض ضباط الموساد أن يأخذوا أجهزة تصوير ليلية ويجلسوا على القمة بالقرب من التلال الرملية.. ويصوروا بنات الهوى فى السيارات مستخدمين عدسات الزوم القوية.. ثم يقومون بالابتزاز.. وكان ضباط الموساد قد تعلموا الدخول على كمبيوتر الشرطة دون علمها.. وأتاح ذلك معرفة صاحب السيارة وعنوانه بمجرد معرفة أرقام اللوحات المعدنية.. وبهذه الطريقة يمكن ابتزاز صاحب السيارة أو الاتفاق معه على مبلغ معين من المال مقابل الصور.

على أن الأخطر من الانحرافات الأخلاقية الانحرافات السياسية وجرائم القتل والتزوير والتجسس على الأصدقاء قبل الأعداء.. إن السفارة التى قال الرئيس بيل كلينتون لعشيقته مونيكا ليونيسكى أنه يخشى تصنتها على مكالماته العاطفية معها هى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن.. والمعروف أن قادة الموساد قد ظلوا فى اجتماعات استمرت ثلاثة أيام يبحثون أفضل وأقصر السبل لاستغلال هذه المكالمات التى سجلوها بوضوح فى الضغط على كلينتون لتراجعه عن وعوده للفلسطينيين.

بل الأخطر من ذلك أن الموساد كانت على علم بخطة تفجير معسكر ومقر قوات منشأة البحرية الأمريكية (المارينز) فى بيروت عام ١٩٨٣.. لكنها لم تقم بتحذير الأمريكيين لتجبرهم على مغادرة لبنان.. وكانت تعليمات مدير الموساد فى ذلك الوقت نحوم أدمونى: «دعوهم يخرجون.. دعوهم يذهبون إلى الجحيم».. وتركت الموساد ويليام بكلى مدير محطة المخابرات الأمريكية فى بيروت فريسة ورهينة وتحت رحمة مختطفيه الذين عذبوه حتى الموت.. وهو ما جعل ويليام كوبى المدير الأسبق لوكالة المخابرات المركزية يقول فى مذكراته التى صدرت بعنوان «الرجال الشرفاء»: «لقد وفر الإسرائيليون فى ذلك الوقت الأسلحة لحزب الله ليقتلوا المسيحيين ووفروا الأسلحة للمسيحيين ليقتلوا الفلسطينيين».

والمقصود.. أن هذا الجهاز الإسرائيلى مستعد أن يفعل أى شىء بلا وازع من ضمير مادام التصرف القذر لصالحه.. وهو وإن كان بما يقول يعطى لنفسه بطولات على الورق فإنه فى الوقت نفسه يكشف أساليبه علنا.. ومن ثم لا عذر لأى عربى يقع فى براثنه ويتورط فى العمل معه.

وفي الكتاب ينسب المؤلف للموساد ما لا دليل عليه.. فهو يقول مثلاً إن سائق سيارة الأميرة ديانا وصديقها العربي الأصل دودى الفايد كان مرشداً غير يهودى للموساد.. وكانت مهمته تقديم كافة المعلومات عن الضيوف العرب الذين يصطحبهم.. وكان عليه أيضاً أن يزرع في غرفهم ميكروفونات التجسس.. وقد كان يعانى من الاكتئاب بسبب ضغوط الموساد عليه.. ومن ثم ربما تناول أدوية ضد الاكتئاب أدت به إلى الحادث.. وربما تعمد أن تصطدم السيارة حتى يتخلص من ضغوط الموساد.. ولو تأملنا هذه القصة أو هذه التهمة لما وجدنا دليلاً واحداً على صدقها.. خاصة وأن كل أبطالها أصبحوا عاجزين عن الإدلاء بشهادتهم لسبب بسيط هو أنهم أصبحوا فى ذمة الله.. ومن ثم لا يجوز أن نأخذ كل الروايات التى فى الكتاب وكأنها من المسلمات.. ويمكن تأملها وفحصها وتفنيدها فى إطار المعلومات الجارية التي تنشرها الصحف.. فهذه الكتب تصدر أساساً من أجل قارئ الصحف.

وأكبر ضربة فشل وجهت إلى الموساد هي عملية اغتيال إسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق.. فلو كان هذا الجهاز قوياً وقادراً لما قتلَ الرجل الأول فى حكومته في عرض الطريق ووسط حشد من أنصار السلام.. ويحاول البعض أن يتهم الموساد بالوقوف وراء عملية الاغتيال لأن الموساد لم تكن تحب رابين.. وكان السبب أنه كان يطالبهم دائماً بمعلومات طازجة وليست معلومات معلبة فى وقت كان فيه رئيساً للوزراء.. ولذلك لم تتردد الموساد فى اللعب ضده فى انتخابات عام ١٩٧٧ بتفجير فضيحة حسابه بالعملة الصعبة في بلد آخر.. إن القانون فى إسرائيل يمنع أن يكون لأى مواطن حساب في بنك أجنبى فى أى بلد آخر.. وكان لزوجة رابين «أيليا» حساب بمبلغ ١٠ آلاف دولار فى بنك أمريكى تسحب منه عندما تسافر إلى الخارج.. بالرغم من أن كافة مصروفاته على حساب الحكومة.. وكانت الموساد تعلم بهذا الحساب.. وكان رابين يعلم أنهم يعلمون.. لكنه لم يأخذ الأمر مأخذ الجد.. وفى الوقت المناسب قدمت الموساد المعلومات والمستندات الدامغة للصحفى الإسرائيلى مارجاليت.. وبعد نشر الفضيحة كان من السهل على مناحم بيجين أن يسحق رابين فى الانتخابات.. وعندما عاد رابين إلى رئاسة الحكومة كان العداء بينه وبين الموساد قد وصل إلى الدم.. ومن ثم لم يكن من الصعب اتهام الموساد بقتله.

ولوحظ أن هذا الكتاب وغيره من الكتب التى صدرت أخيراً عن الموساد راحت تكشف عملاء المخابرات الإسرائيلية فى الدوائر الفلسطينية.. وهو أمر طبيعى فقد انتهى دور هؤلاء العملاء تقريباً بعد قيام السلطة الفلسطينية تمهيداً لإعلان الدولة الفلسطينية.. ومن هؤلاء الجواسيس سائق ياسر عرفات وحارسه الشخصى عندما كان فى بيروت.. وقد جندته الموساد فى عام ١٩٧٩ عندما كان يدرس الفلسفة فى لندن.. وكان يخبر الموساد بكل المعلومات من خلال جهاز الراديو.. ويتسلم ألفى دولار عن كل تقرير.. وكذلك كان يقوم بتبليغ المعلومات بالتليفون وأحياناً يرسلها بالبريد.. وكثيراً ما كان يجرى اتصالات بالموساد من داخل مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.. وقد ظهر فى غواصة إسرائيلية كانت مركز الموساد فى بيروت.. ومن الواضح أن هذه ملفات لعمليات قديمة يزيد عمرها الآن عن ٢٠ سنة.. وأن كشفها فى الوقت الذى تعانى فيه الموساد من الفشل المتتالى هو محاولة لإعادة الثقة فى هذا الجهاز الذى لا يزال يلعب دوراً بارزاً فى الحرب الباردة المشتعلة بضراوة بين العرب وإسرائيل.

لكن.. هذا لا يمنع أن الموساد ـ التى كانت ترفع شعار حماية عملائها مهما جرى ـ قد كشفت لأول مرة أن من السهل كشفهم وبيعهم إذا ما لزم الأمر، كما هو واضح فى القصة التى ينشرها الكتاب والخاصة بعميل الموساد والذى لقبوه بأبو هنداوى.. وهو عميل فلسطينى تسبب فى قتل ١٥ من أعضاء منظمة التحرير.. وكان قد سافر إلى لندن للحصول على شهادة جامعية فى الهندسة.. وهناك اتصل بابن عمه نزار هنداوى عارضاً عليه أن يتصل بالجيش الجمهورى الأيرلندى للحصول على أسلحة منه للمنظمة.. وفى خلال ذلك تعرف على فتاة أيرلندية اسمها آن مارى ميرفى ـ وكانت تعمل نادلة فى فندق هيلتون ـ وأسفرت العلاقة عن حمل فى الحرام.. وكان ذلك فى فبراير ١٩٨٦ ولكنها لم تقدر على إجهاض نفسها بسبب مذهبها الكاثوليكى الصارم.. فراحت إلى أيرلندا لتضع طفلها.. وفى الوقت نفسه تلقى أبو هنداوى تعليمات من الموساد بتزوير أو تلفيق عمل من شأنه إغلاق السفارة السورية فى لندن رداً على إجراء مماثل اتخذته الحكومة البريطانية بإغلاق مكتب الموساد هناك.

وأعطى أبو هنداوى ابن عمه نزار مبلغ ١٠ آلاف دولار ليسلمها إلى مارى ميرفى.. مصاريف سفرها ومصاريف الولادة حتى تقنع أهلها بأن يتزوجها.. لكنه طلب منها ـ

حسب الخطة ـ أن تسافر إلى إسرائيل بدلاً من أيرلندا لتضع طفلها . . وأبلغها أن شخصاً ما سيقابلها في مطار هيثرو وهي في طريقها إلى تل أبيب ليعطيها لفافة ما عليها أن تحملها معها . . وفي المطار ـ وبعد أن ودع نزار الفتاة ـ تقدم منها عامل نظافة ـ وهو في الحقيقة أحد عملاء الموساد ـ وهو يحمل اللفافة وقال لها إنها تحتوي على أموال عليها تسليمها إلى مندوب منظمة التحرير في إسرائيل . . وإذا كان هناك ما يمنع ـ بسبب قوانين النقد البريطانية ـ من حملها معها . . فعليها أن تعيدها إلى نزار الذي كان لا يزال بالمطار . . على أن يحملها نزار إلى السفارة السورية كمكان آمن . . وهو ما حدث بالفعل . . فقد عادت اللفافة إلى نزار ومنه إلى السفارة السورية . . وفيما بعد ثبت أن اللفافة تحوي مادة شديدة الانفجار . . وهو ما جعل السفارة السورية متهمة بالتورط في مساندة الإرهاب دون أن تكون على علم بما جرى . . وقد سارعت مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء في ذلك الوقت بالتقاط الطعم والوقوع في الفخ . . وقطعت العلاقات مع سوريا . . وحكم علي أبو هنداوي ـ عميل الموساد الذي باعته الموساد ـ بالسجن ٤٥ سنة . . بعد إدانته بتهمة محاولة تفجير طائرة ركاب كان على متنها خطيبته التي لا تزال مقتنعة حتى الآن أنه كان يريد قتلها، والتخلص منها .

وقد أبرز القضية في الصحافة البريطانية ناشر صحيفة ديلي ميرور وهو روبرت ماكسويل . . وهو واحد من أهم وأخطر رجال الموساد في بريطانيا ولكنه أيضاً كان ضحية الموساد . . فقد قتلته الموساد وهو على اليخت الخاص به في جزر الكناري . . وحملوا جثمانه الذي وجدوه على الشاطئ إلى إسرائيل ودفن هناك على عجل ودون تشريح . . وكان سبب الخلاف هو أنه طالب الموساد برد المبالغ التي أنفقها على كثير من العمليات في لندن والتي كان يأخذها من صندوق معاشات التقاعد لموظفي ومحرري الصحيفة . . وعندما ماطلوه . . هدد بالخروج عنهم وفضحهم . . فكان أن قتلوه على هذا النحو الذي يعني أن الموساد قد أصابها سعار الدم وأنها لم تعد تعرف الفرق بين الأعداء والأصدقاء وأنها فقدت قواعدها الصارمة في حماية العملاء وعدم التخلص منهم مهما كانت الأسباب .

إن الكتاب يحاول إعادة الثقة في قوة الموساد . . وهناك شك في أنه نجح في ذلك . . لأنه نسب بطولات للموساد لا دليل حقيقي عليها . . ولكن حتى لو نجحت (الموساد)

فى ذلك.. فهى قد دفعت ثمن هذا النجاح غالياً باعترافها بأنها مستعدة أن تقتل وتذبح وتكشف وتسجن أكثر الناس وفاء له.. ومن ثم فالخسارة التى يقدمها الكتاب للموساد أكبر من المكسب المتوقع تحقيقه..

وفى كل الأحوال يستحق هذا الكتاب أن نقرأه.. فهو يكشف خطورة الموساد ونذالتها وأساليبها القذرة.. وهو يمنحنا فرصة على التدريب العقلى لفحص الأساطير والأكاذيب ومعرفة حدود الحقيقة فى الخيال وذلك بقياس الأدلة المعلنة.. والوقائع المعروفة.. وهو يقول لنا رسالة خطيرة هى أن انتهاء الحرب الساخنة بين العرب وإسرائيل لا يعنى استقرار السلام وإنما يعنى أن حرباً أخرى لا تزال مشتعلة هى الحرب الباردة التى تكون أجهزة المخابرات وأجهزة الإعلام وقودها الدائم.. وقبل ذلك كله وبعده هى المعرفة أولاً بأول سواء كانت هذه المعرفة فى الجاسوسية أو فى الجينات الوراثية.

وبعد هذه المقدمة التى طالت ندخل فى الكتاب..

عادل حمودة

القاهرة - صيف ١٩٩٩

على أن الأخطر من الانحرافات الأخلاقية

الانحرافات السياسية وجرائم القتل والتزوير والتجسس على الأصدقاء قبل الأعداء.. إن السفارة التي قال الرئيس بيل كلينتون لعشيقته مونيكا لوينسكي أنه يخشى تصنتها على مكالماته العاطفية معها هي السفارة الإسرائيلية في واشنطن..



فيما وراء الواجهة

حين ومض النور الأحمر في التليفون جانب السرير، نشط جهاز التسجيل الآلى للعمل، فى شقة فى باريس قرب ميدان «بومبيدو» فى الدائرة الرابعة. لقد قام بتوصيلة أسلاك الضوء خبير توصيلات فنى إسرائيلى، طار من تل أبيب لوضع جهاز التسجيل، حتى يزيل أى شكوك للجيران حول رنين جرس التليفون فى أوقات غير مناسبة في الليل. كان الفني من وحدة الاتصالات الخاصة، التابعة للموساد، والتي تقوم بالتوصيلات السرِّية لتأمين المنازل التابعة لوكالة المخابرات الإسرائيلية. وكان المنزل فى باريس يشبه كل المنازل الأخرى، فزجاج الأبواب والنوافذ مضاد للقنابل، ومثل ألواح زجاج البيت الأبيض، فهى تستطيع أن تحرف أشعة الجسّاسة (وهى آلة كالرادار تجوب الفضاء وتتفحصه). توجد عشرات من هذه الشقق فى كل المدن الكبيرة فى العالم، إما مشتراة أو مستأجرة لمدد طويلة. ويظل الكثير منها شاغرا لفترات طويلة، جاهزاً للاستخدام حين تدعو الحاجة للقيام بإحدى العمليات.

حين وصل «موريس» باريس فى يونية ١٩٩٧ استخدم إحدى هذه الشقق. كان يتكلم الفرنسية بطلاقة وبلكنة وسط أوروبية خفيفة. لقد قابل جيرانُه، خلال الأعوام الماضية، آخرين مثله: رجالاً، وأحيانا نساء، يصلون دون سابق انذار، يقضون أسابيع

أو أشهراً، ثم يرحلون. ومثل أسلافه، وبطريقة لبقة، لم يشجع موريس أحدا للاهتمام به أو بعمله.

كان أحد ضباط الموساد المشرفين على العملاء الميدانيين. وهو شخص لا تتوقف عنده العين، ولقد قيل إنه يمكنه أن يمر فى شارع خالٍ دون أن يلاحظه أحد أو ينتبه إليه. لقد جُنِّد فى الوقت الرائع للموساد، حين كانت أسطورتها محتفظة بكمالها. وتحددت امكانياته خلال الخدمة العسكرية الاجبارية، فبعد أن أنهى تدريبه فى معسكر تدريب بحرى، نقل إلى مخابرات السلاح الجوى، فقد لوحظ استعداده لتعلم اللغات (كان يعرف الفرنسية والإنجليزية والألمانية)، مع مميزات أخرى، فقد كان ماهرا فى سد الفجوات فى أية حالة تحت الدراسة، واستنتاج الحقائق من التأمل فى الأشياء. ويدرك حدود الحدس المطلوب. بالاضافة إلى قدرته الطبيعية على استمالة الناس إليه، بالاقناع أو التملق، وإذا فشل فبالتهديد.

ومنذ تخرجه فى مدرسة التدريب للموساد سنة ١٩٨٢، عمل فى أوروبا وجنوب أفريقيا والشرق الأقصى على فترات مختلفة متنكرا كرجل أعمال أو كاتب جوال أو بائع. واستخدم عددا من الأسماء وسير حياة منتزعة من مكتبة الأسماء المنتحلة فى

الموساد، والآن هو موريس، ومرة أخرى رجل أعمال.

وخلال تنقلاته الوظيفية المختلفة، سمع عن عمليات التطهير فى المؤسسة (الاسم الذى يطلقونه على الموساد) اشاعات مروعة عن تيارات الحقت العار والتخريب بالجهاز، تغيرات على القمة، وكل مدير جديد يريد أن يحوز قصب السبق فى التغيير إلى الأفضل، لكن لا أحد منهم استطاع أن يوقف فقدان الروح المعنوية داخل الجهاز.

وتفاقم الأمر حين تولى «بنيامين نتانياهو» رئاسة الوزراء، وهو أصغر رئيس وزراء فى تاريخ إسرائيل. رجل ذو خلفية مخابراتية معروفة، وكان من المفترض أن يعرف كيف تسير الأمور داخل المؤسسة، من يُصفَّى، وإلى أى مدى يجب أن يذهب. ولكن، بدلا عن ذلك، أدهش نتانياهو ضباط المخابرات المخضرمين بتدخله فى التفاصيل العملية الدقيقة.

وفُسّر هذا فى البداية، بغيرة غير ضرورية، وأنّ للغربال الجديد شدة، فقد كان يحدِّق فى كل خزانة ليتأكد أن لا أسرار هناك خافية عليه.

لكن الأمور أصبحت مزعجة، إذ لم يقتصر الأمر عليه، بل أن زوجته سارة تريد أن تحدق أيضاً وراء الواجهة فى عالم إسرائيل المخابراتى. فقد دعت كبار ضباط الموساد لزيارتها فى البيت والإجابة على اسئلتها، زاعمة أنها تتبع خط «هيلارى كلينتون» فى اهتمامها بالمخابرات المركزية الأمريكية.

وترددت فى الممرات الرتيبة لمبنى إدارة الموساد فى تل أبيب، أصداء الهمسات الفضائحية فى طلب سارة نتنياهو رؤية النبذات النفسية المكتوبة عن زعماء العالم الذين تزورهم او تُدعى عندهم هى وزوجها. وسألت، خصوصا، عن نشاطات الرئيس «بل كلنتون» الجنسية، كما طلبت مراجعة ملفات السفارات الإسرائيلية التى قد تقيم فيها أثناء رحلاتها، مظهرة اهتماما بنظافة المطابخ وعدد المرات التى تغير فيها أغطية الأسرة فى أجنحة الضيوف.

وقد وضّح لها ضباط الموساد، المندهشون من طلباتها، أن الحصول على مثل هذه المعلومات ليس من اختصاص من يجمع المعلومات لديهم.

لقد أبعد بعض المجربين فى المؤسسة عن تيار الأحداث الرئيسى للمخابرات،

وأعطوا مسؤوليات عن عمليات صغيرة لا تتطلب أكثر من ملء أوراق لن تُقرأ في أغلب الأحوال. وحين أدركوا أن وظيفتهم أصابها الركود، استقالوا، وهم الآن منتشرون في أنحاء إسرائيل، يُشغلون أنفسهم بالقراءة، خاصة في التاريخ، في محاولة للوصول إلى حقيقة أنهم أيضا كانوا رجال الأمس.

كل ذلك، جعل «موريس» سعيدا بأنه في الميدان ثانية خارج تل أبيب. إن العملية التي أحضرته إلى باريس، تقدم له فرصة أخرى بأنه موظف حريص ومنظم وقادر على تقديم ما توقعه. العمل سهل نسبيا في هذه العملية: فلا يوجد هناك خطر جسدى حقيقي، ربما خطر البلبلة التي ستنتج لو اكتشفت السلطات الفرنسية الأمر. لكن لن يتبع ذلك سوى الترحيل بهدوء.

كان السفير الإسرائيلي يعرف أن «موريس» في باريس، لكنه لا يعرف سبب وجوده. وتلك خطوة عملية ذكية، فإذا سارت الأمور بشكل خاطئ، فيمكنه تقديم الحجة بجهله بالموضوع.

كانت مهمة «موريس» تجنيد أحد العملاء كمخبر. ويعرف هذا في اللغة السرية للموساد بأنه «مفاتحة هادئة» لإغراء أحد الجنسيات الأجنبية. بعد شهرين من العمل الصبور، رأى «موريس» إنه قريب من النجاح.

كان هدفه هو «هنرى بول»، مساعد المشرف على فندق «ريتز» في المدينة، وسائق الضيوف المشهورين في الفندق.

كان من بين هؤلاء الضيوف «جوناثان ايتكن». الوزير في حكومة المحافظين السابقة في بريطانيا، الذى كانت لديه مسؤولية خاصة في تخطيط مبيعات السلاح، وأقامة جسور اتصال مع تجار السلاح في الشرق الأوسط، مما دعى البرنامج البحثي التليفزيوني «عالم في تفاعل» إلى الحديث عن الموضوع، وجعل جريدة «الجارديان» تنشر تقارير شديدة الخطورة عن علاقته برجال ليس من المعتاد أن يكونوا في رفقة وزراء الحكومة. ورفع «ايتكن» دعوى بتهمة التشهير. ووصلت القضية إلى موقف حرج بعد أن ثار سؤال عن الذى دفع فاتورة إقامته في الفندق حينما قابل عملاءه العرب. وأقسم في المحكمة أن زوجته هي التي تحملت التكاليف.

وقامت الموساد برشوة بعض الباحثين الممثلين للمتهم - عن طريق طرف ثالث - فأكدوا أن زوجة «ايتكن» لم تكن في باريس، وانتكست القضية. ودمرت الموساد الرجل الذى كانت تعتبر نشاطاته تهديدا لإسرائيل. ولكن الفندق بقى مكان لقاء سماسرة الشرق الأوسط وعملائهم الأوروبيين.

وقررت الموساد أن يكون لها مخبر في الفندق، يكون قادرا علي تزويدها بالتقارير عن نشاطات هؤلاء. فحصلت علي قائمة موظفى الفندق عن طريق التسلل لنظام كمبيوتر فندق ريتز. ولكن لم يبد أن أحداً من موظفي الإدارة الكبار يصلح للعمل، أما الموظفون الصغار فلم يكن بإمكانهم الاتصال بالضيوف بسهولة من أجل العمل المطلوب. ولكن «هنرى بول» بحكم مسؤوليته عن الأمن، كانت كل منطقة في الفندق مفتوحة أمامه. ان مفتاح كل الاقفال الذى لديه يسمح له بالدخول حتى إلى مبنى خزائن الودائع. ولن يثار أى سؤال إذا طلب صورة من فاتورة شخص ما، ولن ترتفع الحواجب دهشة لو طلب سجل مكالمات تجار السلاح وعملائهم. ويستطيع معرفة المرأة التى اختارها التاجر بحرص لتكون وسيطة الاتصال. وكسائق للشخصيات المهمة، فهو في موقع ممتاز، للاصغاء إلى أحاديثهم، ومشاهدة تصرفاتهم، ومعرفة الأماكن التى يذهبون إليها، ومن يقابلون. وكانت الخطوة التالية، اعداد صورة نفسية عن بول، ولمحة عن حياته. وبعد عمل استمر عدة أسابيع، كان أحد العملاء في باريس قد عرف كل شيء عن حياته، متخفياً تحت اسم وظائف عدة: كموظف شركة تأمين، أو متخصص في بيع التليفونات.

عرف إنه أعزب وليست له علاقات نسائية دائمة، ويعيش في شقة أجرتها منخفضة، ويقود عربة صغيرة لكنه يحب العربات السريعة وسباق الدراجات النارية التى كان يشارك في أحدها. وتحدث موظفو الفندق عن حبه للشراب. وهناك اشارات إنه من وقت لآخر يستغل خدمات مركب صيد غالية لخدمة بعض ضيوف الفندق.

وقام بتقييم هذه المعلومات أحد علماء النفس التابعين للموساد، الذى قرر أن لدى هنرى بول إحساس متأصل بأنه معرض للهجوم، وأوصى بأن الضغط المتواصل والمتزايد عليه باطراد، مع الوعد بمكافأة مادية حقيقية لتغطية مطالبه الاجتماعية، هو الطريق الأفضل لتجنيده. وقد تطول العملية فهى تحتاج للصبر والمهارة، وتقرر ارسال

«موريس» إلى باريس لمساعدة العميل المقيم هناك.

واتبع «موريس» الارشادات المجربة كما فى كل عملية مشابهة للموساد. تعرف أولا على الفندق والبيئة المحيطة عبر عدة زيارات، واستطاع أن يحدد بسرعة شخصية «هنرى بول»، رجل بعضلات يسير مزهوا. مما يوضح بجلاء إنه لا يبحث عن رضاء أحد.

ولاحظ «موريس» العلاقة الغريبة بين بول والمصورين المتمركزين أمام الفندق، والمستعدين لالتقاط صور الضيوف المشهورين والأغنياء الذين تسعى وراءهم الأنباء. وكان بول، من وقت لآخر، يأمرهم بالانصراف، وعادة ما يفعلون، ولكنهم كانوا يراوغونه، فيدورون حول الفندق بدراجاتهم النارية ثم يعودون. وخلال هذه الجولات القصيرة، كان «بول» يخرج أحيانا من الباب المخصص للموظفين، ويشاركهم مزاحا وديا وهم يمرون. ولاحظ أيضا، أنه يتناول الشراب مع عدد منهم فى الليل، فى أحد البارات المحيطة بالفندق، التى يتنازل العاملون فى «ريتز» بالجلوس فيها بعد العمل.

وفى تقارير لاحقة إلى تل أبيب، وصف «موريس» بول بأن لديه القدرة على شرب كميات كبيرة من الكحول دون أن يبدو عليه السكر، وأكد أن صلاحيته لدور المخبر تفوق ما توحى به عاداته الشخصية، ومفاتيح الوصول إليه متاحة فيما يبدو، وهو موضع ثقة عالية.

وفى لحظة معينة. خلال مراقبته الحذرة، اكتشف موريس كيف يخون «بول» تلك الثقة التى أولاها له الفندق. كان يتسلم نقودا لقاء تفاصيل عن تحركات الضيوف. متيحا للمصورين احتلال مواقع لالتقاط صور المشاهيرمنهم.

ويتم تبادل المعلومات مقابل النقود إما فى أحد البارات أو فى شارع كامبون الضيق حيث يقع مدخل باب موظفى الفندق.

فى منتصف أغسطس، تركز التبادل حول الزيارة المتوقعة لديانا أميرة ويلز إلى فندق ريتز مع عشيقها الجديد «دودى الفايد» ابن صاحب الفندق، حيث سيقيمان فى الجناح الامبراطورى الخرافى.

وصدرت تعليمات مشددة لموظفى الفندق بالاحتفاظ بسرية تفاصيل وصول ديانا،

مع التهديد بالفصل الفوري لمن يخالف ذلك. ومع ذلك، استمر «بول» بالمخاطرة بوظيفته، حيث قدم تفاصيل عن الزيارة المرتقبة لعدد من المصورين الصحفيين، وتسلم مبالغ اضافية من كل منهم.

ورأى «موريس» ان «بول» ابتدأ أيضا يشرب بشراهة أكثر، وسمع الموظفين يشتكون من أن مساعد مسؤول الأمن أصبح أكثر صرامة: لقد فصل لتوه خادمة أحد الأدوار حين أمسكها متلبسة بسرقة قطعة صابون من غرفة نوم أحد الضيوف. كما قال العديد من موظفي الفندق أن بول يتعاطى الحبوب، وتساءلوا هل يفعل ذلك لمساعدته على السيطرة على مزاجه المتقلب. واتفق الجميع على أنه أصبح من الصعب التنبؤ بحالته، فمرة يبدو مرح المزاج، وأخرى بالكاد يتحكم في غضبه حول اشياء طفيفة متخيلة. وقرر «موريس» أن الوقت قد حان ليبدأ حركته.

وكان الاتصال الأول في بار «هارى» في شارع «دونو». وحين دخل «بول» كان موريس يرتشف كوكتيله. وبدأ العميل المقيم في باريس الحديث، ووافق بول على تناول الشراب بعدما أشار موريس أن لديه اصدقاء يقيمون في فندق «ريتز»، وأضاف بأنه دهش من كثرة النزلاء العرب الأثرياء.

كانت خبطة في الظلام، لكنها جاءت بنتيجة مذهلة. فقد أجاب «بول» أن كثيرا من العرب سفهاء ومتغطرسون، وأنهم يتوقعون منه أن يقفز إذا رفعوا اصبعا. وأن أسوأهم السعوديين. وأشار موريس إنه قد سمع أن الضيوف اليهود لا يقلون سوءاً. فلم يوافق «بول» وأصر أن اليهود ضيوف ممتازون.

وانتهت الأمسية باتفاق على لقاء ثان خلال أيام على عشاء في مطعم قرب «ريتز». وأثناء العشاء، أكد «بول» من خلال اجابته على اسئلة موريس التى بدت تلقائية، الكثير مما عرفه العميل الدائم. فتحدث عن غرامه بالعربات السريعة، وحبه لقيادة طائرة صغيرة، لكن من الصعب التمتع بهذه الهوايات بالمرتب الذى يتقاضاه.

إنها اللحظة المناسبة، وبدأ موريس عملية الضغط. إذا كانت النقود مشكلة، فهي مسألة ليست صعبة الحل، وأثار ذلك اهتمام «بول».

وسارت الأمور بعد ذلك بإيقاعها الخاص: لقد ألقى «موريس» الطعم، وبول كان

متشوقا لالتقاطه، الخطاف في المكان الصحيح، وما عليه إلا أن يلف الخيط بالمهارات التي اكتسبها في مدرسة تدريب الموساد.

أثناء الحديث، دس موريس الفكرة التي ستساعده، فقال إنه يعمل في شركة تبحث عن طرق لتحديث معلوماتها، وستدفع جيدا لمن يساعدونها. وهي حركة افتتاحية محببة لرجال الموساد في «المفاتحة الهادئة». بعدها، تبقى خطوة صغيرة لاخبار «بول» بأن كثيرا من ضيوف فندق ريتز يمتلكون المعلومات التي تهم شركته.

شعر «بول» بالقلق لاتخاذ الحديث هذا المجرى، وتردد. وكان على موريس ان يخطو الخطوة التالية قائلا إنه يفهم تحفظات بول، لكن من المعروف إنه يتقاضى نقودا عن المعلومات التي يقدمها للمصورين الصحفيين، فلماذا يضيّع الفرصة لكسب نقود حقيقية؟

وبمهارة «موريس» المؤكدة في تناول عرضه، مع طرح الكثير الذي يعرفه عن خلفية «بول»، وعن الحديث عن مطالب الحياة، والاقناع، مع جرعة اساسية من الضغط، كان ذلك سيؤثر في «بول». وسيدرك آنذاك، دون حتى أن يسأل، ان الرجل الجالس أمامه ضابط مخابرات أو على الأقل يريد تجنيده لخدمة ما. ربما ذلك هو السبب الذي جعل بول يوافق. ووفق تحليل أحد رجال المخابرات الإسرائيلية الذي كان على علم بالقضية «لقد واجه بول الأمر بصراحة. هل يُطلب منه أن يتجسس؟ ما الثمن إذن؟ بهذه البساطة دون مراوغة أو خداع»؟ ما الثمن؟ ومن هم الذين يعمل لحسابهم؟ وكان على «موريس» ان يقرر في تلك اللحظة: هل يخبره بأنه يعمل لحساب الموساد؟ لا يوجد سوابق لمثل هذا الأمر، فكل هدف، عادة، يختلف عن الآخر، لكن بول قد وقع. وعليه أن يخبره بالمطلوب منه: الحصول على معلومات عن الضيوف، والتجسس على اجنحتهم، ومعرفة مع من يلهون. وستكون هناك مناقشة حول الدفع، مصحوبة باقتراح بفتح حساب في أحد البنوك السويسرية، أو الدفع نقدا لبول إذا لزم الأمر. وعليه أن يعطي الانطباع بأن لا مشكلة في هذه المسائل. وربما في تلك اللحظة يكشف لبول إنه يعمل لصالح الموساد. وكل ذلك يعتبر نموذجا لنهاية ناجحة لعملية «المفاتحة الهادئة».

كان «بول» - خائفا جدا مما طُلب منه ان يفعله - ليس الأمر مسألة ولاء للفندق، فهو

مثل غيره من العاملين، يعمل بسبب المرتب المرتفع نسبيا، والمنح الاضافية. ولكنه يخاف أن ينقلب الأمر عليه وينتهي إلى السجن لو عُرف إنه يتجسس على ضيوف الفندق.

لو ذهب إلى الشرطة، فماذا يمكن أن يفعلوا؟ ربما يعرفون بالفعل إنه مستهدف، وإذا رفض العرض فماذا يحدث إذن؟ لو علمت إدارة الفندق بخيانته لها، على الرغم من كل المميزات، بإعطائه معلومات إلى المصورين الصحفيين، (وقد كشف له موريس هذا السر) فسيطرد أو قد يقدم إلى المحاكمة. وبدا، في أواخر أغسطس سنة ١٩٩٧، ان لا مخرج له. استمر في الشراب وتعاطي الحبوب، وبدأ ينام نوما قلقا، ويستأسد على الموظفين الأصغر. كان رجلا يتأرجح على الحافة.

وواصل «موريس» الضغط. ورتب أن يكون في البار حيث يشرب بول بعد الانتهاء من العمل. كما أن وجود العميل الدائم يذكره بما يجب أن يفعله. وواظب «موريس» على زيارة الفندق، وتناول الشراب في باراته، والغداء في مطاعمه، والقهوة في قاعاته. وبدا «لبول» إنه أصبح ظلا شخصيا له. وشكل كل ذلك ضغطا إضافيا عليه، يذكره بأن لا مهرب هناك.

وزاد الضغط الزيارة المتوقعة لديانا ودودى الفايد. وعُيّن «بول» مسؤولا عن أمنهما في الفندق، وبصفة خاصة ابعاد الصحفيين، في الوقت الذى يتصل به هؤلاء على تليفونه الخلوى باحثين عن معلومات عن الزيارة، وعرض كميات كبيرة من النقود لتزويدهم بالتفاصيل. والخضوع للاغراء كان ضغطا اضافيا عليه، كان هناك ضغط في كل مكان يتجه إليه.

ورتب «بول» أن ينهي كل ذلك. كانت له عقلية حلالة للمشاكل. كان يتناول حبوبا ضد الاكتئاب، وحبوبا منومة، وحبوبا منشطة لتساعده على القيام بعمله. هذا الخليط من الحبوب زاد توتره وعدم مقدرته على اتخاذ قرارات مقبولة.

الوميض، الذى يدل على مكالمة تليفونية، والذى ايقظ «موريس»، كان توقيته على جهاز التسجيل ١:٥٨ صباح الأحد ٣١ أغسطس سنة ١٩٩٧. كان المتكلم يعمل في شرطة حوادث باريس، وجندته الموساد قبل سنوات كمخبر غير يهودى، يقع بالنسبة لاتصالات «موريس» في ادنى السلم.

ـ المهم، حادثة المرور التى أخبره عنها الرجل، صدمت موريس. لقد وقعت منذ أقل من ساعة، حين اصطدمت عربة مرسيدس بعمود اسمنتي في نفق في منطقة «الما»، سيئة السمعة بالنسبة للحوادث في المدينة.

وكان القتلى، ديانا أميرة ويلز، والدة ولي العهد ملك انجلترا، ودودى الفايد ابن محمد الفايد المصرى وصاحب محلات هارولد، وهنرى بول، وجرح حارسهما جراحا خطيرة.

بعد ساعات من الحادث، عاد «موريس» إلى تل أبيب، تاركا اسئلة ستظل بلا اجابات.

ما الدور الذى لعبته ضغوطه في الحادث؟ هل فقد «بول» السيطرة على عربة المرسيدس، متسببا في اصطدامها بالعمود الثالث عشر في نفق «الما» لأنه لم يجد مخرجا لتحرير نفسه من قبضة الموساد؟ هل للضغط الذى مارسه موريس على بول علاقة بالمستوى المرتفع للمخدرات الذى وُجد فى دمه؟ هل حين مغادرته «ريتز» بركابه الثلاثة كان مشغول الذهن بالضغط الذى يُمارس عليه؟ هل كان ضحية لوكالة مخابرات قاسية بالاضافة إلى مسؤوليته عن الحادث المرعب؟

اسئلة ستظل تسمم عقل محمد الفايد الذى أعلن فى فبراير ١٩٩٨ «ان الأمر لم يكن حادثة. انى واثق من أعماق قلبى بذلك. ولن يظل الأمر مخفيا إلى الأبد».

بعد خمسة أشهر، أذاعت شركة التليفزيون البريطانية ITV وثيقة تزعم أن لهنرى بول علاقة بالمخابرات الفرنسية. ولم يكن له أى علاقة. وأشار البرنامج أيضا أن وكالة مخابرات مجهولة لها علاقة بحادثة الموت. وكانت هناك إشارات غامضة أن الوكالة تصرفت لأن المؤسسة البريطانية خافت أن يؤدى حب ديانا لدودى إلى «ردود فعل سياسية» لأنه مصرى.

وحتى اليوم، فإن تورط الموساد مع «هنرى بول» بقى سرا مصانا بالطريقة التى أرادته أن يبقى بها دائما، وفى الواقع، فالقليلون خارج الخدمة ربما تكون لديهم فكرة عن دور الموساد فى موت أشهر امرأة فى العالم.

وظل محمد الفايد يزعم، نتيجة لحملة التشويه التى تعرض لها فى وسائل الإعلام

الإنجليزية، ان هناك وكالة استخبارات مجهولة رتبت أمر قتل ابنه وديانا. وفي يولية سنة ١٩٩٨ أصدر صحفيان في مجلة تايم كتابا يتضمن فكرة أن «هنرى بول» قد تكون له علاقة بالمخابرات الفرنسية. ولم يقدم محمد الفايد ولا الصحفيان دليلا حاسما أن «هنرى بول» كان عميلا للمخابرات أو حتى مخبرا - ولم يفكر أحد منهم أن للموساد علاقة به.

وفي يولية ١٩٩٨، أرسل محمد الفايد في خطاب عددا من الأسئلة، لكل عضو في البرلمان الإنجليزي، يحثه فيه على إثارة هذه الأسئلة في مجلس العموم، وزعم «بأن هناك قوة تعمل على اعاقة الاجابة عن الأسئلة التي يريدها». وقد فُسِّر تصرفه بأنه رد فعل أب حزين يتخبط في كل اتجاه. وتستحق هذه الأسئلة التكرار، ليس لأنها تلقى الضوء على الدور الذى لعبته الموساد في الأسابيع الأخيرة في حياة «هنرى بول» ولكن لأنها توضح كيف اكتسبت المأساة كلها قوة دفع لن توقفها إلا الحقائق.

كتب «الفايد» أن هناك «مؤامرة» للتخلص من ديانا وابنه، وحاول ربط كل أنواع الأحداث المتفاوتة بأسئلته:

«لماذا استغرق الأمر ساعة وأربعين دقيقة لنقل الأميرة إلى المستشفى؟ لماذا عجز بعض المصورين عن تسليم الصور التى التقطوها؟ ولماذا اقتحم بيت مصور في لندن ممن يتعاملون مع المصورين عند فندق ريتز؟ ولماذا لم تقدم دوائر التليفزيون المغلقة لذلك الجزء من باريس أى شريط للحادث؟ ولماذا كانت كاميرات السرعة على الطريق خالية من الأفلام، وكاميرات المرور معطلة؟ ومن هو الشخص الذى جُهِّز ليكون مصورا في الوفد الصحفي خارج فندق ريتز؟ ومن هما المجهولان اللذان اختلطا بالجمهور ثم جلسا بعد ذلك في بار الفندق وطلبا مشروبهما بالإنجليزية، وكانا يراقبان ويصغيان بطريقة مُلفتة؟

ليس للموساد أى اهتمام بالعلاقة بين ديانا ودودى. اهتمامها الوحيد كان تجنيد «هنرى بول» كمرشد لها في فندق ريتز، بالنسبة للمصور الصحفي الغامض: في الماضي كانت الموساد تسمح لعملائها بالتنكر كصحفيين. ربما كان «موريس» يراقب الأمور من خارج الفندق. وربما كان الرجلان الغامضان لهما علاقة بالموساد. ان ذلك سيريح «محمد الفايد» لو كان حقيقيا.

وتزايد شعور بعض زملاء «موريس» بأن محاولة الايقاع بـ«هنرى بول»، قدمت دليلا اضافيا على انفلات السيطرة على الموساد، التى تقوم بتنفيذ عمليات طائشة دون أن تأخذ فى الحسبان العواقب المحتملة على المدى الطويل، بالنسبة لها، أو لإسرائيل، أو لعملية السلام فى الشرق الأوسط، وأخيرا بالنسبة لأقدم وأقرب حليف للدولة اليهودية، الولايات المتحدة الأمريكية. ويزعم بعض الضباط، ان الأمور أصبحت اسوأ منذ تولى بنيامين نتانياهو رئاسة الوزارة سنة ١٩٩٦.

وقد قال أحد الأعضاء المحنكين فى المخابرات الإسرائيلية: «الناس تنظر إلى الذين يعملون فى الموساد كسفاحين يتظاهرون بالوطنية.. وذلك يضر بنا وبالروح المعنوية، وسيكون له فى النهاية تأثير سئ على علاقة الموساد بالخدمات الأخرى».

وقال ضابط مخابرات آخر بالقسوة نفسها «يتصرف ناتانياهو وكأن الموساد جزء من تصوره الخاص لبلاط الملك آرثر، شىء جديد كل يوم، وإلا فإن الملل سيصيب فرسان طاولته المستديرة. وذلك هو سبب سير الأمور بشكل خاطئ فى الموساد. هناك حاجة لدق جرس الانذار قبل أن يفوت الوقت».

الدرس الأول الذى تعلمته، خلال ربع قرن من كتابتى حول أجهزة المخابرات، ان الخداع والتضليل هما عدتها الرئيسية، بالاضافة إلى التدمير والرشوة والابتزاز وأحيانا الاغتيال. ويتدرب العملاء على الكذب واستغلال الصداقة، إنهم على عكس المثل القائل: «السادة الحقيقيون لا يقرأون بريد بعضهم بعضا.»

أول مواجهة لى مع تصرفاتهم، كانت أثناء تحقيقى العديد من فضائح التجسس الكبيرة للحرب الباردة: نقل أسرار القنبلة الذرية على يد «كلاوس فوخس»، وفضيحة المجموعة البريطانية م١٥ وم١٦ على يد جى بيرجس، ودونالد ماكلين وكيم فيليبى. وكلهم مضرب المثل فى الخيانة والمخاتلة. وكنت أيضا من أوائل الكتاب الذى لفتوا الانتباه إلى هوس المخابرات المركزية الأمريكية بالتلاعب بالعقول والسيطرة عليها، وهو أمر أكدته المخابرات بعد عشر سنوات من صدور كتابى «رحلة إلى الجنون». فالإنكار هو الفن الأسود الذى اتقنته وكالات المخابرات منذ زمن طويل.

ومع ذلك، فللوصول إلى الحقيقة، قدم لى اثنان من ضباط المخابرات المحترفين مساعدة كبيرة: المرحوم والد زوجتى «يواقيم كرينر» الذى أدار شبكة م١٦ فى

«درسدن» أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية، و«بيل بكللى» الذى كان رئيس فرع المخابرات المركزية الأمريكية في بيروت.

كان الاثنان متشابهين جسديا: في الطول والنحافة والاناقة، مع حاسة لمواجهة الخطر في منتصف الطريق. عيونهما تفصح عن القليل: إذا لم تكن جزءاً من الاجابة، فأنت جزء من المشكلة. ثقافتهما مرعبة، ونقدهما للوكالات التي حدموا فيها على فترات، كان صارما.

وظل الاثنان يذكرانى بأن الكثير يمكن سماعه بما يسميه بيل «الثرثرة العابرة مع الآخرين»: مشادة قاتلة في زقاق بلا اسم، المشاركة الجماعية، الحادثة التي توقف أنفاسك، حين يُقتل عميل أو تنسف شبكة، عملية سرية كانت لا يمكن أن تتم خلال سنوات من بناء الجسور السياسية المكشوفة، اقتناص معلومة عادية تكمل صورة معينة لدى المخابرات. ويضيف يواقيم «أحيانا فإن كلمات قليلة تُقال عرضا، قد تلقى ضوءا على شيء ما.»

وكانا فخورين بأنهما أعضاء في «ثاني أقدم مهنة في التاريخ» كما يقول «يواقيم». لم يكونا صديقين فقط، بل اقنعاني بأن المخابرات السرية هي مفتاح الفهم الكامل للعلاقات الدولية، والسياسة العالمية، والدبلوماسية ـ وبالطبع الارهاب. ومن خلالهما أقمت الصلات مع عدد من وكالات المخابرات العسكرية والمدنية: المخابرات الألمانية، والفرنسية، والأمريكية، والكندية والبريطانية.

مات «يواقيم» وهو متقاعد، أما «بيل» فقد قتل على أيدى الأصوليين الإسلاميين الذين اختطفوه في بيروت، وفجروا مأساة الرهائن الغربيين في المدينة.

كما قابلت أيضا عددا من رجال المخابرات الإسرائيلية، الذين ساعدوني أول الأمر باعطائي معلومات عن خلفية محمد على أغا المتعصب التركي الذى حاول اغتيال البابا يوحنا في ميدان سانت بيتر في روما في مايو ١٩٨١. وقد رتب هذه الاتصالات «شيمون وايزنتال» صياد النازيين المشهور، ومصدر المعلومات القيم للموساد على مدى أربعين عاما. وبسبب شهرته وسمعته، مازالت الأبواب تفتح له على سعتها، خاصة في واشنطن.

وقد كنت هناك في مارس ١٩٨٦، حين تزودت بمعلومات أكثر عن العلاقة المتشابكة بين وكالتي المخابرات الأمريكية والإسرائيلية. كنت هناك لمقابلة «وليم كيسي» مدير وكالة المخابرات المركزية آنذاك، بخصوص البحث عن معلومات لكتابي «رحلة إلى الجنون»، الذي يتناول في جزء منه موت «بيل بكلي».

وعلى الرغم من البدلة أنيقة التفصيل، فقد كان كيسي يمشي وكأنه يجر قدميه ووجهه الملغد شاحبا، وتحيط عينيه هالات حمراء. كنا نجلس في أحد نوادي واشنطن وبدا وكأن حيويته الخارجية قد نفدت بعد خمس سنوات من ادارته لوكالة المخابرات المركزية.

وحول مشروب كنا نحتسيه أكد شروطه للقاء. لا كتابة ملاحظات، لا أشرطة تسجيل. وكل ما يقوله سيكون مجرد خلفية. ثم قدم لي ورقة مطبوع عليها تفاصيل سيرته الذاتية. ولد في ١٣ مارس سنة ١٩١٣، وتخرج في جامعة سانت جون سنة ١٩٣٧ في القانون، وكلف للخدمة في احتياطي البحرية الأمريكية سنة ١٩٤٣، ونقل خلال شهور إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية التي كانت نواة المخابرات المركزية الأمريكية. وفي سنة ١٩٤٤ أصبح رئيس فرع المخابرات الخاصة OSS في أوروبا، ثم رئاسة لجنة الأمن وتبادل المعلومات (٧١-٧٣)، ثم أصبح في تتابع سريع وكيل وزارة الاقتصاد الخارجي (٧٣-٧٤)، ورئيس البنك الأمريكي للاستيراد والتصدير (٧٤-٧٦)، وعضو اللجنة الاستشارية للرئيس للمخابرات الأجنبية (٧٦-٧٧)، وفي سنة ١٩٨٠ أصبح مدير العملية الانتخابية الناجحة للرئيس ريجان، وبعد سنة في ٢٨ يناير سنة ١٩٨٨ عينه «ريجان» مديرا للمخابرات المركزية الأمريكية، وهو الرجل الثالث عشر الذى يتولى أقوى المكاتب قوة في هيئة الاستخبارات في الولايات المتحدة.

وضع الورقة ثانية في جيبه، وجلس مترقبا ومنتظراً أول اسئلتي: «ما الذى يمكن أن تقوله عن «بيل بكلي» الذى اختُطف تقريبا منذ سنتين - في ١٦ مارس ٨٤ - في بيروت ثم قتل. أريد أن أعرف الجهود التي بذلتها المخابرات الأمريكية لانقاذ حياته. لقد أمضيت فترة في الشرق الأوسط وإسرائيل أحاول ربط أجزاء الموضوع.»

قاطعني قائلا: هل تحدثت إلى «ادموني» أو أحد من رجاله؟

كان «ناعوم ادموني» قد أصبح رئيسا للموساد سنة ١٩٨٢ . وكانت سمعته في حفلات السفارة في تل أبيب بأنه عنيد وفظ . ووصفه كيسي «بأنه يهودي يود الفوز في مسابقة للتبول في ليلة ممطرة». والمؤكد إنه من مواليد القدس سنة ١٩٢٩ ، ابن لعائلة من الطبقة المتوسطة، مهاجرة من بولندا. تلقى تعليمه في «جيمنازيوم ريهافيا»، وتميز بمهارات في علم اللغة أهلته ليكون ضابط مخابرات في حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨ .

وعلق كيسي «بأنه يستطيع أن يفهم نصف دستة من اللغات».

بعد ذلك، درس «أدموني» العلاقات الدولية في «بيركلي»، وقام بتدريسها في مدرسة تدريب الموساد في ضواحي تل أبيب . كما عمل متخفيا في أثيوبيا وباريس وواشنطن، وتعامل عن قرب مع سلفي كيسي: ريتشارد هيلمز ووليم كولبي. وقد ساعدته هذه الوظائف أن يكون موظفا مخابراتيا ناعم الحديث، وحين أصبح رئيسا للموساد فإنه حسب قول «كيسي»: «أدار سفينة منضبطة، ولحبه للحياة الاجتماعية، فقد كان مولعا بالنساء بالضبط مثل ولعه بما يهم إسرائيل.»

كانت الصورة المختصرة التي رسمها «كيسي» لأدموني تقول إنه رجل عملي «تسلق سلم الوظائف بسبب مهاراته في تجنب ما يكدر أو يحرج رؤساءه».

وأضاف «لا أحد يدهشك مثل إنسان تعتبره صديقا ويتخلى عنك. في الوقت الذي عرفنا فيه أن «ادموني» لن يفعل شيئا، كان «بيل بكلي» قد مات. تذكر كيف كانت الأمور هناك آنذاك؟ مذبحة لحوالي ألف من الفلسطينيين في معسكرين للاجئين، قامت القوات المسيحية بقتلهم، وأشرف اليهود على ذلك. والحقيقة أن «أدموني» كان على وفاق مع ذلك السفاح «الجميل.» .

وكان بشير الجميل زعيما للكتائب ثم أصبح رئيسا للبنان.

«كنا نوجه «الجميل» أيضا، لكني لم أثق بهذا الوقح قط. وكان ادموني يعمل معه طوال الوقت الذى كان يعذب فيه «بكلي». ولم نكن نعرف المكان المحتجز فيه في بيروت. وطلبنا من «ادموني» أن يكتشف المكان. فقال: لا مشكلة. وانتظرنا وانتظرنا. وأرسلنا خيرة رجالنا للتعاون مع الموساد، وقلنا ان النقود ليست مشكلة.

وظل «أدموني» يقول «أوكي: لقد فهمت».

وارتشف كيسي بعض الماء، وكانت كلماته التالية باهتة، مثل رئيس المحلفين يسلم قرار الحكم. «بعد ذلك، حاول ادموني ان يوهمنا ان منظمة التحرير الفلسطينية وراء الاختطاف. وكنا نعلم أن الإسرائيليين جاهزون دوما للوم «ياسر عرفات» على كل شيء. في البداية لم يصدق رجالنا، لكنه كان منطقيا، ونجح في ذلك. وفي الوقت الذي عرفنا إنه ليس عرفات، كان الوقت قد فات. والذي لم نكن نعرفه إن الموساد قد لعبت دوراً قذرا - بتزويدها حزب الله بالأسلحة لقتل المسيحيين. في الوقت التي تزيد فيه من تسليح المسيحيين لقتل الفلسطينيين». إن تلميحات كيسي تفيد. بأن المخابرات المركزية الأمريكية تعتقد أن ما حدث «لبيل بكلي»، هو أن إسرائيل عمدا لم تفعل شيئا لانقاذه أملا في لوم منظمة التحرير، واحباط مساعي عرفات لكسب تعاطف واشنطن، مما أدى إلى برود العلاقات بين وكالتين للمخابرات من المفروض انهما صديقتان.

وأوضح «كيسي» ان هناك جانباً آخر من الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل غير تزويدها بالأموال، ومظاهر التضامن اليهودي - الأمريكي، في أنها حولت الدولة اليهودية إلى قوة اقليمية كبرى خوفا من العدو العربي.

وقبل أن نفترق، أضاف فكرة أخيرة «الأمة تنشيء وكالة المخابرات التي تحتاجها. فأمريكا تعتمد على الخبرة التكنولوجية لأننا نهتم بالاكتشاف، أكثر من السيطرة الخفية. الإسرائيليون يتصرفون بشكل مختلف، وخاصة الموساد، التي تُساوي بين أفعالها وبقاء الدولة».

هذا الموقف جعل الموساد لفترة طويلة محصنة ضدً النقد الدقيق. ولكن، خلال سنتين من البحث لأجل هذا الكتاب فإن سلسلة من الأخطاء - والفضائح أحيانا - أقحمت الوكالة في وعي الجمهور الإسرائيلي. فألقيت الأسئلة، وحين لم تجد اجابات شافية، بدأت الثقوب تظهر في درع الجسد الواقي. وبدت الموساد مترهلة أمام العالم الخارجي.

وتحدثت إلى أكثر من مئة رجل. بعضهم خدم مباشرة والآخر بشكل غير مباشر في المخابرات الإسرائيلية ووكالات مخابرات أخرى. وحثّني الكثيرون أن أركز على

الأحداث القريبة، وان يُستخدم الماضى لتصوير أحداث لها مساس بدور الموساد فى الحدود الحالية الفاصلة بين التجسس وجمع المعلومات، كثير من اللقاءات كانت مع أناس لم يسبق لهم الادلاء بأحاديث، ولا يوجد مبرر يعطى تفسيرا مريحا للطريقة التى تصرفوا بها، هم أو غيرهم. ولكن الكثرين كانوا صرحاء بشكل يبعث على الدهشة. وإن رفض معظمهم ذكر اسمائهم. أما بالنسبة لمن يعملون فى الموساد، فإن القانون الإسرائيلى يمنعهم من ذكر اسمائهم دون إذن. وطلبت بعض المصادر غير الإسرائيلية عدم ذكر اسمها، ولبيت رغبتهم.

ومن خلال جداول تنظيمية حاولت بعض الصحف تجميع أجزاء معينة ونشرها، إلا أن كثيرا من المصادر ظلت مجهولة. فهؤلاء مازالوا يأخذون الخفاء بجدية، بينما البعض رغب فى أن يُعرف فى هذه الصفحات باسم مستعار أو بالاسم الأول. وذلك لا يجعل من شهاداتهم أقل صلاحية. إن دوافعهم الشخصية فى كسر الصمت قد تكون متعددة: الحاجة لتأمين موقعهم فى التاريخ، أو الرغبة فى تبرير أعمالهم، أو حكايات رجال عجائز، أو حتى تكفيرا عن ذنوبهم. والشىء نفسه يمكن قوله عمن وافقوا على ذكر أسمائهم.

ويبقى أن الدافع الأكبر الذى جعلهم يكسرون الصمت هو خوفهم الحقيقى والأصيل، ان المؤسسة التى خدموها بفخر، تتزايد الأخطار عليها من الداخل - والطريقة الوحيدة لانقاذها هي الكشف عما تحقق في الماضي وما يحدث اليوم. ولكي نفهم ذلك، نحتاج إلى معرفة كيف ولماذا انشئت.

في هذه الجمعة من سبتمبر سنة ١٩٢٩ كان الأمر مختلفا.

فقد حث الحاخامات أكبر عدد من الناس للتجمع في صلاة عامة، لاظهار تصميمهم على حقهم في الصلاة. لم يكن الأمر تعبيرا عن ايمانهم فقط، بل اشارة واضحة لصهيونيتهم، وتذكيرا للسكان العرب، الذين يفوقونهم عددا بكثير، بأنهم لن يخافوا.

الفصل الثاني

قبل البداية

يتدفق المخلصون، منذ الفجر، على أقدس الحوائط فى العالم، الأثر الوحيد الباقى من هيكل «هيرود» الثانى فى القدس، حائط المبكى. الصغير والكبير، النحيف والبدين، الملتحى والأجرد، جميعهم جاءوا عبر شوارع المدينة الضيقة، أو من خارج أسوار المدينة. موظفون مع رعاة من التلال خارج المدينة، محامون شبان يسيرون بفخر مع رجال فى أواخر أيامهم، مدرسون من الأحياء الدينية كتفا إلى كتف مع أصحاب الدكاكين، جاءوا من أماكن بعيدة، من حيفا وتل أبيب، ومن القرى المحيطة ببحر الجليل.

والجميع يرتدون الزىّ الأسود، ويحملون كتاب الصلوات، يقفون أمام الحائط المرتفع، يتلون أجزاء من الكتاب المقدس.

كان اليهود يفعلون ذلك عبر القرون، لكن فى هذه الجمعة من سبتمبر سنة ١٩٢٩ كان الأمر مختلفا. فقد حث الحاخامات أكبر عدد من الناس للتجمع فى صلاة عامة، لاظهار تصميمهم على حقهم فى الصلاة. لم يكن الأمر تعبيرا عن ايمانهم فقط، بل اشارة واضحة لصهيونيتهم، وتذكيرا للسكان العرب، الذين يفوقونهم عددا بكثير، بأنهم لن يخافوا.

كانت الإشاعات قد انتشرت في الأشهر الأخيرة، بأن المسلمين ازداد غضبهم مما يرونه من التوسع الصهيوني في البلاد. وقد بدأت مخاوفهم منذ إعلان وعد بلفور سنة ١٩١٧ والتزام بريطانيا باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وكان ذلك بالنسبة للعرب، أصحاب البلاد والذين يمكنهم تتبع جذورهم في هذا المكان إلى أزمان سحيقة، انتهاكاً لحقوقهم. فالأرض التي زرعوها لمئات السنين مهددة بأن تنتزعها منهم الصهيونية وحاميتها بريطانيا التي وصلت قواتها إلى البلاد في نهاية الحرب العالمية الأولى.

وحاول الإنجليز، كعادتهم في البلاد التي يحكمونها، ارضاء الطرفين. وازداد التوتر بين العرب واليهود. وقامت مناوشات ومنازعات دامية بينهم، كلما حاول اليهود اقامة معبد لهم أو ممارسة شعائرهم الدينية. لكن اليهود كانوا عنيدين في التمسك بحقوقهم الدينية عند حائط المبكى. فذلك جزء أساسي من عقيدتهم الدينية.

عند الظهر، كان هناك حوالي ألف من المصلين يرددون بصوت عال كلمات من الكتاب المقدس أمام الحائط الحجري الأصفر. وكان لارتفاع أصواتهم وانخفاضها ايقاع

يبعث على الهدوء.

وبسرعة مذهلة، انهالت عليهم القذائف من الحجارة والزجاجات المكسورة والصفائح المملوءة بالدبش، من مواقع مرتفعة تمركز فيها العرب حول حائط المبكى. ودوّى صوت الرصاص، الذى أطلقه رماة عرب من بنادق عتيقة. وسقط بعض اليهود الذين سحبهم معهم زملاؤهم الفارين. لم يقتل أحد، لكن الجرحى كانوا بالعشرات.

واجتمع قادة الطائفة اليهودية فى فلسطين تلك الليلة. وأدركوا أن تظاهرتهم المنظمة ذلك اليوم كان ينقصها شيء أساسي: معرفتهم مسبقا بالهجوم العربى. وقال أحد المتحدثين «يجب أن نتذكر ما جاء فى الكتاب المقدس. فمنذ الملك داود حتى الآن، وشعبنا يعتمد على الاستخبارات».

وحول فناجين القهوة التركية والفطائر الحلوة، وُضعت بذرة ما سيصبح فى المستقبل أكثر وكالات الاستخبار رعبا فى العالم الحديث: الموساد.

لكن انشاءها تأخر ربع قرن تقريبا على ذلك التاريخ.

وكل ما استطاعوا أن يقوموا به كخطوة عملية أولى، فى تلك الليلة الخريفية الدافئة، هو الدعوة إلى توفير النقود من الجميع من أجل ذلك العمل، على أن تستخدم هذه النقود لرشوة العرب من المتسامحين مع اليهود، لتزويدهم بالمعلومات المسبقة عن أى اعتداء عربى قادم. وفى الوقت نفسه يواصلون ممارسة صلواتهم عند حائط المبكى، ولن يركنوا إلى حماية الإنجليز، بل ستقوم بالدفاع عنهم ميلشيات «الهاجاناه» التى أنشئت حديثا.

وقد استطاعوا فى الأشهر التالية، عن طريق الانذار المبكر والهاجاناه، ان يحبطوا الاعتداءات العربية. وعاد الهدوء النسبى بين العرب واليهود خلال السنوات الخمس التالية.

فى تلك الفترة، استمر اليهود فى التوسع فى جهاز استخباراتهم، الذى لم يكن له اسم ولا قيادة. وكان العرب يُجندون فى الجهاز على أسس معينة: البائعون الجائلون فى الأحياء العربية، والأولاد الذين يمسحون الأحذية لضباط الانتداب البريطانى، والتلاميذ والمدرسون ورجال الأعمال، على أن يدفع لكل منهم مبلغ من المال.

ويستطيع أى يهودى ان يجند جاسوسا عربيا شريطة ان يشارك الآخرين بالمعلومات التى يحصل عليها. وبالتدريج بدأوا يحصلون على معلومات مهمة، ليس عن العرب فقط بل وعن نيات البريطانيين أيضا.

ومع بداية حكم هتلر لألمانيا سنة ١٩٣٣، بدأ خروج يهود ألمانيا إلى فلسطين. وبحلول سنة ١٩٣٦ كان هناك أكثر من ثلاثمئة ألف يهودى يسيرون فى رحلة طويلة عبر أوروبا ليصلوا إلى الأرض المقدسة معدمين. ووفرت لهم الطائفة اليهودية الطعام والمأوى، وخلال أشهر أصبح اليهود يشكلون ثلث السكان، وتصرف العرب كعادتهم: فمن فوق مئات المآذن كانت ترتفع الأصوات مطالبة بإلقاء الصهاينة فى البحر.

والأصوات الغاضبة نفسها، كانت ترتفع فى كل مجلس أو ديوان عربى يجتمع فيه الرجال:

يجب أن نمنع اليهود من الاستيلاء على بلادنا، ويجب وقف البريطانيين عن تدريبهم وتزويدهم بالسلاح.

وكان اليهود يقولون ان العكس هو الصحيح، فالبريطانيون يشجعون العرب على استعادة أرض اشتروها بطرق قانونية.

واستمر البريطانيون فى محاولة ترضية الطرفين، ولكنهم فشلوا، فاتسع نطاق الصراع سنة ١٩٣٦، وقامت ثورة عربية ضد الإنجليز واليهود معا. لكن الإنجليز قمعوها بشدة. وأدرك اليهود أن الأمر مسألة وقت قبل ان يقوم العرب بضربات جديدة.

وفى طول البلاد وعرضها، أسرع الشباب اليهود للانضمام إلى «الهاجاناه»، وأصبحوا نواة لجيش سرى هائل: صلب، ومدرب، وماكر كثعالب النقب.

واتسعت شبكة المخبرين العرب. وبدأ القسم السياسى فى الهاجاناه باثارة النزاع بين العرب عن طريق المعلومات المغلوطة. وقد اكتسب الرجال الذين أصبحوا بعد ذلك أسطورة المخابرات الإسرائيلية، مهاراتهم فى تلك الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية. وأصبحت الهاجاناه ـ التى تعنى الدفاع باللغة العبرية ـ أكثر القوات

المزودة بالمعلومات فى الأرض المقدسة.

وتسببت الحرب الثانية فى تجدد السلام القلق فى فلسطين. وأحس العرب واليهود بالمستقبل المتجهم الذى ينتظرهم فيما لو انتصر النازى.

ووصل إلى مسامع اليهود فى فلسطين ما يحدث لإخوانهم فى معسكرات الموت فى أوروبا: وأقيم اجتماع فى حيفا سنة ١٩٤٢ حضره بن جوريون واسحق رابين. وكان هناك اجماع على احضار اليهود الناجين من المذبحة إلى وطنهم الروحى فى أرض إسرائيل. ولم يستطع أحد تقدير عدد هؤلاء، لكن اتفق الجميع أن وصول هؤلاء اللاجئين سيشعل المواجهة مع العرب، وفى هذه المرة ستقف بريطانيا ضد اليهود، فقد أعلنت أنها لن تسمح للناجين بدخول فلسطين بعد هزيمة هتلر. بحجة ان ذلك سيخل بالتوازن السكانى. ووافق الجميع على اقتراح «بن جوريون» برفع مقدرة استخبارات الهاجاناه، بزيادة تجنيد المرشدين من العرب، وتكوين شبكة مضادة للتجسس مهمتها كشف اليهود المتعاونين مع الإنجليز، والبحث عن المعارضين. وعرفت هذه الوحدة باسم «ريجول هيجدى Rigul Hegdi» ووضعت تحت قيادة عسكرى فرنسى سابق يعمل كبائع جوال لتغطية حقيقة عمله.

وسرعان ما بدأ البحث عن النساء اللواتى يرافقن ضباط الانتداب، وأصحاب الدكاكين الذين يتاجرون مع الإنجليز، وأصحاب المقاهى الذين يرفهون عنهم. وكان الجناة يمثلون فى حلكة الليل أمام أعضاء محكمة الهاجاناه، ومن تثبت عليه التهمة يحكم عليه إما بالضرب المبرح، أو بالإعدام بطلقة رصاص فى رأسه فى أحد جبال فلسطين. وكان ذلك إرهاصاً بما ستكون عليه الموساد بعد ذلك.

بحلول سنة ١٩٤٥ كان هناك وحدة فى الهاجاناه وظيفتها الحصول على السلاح. وقام الجنود اليهود الذين قدموا مع الحلفاء بتهريب الكثير من الأسلحة الايطالية والألمانية التى تم الاستيلاء عليها بعد هزيمة رومل فى شمال أفريقيا، عبر صحراء سيناء إلى فلسطين. وتم ذلك بعربات لورى متداعية وقوافل الجمال، وأُخفيت الأسلحة فى كهوف فى البرية، كان أحدها قريبا من المكان الذى اكتشفت فيه بعد ذلك لفائف البحر الميت.

بعد هزيمة اليابان، وانتهاء الحرب سنة ١٩٤٥، انضم الجنود اليهود الذين خدموا

فى المخابرات العسكرية للحلفاء إلى الهاجاناه لتزويدها بخبراتهم . وكانت الأمور تتهيأ لتحقيق ما تنبأ به بن جوريون «حرب الاستقلال» .

وكان زناد الموقف احضار الناجين من المذبحة فى أوروبا فى عملية لم يسبق لها مثيل . جاءوا بالمئات أولاً ، ثم بالآلاف ، ثم بعشرات الآلاف ، بعضهم مازال يرتدى زى معسكرات الاعتقال الغريب ، ويحمل وشماً بالرقم الذى وضعه النازى لتمييزهم . جاءوا بالعربات وبالسكة الحديدية عبر البلقان فشواطئ إسرائيل على البحر المتوسط . واستأجرت أو اشترت وكالات الاغاثة اليهودية كل سفينة متاحة ، غالبا بأسعار باهظة ، ودفعت إلى الخدمة كل ما يمكنه الطفو من مراكب ، ولم يكن هناك اجلاء مثل هذا إلا إجلاء دنكرك سنة ١٩٤٠ .

وكان فى انتظار هؤلاء على الشاطئ بين حيفا وتل أبيب ، بعض الجنود البريطانيين الذين تم اجلاؤهم من دنكرك ، ليمنعوا نزول الناجين إلى الشاطئ حسب اوامر حكومتهم . ودارت مصادمات بشعة ، لكن كان هناك البعض ممن تذكر ما حدث له ، فغض البصر عن بعض المراكب وهى تصارع للوصول إلى الشاطئ .

وقرر «بن جوريون» ان عملية التعاطف هذه غير كافية ، ولابد من انهاء الانتداب . وذلك لن يتم إلا بالقوة . وبحلول عام ١٩٤٦ كان قد وحدً جهود الحركات السرية اليهودية المتفرقة . وأمر بشن حرب فدائية ضد بريطانيا والعرب ، وشجعته على ذلك الروح الظامئة للمستوطنين الأوائل .

وعرف كل قائد يهودى إنه قتال خطر ، فالحرب على جبهتين ستقلص مواردهم إلى الحد الأدنى ، وعواقب الفشل ستكون وخيمة . وأمر «بن جوريون» باستخدام أية وسيلة . واشتعلت الأمور بشكل مروع : كان الإنجليز يقتلون اليهود بمجرد الشك بتعاونهم مع الهاجاناه ، وكان اليهود يقتلون الجنود البريطانيين ويقذفون بالقنابل معسكراتهم ، وأحرقت قرى عربية ، كان صراعاً وحشياً وكأننا فى العصور الوسطى .

وكان موقف استخبارات الهاجاناه حاسما ، على الأقل بنشر المعلومات المغلوطة بين العرب والإنجليز بأن قواتهم تفوق بكثير إمكانية القضاء عليها . ووجد البريطانيون أنفسهم يطاردون عدوا كالسراب . وبدأت روحهم المعنوية تنهار .

وحاولت الولايات المتحدة التدخل. فحثت بريطانيا سنة ١٩٤٦ على السماح لمئة ألف يهودى بالدخول إلى فلسطين. ورفضت بريطانيا واستؤنف القتال الضارى. وأخيراء في فبراير ١٩٤٧، وافقت بريطانيا على انهاء انتدابها على فلسطين فى مايو ١٩٤٨، ومنذ ذلك التاريخ تقوم الأمم المتحدة بمعالجة المشاكل الناشئة عما يسمى بعد ذلك بدولة إسرائيل.

وأدرك «بن جوريون» أنه لابد لهم من الاستمرار في الاعتماد على الاستخبارات، لمواجهة الصراع الحاسم مع العرب لتأمين الدولة البازغة وحتى لا يقضى عليها في مهدها. فجمعوا معلومات حيوية عن القوة العسكرية للعرب وروحهم المعنوية. وتمكن الجواسيس اليهود، المزروعين في القاهرة وعمان من سرقة خطط الهجوم العسكرية للجيشين المصرى والأردنى. وحين بدأت حرب الاستقلال اليهودية، حقق الإسرائيليون انتصارات حربية مدهشة. واتضح لـ«بن جوريون» مع استمرار الحرب، ان النصر النهائي يعتمد على الفصل الواضح بين الطموحات العسكرية والسياسية. وحين جاء النصر سنة ١٩٤٩، لم يكن ذلك الفصل قد تم. وأدى ذلك إلى التنازع داخل وكالة الاستخبارات حول مسؤوليتها في وقت السلم. وتعامل بن جوريون مع المسألة بوضوحه المعتاد، وكرئيس. للوزراء، انشأ خمس وحدات للمخابرات للعمل في الداخل والخارج. فاقتدت الشعبة الخارجية بالمخابرات البريطانية والفرنسية اللتين وافقتا على التعاون مع المخابرات الإسرائيلية. كذلك تم الاتصال مع مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) في الولايات المتحدة، عبر رئيس شعبة التجسس المضاد في إيطاليا «جيمس انجلتون». وستلعب الروابط التى أقامها مع الإسرائيليين قليلى الخبرة دورا حاسما في المستقبل، في بناء الجسور بين وكالتى مخابرات البلدين.

وعلى الرغم من البداية الواعدة، فإن حلم «بن جوريون» في وكالة مخابرات موحدة تعمل بانسجام، انتهى بسبب مخاض أمة تكافح من أجل هوية متماسكة. وظل ثنى الذراع هو النظام اليومى، مادام وزراؤه وموظفوه الكبار يتصارعون من أجل القوة والمناصب. فالمصادمات على كل المستويات. فمن الذى يستطيع أن ينسق وكالة مخابرات متكاملة؟ من الذى سيقوّم المعلومات الأولية؟ ومن الذى يقوم بتجنيد الجواسيس؟ ومن الذى يقرأ تقاريرهم أولا؟ ومن الذى سيقوم بإيضاح تلك المعلومات

لقادة البلاد السياسيين؟

كان الصراع على ذلك قاسيا بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، وكل منهما تزعم أحقيتها في تولي العمليات في الخارج. وفي الوقت نفسه ظل الناس يموتون، على يد الإرهابيين العرب وقنابلهم وشراكهم. ومازالت القوات المصرية والأردنية والسورية واللبنانية تهدد الدولة الناشئة، ووراءهم ملايين العرب المنادون بالجهاد والحرب المقدسة. لم تولد أمة في التاريخ في مثل هذا الجو العدائي.

لقد كان لدى «بن جوريون» إحساس شبه ديني عن الطريقة التي ينظر فيها شعبه إليه لحمايتهم، بالسبيل نفسه الذي اتبعه قادة إسرائيل من قبل. لكنه يدرك إنه ليس نبيا. إنه محارب عنيد كسب حرب الاستقلال ضد عدو عربي يفوقه عشرين ضعفا. لم يكن هناك نصر كهذا. منذ قتل الصبي داود جولياث وطرد الفلسطينيين.

ومع ذلك، لم يذهب العدو بعد، أصبح أكثر مهارة وقسوة، يضرب بالليل كاللصوص، يقتل بلا ندم قبل أن يختفي.

ومرت أربع سنوات من المنافسة والمناكفة في الاجتماعات التي حضرها «بن جوريون» في محاولة لحل المشاكل وسط مؤسسة الاستخبارات. ورفضت وزارة الدفاع خطة لوزارة الخارجية بزرع جاسوس فرنسي في القاهرة، ورشحت رجلها للمهمة. والقي القبض على الضابط الصغير عديم الخبرة بالعمل الاستخباراتي على يد ضباط الأمن المصريين. كما اكتشف ان عملاء إسرائيل في أوروبا يعملون بالسوق السوداء لتمويل عملهم؛ لأنه لا توجد أموال كافية لتغطية نفقات أنشطتهم. وانتهت مسألة تجنيد قوة درزية في لبنان بسبب تنافس وكالات الاستخبار الإسرائيلية عن كيفية الاستفادة منهم. وتحطمت خطط عديدة بسبب الشك المتبادل، والطموح الفردي في كل مكان. وتصارعت كل الشخصيات القوية - وزير الخارجية، قائد الجيش، والسفراء - كل يحاول فرض سيطرته على الآخرين. واحد يريد التركيز على المعلومات السياسية والاقتصادية، وآخر يعلن أن على المخابرات أن تركز فقط على القوة العسكرية للعدو. سفير إسرائيل في فرنسا أصر بأن تدار المخابرات بالشكل الذي تصرفت فيه المقاومة الفرنسية في الحرب العالمية الثانية مع تعبئة كل يهودي في البلاد. سفير واشنطن أراد أن يحمي جواسيسه غطاء دبلوماسي، وان يندمجوا في

عمل السفارة الروتيني حتى يبقوا فوق الشبهات. وسفير إسرائيل في بوخارست أراد أن يعمل جواسيسه على خطوط المخابرات الروسية، ويكونوا قساة مثلها. سفير إسرائيل في الأرجنتين طالب أن يركز العملاء على كشف دور الكنيسة الكاثوليكية في مساعدة النازيين في الاستقرار في الأرجنتين. واستمع بن جوريون بصبر لكل اقتراح.

وأخيرا، في ٢ مارس سنة ١٩٥١، جمع رؤساء وحدات المخابرات الخمس في مكتبه، وأخبرهم أنه جمع نشاطات الاستخبارات الخارجية في وكالة جديدة تسمى «هاموساد لو تيوم ـ مؤسسة التنسيق»، وسيكون لها ميزانية أولية عشرين ألف جنيه، خمسة منها تنفق على «عمليات خاصة» بموافقته أولا، على أن يستخدم اسم «الموساد» في المعاملات العادية، وأن تتكون هيئتها من الشخصيات الموجودة في وكالات الاستخبارات الحالية، وستكون وزارة الخارجية، لأسباب إدارية وسياسية، هي المسؤولة عن الموساد. ويمكن أن تضم هيئتها كبار الضباط الممثلين للمنظمات الأخرى: الشين بيت، الأمن الداخلي، «أمان»، المخابرات العسكرية، استخبارات القوات الجوية، والقوات البحرية، لتزويد الموساد بالعملاء من أصحاب المميزات الخاصة لعملها، وفي حالة الخلاف يرفع الأمر إلى مكتب رئيس الوزراء.

وبفظاظته المعتادة، قال بن جوريون «أعطوا الموساد قائمة مشترياتكم، وستذهب وتحضر البضاعة، وليس من شأنكم معرفة من أين جاءت وكم دفع في سبيلها». وفي مفكرة أول رئيس للموساد «ريوفين شيلواح»، قال: إن بن جوريون قرر «ستعمل الموساد تحت إمرتي وحسب تعليماتي، وسترفع تقاريرها لي بصفة دائمة». لقد وضع الأساس، بعد ٢٨ سنة من من اجتماع تلك الزمرة من القادة اليهود في ليلة خريفية في سبتمبر سنة ١٩٢٩ لمناقشة الدور الحيوى للاستخبارات في منع الهجمات العربية، وليكون لنسلهم وكالة استخبارات، ستصبح الأكثر رعبا من أية وكالة استخبارات في العالم.

لم تكن الولادة سهلة. فقد أشرفت الموساد على حلقة تجسس يهودية في العراق، كانت تابعة للقسم السياسي في وزارة الدفاع الإسرائيلية. وكان الهدف الأول لهذه الحلقة، اختراق التشكيلات العليا للقوات العسكرية العراقية، وإدارة شبكة سرية

لتهجير يهود العراق إلى إسرائيل.

بعد تسعة أشهر من توقيع «بن جوريون» انشاء الموساد، سقطت هذه الشبكة بأيدى رجال الأمن العراقى. واعتقل عميلان إسرائيليان، مع العشرات من اليهود العراقيين والعرب بتهمة الرشوة لتسهيل عمليات الهروب، واتهم ٢٨ فردا بالتجسس.

وحكم على العميلين بالإعدام، وعلى ١٧ بالسجن مدى الحياة، وأطلق سراح الباقين رمزا للعدالة العراقية.

وقد أطلق سراح العميلين بعد تعذيبهما بشدة، فى مقابل مبلغ من المال وضع فى حساب وزير الداخلية العراقى فى أحد بنوك سويسرا.

ثم حلت بالموساد ضربة أخرى. فقد اكتشف ان الجاسوس «تيودور جروس» الذى كان يعمل فى إيطاليا تحت اشراف القسم السياسى، ثم انتقل ليعمل تحت اشراف الموساد. كان عميلا مزدوجا. فقد تلقى «آسر هاريل» مدير الشين - بيت (ادارة الأمن الداخلى فى إسرائيل)، دليلا لا يقبل الشك بأنه يتسلم نقودا من المصريين. فطار إلى روما، وأقنع «جروس» بالعودة إلى تل أبيب على وعد بأن يتولى منصبا رفيعا فى الشين - بيت، حيث حوكم سرا وأدين وحكم عليه بخمسة عشر عاما، ومات فى السجن.

واستقال «ريوفين شيلواح» مهزوما، وعُين بدلا منه «آسر هاريل» الذى ظل رئيسا للموساد لمدة أحد عشر عاما، وهى فترة لن تتكرر بعد ذلك.

لم يتأثر كبار ضباط الموساد كثيرا بالمظهر الجسدى «لهاريل» حين رحبوا به فى ذلك الصباح من سبتمبر سنة ١٩٥٢. كان طوله بالكاد أربعة أقدام و٨ بوصات، وأذناه كأذنى الأبريق، يتكلم العبرية بلكنة وسط أوروبية، فعائلته هاجرت إلى فلسطين من لاتفيا سنة ١٩٣٠، وتبدو ملابسه وكأنه نام بها.

كانت أولى كلماته لهم «لقد انتهى الماضى، لن تكون هناك اخطاء بعد اليوم، سنعمل للأمام معا، ولن نتحدث إلا مع أنفسنا». وفى اليوم ذاته، أعطى مثالا لما يعنيه: بعد الغداء، استدعى سائقه. وحين سأله الرجل إلى أين يذهب، أخبره بأن الهدف

سرى. ثم فصله من العمل، وقاد العربة بنفسه. وعاد بعلبة فطائر لضباطه. ووصلت الرسالة إلى الجميع: هو فقط الذى يوجه الأسئلة.

تلك كانت اللحظة المحددة التى حببته إلى رجاله المحيطين به. وبدأ يحثهم ويستثير حميتهم بطريقته الخاصة فى العمل. فسافر سرا إلى البلاد العربية المعادية لينظم شبكات الموساد بصفة شخصية، وكان يجرى مقابلة مع كل شخص يريد أن يلتحق بالخدمة، وكان يبحث عن أولئك الذين يشبهونه ولهم خلفية استيطانية فى كيبوتز.

قال لأحد رجال الدولة المتعصبين حين سأل عن سياسة الوكالة «مثل هؤلاء الناس يعرفون عدونا جيدا، رجال الكيبوتز يعيشون قرب العرب، ولقد تعلموا ليس فقط ان يفكروا مثلهم - بل ويفكروا بشكل أسرع».

كان صبره أسطوريا، وكذلك نوبات غضبه، واخلاصه لرجاله أصبح مضرب المثل. لكن كل أولئك البعيدين عن دائرته المقربة، نظروا إليه بعين الشك كانتهازى بلا مبدأ، فلم يكن يتعامل مع أشخاص يراهم متعصبين متظاهرين بالوطنية خاصة المتدينين. وبدأ يظهر كراهية متزايدة للأصوليين اليهود. وكان هناك عدد منهم فى حكومة بن جوريون، فلم يرضوا عنه وحاولوا البحث عن طريقة لإزاحته. لكن رئيس الموساد واسع الحيلة أكد قربه الدائم من رجل كيبوتز آخر، هو رئيس الوزراء. وساعده ان سجل الموساد كان يتحدث عن نفسه، فرجاله ساهموا فى نجاح المناوشات ضد المصريين فى سيناء، وكان له جواسيس فى كل عاصمة عربية يزودونه بتيار ثابت من المعلومات القيمة. كما قام بضربة موفقة أخرى، حين سافر إلى وشنطن سنة ١٩٥٤ لمقابلة «ألان دلاس» مدير المخابرات الأمريكية الجديد آنذاك، وأهدى له خنجرا محفورا عليه كلمات من سفر المزامير «حارس إسرائيل لا يهجع ولا ينام». فأجابه دلاس «يمكنك الاعتماد على يقظتى معك». وأقامت هذه الكلمات مشاركة فعالة بين الموساد والمخابرات المركزية الأميركية. ورتب «دلاس» للموساد الحصول على أحدث المعدات الخاصة بالتجسس: أجهزة تنصت واقتفاء الأثر، كاميرات للتصوير عن بعد، ومعدات مختلفة اعترف «هاريل» بأنه لم يعرف بوجودها أصلا. وأقام الرجلان خطا ساخنا بين وكالتيهما، من خلاله يستطيعان التحدث بأمان فى حالة الطوارئ.

وفى سنة ١٩٦١ أشرف «هاريل» على عملية احضار آلاف من اليهود المغاربة إلى

إسرائيل. وبعد سنة كان رئيس الموساد الذى لا يهجع فى السودان يساعد المتمردين الموالين لإسرائيل ضد الحكومة الشرعية. وفى العام ذاته ساعد الامبراطور هيلاسيلاسى فى قمع محاولة انقلابية ضده فى الحبشة، وكان الامبراطور حليفاً لإسرائيل منذ فترة طويلة.

وأصبح الأصوليون اليهود فى الوزارة أكثر صخبا، فهم يشتكون من أن «هاريل» قد أصبح بيروقراطيا لا يحتمل، وأن لا مبالاته بمشاعرهم الدينية قد ازدادت، وأن له تطلعاته الخاصة التى قد تصل إلى أعلى منصب فى البلاد. وتنبهت حواس «بن جوريون» الحذرة، وساد البرود علاقته «بهاريل» وبعدما كان مُطلق اليد فى تصرفاته، بدأ يطلب منه اطلاعه على أدق التفاصيل فى أية عملية. واستاء «هاريل» لكنه لم يقل شيئا، وتكشفت حملة الهمس ضده.

وتجمع الهمز والغمز ضده بعد اختفاء الطفل «يوسيل شوماخر» فى فبراير سنة ١٩٦٢. كان الطفل قد اختطفته جماعة يهودية اصولية متطرفة منذ سنتين من والديه. وكان لجد الطفل يد فى ذلك حيث أراد تربية الطفل حسب تقاليد جماعته الدينية المسماة «حراس المبكى». وقام البوليس بحملة ضخمة للبحث عن الطفل، وحين رفض الجد التعاون سجن. وجعل الأصوليون اليهود من الجد شهيدا، وتظاهروا بالآلاف رافعين شعارات تندد بـ«بن جوريون» وتصوره كالنازيين ورغم الإفراج عن الجد لأسباب صحية، إلا أن المظاهرات استمرت.

ونصح المستشارون «بن جوريون» بالتصرف وإلا فقد يسقط فى الانتخابات القادمة، والأسوأ أن المتعصبين اليهود قد يساعدون العرب ضده فى حرب قادمة. فأرسل «بن جوريون» إلى «هاريل» وطلب منه أن تبحث الموساد عن الطفل وتعثر عليه فى أقرب وقت.

واتبع رجال الموساد أقذر الوسائل، خاصة مع رجال الدين، لمعرفة مكان اختفاء الطفل. وبعد ثمانية شهور ونفقات بلغت مليون دولار عُثر على الطفل عند عائلة متدينة فى نيويورك، وتمت اعادته إلى والديه. وعلى الرغم من نجاح العملية، إلا أن «هاريل» واجه منافسا جديدا خطيرا يتمثل فى الجنرال «مئير أميت» رئيس المخابرات العسكرية الجديد، فقد فعل به ما فعله «هاريل» بسلفه، وشن ضده حملة نقد بسبب

عملية انقاذ الطفل.

وقال «أميت» القائد الميداني المحنك لصديقه بن جوريون رئيس الوزراء، ان «هاريل» قد بدد موارد الدولة، وإن عملية الانقاذ كلها تدل على رئيس مخابرات طالت مدته في عمله. ووافق «بن جوريون» متناسيا أنه هو الذى أمره بالبحث عن الطفل، واستقال «هاريل» فى ٢٥ مارس سنة ١٩٦٣، فى سن الخمسين. واغرورقت عيون الكبار بالدموع وهو يصافحهم مغادرا مقر الموساد، وأدرك الجميع أن هذه نهاية لمرحلة كاملة.

وبعد ساعات، كان رجل طويل نحيف بعينين كالصقر يخطو برشاقة عبر الأبواب: لقد أصبح «مئير أميت» مسؤولا. وعرف الجميع، دون أن يخبرهم أحد، أن تغييرات جذرية على وشك الحدوث.

وبعد ١٥ دقيقة من استقراره فوق كرسيه، استدعى رئيس الموساد الجديد رؤساء اقسامه. اصطفوا أمامه وبدأ يتفحصهم. ثم بصوت نشط طالما أصدر الكثير من أوامر الهجوم فى المعارك. بدأ الحديث:

لن تكون هناك عمليات لاستعادة أطفال ضائعين. ولا تدخل فوق الحد في الأمور السياسية. وسيحمى كل واحد منهم من النقد الخارجي، لكن لا أحد سيحمى وظائفهم لو خذلوه. وسيناضل من أجل الحصول على تمويل أكثر من ميزانية الدفاع لشراء أحدث المعدات وشد ازر كل مصادر المعلومات. ولكن ليس معنى ذلك تجاهل الميزة الوحيدة التى يضعها فوق كل شيء، وهى جمع المعلومات عن الطبيعة البشرية، فهو يريد أن يكون ذلك أعظم مهاراتهم. ورأى الضباط إنهم يعملون مع رجل بعيد النظر، يتطلع إلى عمل قد تظهر نتائجه بعد سنوات.

بعد تولى «مئير اميت» رئاسة الموساد بفترة وجيزة، جاء رجل يسمى «سلمان» إلى السفارة الإسرائيلية فى باريس بعرض مذهل. قال إنه يضمن تسليم طائرة ميج ٢١ الروسية. وهى أحدث المقاتلات الحربية سرية آنذاك. مقابل مليون دولار أمريكى. وختم حديثه إلى الدبلوماسى الإسرائيلى برجاء غريب «ارسلوا شخصا ما إلى بغداد، واتصلوا بهذا الرقم. واسألوا عن يوسف. وجهزوا نقودكم».

وأرسل الدبلوماسي تقريره إلى عميل الموساد الدائم في السفارة، وهو أحد الذين نجوا من عملية التطهير التي قام بها «مئير أميت» بعد تعيينه. وأرسل العميل التقرير إلى تل أبيب مع رقم التليفون الذي زودهم به «سلمان».

ومرت أيام، ومئير يزن الأمور ويحسب الاحتمالات. قد يكون سلمان محتالا ذكيا أو صاحب خيال جامح، أو حتى جزءاً من مكيدة عراقية للايقاع بعميل للموساد. هناك مخاطرة حقيقية في أن يفتضح أمر عملاء الموساد الذين يعملون تحت غطاء جيد في العراق، لكن الحصول على طائرة ميج ٢١ أمر لا يقاوم، فسرعتها وتسليحها وارتفاعها وكمية الوقود التي تحملها، وحركاتها في الالتفاف السريع، جعلت منها الطائرة الأولى المقاتلة في العالم العربي. ان قادة سلاح الجو الإسرائيلي على استعداد لدفع عدة ملايين من الدولارات لمجرد مخطط هندسي للميج ٢١، فما بالك بالطائرة ذاتها.

يقول مئير «اذهب إلى الفراش مفكرا، واستيقظ مفكرا. أفكر في الأمر في الحمام وعلى العشاء وفي كل دقيقة فراغ. إن التيقظ لأسلحة العدو المتقدمة له الأولوية عند أي جهاز للمخابرات، إن وضع اليد عليها أمر لا يحدث تقريبا.»

كانت الخطوة الأولى إرسال أحد العملاء إلى بغداد. واختار له «مئير» اسماً انجليزيا مستعارا: جورج باكون، «لا أحد يظن ان يهوديا يتخذ مثل هذا الاسم»، وسيسافر إلى بغداد كمدير مبيعات لشركة في لندن تسوق أجهزة أشعة X للمستشفيات.

وصل إلى بغداد على الخطوط الجوية العراقية، مع عدة عينات من الأجهزة. وأظهر مدى استيعابه للعمل ببيعه عدة أجهزة للمستشفيات.

في بداية الأسبوع الثاني لوجوده في بغداد، اتصل «باكون» برقم التليفون الذي زودهم به «سلمان». وكانت تقارير «باكون» إلى الموساد تحتوي على شروح واضحة: «اتصلت من تليفون في صالة الفندق، فذلك أقل خطرا من الاتصال من غرفتي فقد يكون التليفون مراقباً. وجاء الرد على الفور. سأل المتحدث بالفارسية من المتكلم؟ أجبت بالإنجليزية إني اعتذر، يبدو أني طلبت الرقم الخطأ. فسألني بالإنجليزية: من المتكلم؟ قلت: إني صديق ليوسف. هل هناك أحد بهذا الاسم؟ طلب مني الانتظار. فكرت ربما يتتبعون المكالمة، وان العملية فخ في النهاية. ثم جاء صوت مهذب جدا

يقول : أنا يوسف وسعيد باتصالكم . ثم سألنى : هل تعرف باريس ؟ وفكرت : وتمً الاتصال . »

ووافق باكون على لقاء فى أحد المقاهى فى بغداد ظهر اليوم التالى . فى الموعد المحدد ، تقدم منه شخص يبتسم قائلا إنه يوسف . كان شعره أبيض ووجهه كأنه محفور بعمق . وقدم العميل بعد ذلك تقريرا يصف اللحظة السريالية «قال يوسف كم هو سعيد لرؤيتي، كأني قريب طال انتظاره . ثم بدأ يتحدث عن الطقس وعن تردى الخدمة في المقاهي . وفكرت هأنذا وسط بلد معاد يتمني رجال أمنه قتلي لو أتيحت لهم الفرصة، اصغى إلي ثرثرة رجل عجوز . وقررت علي الفور بأن هذا الرجل كائناً من كان ، ومهما كانت علاقته مع «سلمان» في باريس، لا يمكن أن يكون ضابطا من وحدة التجسس المضاد فى العراق . وشعرت بالهدوء . أخبرته بأن اصدقائي مهتمين بالعرض الذى قدمه صديقه . أجاب : « سلمان ابن اختي يعمل فى باريس ساق في مقهي . كل السقاة الجيدون غادروا البلاد» . ثم استند علي الطاولة هامسا «لقد جئت بخصوص الميج . يمكنني أن أرتب الأمر لك ، ولكن ذلك سيكلفكم مليون دولار» .

شعر «باكون» بأن يوسف ليس كما يبدو عليه . هناك يقين فى كلامه وحين بدأ يسأله، هز الرجل العجوز رأسه «ليس هنا . . فقد يسمعنا أحد» .

واتفقا علي اللقاء فى اليوم التالى فى حديقة عامة على شاطئ نهر الفرات الذى يمر عبر المدينة . في تلك الليلة ، لم ينم «باكون» إلا قليلا ، متسائلا هل تنزلق أقدامه إلي فخ ببطء ، إذا لم يكن من المخابرات العراقية ، فمن بعض المحتالين الأذكياء الذين يتخذون من «يوسف» واجهة لهم .

أوضح لقاء اليوم التالى القليل عن خلفية «يوسف» ودوافعه .

فهو من عائلة عراقية يهودية فقيرة ، عمل منذ صباه كخادم عند أسرة مسيحية ثرية . ثم بعد ثلاثين سنة من الإخلاص فى الخدمة ، فُصل بتعسف بتهمة سرقة الطعام . ووجد نفسه في عيد ميلاده الخمسين متسكعا فى الشوارع . ولأن هناك صعوبة فى أن يجد عملا فى هذا السن ، فقد عاش على معاش ضئيل . وقرر أن يبحث عن جذوره اليهودية . وناقش الأمر مع أخته الأرملة «مانو» ، وكان ابنها «منير» يعمل طيارا فى السلاح الجوى العراقي . واعترفت الأخت أنها ترغب بشدة فى الذهاب إلي إسرائيل ،

ولكن كيف يمكنهم تنفيذ ذلك، ان مجرد ذكر الفكرة كفيل بسجنهم في العراق. ثم ان ترك أي فرد من العائلة سيعرضه للعقاب الشديد إن لم يكن القتل على أيدى السلطات. ثم من أين نحصل على النقود؟ تنهدت وقالت ان الأمر كله مجرد حلم.

ولكن الفكرة عششت في ذهن يوسف. كان «منير» قد أخبرهم على العشاء عدة مرات ان قائده يتباهى بالقول ان إسرائيل على استعداد لدفع ثروة مقابل طائرات الميج التي يقودونها، «ربما مليون دولار أيها الخال.»

وأثار المبلغ اهتمام يوسف. يستطيع أن ينقل العائلة كلها من العراق. وكلما فكر في الأمر، بدا له ممكن التحقيق. «منير» يحب أمه وعلى استعداد لفعل أى شيء لارضائها حتى سرقة طائرته مقابل مليون دولار. وآنذاك ليس عليه ان يرتب أمر هروب العائلة، سيدع الإسرائيليين يقومون بهذه المهمة، فالكل يعرف أنهم ماهرون في ذلك. ولذا فقد أرسل «سلمان» إلى السفارة. وأشرق وجهه وهو يقول: «والآن أنت هنا يا صديقي».

ـ وماذا عن «منير»؟ هل يعلم شيئا عن هذا؟

ـ بالطبع. وقد وافق على سرقة الطائرة، لكنه يريد نصف النقود مقدما تسلم قبل ان يقوم بالعمل.

وذهل باكون، فكل ما سمعه منطقي وممكن التحقيق. لكن عليه أولا أن يرسل تقريرا إلى «مئير أميت».

وفي تل أبيب، أصغى «مئير» طوال بعد الظهر إلى كل التفاصيل التي سردها باكون. وأخيرا سأل «أين يريد ان تودع النقود؟»

ـ في بنك سويسرى. فابن عم يوسف يحتاج إلى جراحة عاجلة ليست متوفرة في بغداد، وستعطيه السلطات العراقية اذنا بالسفر إلى سويسرا، ويتوقع حين يصل ان يجدنا قد أودعنا النقود. وعلق «مئير» باستياء «يوسفك هذا واسع الحيلة. إذا أودعنا النقود فلن نحصل عليها ثانية.»

وسأل باكون سؤالا أخيرا: لماذا تثق في يوسف؟

فأجاب: لأنه الخيار الوحيد.

وأمر «مئير» بأن يودع نصف مليون دولار في الفرع الرئيسي لبنك كريدى سويس. كان يغامر بأكثر من النقود، فلن ينجو إذا تبين ان يوسف محتال ذكي. وهو مازال يعتقده بعض الضباط في الموساد.

وحان الوقت لابلاغ رئيس الوزراء بن جوريون ورئيس أركان الجيش اسحق رابين، ووافق الاثنان على العملية. ولم يخبرهما «مئير» بأنه اتخذ قرارا بسحب شبكة الموساد كلها من العراق.

«إذا فشلت المهمة، أريد أن أتحمل المسئولية وحدي. وجهزت خمس فرق للعمل. الأولى للاتصال بيني وبين بغداد، وعليها ألا تكسر الصمت إلا إذا حدثت مأساة. عدا ذلك لا أريد أن أسمع منها شيئا. والثانية تتواجد في بغداد دون أن يعرف بوجودها أحد، لا «باكون» ولا الفرقة الأولى، لا أحد. ومهمتها اخراج «باكون» من العراق إذا ساءت الأمور، ويوسف أيضا إن أمكن. والثالثة لمراقبة عائلة يوسف، والرابعة للتفاوض مع الأكراد على تهريب العائلة من أماكن تواجدهم، وكانت إسرائيل تزودهم بالسلاح. والخامسة للتفاوض مع أميركا وتركيا، لأن هروب الميج للوصول الينا سيتم عبر الأجواء التركية وعلى واشنطن، التي لها قواعد في شمال تركيا، ان تقنعها بالتعاون والقول بأن الميج ذاهبة إلى واشنطن. كما عرفت أن العراقيين، خوفا من فرار أحد الطيارين بطائرته، يحتفظون بخزانات الوقود نصف ممتلئة، وذلك أمر لا حيلة لنا فيه».

لكن مازالت هناك مشكلة أخرى، فقد قرر يوسف عدم الاكتفاء بترحيل اقاربه المباشرين، بل أراد اتاحة فرصة الهروب لأقاربه غير المباشرين من النظام العراقي القاسي، وبلغ عدد الجميع ٤٣ شخصا، على إسرائيل أن تؤمن خروجهم جوا. ووافق «مئير»، لكنه واجه قلقا جديدا، فقد أرسل «باكون» رسالة مشفرة من بغداد بأن منير متردد. وأدرك مئير ما يحدث «منير عراقي أولا وأخيرا. ودولة العراق كانت كريمة معه، ولا يستطيع خيانتها لصالح إسرائيل بالذات. فنحن الأعداء، ولقد تعلم ذلك طوال حياته. فقررت أن الطريقة الوحيدة لاقناعه، هي القول ان الطائرة ستذهب إلى الولايات المتحدة. وهكذا طرت إلى «واشنطن» وقابلت «ريتشارد هيلمز» مدير المخابرات المركزية. اصغى وقال: لا مشكلة. ورتب ان يلتقي الملحق العسكري

بالسفارة الأمريكية ببغداد مع «منير» ويؤكد له ان الطائرة ستسلم إلى أمريكا. وتحدث الملحق العسكرى مع «منير» حديثا طويلا حول مساعدة أميركا للحاق بروسيا، وصدّق «منير» ووافق ان يستمر فى العملية.

وسارت العملية الان بقوة دفعها الذاتي. سمح لقريب «يوسف» بمغادرة بغداد إلى جنيف. وأرسل من هناك بطاقة بريد «امكانيات المستشفى ممتازة. وأكدوا لى الشفاء الكامل» وكانت الرسالة اشارة ان النصف الثانى من المبلغ قد أودع.

وأخبر «يوسف» «باكون» ان العائلة جاهزة. وفى الليلة السابقة على طيران «منير» قادهم يوسف فى قافلة من العربات إلى الشمال. ولم تعترضهم نقاط التفتيش العراقية، فالسكان المقيمون فى بغداد يغادرونها كل صيف هربا من حرارتها اللاهبة. وعلى سفوح الجبال كان ينتظرهم الأكراد والفريق الإسرائيلى. قادوا العائلة لأعماق الجبال حيث كانت تنتظرهم طائرة هليوكبتر من سلاح الجوى التركى. وطاروا على ارتفاع منخفض تجنبا للرادار وعادوا إلى تركيا. واتصل أحد العملاء الإسرائيليين «بمنير» قائلا له ان أخته أنجبت بنتا. رسالة مشفرة أخرى مرت بأمان.

عند شروق شمس اليوم التالى ١٥ أغسطس ١٩٦٦ طار منير فى مهمة تدريبية. وما ان غادر المطار بطائرته الميج حتى زاد سرعته فكان فوق الحدود التركية قبل ان تصدر الأوامر للطيارين العراقيين الآخرين بإسقاطه. واكبته طائرات الفانتوم التابعة للسلاح الجوى الأمريكى حتى هبط فى قاعدة عسكرية تركية، تزود بالوقود، وأقلع ثانية. ومن خلال السماعات جاءته رسالة واضحة هذه المرة «جميع عائلتك بأمان وهم فى طريقهم للالتحاق بك».

وبعد ساعة، لمست طائرة الميج أرض قاعدة عسكرية جوية فى شمال إسرائيل.

وأصبحت الموساد لاعبا خطيرا على المسرح العالمى، وداخل وكالة المخابرات الإسرائيلية أصبح يقال قبل «أميت» أو بعد «أميت».

وكان ضباط الموساد أكفاء وماكرين بدرجة لا تصدق،

وعلى استعداد للقتل في أى وقت. ولقد زرعوا الفرقة بين الدول العربية، وأثاروا بينها الإعلام المضاد، وجندوا المرشدين ملتزمين بفلسفة رئيسهم «فرق، تسد»



نقوش

جيلوت

حين خرج «مئير أميت» عن الطريق السريع شمال تل أبيب، استمر فى سرعته الزائدة عن المعتاد. ولقد ظل خرق القانون يتحفظ جزءاً من حياته، منذ أربعين عاما، تقريبا، حين أدار عملية سرقة طائرة نفاثة عراقية.

توقف بعد أن سار على غير هدى رافضا اتباع الارشادات، حسب نشأته الجليلية (منطقة الجليل فى فلسطين) «نحن صنف عنيد». لقد ولد فى مدينة طبرية، تلك المدينة التى كان يفضلها الملك «هيرود»، قريبا من شواطئ البحيرة المسماة باسمها والتى يطلق عليها بحر الجليل. وقضى معظم حياته المبكرة فى أحد الكيبوتزات. ولقد ساعدته أمه - مدرسة الخطابة - على أن يتحرر من النبرة الاقليمية فى حديثه، كما غرست فيه حب الاستقلال، وعدم التسامح مع الأغبياء، وازدراء خفيفاً مخفياً لسكان المدن. والأهم من كل ذلك، تشجيعها لمهاراته التحليلية ومقدرته على التفكير العرضى الذى يتناول أى قضية من جوانب فرعية مختلفة. ولقد استخدم هذه المهارات، فترة خدمته الطويلة، لكشف نيات العدو، فغالبا لا ينتظر العمل اليقين، فالخداع والحافز من صميم عمله. ولقد رأى نقاده فى المخابرات الإسرائيلية، أحياناً، خيالا جامحا فى بعض تصرفاته. وكان لديه اجابة واحدة لهم: اقرأوا ملف طائرة الميج

المسروقة.

وفي هذا الصباح من شهر مارس سنة ١٩٩٧ ، وهو يقود سيارته خارج تل أبيب، كان في قائمة المتقاعدين، ولكن لا أحد في المخابرات الإسرائيلية يصدق ذلك، فهذه الخبرة الواسعة أكثر قيمة من أن توضع في مخزن بارد. كان قد عاد في اليوم السابق من زيارة لمدينة «هوشي منه» حيث كان في زيارة لضباط مخابرات الفيتكونج السابقين. لقد تبادلوا الخبرات وكانت بينهم أرض مشتركة في التفوق على معارضين أقوياء: الفيتاميين ضد اميركا، وإسرائيل في حربها ضد العرب. ولقد سبق أن قام برحلات أخرى إلى أماكن أدت مناوراته السرية فيها إلى الخراب: عمان، القاهرة، موسكو. ولم يجرؤ أحد عن السؤال حول الهدف من هذه الزيارات، فخلال السنوات الخمس المهمة ٦٣ - ١٩٦٨ التي أشرف فيها على الموساد، لم يفقه أحد، حتى الآن، في وسائله ومصادره. في ذلك الوقت، استطاع ان يجعل من جمع المعلومات الشخصية عن الأفراد، فنا قائما بذاته. ولم يستطع أي جهاز مخابرات في العالم ان يجاري رجاله في جمع المعلومات. لقد زرع الجواسيس، وبأعداد كبيرة في كل بلد عربي، وعبر أوروبا، وأميركا الجنوبية، وفي جميع أنحاء أفريقيا، بل وفي الولايات

المتحدة الأميركية. واخترق عملاؤه المخابرات الأردنية، والمخابرات العسكرية السورية الأكثر قسوة.

كان رجاله يعملون بأعصاب باردة وإرادة من فولاذ لم يكتبهما روائى فى أعماله.

بعد أن تولى رئاسة الموساد بقليل، مرر على رجاله مذكرة سرقها أحد العملاء من مكتب ياسر عرفات تقول:

«ان لكل منا ملفاً لدى الموساد - فهم يعرفون أسماءنا وعناويننا. وهناك صورتان لكل منا فى الملفات. احداهما ونحن نرتدى الكوفية والأخرى بدونها. ولذا يسهل عليهم تتبعنا».

ولكى يبث خوفا أكبر فى النفوس، قام بتجنيد عدد من المرشدين العرب لم يسبق له مثيل، على أمل ان يكتشف عددا كافيا من الأكفاء طبقا لقانون الاحتمالات. واستطاع هؤلاء المرتشون ان يخونوا رجال القوات المسلحة لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويرشدوا عن أسلحتهم، وبيوتهم الآمنة، وترتيبات سفرهم. وكان يكافئ كل منهم بدولار كعلاوة عن كل رجل تقتله الموساد من رجال المنظمة.

قبل حرب ١٩٦٧ مباشرة، كان هناك إما عميل عربى أو أحد رجال الموساد فى كل قاعدة جوية مصرية أو رئاسة للأركان، وعلى الأقل كان هناك ثلاثة منهم فى رئاسة الأركان العليا فى القاهرة، من الضباط الذين استطاع «مئير» ان يقنعهم بالعمل لحساب إسرائيل. أما كيف فعل ذلك، فهو سر لم يبح به «هناك أمور لا يجوز قولها».

وزوّد كل مرشد أو عميل بالتعليمات نفسها: لكى تكتمل الصورة، فهو يريد التفاصيل الصغيرة. كم يستغرق الطيار لقطع المسافة من الثكنات حتى قاعة الطعام؟ الفترة التى يتعطل فيها الضباط فى زحام مرور القاهرة السيئ؟ وكان يقدّر تماما كيف تستخدم هذه المسائل المتفاوتة.

واستطاع أحد العملاء الإسرائيليين أن يحصل على عمل «جرسون» فى قاعة طعام الضباط فى قاعدة حربية متقدمة. وكان يقدم تقريرا أسبوعيا عن أسلوب حياة الطيارين والفنيين ومدى استعدادهم، عن عادات تناولهم الشراب وميولهم الجنسية. وكان قسم الحرب النفسية الذى انشئ حديثا، يعكف على مدار ساعات اليوم، فى

تجهيز ملفات للطيارين المصريين، وللأطقم الأرضية، ولهيئة الضباط : مهاراتهم في الطيران، وهل وصلوا إلى رتبهم بمقدرتهم أو بالوساطة، ومن الذى لديه مشاكل في الشراب، أو يتردد على مبغى، أو يفضل الغلمان.

وكان، «مئير اميت» ينكب في الليل على هذه الملفات، يبحث عن نقاط الضعف، وعمن يمكن ابتزازهم للعمل لحسابه «لم يكن عملا مبهجا، لكن المخابرات دوما عمل قذر».

وبدأت عائلات المصريين العاملين في الخدمة تتلقى خطابات مجهولة، مرسلة من القاهرة، تتحدث بتفاصيل محددة عن تصرفات رجالها. وبدأت تقارير المرشدين إلى تل أبيب تتحدث عن اجازات مرضية لرجال الطيران لحل مشاكلهم. وبدأ الضباط يتلقون مكالمات تليفونية مجهولة، تدلى بمعلومات عن حياة زملائهم الخاصة. واتصلت إحدى النساء بمدرس في مدرسة لتخبره ان سوء أداء تلميذ معين يرجع إلى إنه عشيق والدها الضابط الكبير، مما أدى إلى اطلاق الضابط النار على نفسه. وتسببت هذه الحملة القاسية في شقاق ملحوظ داخل العسكرية المصرية، وأرضت «مئير أميت» بشكل كبير.

وبدا واضحا، منذ أوائل سنة ١٩٦٧، من كل الشواهد التى أفرزتها تقارير شبكة التجسس الإسرائيلية، ان جمال عبدالناصر يستعد لشن حرب ضد إسرائيل. وجُند الكثير من المرشدين، بوسائل مشروعة أو غير مشروعة، لمعرفة ما يمكن معرفته عن سلاح الجو المصرى وقادته العسكريين، بحيث إنه في أوائل مايو سنة ١٩٦٧ كان باستطاعة «مئير» ان يزود قادة الطيران الإسرائيلي بالوقت المحدد الذى يمكنهم فيه توجيه ضربة قاضية إلى القواعد الجوية المصرية. واستطاع المحللون لدى الموساد رسم مخطط دقيق عن سير العمل في كل القواعد الجوية المصرية.

فالوقت الحرج لوحدات الرادار الميدانية يقع بين ٧:٣٠ و٧:٤٥ صباحا. فخلال ربع الساعة هذه، تكون وردية الليل منهكة، بينما وردية الاستبدال لم تستعد بعد، وتتأخر قليلا بسبب بطء الخدمة في قاعات الطعام. ويفطر الطيارون بين الساعة ٧:١٥ و٧:٤٥ صباحا ويسيرون بعد ذلك إلى ثكناتهم لاحضار معدات الطيران. يقطعون المسافة خلال عشر دقائق في المتوسط، لكن معظمهم يقضى بضع دقائق

اضافية في دورة المياه. فيصلون في الثامنة تقريبا، الموعد الرسمي لبدء العمل. آنذاك، يكون الطاقم الأرضى قد بدأ باخراج الطائرات من حظائرها لتزود بالوقود والسلاح. ولمدة الربع الساعة التالية تكون مدرجات الطيران مزدحمة بعربات الوقود والذخيرة.

كذلك أعدت خطة مشابهة لتحركات كبار الضباط في القيادة العامة في القاهرة. يستغرق الضابط نصف ساعة في المتوسط للوصول إلى مكتبه من منزله في احدى الضواحي. ولا يكونون على مكاتبهم قبل الثامنة والربع صباحا. ويضيعون عشر دقائق أخرى في شرب القهوة والدردشة مع الزملاء. ولا يبدأ معظمهم بدراسة الاشارات التي وصلت في الليل من القواعد الحربية قبل الثامنة والنصف.

وأخبر «مئير» قائد السلاح الجوى الإسرائيلي ان الوقت الذى يجب أن تكون فيه الطائرات الإسرائيلية فوق أهدافها هو بين الثامنة والثامنة والنصف صباحا؛ ففي نصف الساعة هذه يستطيعون سحق قواعد العدو.

وفي ٥ يونية سنة ١٩٦٧ قام سلاح الجو الإسرائيلي بضربته المميتة في الثامنة ودقيقة واحدة، بطيران منخفض فوق سيناء ليمطر القواعد الجوية المصرية بوابل من القنابل، وتحولت السماء إلى اللونين الأحمر والأسود من لهب احتراق عربات الوقود والسلاح وانفجار الطائرات.

وجلس مئير في مكتبه في تل أبيب يتطلع نحو الجنوب، مدركا أن محلليه قد حددوا نتيجة الحرب بالفعل، وكان ذلك مثلا على مهاراته غير العادية، مما أعطى الموساد سمعة متزايدة.

ومنذ تولى العمل، رفض «مئير أميت» المحاولات التي أرادت أن تسير الموساد على خطا المخابرات الأمريكية CIA أو الروسية KGB. فكلتاهما تضم مئات الألوف من المحللين والعلماء والاستراتيجيين والمخططين لدعم العملاء الميدانيين. المخابرات العراقية والإيرانية تضم أكثر من عشرة آلاف عميل ميداني، حتى المخابرات الكوبية تتكون من حوالى ألف جاسوس في الميدان.

وأصر «مئير أميت» أن لا يتجاوز العدد الفعلى للعاملين الدائمين في الموساد عن ١٢٠٠ موظف. كل منهم منتقى جيدا ومتعدد المهارات: على العالم أن يعمل في

الميدان لو استدعت الحاجة، وعلى العميل الدائم - لابد أن يكون إسرائيليا ويسمى «كاتسا» - أن يستخدم مهاراته الخاصة فى تدريب الآخرين، وهو بالنسبة لهم الأول بين متماثلين.

وقبل حرب الأيام الستة بفترة طويلة، كان قد جعل من الموساد جهازا يبث رعبا مميتا فى قلب أعداء إسرائيل، مخترقا صفوفهم، فاضحا أسرارهم، ثم قتلهم بكفاءة ودم بارد، مما أعطى الموساد سمعة هائلة.

ويعود معظم النجاح الذى حققه إلى القواعد التى وضعها لاختيار «الكاتسا» العميل الميدانى الذى يعتمد عليه نجاح الموساد. لقد فهم تماما، الدوافع العميقة والمركبة، التى تجعلهم، عند الاختيار، يصافحونه باشارة تقول أنهم رجاله وليأمرهم بما يريد.

ورغم التغيرات التى حدثت فى الموساد، إلا أن «مئير» كان يعرف فى ذلك الصباح من مارس ١٩٩٧ ان معيار التجنيد الذى وضعه مازال قائما لم يمس.

«لا يقبل أى موظف Katsa فى الموساد إذا كان دافعه الأول النقود. والصهيونى الغيور فوق الحد لا مكان له فى هذا العمل. فالشخص المطلوب يجب أن يكون هادئا، مميزا واثقا فى نفسه، بعيد النظر فى احكامه وذا وجهة نظر متوازنة. الكثيرون يودون الالتحاق بالموساد لأسباب عديدة. فهناك الهالة السحرية التى تحيط بها. والبعض يحب المغامرة. والبعض يعتقد أن ذلك سيعزز وضعهم - الصغار الذين يودون أن يكونوا كبارا. قليلون يرغبون فى القوة التى يعتقدون أن الموساد ستمنحها لهم. كل هؤلاء ليس لديهم الأسباب المعقولة التى تؤهلهم للالتحاق بالموساد.

ودائما، دائما، يجب أن تُشعر رجلك فى الميدان أنك تؤازره مؤازرة كاملة، وانك ستعتنى بعائلته، وتتأكد أن أولاده سعداء. وفى الوقت نفسه تحميه، وإذا شكّت زوجته بأنه يعرف امرأة أخرى، أكد لها إنه لا يعرف، وإذا كان يعرف لا تخبرها. وإذا ضلت سواء السبيل ارجعها إلى الطريق المستقيم ولا تخبر زوجها. فأنت لا تريد شيئا يشغله. ان عمل القائد الجيد هنا أن يعامل الجميع كعائلة، وان يشعرهم إنه هناك من أجلهم، ليل نهار، ومهما كان الوقت. بهذه الطريقة تكسب الولاء، وتجعل العميل يقوم بما تريد، وهو الشىء المهم».

وكل من يُقبل، يمضى ثلاث سنوات في تدريب مكثف، بما فيه التعرض لعنف جسدى قاس، لاعداده لتحمل التعذيب عند استجوابه فيما لو اعتقل. كما يصبح خبيرا فى استخدام السلاح ـ وقد اختارت الموساد مدفع بريتا ٢٢.

وأول الأماكن التى زُرع فيها ضباط للموساد، خارج الوطن العربى، كانت فى الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا. وكان هناك ضباط دائمون فى نيويورك وواشنطن. وكان للضابط الموجود فى نيويورك صلاحيات خاصة لاختراق البعثات الدبلوماسية فى الأمم المتحدة، والجماعات العرقية العديدة فى المدينة، كما أن العمل ذاته كان من اختصاص الضابط الموجود فى واشنطن بالاضافة إلى مراقبته للبيت الأبيض. وكان هناك ضباط يعملون فى مناطق التوتر فى العالم، ويعودون إلى إسرائيل حين تنتهى مهمتهم.

واهتم «مئير أميت» بتوسيع المؤسسة لتشمل أقساما لعمليات جمع المعلومات، وللعمل السياسى، وتبادل المعلومات تعمل مع وكالات المخابرات الصديقة خاصة وكالة المخابرات الأمريكية CIA والمخابرات البريطانية M16.

وكان هناك خمسة عشر مكتبا للتجسس على الدول العربية، اضافة إلى مكاتب للتجسس على الولايات المتحدة وكندا وأميركا الجنوبية وبريطانيا ودول أوروبا والاتحاد السوفيتى. وعلى مدى السنين اتسع هذا البناء التحتى ليشمل الصين وجنوب أفريقيا والفاتيكان، ولكن، مع ذلك، ظلت الموساد تلك المؤسسة الصغيرة العدد.

ولم يكن يمر يوم دون وصول كتلة من المعلومات الجديدة من المواقع المختلفة فى كل ارجاء العالم، ليتداولها العاملون فى ذلك المبنى الكبير الرمادى المغبر فى شارع الملك شاؤول.

وكان ضباط الموساد اكفاء وماكرين بدرجة لا تصدق، وعلى استعداد للقتل فى أى وقت. ولقد زرعوا الفرقة بين الدول العربية، وأثاروا بينها الإعلام المضاد، وجندوا المرشدين ملتزمين بفلسفة رئيسهم «فرق، تسد»، وفى كل ما فعلوه، كانوا يضربون رقما قياسيا جديدا فى احتراف القسوة، يتحركون فى الليل كاللصوص ويتركون وراءهم الموت والخراب، ولم ينج أحد من انتقامهم. وحين تنتهى مهمتهم يعودون

ليستنطقهم «مئير أميت» في مكتبه ذى النافذة الواحدة التي تطل على الشارع العريض المسمى على اسم قائد إسرائيل الحربي في التوراة. ومن هذا المكتب، أعد جاسوسين ستظل شجاعتهما لا مثيل لها في حوليات الموساد. وتردد صوته وهو يسترجع أعمالهما وتفاصيل سيرتهما.

ولد «ايلي كوهين» في الإسكندرية بمصر في ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٤، وكان يهوديا متدينا مثل والديه. وفي سنة ١٩٥٦ كان ضمن اليهود الذين طُردوا من مصر بعد حرب السويس. وصل إلى حيفا، وانتابه إحساس بالغربة في بلده الجديد. وجُنّد سنة ١٩٥٧ في شعبة التجسس المضاد في الجيش الإسرائيلي، ولكن عمله كمحلل أصابه بالملل. فحاول الالتحاق بالموساد لكنه رُفض.

ويتذكر «مئير أميت»: عرفنا أن رفضنا له أثر فيه كثيرا. فاستقال من الجيش وتزوج امرأة عراقية تسمى نادية.

وعاش سنتين حياة راكدة كموظف ارشيف في شركة تأمين في تل أبيب. لم يكن يعرف أن «مئير» في بحثه عن عميل لمهمة خاصة جدا، كان قد رجع إلى الملفات المرفوضة بعد أن أعيته الحيلة في ايجاد الشخص المطلوب، ووجد فيه الضالة المنشودة. فوضع تحت المراقبة. وجاءت تقارير مكتب التجنيد في الموساد تتحدث عن عاداته المبالغة في التدقيق واخلاصه لزوجته وعائلته الصغيرة. كان لماحا ويعمل بجد حتى تحت الضغط، فأخبروه في النهاية ان الموساد قد قبلته.

وبدأ دورة تدريبية مكثفة لمدة ستة أشهر. وعلمه خبراء التخريب كيف يصنع المتفجرات والقنابل الموقوتة من أبسط المكونات. وتعلم القتال دون سلاح، والرماية حتى أصبح رامياً من الدرجة الأولى، ولصا بارعا، وتعلم كيف يكتب بالشفرة ويحلها، وكيف تعمل أجهزة الارسال، والكتابة بالحبر السرى، واخفاء الرسائل. وأدهش معلميه بمهاراته. وجاءت ذاكرته الخارقة من حفظه آيات كثيرة من التوراة وهو شاب. وكانت نتيجة تخرجه تؤكد أن لديه كل الخبرات التي يحتاجها ضابط في الموساد.

لكن «مئير أميت» ظل مترددا: «سألت نفسي مئات المرات: هل يستطيع «إلى» ان يقوم بما أريد؟ كنت أظهر له، بالطبع، ان ثقتي به دائما في محلها. ولم أرد له قط ان

يفكر بأنه على بعد خطوةٍ من الموت. ولقّنه أفضل الرجال فى الموساد كل ما يعرفونه. وأخيرا قررت اطلاقه».

وأمضى «مئير» أسابيع وهو يختلق خلفية لصنيعته. يجلس معه ليستذكر خرائط وصور «بوينس ايرس»، حتى أصبح اسمه وتاريخ حياته الجديد محفوظا تماما - كامل أمين ثابت - سورى الجنسية. «أتقن لغة الاستيراد والتصدير باللهجة السورية، والفرق بين كشف البضائع وبوليصة الشحن، بين العقود والضمان، وكل ما يحتاج معرفته. وكان كالحرباء يستوعب كل شيء، وأمام عينى، تلاشى إلى كوهين وبرز كامل أمين ثابت السورى الذى لم ينطفئ شوقه للذهاب إلى وطنه دمشق. وكل يوم تزداد ثقته وتأكده بقدرته على القيام بالدور المكلف به.

كان كبطل العالم فى سباق الماراثون، تدرّب ليظل أول المتسابقين، لكنه سيظل يجرى لسنين عدة. بذلنا كل جهدنا ليعيش حياة جديدة، والباقى يتوقف عليه. لم يكن هناك وداع كبير ولا عملية ارسال، تسلل خارجا من إسرائيل، بالطريقة نفسها التى اتبعها كل جواسيسى.».

واستطاع «كوهين» بسرعة ان يحتل مكانة وسط مجتمع رجال الأعمال فى العاصمة السورية، وان يكوّن حلقة من الأصدقاء من علية القوم، منهم «معز زهر الدين» ابن أخ رئيس الأركان عبدالكريم زهر الدين(*).

وكان زهر الدين رجلا متفاخرا، يتوق لاستعراض القوة السورية، وقد لعب «كوهين» على تلك الصفة. ففى وقت قصير كان يزور استحكامات المواقع السورية فى الجولان، ورأى المخابئ الاسمنتية التى تختفى بها المدافع بعيدة المدى التى ارسلتها روسيا، بل حتى سُمح له أن يلتقط بعض الصور. وخلال ساعات من وصول مئتى دبابة روسية من طراز ت - ٥٤، كان كوهين يُعلم تل أبيب بذلك، كما استطاع ان يحصل على مخطط كامل للاستراتيجية السورية لاقتطاع شمال إسرائيل فى حالة الحرب، وكانت هذه المعلومات لا تقدر بثمن.

(*) قال المؤلف إنه ابن أخ الرئيس السورى. (الترجمة)

وبينما كان «كوهين» يؤكد فكرة «مئير أميت» بأن عميلا ميدانيا جيدا أثمن من فرقة من الجنود، كانت اللامبالاة قد بدأت تسيطر عليه. كان دائما متعصبا كرويا. وحين هزم فريق زائر الفريق الإسرائيلي في تل أبيب، كسر القاعدة التي تقول «العمل فقط» والخاصة بالارسال، فأرسل رسالة بالراديو تقول «لقد حان الوقت كي نتعلم كيف نفوز في كرة القدم».

ورسالة أخرى تقول «ارسلوا تحياتي إلي زوجتي في الذكرى السنوية لزواجنا».

أو «عيد ميلاد سعيد لابنتي».

وكان «مئير» غاضبا جدا، لكنه تفهم الضغط الواقع علي العميل، وأمل أن يكون تصرفه هذا مخالفة مؤقتة من تلك التي تحدث مع أفضل العملاء «وحاولت الوصول إلي ما يدور في ذهنه. هل كان مستقتلا، ويعبر بطريقته الخاصة عن عدم توخي الحذر؟ حاولت ان أفكر مثله، فأنا الذي كتبت حياته. واستعرضت ووازنت بين مئات العوامل. ولكن في النهاية، فإن الشيء المهم: هل يستطيع الاستمرار في عمله؟» وقرر «مئير» إنه يستطيع.

وفي ليلة من ليالي شهر يناير سنة ١٩٦٥، كان «ايلي كوهين» في غرفة نومه يستعد للارسال، وحين أدار الجهاز، كان رجال المخابرات السورية فوق رأسه. لقد كشفه أحد أدق الأجهزة المتقدمة في العالم، والذى زودت به روسيا السوريين.

وأجبر، وهو تحت الاستجواب، على إرسال رسالة إلي الموساد. وفشل السوريون في ملاحظة تغير سرعة الارسال والايقاع. وتلقى «مئير» في تل أبيب الخبر بأنه قد ألقي القبض على كوهين. وبعد يومين، أكدت سوريا ذلك.

«وكأنك فقدت أحد أفراد عائلتك. وتسأل نفسك الأسئلة ذاتها عند فقدك لكل عميل: هل كان بإمكانك انقاذه؟ كيف أكتُشف؟ هل اهماله هو السبب؟ أو عن طريق شخص قريب منه؟ أو هل كان مكشوفا دون أن ندرك؟ هل كان لديه رغبة في الموت؟ يحدث ذلك أحيانا. أو هل هو مجرد سوء الحظ؟ تسأل وستستمر في التساؤل. ولن تحصل على اجابة مؤكدة أبدا. لكن الأسئلة من الممكن أن تكون طريقا للعلاج.»

لم يستطع السوريون كسر إرادة «ايلي كوهين» على الرغم من التعذيب الذي

تحمله، قبل أن يحكموا عليه بالموت.

وكرسّ «مئير أميت» جل وقته محاولا انقاذه، بينما أثارت زوجته نادية حملة اعلامية عالمية من أجل انقاذ حياة زوجها ـ فنا شدت البابا وملكة انجلترا ورؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات ـ وعمل مئير بسرية أكبر، فسافر إلى أوروبا لمقابلة رؤساء المخابرات فى فرنسا وألمانيا، ولم يستطيعوا فعل شيء. وناشد الاتحاد السوفيتى بشكل غير رسمى، حتى كان يوم ١٨ مايو سنة ١٩٦٥ بعد الساعة الثانية صباحا بقليل، حين خرجت قافلة من العربات من سجن «المزة» فى دمشق، وكان فى احداها «ايلى كوهين». يرافقه الحاخام الأكبر لليهود فى سوريا الذى يبلغ من العمر ثمانين عاما «نسيم اندابو»، وقد غلبه التأثر حين علم بما سيحدث، فبكى بصوت مسموع، وهدّأه كوهين. ووصلت القافلة ميدان المرجه فى دمشق، وتلى كوهين الصلوات العبرية لما قبل الموت «يا الهى القدير اغفر لى خطاياى». وفى الساعة ٣:٣٥ صباحا عُلق كوهين على المشنقة أمام عدسات التليفزيون وآلاف المشاهدين.

وشاهدت نادية زوجها وهو يموت، فحاولت الانتحار. ونقلت إلى المستشفى وأنقذت حياتها. وفى اليوم التالى، أقام «مئير» مراسم على نطاق ضيق فى مكتبه، أبن خلالها «ايلى كوهين»، ثم عاد إلى العمل ليطلق جاسوسه الماكر الثانى.

وصل «ولفجانج لوتز»، وهو يهودى المانى، إلى فلسطين بعد قليل من استيلاء هتلر على السلطة فى ألمانيا. واختاره «مئير أميت» من بين قائمة صغيرة من المرشحين، ليقوم بالتجسس فى مصر. وأثناء مرور «لوتز» بالتدريبات الصارمة ذاتها التى مر بها «كوهين»، كان «مئير» يفكر بعناية فى الشخصية التى سيدخل بها «لوتز» إلى مصر. وقرر ان يجعله مدرب خيل، لاجئ من ألمانيا الشرقية، خدم فى الفيلق الإفريقى فى الحرب العالمية الثانية، وجاء إلى مصر ليفتح مدرسة للفروسية، مما يتيح له الدخول وسط الطبقة الراقية فى القاهرة. وقد استطاع ان يكوّن دائرة من الزبائن تضم نائب رئيس المخابرات العسكرية المصرية، ومدير أمن منطقة قناة السويس. ومثل «كوهين» أقنع اصدقاءه أن يتحدثوا بفخر عن الدفاعات المصرية القوية: قواعد اطلاق الصواريخ فى سيناء وعلى حدود النقب، كما استطاع الحصول على قائمة كاملة باسماء العلماء الألمان الذين يعيشون فى القاهرة ويعملون فى برامج الصواريخ والأسلحة المصرية،

وخلال مدة وجيزة كان عملاء الموساد قد اغتالوهم جميعا .

بعد سنتين من الحياة الخفية ، اعتقل «لوتز» أخيرا وأدين . واحتفظ به المصريون حيا توقعا لاستبداله بالأسرى فى حرب قادمة مع إسرائيل . واهتم «مئير أميت» ثانية وبشكل جدى بالقاء القبض على «لوتز» . فكتب إلى الرئيس المصرى آنذاك ـ جمال عبدالناصر ـ طالبا مبادلة لوتز وزوجته بجنود مصريين أسرتهم إسرائيل . ورفض عبدالناصر . فمارس «مئير» ضغطا نفسيا :

«جعلت الأسرى المصريين يعرفون ان ناصر يرفض استبدالهم باثنين من الإسرائيليين . وسمحت لهم بكتابة ذلك إلى ذويهم . وعبرت رسائلهم عن مشاعرهم بوضوح» .

وكتب «مئير» ثانية إلى ناصر ، عارضا ان يقوم بكل الدعاية لاستعادة الأسرى ، بينما لا تعلن إسرائيل عن عودة لوتز وزوجته . ولم يوافق عبدالناصر أيضا . وعرض «مئير» الأمر على قائد القوات الدولية التي تحفظ السلام فى سيناء . فطار الضابط إلى القاهرة ، وقابل عبدالناصر وأخذ وعدا باطلاق سراح الأسيرين في وقت قريب .

«وفهمت الرسالة . بعد شهر غادر لوتز وزوجته القاهرة سرا إلى جنيف . وبعد عدة ساعات كانا في مكتبي . »

وأدرك «مئير» ان ضباطه في الميدان سيحتاجون إلى عون ، فانشأ وحدة «السايانيم Sayanim» وهي وحدة من اليهود المساعدين المتطوعين الذين يعدون مثلاً للتلاحم اليهودى التاريخي . وبغض النظر عن الولاء للوطن ، ففي التحليل النهائى ، فإن هذا المساعد يتمتع بولاء كبير جدا : ولاء صوفي لإسرائيل وحمايتها من الأعداء وقد حقق هؤلاء المساعدون مهمات كثيرة . بعضهم يقدم سياراته ، إذا كان صاحب وكالة تأجير سيارات ، للضباط دون سؤال ، وأصحاب تأجير العقارات ، يقدمون اماكن الاقامة بيسر ، ورجال البنوك منهم يسهلون العمليات المالية في غير أوقات العمل ، والطبيب منهم يقدم المساعدة الطبية ـ كمعالجة جرح سببته رصاصة مثلا ـ دون أن يبلغ الشرطة . وتدفع لهم الموساد مقابل خدماتهم فقط . وهم يجمعون المعلومات الفنية وكل أنواع المعلومات المتاحة علنا : اشاعة فى حفل كوكتيل ، فقرة فى صحيفة ، خبر فى الراديو ، قصة غير مكتملة على دعوة عشاء ، فهم يقدمون اشارات ودلائل لضباط الموساد ،

ولولاهم لما عملت الموساد بالكفاءة التى تعمل بها .

وبقى التراث الذى أرساه «مئير» وتوسع بشكل كبير . ففى سنة ١٩٩٨ كان هناك اربعة آلاف يهودى مساعد فى بريطانيا ، وأربعة أضعافهم فى اميركا . وبينما كانت لدى «مئير» ميزانية محدودة، فإن الموساد ، الآن ، تنفق مئات الملايين من الدولارات شهريا لتنجز مهماتها ولتحافظ على تميزها : تدفع تكاليف ما يقدمه المساعدون ، وادارة المنازل الآمنة ، وتغطية العملاء ونفقات العمليات .

وقد ترك لهم «مئير» ما يذكرهم بفترة رئاسته لهم : لغتهم الخاصة ، فنظام كتابة التقارير المعروف «بناكاNaka» ضوء النهار» من أرقى الأشكال المعروفة ، وهناك وحدة الاغتيالات ، ووحدة الرصد ، ووحدة التوصيل التى تعتنى بكل وسائل المواصلات والاتصال ، ووحدة متابعة نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية ، ووحدة التزييف ، واعداد الأماكن الخفية للوثائق .. الخ .

كان «مئير أميت» يعرف فى ذلك اليوم من مارس ١٩٩٧ ، وهو يقود عربته فى موعد مع الماضى ، ان تغيرات كثيرة قد حدثت فى الموساد . فإن المطالب الدبلوماسية ، خاصة من رئيس الوزراء بنيامين نيتانياهو ، كانت عوامل ضغط عليها . بحيث عزلتها بشكل خطير عن وكالات المخابرات الأجنبية ، والتى أقامها «مئير» بحرص شديد ، وكان هدفها «إسرائيل أولا وأخيرا ودائما» ، وأضاف مئير بابتسامة حزينة : أستبدل ذلك المبدأ «مد يدك داخل جيوب أصدقائك» وكلمة السر «امسك» وأحد الأمثلة على ذلك الاختراق المتزايد للموساد فى الولايات المتحدة عن طريق التجسس على الاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا . فهناك وحدة خاصة مشفرة باسم «العال» تجول فى وادى السيليكون فى كاليفورنيا وحول ١٢٨ شارع بوستن للتجسس على أسرار التكنولوجيا المتقدمة ، وقد وضعت المخابرات المركزية الأميركية إسرائيل كأحد دول ست «تدير ، وتنسق أعمالا تجسسية لجمع أسرار الولايات المتحدة الاقتصادية» .

وقد حذر رئيس مؤسسة الاستخبارات الداخلية فى ألمانيا رؤساء الأقسام فى مؤسسته بأن الموساد تشكل تهديدا أساسيا لسرقة أسرار الكمبيوتر لديهم ، والتحذير ذاته أصدره المدير العام للأمن الفرنسى بعدما قبض على أحد عملاء الموساد قرب مركز اطلاق الأقمار الصناعية فى «كريل» . ولقد حاولت إسرائيل طويلا ان تزيد من

مقدرتها في مجال الفضاء لتجارى تقدمها النووى على الأرض. لقد رفعت وحدة التجسس المضاد البريطانية م١٥، تقريرا إلى «تونى بلير» رئيس الوزراء عن تفاصيل جهود الموساد للحصول على بيانات علمية حساسة خاصة بالدفاع فى بريطانيا.

لم يكن «مئير أميت» معترضا على مثل هذه المغامرات، لكنها تبدو غالبا، ينقصها التخطيط والوضع فى الاعتبار العواقب التى تنتج عنها على المدى الطويل.

والشيء نفسه ينطبق على علماء التحليل فى إدارة الحرب النفسية. لقد بنت الإدارة أيامه شبكة عالمية فى وسائل الإعلام واستخدمتها بمهارة شديدة، للربط مثلا بين حوادث الارهاب والخلفيات التى تريد الإدارة توجيه الانظار إليها، كما كانت تعد المعلومات للملحقين الصحفيين فى السفارات الإسرائيلية، لتمريرها إلى صحفى مدعو للشراب أو العشاء وكأنها سر.

وبينما جوهر تلك الدعاية السوداء مايزال موجودا، إلا أن هناك اختلافات أساسية: فى اختيار الهدف أو الضحية، فقد رأى «مئير» ان القرار الذى يتخذ الآن يعتمد على المتطلبات السياسية: الحاجة إلى تحويل الانتباه عن تصرف دبلوماسى شخصى تخطط للقيام به فى الشرق الأوسط، أو لاستعادة شعبيتها المنهارة فى الولايات المتحدة.

حين تحطمت طائرة شركة الخطوط العالمية على الساحل الجنوبى الشرقى للونج أيلاند فى ١٧ يولية ١٩٩٦ وقتل كل ركابها البالغ عددهم ٢٣٠ فردا، بدأت إدارة الحرب النفسية فى الموساد حملة تتهم فيها العراق أو ايران بتدبير العملية.

وانطلقت آلاف من القصص الإعلامية بسرعة لاختلاق الحكايات. وبعد سنة تقريبا، وبعد انفاق نصف مليون دولار وعشرة آلاف ساعة عمل، أعلن المحقق العام فى المباحث الفيدرالية الأمريكية بأن لاشبهة هناك فى وجود قنبلة أو دليل على جريمة مدبّرة. وقد قال لزملائه بشكل خاص «لو كانت هناك طريقة لصلب هؤلاء الوقحاء فى تل أبيب لما ترددت فى فعلها على اضاعتهم وقتنا. علينا أن ندقق فى كل خبر يمررونه إلى وسائل الإعلام».

ومرة ثانية، قامت ادارة الحرب النفسية فى الموساد، بعد انفجار قنبلة أثناء الألعاب

الأوليمبية فى أتلانتا، بالترويج بأن القنبلة تحمل «فيما يبدو» كل الاشارات بأن صانعها قد تدرب على أيدى صناع القنابل فى وادى البقاع اللبنانى. وانطلقت القصة، وجعلت ادارة الحرب النفسية شبح الارهاب يخيم على الجمهور الأمريكى الخائف. وكان المشتبه فيه الوحيد، حارس أمن منحوس لا علاقة له بالارهاب العالمى، وماتت القصة.

وكان «مئير» يتفهم أهمية تذكير العالم بالارهاب، «لكن التحذير يحتاج إلى أن يُتثبت منه وهو ما كنت أصر عليه دائما» وأتبع ذلك بهزة من كتفه، فى الماضى تعلم ان يخفى مشاعره، وان يكون غامضا فى التفاصيل، ولسنوات ظلت قواه طى الكتمان.

وهو يرى ان تراجع مستوى أداء الموساد قد ابتدأ منذ اغتيال اسحق رابين رئيس الوزراء بين حشد مؤيد للسلام فى تل أبيب فى نوفمبر سنة ١٩٩٥.

وقبل اغتيال رابين بقليل، على يد أحد المتطرفين اليهود - أحد مظاهر الضعف فى المجتمع الإسرائيلى - حذر مدير الموساد آنذاك، شابتاى شافيت، من محاولة اغتياله. وحسب قول أحد الضباط فإن التحذير تم تجاهله باعتباره غامضا جدا ولا يشكل تهديدا محددا.

ولم تكن الموساد تحت قيادة «مئير» تمتلك تفويضاً بحرية الحركة داخل إسرائيل، أكثر من التفويض الذى تمتلكه المخابرات المركزية فى الولايات المتحدة.

ومع ذلك، وعلى الرغم من الانتقادات التى وجهت إليه، فإنه يجب القول ان الموساد شاركت فى تكوين مصير إسرائيل. فإن الأعمال التى قامت بها تحت قيادته أحدثت صدمات تردد صداها فى العالم أجمع. ويرجع الكثير من ذلك إلى الولاء وهى صفة يبدو أنها تلاشت الآن. مازال الناس يقومون بالعمل - الخطر والقذر كما كان دائما - لكنهم يتساءلون هل يُعتبرون مسؤولين أمام رؤسائهم أو أمام شخصية سياسية فى خلفية المسرح. ويرجع ذلك التداخل إلى جنون العظمة الذى يطفو بانتظام على السطح، ويتحدى مفهوم الديمقراطية الحقيقى فى إسرائيل.

يوجد مبنى بجانب الطريق السريع، بين منتجع هرتزليا وتل أبيب، تنتصب فيه

الهوائيات. إنه مدرسة التدريب التابعة للموساد. هذا المبنى الداكن اللون هو أول ما يتعرف عليه الضابط السياسي الجديد أو الجاسوس في أية سفارة أجنبية في تل أبيب، لكن لو ذكرته إحدى المطبوعات الإسرائيلية فستتعرض للمقاضاة. وقد كان هناك نقاش مهم في سنة ١٩٩٦ في داخل المخابرات الإسرائيلية، حول ما يمكن عمله إذا ذكرت إحدى الجرائد اسم آخر مدير عام للموساد المتزمت «داني يا توم». ودار الحديث حول سجن المحرر ورئيس التحرير. ولم يحدث شيء، في النهاية، حين عرفت الموساد ان اسم الرجل قد نشرته الصحف في جميع أنحاء العالم.

وكان «مئير أميت» ضد هذا الأمر تماما «ذكر اسم رئيس في الخدمة أمر خطير. فالتجسس عمل سرى ومزعج. وما فعله شخص ما يجب حمايته من الدخلاء. يمكنك محاسبته بالقسوة التى تراها، لكن داخل المؤسسة. أما بالنسبة للعالم الخارجى فلا يجوز أن يمس، والأفضل أن يظل مجهولا».

أثناء رئاسته للموساد، كان اسمه الحركى «رام». وللاسم رنين توراتى مقنع، عن ولد نشأ وسط الروح المعنوية المرتفعة للرواد الأول في وقت كان فيه عرب فلسطين في ثورة ضد اليهود والانتداب البريطاني. منذ صغره، تعود على الخشونة، وقد كان «مئير أميت» نحيفا وقويا ومشبعا بالاعتقاد ان هذه الأرض أرض إسرائيل، أرضه، ولا يهم إذا كان العالم كله يطلق عليها «فلسطين» حتى سنة ١٩٤٧ حين أعلنت الأمم المتحدة قرار التقسيم.

وكادت دولة إسرائيل الوليدة ان تنتهى إلى العدم حين حاولت الجيوش العربية استعادة الأرض. لقد قُتل ستة آلاف يهودى، ولا يعلم أحد على وجه اليقين كم مات من العرب. ان مشهد هذه الجثث انضج «مئير أميت» مبكرا، والذى عمق ذلك داخله، كان وصول الناجين من معسكرات الموت النازية، تحمل اجسادهم وشماً أزرق بشعاً مطبوعاً على اللحم. «إن المنظر يذكرك بعمق الفساد البشرى». إن هذه الكلمات ستبدو مبتذلة لو قالها آخرون، لكن «مئير» أضفى عليها نوعا من الجلال.

إن مسيرته العسكرية، هى سيرة جندى يسعى إلى القمة:

قائد سرية في حرب ١٩٤٨، وبعد سنتين أصبح قائد لواء تحت إمرة «موسى ديان»، وخلال خمس سنوات، تولى مسؤولية العمليات العسكرية، ثم نائب رئيس

الأركان، وانتهت مسيرته العسكرية حين تعرض لحادثة، فلم يفتح الباراشوت تماما في أحد التدريبات. فأرسلته الحكومة الإسرائيلية إلى جامعة كولومبيا حيث حصل على شهادة في إدارة الأعمال. وعاد إلى إسرائيل بلا عمل.

واقترح «موسى ديان» ان يُصبح «مئير» رئيسا للمخابرات العسكرية. وعلى الرغم من الاعتراض الأولى، بحجة أنه ليست لديه خبرة مخابراتية، إلا إنه عُين في المنصب. «الميزة الوحيدة التي كانت لدّى إني كنت قائدا ميدانيا وأعرف أهمية المخابرات الجيدة للجندى المحارب».

وفي ٢٥ مارس ١٩٦٣، أصبح رئيسا للموساد خلفا «لأسير هاريل». وكانت انجازاته كثيرة حتى إنها تحتاج قائمة خاصة بها: فهو الذى اقترح سياسة اغتيال الأعداء على يد ضباط الموساد، وهو الذى أقام رابطة عمل سرية مع المخابرات الروسيةKGB في الوقت الذى كان فيه ملايين اليهود يتعرضون للاضطهاد. وهو الذى قنن دور المرأة واستخدام التقارير الجنسية فى عمل المخابرات، وهو الذى اخترق رجاله القصر الملكى الهاشمي. ومازالت الوسائل الفنية التي ابتدعها لانجاز ذلك تُتبع حتى الآن، لكن لا أحد، خارج الجهاز، يعرف كيف ابتدأ كل ذلك. وكل ما يقوله وعضلات وجهه تضيق «إنها أسرار، وهى أسرارى الخاصة».

وحين جاء الوقت الذى شعر فيه ان الفائدة ستبعود على الموساد لو استلم زمام الأمور شخص آخر، استقال. ورحل دون ضجة، بعد أن جمع رجاله قائلا لهم «إذا تعارضت في يوم ما اخلاقياتكم الخاصة مع مطالب الدولة، فعليكم الاستقالة على الفور»، وصافحهم وانصرف.

ولكن، ما من رئيس تال للموساد إلا ودعاه على فنجان قهوة فى مكتبه فى شارع «جابوتنسكى» في ضاحية رامات جان الجميلة. وفى هذه المناسبات كان المكتب يظل مغلقاً والتليفون موقوفاً عن العمل. ويفسر ذلك بابتسامته الماكرة قائلا «كانت أمي تقول دائما إذا فقدت الثقة فقد فقدت صديقا».

وخارج نطاق عائلته الخاصة ـ قبيلة صغيرة من الأولاد والأحفاد وأولاد العم ـ فإن قليلين هم الذين يعرفون «مئير أميت».

فى ذلك الصباح، من شهر مارس ١٩٩٧، بدا «مئير» صغيرا لدرجة مدهشة كان يبدو فى الستين، بينما عمره الحقيقى خمس وسبعون سنة. ان الجسد الذى تحمل ضغوطا عديدة، رق وضعف، وهناك كرش صغير يبدو تحت السترة الزرقاء جيدة التفصيل. ومع ذلك مازالت عيناه حادتين لدرجة أنهما تبثان الفزع وتسبران الأغوار وتخترقان الأعماق بشكل لا يصدق، وهو يقود عربته فى اتجاه شارع مشجر بالايكولتس.

إنه لا يستطيع أن يعد كم من المرات قام بهذه الرحلة. لكن كل زيارة تذكره بالحقيقة القديمة «كى تعيش كيهودى، عليك بالدفاع عن نفسك حتى الموت».

والذكرى نفسها ترتسم على وجوه الجنود الذين ينتظرون الركوب تحت الأشجار خارج معسكر تدريب مجندى البحرية فى «جيلوت» خارج تل أبيب. إنهم يتبخترون بوقاحة، فهم يؤدون خدمتهم الاجبارية فى جيش الدفاع الإسرائيلى، مقتنعين إنهم يخدمون فى أفضل جيوش العالم.

قليلون هم الذين رمقوه بنظرة. فهو بالنسبة لهم مجرد رجل عجوز جاء لنصب الحرب التذكارى الواقع قرب مكان انتظارهم. فإسرائيل هى بلد أمثال هذا النصب - فهناك ١٥٠٠ نصب تذكارى - أقيم لتخليد ذكرى المشاة. والطيارين، ورجال المدرعات، ورجال المظلات، الذين قتلوا خلال خمسة حروب تقليدية، وخمسين سنة من الغارات عبر الحدود والعمليات ضد الفدائيين. ومع ذلك، فأمة تخلد ذكرى محاربيها بطريقة لم تحدث منذ احتلال الرومان هذه البلاد، لا يوجد فيها، ولا فى أى مكان فى العالم، مثل هذا النصب الذى ساعد «مئير» فى اقامته، ويقع داخل الحدود الخارجية لمعسكر تدريب مجندى البحرية، ويتكون من عدة مبان أسمنتية، وعدد كبير من حوائط الحجر الرملى على هيئة مخ إنسان. وقد اختار «مئير» ذلك الشكل لأن «المخابرات كلها تدور حول العقل، وليست شكلا برونزيا يتخذ وضعا بطوليا».

كان النصب تخليدا لذكرى ٥٥٧ رجلا وامرأة ممن عملوا فى المخابرات الإسرائيلية، إلا أنهم خدموا فى الموساد، وماتوا فى كل ركن من العالم: فى صحارى العراق، وجبال ايران، غابات جنوب ووسط أمريكا، وأدغال أفريقيا، وشوارع أوروبا. كل منهم حاول ان يعيش تبعا لشعار الموساد «حارب عن طريق الخداع».

وقد عرف «مئير» الكثير منهم شخصيا، وبعضهم هو الذى أرسله إلى حتفه فى مهمات خطرة، ولكن ذلك ندم لا يمكن تجنبه فى مثل هذا العمل. «فإن وفاة شخص واحد لابد ان تقارن بأمن الأمة. ودائما يكون الأمر هكذا».

على الجدران الناعمة للنصب هناك الأسماء وتاريخ الوفاة فقط. ليس هناك شرح للظروف التى صاحبت الوفاة. الاعدام شنقا وعلنا لكل جاسوس يهودى أدين فى الدول العربية، طعنة سكين فى شارع مجهول، وفاة بعد أشهر من التعذيب فى السجن، ولا أحد يعرف بالضبط كيف كان الأمر، و«مئير» نفسه يخمن فقط فى أغلب الأحوال.

هذا النصب هو جزء من مجمع الذكرى. فداخل المبانى الأسمنتية هناك غرفة الملفات التى تضم السير الذاتية للعملاء الموتى. فالحياة المبكرة والخدمة العسكرية لكل منهم موثقة بعناية، لكن لا يوجد ذكر للمهمة السرية الأخيرة. وهناك نصيب تذكارى داخل معبد يهودى صغير أقيم تخليدا لذكرى يوم وفاة كل منهم. ووراء المعبد مدرج تتجمع فيه أسرهم فى يوم معين لتحيى ذكراهم. أحيانا يُلقى مئير كلمة فيهم. ويزورون بعد ذلك المتحف الملحق المملوء بأشياء من صنع الإنسان: جهاز ارسال على قاعدة مكواة، ميكروفون فى فنجان قهوة، حبر سرى فى زجاجة عطر، الشريط الحقيقى الذى سُجلت عليه سرا المكالمة الحاسمة بين جمال عبدالناصر والملك حسين، فى بداية حرب الأيام الستة.

ولقد صقل «مئير» قصص رجاله الذين استخدموا هذه المعدات بحيث أضحت أسطورة بطولية، فيشير إلى ملابس التخفى التى كان يرتديها الجاسوس «بوقائى» حين يتسلل داخل أو خارج الأردن، قبل أن يقبض عليه ويعدم فى عمان سنة ١٩٤٩، أو جهاز الراديو البللورى الذى استخدمه ماكس بنيت وموسى مرزوق فى ادارة أكبر شبكة تجسس ناجحة فى مصر، قبل ان يموتا ميتة أليمة فى سجن بالقاهرة.

وكانوا جميعا بالنسبة «للمئير»، «أولاده الجدعانيون» وجدعون هو البطل الأسطورى فى التوراة الذى أنقذ إسرائيل من قوات معادية متفوقة باستخدام ذكائه المتفوق.

وحان الوقت أخيرا للذهاب إلى المتاهة - شبكة من الممرات المعقدة - بصحبة أمين المتحف. إنهما يقفان بصمت أمام كل اسم محفور، وبعد انحناءة طفيفة غير ملحوظة

من الرأس، يتحركان. وسرح ذهن «مئير» لحظات، وهمس باللغة العبرية إلى أمين المتحف «مهما حدث، يجب أن نضمن بقاء هذا المكان».

وأضاف «ان الرئيس حافظ الأسد يحتفظ على حائط مكتبه فى دمشق بصورة واحدة كبيرة تصور الموقع الذى انتصر فيه صلاح الدين على الصليبيين سنة ١١٨٧ فى حطين، وأدى ذلك إلى استعادة العرب للقدس».

ويرى «مئير» ان ولع «الأسد» بالصورة اشارة إلى إسرائيل. «فهو يرانا بالطريقة نفسها التى رأى بها صلاح الدين الصليبيين. لابد من اختفاء أحد منا أخيرا».

توقف. ودّع أمين المتحف، وسار إلى عربته كما لو إنه قال الكثير، أو إن ما قاله سيزيد من الهمس الذى بدأ يتردد داخل وكالة الاستخبارات الإسرائيلية فهناك مأساة أخرى فى التعاون القلق بين الموساد والمخابرات المركزية الأمريكية على وشك أن تطفو على السطح ـ بنتائجها الوخيمة على إسرائيل، وغارق فيها أحد أقسى الرجال ممن سبق أن عملوا تحت إمرة «مئير»، رجل حفظ مركزه فى التاريخ بإلقائه القبض على «ادولف ايخمان»، ومازال يحب اللعب بالنار.

«صمتنا كان أكثر من ضرورة عملية. لم نرد أن يعرف

مدى عصبيتنا. فذلك قد يعطيه الأمل. والأمل يجعل من اليائس شخصاً خطيراً. أريده أن يكون عاجزاً

مثل قومى حين أرسلهم فى القطارات إلى معسكرات الموت.»

الفصل
الرابع

الجاسوس ذو القناع
الحديدى

اعتاد المقيمون الأثرياء فى ضاحية «أفيكا» المنعزلة فى شمال تل أبيب، على رؤية «رفائيل ايتان»، ذلك الرجل القصير البدين، العجوز قصير النظر، الأصم فى اذنه اليمنى منذ حرب الاستقلال الإسرائيلية، وهو يعود إلى منزله يحمل قطعا من الخردة المختلفة، أنابيب صرف صحى، سلاسل دراجات مستعملة، أشياء حديدية منوعة. يرتدى بنطلونا وقميصا من ماركة واحدة، ويغطى وجهه بواقية لحام وهو يشكل من النفايات منحوتات سريالية بشعلة من الاسيتيلين.

وتساءل البعض هل تلك وسيلة للهروب المؤقت مما فعله. فهم يعرفون أنه قتل الكثيرين من أجل بلده، ليس فى معركة علنية، ولكن فى مواجهات سرية كانت جزءاً من الحرب الدائمة غير المعلنة التى تشنها إسرائيل على الدول المعادية لها. ولا يعرف أحد كم عدد الذين قتلهم «إيتان» وبعضهم باستخدام يديه القويتين الغليظتين فقط. كل ما أخبرهم به «أهمُّ ما كنت احتاجه عند قتل أحد ان انظر فى عينيه، بياض عينيه. آنذاك يسيطر علىّ الهدوء، واركز بشدة، مفكرا بما يجب ان أفعله. ثم اقتل. ذلك كل ما فى الأمر». ويبتسم ابتسامة محببة كتلك التى يستخدمها الأقوياء حين يبحثون عن استحسان الضعفاء.

لقد ظل «رافى إيتان» لمدة ربع قرن تقريبا نائب مدير العمليات التنفيذية فى الموساد، فالحياة وراء المكتب وقراءة التقارير وارسال الآخرين لتنفيذ الأوامر، لم تخلق له. فقد كان يذهب إلى الميدان كلما سنحت الفرصة، يجوب العالم، متبعا فلسفة يختصرها فى جملة مثقلة بالمعنى «إذا لم تكن جزءا من الحل، فانت جزء من المشكلة».

لا يشبهه أحد فى قسوة قلبه ودمه البارد، فى مكره وتصرفه الوحشى السريع، يتغلب على اية خطة مرسومة بدقة بمهارته المطبوعة، ويطارد فريسته دون كلل. واجتمعت كل هذه الصفات، فى عملية واحدة أعطته شهرة دائمة: خطف ادولف ايخمان النازى الذى تجمع فيه كل رعب الحل الأخير الذى قرره هتلر للتخلص من اليهود.

ينظر إليه جيرانه فى شارع «شاى» كرجل مبجل، انتقم لأقربائهم الذين رحلوا، والذى اتيحت له الفرصة ليذكر العالم بأن لا نجاة لأى نازى حى. ولا يملّون من تلبية دعوته لزيارته فى بيته، ليتحدث إليهم عن العملية التى ليس لها مثيل فى جرأتها. إنه يجلس مربعا ذراعيه، تحيطه أعمال فنية ثمينة، ويميل برأسه، ويظل صامتا لحظة،

متيحا الفرصة لزواره ان يعودوا بذاكرتهم إلى تلك الفترة الحاسمة فى تاريخ إسرائيل. ثم يبدأ الحديث بصوت قوى، صوت ممثل يلعب كل الأدوار، ولا يفوته شيء، يحكي لأصدقائه المقربين قصة القبض على «ادولف ايخمان»، ممهدا المشهد لأحد أهم قصص الخطف الدرامية فى التاريخ.

بعد الحرب العالمية الثانية، كان تتبع مجرمى الحرب من النازيين من اختصاص الناجين من المذبحة. كانوا يسمون أنفسهم «المنتقمون»، كانوا لا يهتمون بالمحاكمات القانونية، فقد كانوا يقتلون أى «نازى» يعثرون عليه. ولا يعرف «رافى إيتان» حالة واحدة اخطأوا فيها الحكم. ولم يكن هناك اهتمام، على المستوى الرسمى فى إسرائيل بتتبع مجرمى الحرب. كانت القضية مسألة أولويات. فالدولة مازالت تحبو محاطة بدول عربية معادية، ولم تكن هناك نقود لتتبع شرور الماضي، فالدولة كانت مفلسة تقريبا.

فى سنة ١٩٥٧، عرفت الموساد ان «ايخمان» قد شوهد فى الأرجنتين. وكان «رافى إيتان» نجما صاعدا فى الموساد نتيجة لعملياته الماكرة ضد العرب، فاختير للقبض على «ايخمان» واحضاره إلى إسرائيل لمحاكمته، ليحقق بذلك فوائد عدة: نوعاً من العدالة الالهية بالنسبة للشعب اليهودى، وتذكيراً للعالم بمعسكرات التعذيب النازية والتأكيد على أنها لن تتكرر، ثم وضع الموساد على قمة أجهزة المخابرات فى العالم. فلم تجرؤ أية وكالة للمخابرات فى القيام بمثل هذا العمل. وكانت المخاطر كبيرة. فسيعمل فى مكان يبعد آلاف الأميال عن وطنه، ويسافر بوثائق مزورة، ويعتمد على مصادره الخاصة، ويعمل فى بيئة معادية، فقد كانت الارجنتين ملاذا للنازيين، وقد ينتهى الأمر بفريق الموساد إلى السجن أو حتى القتل.

وانتظر سنتين بفارغ الصبر، حتى تأكدت الرؤية وعُرف الرجل الذى يعيش فى أحد أحياء الطبقة الوسطى فى «بوينس ايرس» تحت اسم «ريتشاردو كليمنت» هو بالفعل «ادولف ايخمان».

وحين صدر الأمر ببدء العملية، أصبح «إيتان» فى منتهى البرود. فكر فى كل الاحتمالات، السياسية والدبلوماسية، وبالنسبة إليه هو المحترف سيكون صدى الأحداث هائلا. وتساءل ماذا سيحدث إذا تدخل البوليس الارجنتيني وهم يقبضون

على «ايخمان» «سأخنقه بيدى، وإذا ألقي القبض على سأقول للمحكمة كان الأمر كما في التوراة «العين بالعين».

واشترت شركة «العال» لهذه العملية طائرة بريطانية من أموال الرشوة لدى الموساد، طويلة المدى للوصول إلى الأرجنتين دون توقف، ويعلق «رافى إيتان»:

«ارسلنا شخصا إلى بريطانيا لشراء واحدة. دفع النقود واستلمها. كانت الطائرة ستحمل رسميا الوفد الإسرائيلي للمشاركة في احتفالات العيد ١٥٠ لاستقلال الأرجنتين. ولم يكن أحد في الوفد يعرف أننا ذاهبون معهم أو أننا أقمنا زنزانة في مؤخرة الطائرة لنضع فيها «ايخمان».»

ووصل إيتان وفريقه إلى «بوينس ايرس» في أحد أيام مايو سنة ١٩٦٠ . وذهبوا إلى أحد المنازل السبعة للموساد والتى كانت قد استؤجرت من قبل. وسيكون هذا المنزل هو القاعدة التى سيتحركون منها، واسموه «الحصن». وبيت مؤمن آخر اسموه «القصر» لاحتجاز «ايخمان» بعد اختطافه. والبيوت الأخرى كانت للانتقال إليها فيما لو تعرضوا لضغوط من الشرطة. كما استؤجرت «دستة» من العربات للعملية.

وحين أصبح كل شيء في مكانه، هدأت تصرفات «ايتان»، وزايلته شكوك الفشل، وحل محل قلق الانتظار توقع البداية الناجحة. ولمدة ثلاثة أيام قام هو وفريقه بمراقبة سرية «لأيخمان»، الذى كان يركب ذات يوم سيارة مرسيدس بسائق، أما الآن فهو يركب الباص وينزل على ناصية شارع «غاريبالدى» في ضاحية خارج المدينة، بالدقة ذاتها التى كان يوقع بها على أوامر إرسال اليهود إلى معسكرات الموت.

وفى ليلة العاشر من مايو سنة ١٩٦٠ ، اختار «رافى إيتان» لعملية الخطف سائقاً، واثنين لاخضاع ايخمان حين وضعه في السيارة، أحدهما مدرب على التغلب على الهدف في الشارع. وبينما يجلس هو بجانب السائق «جاهزاً للمساعدة بأية طريقة استطيعها».

ستنفذ العملية في مساء اليوم التالى، ففى الساعة الثامنة مساء يوم ١١ مايو، تحركت سيارة الفريق إلى شارع غاريبالدى.

لم يكن هناك أى توتر، فلقد تغلب الفريق على ذلك منذ زمن. لم ينبس أحد

يكلمة فلا شيء يمكن قوله. نظر إيتان إلى ساعته: الثامنة وثلاث دقائق قطعوا الشارع الخالي جيئة وذهابا، مرت عدة باصات. وفي الساعة الثامنة وخمس دقائق وصل أحد الباصات ورأوا «ايخمان» ينزل منه. وبالنسبة «لإيتان» فقد رآه هكذا:

«بدا متعبا قليلا، ربما كما كان يبدو بعد يوم من ارسال قومي إلى معسكرات الموت. مازال الشارع خاليا. وسمعت الرجل الذي سيختطفه يفتح باب السيارة. وسرنا خلف «ايخمان»، كان يسير بسرعة كمن يتعجل الوصول إلى منزله ليلحق بالعشاء. كنت أسمع صوت تنفس المتخصص بالخطف كما تعلّم أثناء التدريب. كان لديه ١٢ ثانية لاتمام العملية، يخرج من السيارة، يقبض عليه من العنق، يسحبه إلى العربة، وننطلق».

حازت السيارة ايخمان. استدار نصف استدارة، والقى نظرة حائرة على الرجل الذى يهبط من العربة، ثم تعثر الرجل برباط حذائه وكاد يقع على الأرض. وللحظة شلت الدهشة «إيتان». لقد كاد يمسك بالرجل المسؤول عن إرسال ستة ملايين يهودى إلى حتفهم، وهو الآن على وشك فقده لأن رباط الحذاء لم يكن مربوطاً جيداً. وبدأ «ايخمان» يُسرع فى سيره. وقفز «إيتان» من العربة:

«أمسكته من رقبته بقوة حتى كادت تخرج عيناه. لو ضغطت أكثر قليلاً لقتلته. كان المتخصص الذى وقع قد نهض وفتح باب العربة. فقذفت ايخمان بقوة على المقعد الخلفي، وقفز المتخصص على الجزء الأعلى من جسمه. لم يستغرق الأمر أكثر من خمس ثوان.»

كان «ايخمان» يكافح من أجل الهواء، ووصلت رائحة انفاسه إلى «إيتان» فى المعقد الأمامي. ساعده المتخصص بتحريك فكه إلى أعلى وأسفل. هدأ وحاول أن يسأل ما معنى هذه الإساءة البالغة.

لم يكلمه أحد. ووصلوا منزلهم الآمن على بعد ثلاثة أميال فى صمت. أمره «إيتان» بأن يتعرى تماما. وبدأ يأخذ مقاساته ويقارنها بمقاسات فى ملف لفرق الصاعقة الألمانية SS كان قد حصل عليه. لم يُدهش حين رأى ايخمان قد أزال وشم SS عن ذراعه، لكن كل المقاسات جاءت مطابقة لما جاء بالملف - حجم الرأس، المسافة بين الرسغ والكوع، ومن الركبة للكاحل. وربط ايخمان بالسلاسل فى السرير، وترك لمدة

عشر ساعات في صمت مطبق. كان «إيتان» «يريد أن ينمي داخله الشعور باليأس. وقبل الفجر، كان ايخمان في أسوأ حالاته. سألته عن اسمه، فقال لي اسما اسبانيا. قلت: لا. لا. اسمك الألماني. فأعطاني اسمه المزيف الذى غادر فيه ألمانيا إلى الأرجنتين. قلت ثانية: لا. لا. اسمك الحقيقي في فرق SS. تمدد على السرير وكأنه يريد أن يقف في وضع الانتباه، وقال بصوت عال وواضح: «أدولف ايخمان». فلم أسأله ثانية. لم أكن بحاجة إلى ذلك.»

«صمتنا كان أكثر من ضرورة عملية. لم نرد أن يعرف مدى عصبيتنا. فذلك قد يعطيه الأمل. والأمل يجعل من اليائس شخصاً خطيراً. أريده أن يكون عاجزاً مثل قومي حين أرسلهم في القطارات إلى معسكرات الموت.»

خطة نقله من المنزل الآمن إلى طائرة العال التي تنتظر لنقل الوفد الإسرائيلي، كانت كوميديا سوداء بحد ذاتها. البسوه زيّ المضيفين العاملين على الطائرة، وكان «إيتان» قد أحضر زياً إضافياً من إسرائيل. ثم اجبروه على شرب زجاجة كاملة من الويسكي. فاصبح سكران مذهولا. ولبس «إيتان» وفريقه زيّ المضيفين الخاص بهم، ورشوا ملابسهم بالويسكي، ووضعوا قبعة طيران على رأس «إيخمان» والقوة في المقعد الخلفي للسيارة، وانطلقوا إلى قاعدة الطيران العسكرية التي تنتظر فيها الطائرة على وشك الاقلاع.

أوقف حراس البوابة الارجنتيين السيارة. كان «ايخمان» يشخر في المقعد الخلفي. «كانت رائحة السيارة كمعمل تقطير الكحول. تلك هي اللحظة التي استحققنا عليها نجمة الموساد. مثلنا دور يهود مخمورين لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الخمرة الأرجنتينية. سُر الحراس ولم يلقوا نظرة ثانية على ايخمان».

بعد منتصف الليل بخمس دقائق يوم ٢١ مايو سنة ١٩٦٠، أقلعت الطائرة، و«ايخمان» مازال يشخر في زنزانته في مؤخرة الطائرة.

وبعد محاكمة طويلة، وجد «ايخمان» مذنبا لارتكابه جرائم ضد الإنسانية. وفي يوم اعدامه ٣١ مايو سنة ١٩٦٢، كان «إيتان» في غرفة الإعدام في سجن الرملة. «نظر ايخمان نحوى وقال: سيأتى يومك أيها اليهودى. فأجبته: ليس اليوم على كل حال. ليس اليوم. في اللحظة التالية نفذ فيه الحكم. فاصدر صوتا مخنوقا خافتاً، ثم

رائحة اخراجه، فصوت الحبل، إنه صوت مُرْضى تماما.»

وبُنى فرن خاص لاحراق الجثة. وخلال ساعات كان الرماد يبعثر فى البحر على مسافة واسعة. فقد أمر «بن جوريون» ألا يترك أثر له يشجع المتعاطفين معه لتحويله إلى معبود نازى. أرادته إسرائيل أن يُمحى عن ظهر الأرض. وقد فُك الفرن بعد ذلك حتى لا يستخدم ثانية. وفى ذلك المساء، وقف «إيتان» على الشاطئ ونظر إلى البحر، شاعرا بالسلام «فقد انهيت مهمتى، وذلك دائما شعور جيد».

وظل «إيتان»، نائب رئيس العمليات فى الموساد، يجوب أوروبا قاتلا الارهابيين العرب، مستخدما القنابل التى تنفجر بالتحكم عن بعد، وسلاح الموساد الشخصى «بريتا ٢٢»، وحين يكون الصمت ضروريا، كان يستخدم يديه إما لخنق الضحية بسلك من الفولاذ، أو بضربة على مؤخرة العنق. كان يقتل بلا ندم.

وحين يعود إلى منزله، كان يقف بالساعات أمام فرن صهر المعادن، يغطيه الشرر، مستغرقاً تماما فى ثنى المعادن كما يريد. ثم يقوم ثانية برحلات يغير فيها عددا من الطائرات قبل ان يصل إلى المكان الذى يريد.

ويختار لكل رحلة جنسية وهوية جديدة، من العدد الكبير من جوازات السفر المسروقة أو التى زيفتها الموساد بدقة. ووسط ذلك كان يمارس مهارته الثانية فى تجنيد المساعدين للموساد «السيانيم». وكانت له طريقته فى استغلال حب اليهود لوطنهم:

«كنت أخبرهم ان شعبنا كان يحلم منذ ألفىْ سنة. وإنه كان يصلى خلال هذه الفترة من أجل الخلاص. واحتفظنا بالحلم حيا فى قلوبنا شعرا ونثرا، وابقانا الحلم احياءً. والآن تحقق الحلم. ولكى نحافظ على استمراره نحتاج أناسا مثلكم.» وكان يردد هذه الكلمات فى مقاهى باريس على طول البوليفار، فى المطاعم على جانبى الراين، فى مدريد وبركسل ولندن. وغالبا كانت رؤيته لما يعنيه اليهودى الان تكسب مساعدا آخر. أما مع المترددين، فإنه يمزج، برشاقة، الشخصى بالسياسى، ساردا قصصا عن الفترة التى كان فيها فى «الهاجاناه» مع حكايات مؤثرة عن بن جوريون وقادة آخرين، ويذوب التردد.

لقد استطاع تجنيد أكثر من مئة رجل وامرأة عبر أوروبا يلبّون أوامره: محامين

وأطبـاء أسنان ومـدرسـين وأطبـاء، خيـاطين وأصحـاب دكـاكـين، ربات بيـوت وسـكرتيـرات. وكـان يعتـز بمجـموعـة خـاصـة: اليـهـود الألمان الذين عـادوا إلى أرض المذبحة. وكان يسـميهم «الجواسيس الناجين».

كان «رافى إيتان» حريصا على ابعاد نفسه عن الانهماك فى السياسة التى استمرت فى تشويش وكالة المخابرات الإسرائيلية. كان يعلم بما يجرى بالطبع، مناورات «أمان» فى المخـابرات العـسكرية، والشـين بيت، إدارة الأمن الداخلى، فى الحدّ من بعض سلطات الموسـاد العليـا. وسمع عن المكائد التى تحاك مرة ومرة، والتقارير المريبة التى يرسلونها إلى «بن جوريون» رئيس الوزراء. ولكن ظلت الموسـاد تحت قيـادة «مئيـر أميت» صخرة ثابتة، صلبة أمام كل محاولات إفساد موقعها المتميز.

ثم، ذات يوم، لم يعد «مئير أميت» قائدا للموسـاد. واختفت خطواته الرشيقة من الممرات، ونظراته النافذة والابتسامة التى لم تبد قط إنها تصل شفتيه. وبعد رحيله، طلب زملاء «إيتان» ان يسمح لهم بالضغط ليصبح خليفة لمئير أميت، حيث تتوفر فيه المواصفات المطلوبة، وله شعبيـة وولاء داخل الموسـاد. لكن وقبل ان يقـرر، ذهب المنصب إلى مرشح حزب العمل المتحذلق الباهت «زفى زامير». واستقال «رافى إيتان». لم يتشاجر مع الرئيس الجديد، لكنه شعر ان المكان لم يعد يشعره بالراحة.

تحت إمرة «مئير» كان يتجول كما يحلو له فى واقع الأمر، ولقد شعر ان «زامير» «سيقوم بالعمل تبعا للتعليمات. وهذا لا يروق لى».

وبدأ يعمل كمنتشار خاص، يعرض مهاراته على شركات تريد ان تدرب رجال أمنها، أو على اثرياء يحتاجون ان يكون فريق حراستهم متدربا على مكافحة هجمات الارهابيين. ولكن سرعان ما بهت هذا العمل، وبعد سنة ابدى «إيتان» استعداده للعودة إلى العمل المخابراتى.

حين أصبح «اسحق رابين» رئيسا للوزراء سنة ١٩٧٤، عيّن العدوانى «اسحق هوفى» مديرا للموساد، وجعله مسؤولا أمام «اريل شارون» الذى كان مستشار رابين لشؤون الأمن. وقام شارون، على الفور، بتعيين «رافى إيتان» مساعده الشخصى، ووجد «هوفى» نفسه يعمل بقرب رجل يشاركه موقفه تجاه عمليات المخابرات.

وبعد ثلاث سنوات، في تغيير آخر للحكومة، عيَن رئيس الوزراء الجديد «مناحم بيجين»، «رافي إيتان» مستشاره الشخصي للارهاب. وكان عمله الأول تنظيم عملية اغتيال الفلسطيني الذى خطط لمذبحة الألعاب الأوليمبية فى ميونيخ سنة ١٩٧٢ وقتل فيها أحد عشر رياضياً إسرائيلياً.

كان المشاركون الاخرون قد قتلتهم الموساد واحدا واحدا. الأول كان يقف فى صالة بيته في روما حين أطلقت عليه عن قرب إحدى عشرة طلقة بعدد الإسرائيليين الذين ماتوا. والثانى انفجرت في وجهة قنبلة كانت مزروعة في جهاز التليفون وفجرت عن بعد حين رد على مكالمة. وآخر انفجرت في غرفته بالفندق الذى ينزل فيه فى نيقوسيا قنبلة أودت بحياته.

ولكى يبثوا الرعب فى قلوب المجموعة الباقية من «ايلول الأسود» والتى خططت لقتل الرياضيين الإسرائيليين، فإن عملاء الموساد العرب رتبوا الأمر ليظهر نعيهم فى الصحف العربية المحلية، وتلقت عائلاتهم الزهور والتعازى قبل أن يتم قتلهم.

وبدأ «إيتان» البحث على قائدهم، «على حسن سلامة» المشهور فى العالم العربى بالأمير الأحمر. ومنذ حادثة ميونيخ وهو ينتقل من عاصمة عربية إلى أخرى متحدثا للجماعات الارهابية عن استراتيجية الارهاب. وكلما حاول «إيتان» ان يضرب، كان الهدف ينتقل إلى مكان آخر، حتى استقر أخيرا وسط صانعى القنابل فى بيروت. كان «إيتان» يعرف المدينة جيدا، ومع ذلك قرر ان يُنعش ذاكرته. فسافر إلى هناك متنكرا كرجل أعمال يونانى. وخلال أيام قليلة كان قد اكتشف بدقة مكان وتحركات «حسن سلامة».

فعاد إلى تل أبيب وبدأ رسم خططه. عبر ثلاثة من عملاء الموساد الحدود اللبنانية كعرب، وسافروا إلى بيروت. استأجر أحدهم سيارة. والآخر لغَمها بعدد من القنابل في الشاسيه والسقف والأبواب. والثالث ركن العربة فى الطريق الذى يقطعه الأمير الأحمر إلى مكتبه كل صباح. وباستخدام توقيت دقيق، انفجرت العربة أثناء مروره بقربها، فتناثرت اجزاؤه.

واثبت «إيتان» إنه مازال لاعبا ماهرا فى جهاز المخابرات الإسرائيلى. لكن رئيس الوزراء «مناحم بيجن» قرر ان «إيتان» أثمن من ان يخاطر به بمثل هذه المغامرات. وأخبر

مستشاره ان يمكث فى مكتبه من الآن فصاعدا . ولقد استخدم الكاتب الإنجليزى «جون لوكير» «إيتان» نموذجا لشخصيته الرئيسية فى روايته «الطبالة الصغيرة».(*)

لكن اعطاء المصداقية لخيال روائى، لن يجعل قلق إيتان الدائم يستقر . لقد أراد ان يكون فى موقع العمل، وليس وراء مكتب أو حضور جلسات لا تنتهى . وبدأ يلح على رئيس الوزراء ليعطيه عملا يقوم به .

بعد تردد ـ فقد كان إيتان مستشارا ممتاز للارهاب المضاد ـ عينه «بيجن» فى أحد أكثر المناصب حساسية فى المخابرات، مديرا لمكتب التعاون العلمى المسمى بالعبرية «لاكام LAKAM» حيث يمكنه ان يوسع ثقافته ويشبع توقه إلى العمل اليدوى .

لقد انشىء هذا المكتب سنة ١٩٦٠ كوحدة تجسسية لوزارة الدفاع للحصول على المعلومات العلمية بأية طريقة ممكنة بمعنى السرقة أو رشوة من يستطيع تقديم هذه المعلومات . ومنذ البداية قوبل هذا المكتب بالعداء من الموساد، فقد رأت فيه، كما يقول المثل «ولدا جديدا على الحجر» . وحاول «أسر هاريل» ومن بعده «مئير أميت» اغلاق المكتب أو استيعابه داخل الموساد . لكن «شمعون بيريز» نائب وزير الدفاع أصر بعناد على أن يكون لوزارة الدفاع وكالتها الخاصة لجمع المعلومات . وبدأ المكتب ببطء وجهد يقوم بعمله . ففتح فروعا له فى نيويورك وواشنطن، وبوسطن ولوس انجلس، وكل المراكز العلمية المهمة . وكان أعضاء هذه الفروع يشحنون كل أسبوع صناديق مملوءة بالمجلات العلمية إلى إسرائيل، مدركين أن المباحث الفيدرالية الأمريكية تراقب أنشطتهم .

وازدادت هذه المراقبة بعد سنة ١٩٦٨ حين اكتشف ان أحد المهندسين العاملين فى صناعة طائرة الميراج الفرنسية THC قد سرق أكثر من مائتى ألف رسم تخطيطى، وحكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات ونصف، وحصلت إسرائيل على بيانات جعلتها تصنع طائراتها الميراج الخاصة بالمواصفات الفرنسية نفسها . ومنذ ذلك الوقت حقق مكتب «لاكام» نجاحا مفرحا آخر .

كانت ذكرى سرقة أسرار الميراج هى العامل الحاسم لدى «رافى إيتان» ؛ فما تحقق

(*) صدرت ترجمة لها عن روايات الهلال فى مصر (الترجمة) .

في الماضي يمكن أن يتحقق مثله الآن. لابد أن يحول «لاكام» إلى قوة يُحسب حسابها.

كانوا يعملون في مكاتب ضيقة في موضع خلفي منعزل في تل أبيب. قال لرجاله الذين أصابتهم الرهبة من رئيسهم الأسطوري الجديد، إن معلوماته العلمية يمكن أن توضع في انبوبة اختبار وتظل شبه فارغة، لكنه تعلم سرعة.

وغرق في عالم العلوم، باحثا عن أماكن ثرية علميا ليجعلها هدفا. كان يترك منزله قبل الفجر ويعود غالبا قرب منتصف الليل يحمل رزما من الأوراق التقنية ليقرأها في ساعات الصباح الأولى، كانت ساعات راحته قليلة خاصة مع هوايته بتحويل بقايا المعادن إلى منحوتات. ومع كم المعلومات التي استوعبها، أعاد الاتصال بالموساد ورئيسها الجديد «ناحوم ادموني» الذى كان يشاركه الرأى بالشك في نيات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. مازالت واشنطن تبدى التزامها علنا نحو إسرائيل، ومازالت قناة الاتصال السرية مع المخابرات المركزية مفتوحة، لكن «ادموني» يشكو بأن المعلومات ذات أهمية ضئيلة.

كما كان مهتماً بالتقارير التي يبعثها عملاء الموساد، وبالمواقع الجيدة التي يحتلها المساعدون في واشنطن. لقد اكتشفوا ان هناك لقاءات خفية بين كبار المسؤولين الأمريكيين وقادة عرب مؤيدين لعرفات، لبحث وسائل الضغط على إسرائيل للتكيّف مع المطالب الفلسطينية. وقال «لإيتان» إنه لم يعد يشعر ان الولايات المتحدة صديق وفي.

ووقعت حادثة، هزت أمريكا كما لم يهزها شيء منذ حرب ڤيتنام، عززت هذا الموقف. فقد اكتشف عملاء الموساد في أغسطس سنة ١٩٨٣ أن هناك هجوماً يخطط ضد قوات السلام الأمريكية في بيروت. وأن هناك لورياً محمّلاً بنصف طن من المتفجرات سيستخدم في العملية. وكان المفروض أن تبلغ الموساد، عن طريق القناة الخلفية، المخابرات المركزية بالأمر. لكن في اجتماع لقيادة الموساد في مقرها المطل على شارع الملك شاؤول قيل لهم: «تأكدوا أن رجالنا يراقبون اللورى جيداً. أما بالنسبة للأمريكيين فلسنا هنا لحمياتهم. فليقوموا بالعمل لأنفسهم، لقد فعلنا الكثير من أجلهم.»

وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٨٣ ، وتحت أعين عملاء الموساد، اندفعت عربة اللورى بسرعة شديدة لتصطدم بمقر قيادة القوات الأمريكية قرب مطار بيروت، مما أدى لقتل ٢٤١ جندياً من قوات البحرية.

وكان رد الفعل لدى قيادة الموساد، كما يقول «فيكتور استروفسكى» الضابط السابق فيها: «لقد أرادوا أن يدسوا أنفهم فى المسألة اللبنانية، فدعهم يدفعون الثمن».

هذا الموقف شجع «ايتان» أن يستهدف الولايات المتحدة. إن علومها هى الأكثر تقدما فى العالم، وتكنلوچيتها الحربية لا يعادلها شيء.

وإذا استطاع أن يضع يده على بعض تلك المعلومات فستكون ضربة هائلة. وإن العائق الأول هو الأصعب: إيجاد العميل الكفء فى المكان المناسب للحصول على المعلومات.

واستعان بقائمة المساعدين الموجودين فى الولايات المتحدة، والذين ساعد فى جمعهم أثناء خدمته فى الموساد، قائلا لهم إنه يحتاج شخصا ذا خلفية علمية ومؤيدا لإسرائيل. ولشهور عديدة لم يأت الأمر بنتيجة.

ثم، فى أبريل سنة ١٩٨٤ كان هناك كولونيل فى سلاح الجو الإسرائيلى هو: أفييم سيلا - فى أجازة لدراسة علوم الكمبيوتر فى نيويورك، وذهب ذات يوم إلى حفلة يقيمها أحد الأثرياء اليهود من الأطباء المتخصصين بأمراض النساء، فى مانهاتن. وكان «لسيلا» شهرة طفيفة فى أوساط المجتمع اليهودى فى المدينة، بأنه قائد الهجوم الجوى الذى دمر المفاعل الذرى العراقى قبل ثلاث سنوات.

وكان فى الحفلة شاب خجول ذو ابتسامة حييّة بدا عليه القلق وسط هذه المجموعة الصغيرة من الأطباء والمحامين ورجال البنوك. قال «لسيلا» إن اسمه «جوناثان بولارد» والسبب الوحيد لحضوره الحفل هو من أجل مقابلته. فارتبك «سيلا» من هذا التملق، وتحدث قليلا بأدب ثم تحرك لينصرف، فقال «بولارد» إنه ليس صهيونيا فقط ولكنه يعمل فى مخابرات البحرية الأمريكية. وفى وقت قليل، عرف الماكر سيلا ان «بولارد» يعمل فى مركز الانذار المضاد للارهاب فى أحد أكثر المؤسسات سرية فى البحرية

الأمريكية في «سوتيلاند ـ ميرلاند»، وإن من مهامه رصد جميع المعلومات السرية الخاصة بالنشاطات الارهابية في العالم. كان عملا مهما لأن لديه أعلى تصريح أمني في المخابرات.

لم يصدق «سيلا» ما سمعه، خاصة حين بدأ «بولارد» يعطي تفصيلات محددة لما تتعاون فيه المخابرات الأمريكية مع شريكتها الإسرائيلية.

وأخذ سيلا يتساءل هل بولارد جزء من عملية اختراق للمباحث الفيدرالية لتجنيد أحد الإسرائيليين؟ ومع ذلك كان هناك شيء ما في حماس بولارد يدفع على الصدق. فاتصل «سيلا» تلك الليلة بتل أبيب وتحدث مع قائد المخابرات الجوية الذى حول المكالمة إلى قائد الطيران. وأمر «سيلا» بتنمية اتصالاته مع «بولارد».

وبدأ الاثنان يتقابلان: في حلقة التزلج في البلازا، في مقهى في الشارع الثامن والأربعين، في سنترال بارك..، وفي كل مرة يسلمه «بولارد» مجموعة من الوثائق السرية ليؤكد صدق أقواله. وكان «سيلا» يرسلها سرا إلى تل أبيب مستمتعا بانغماسه بعملية مخابرات مهمة. ودهش بعد ذلك حين عرف ان «الموساد» تعرف كل شيء عن «بولارد» الذى تقدم للعمل معها منذ سنتين ورفض بحجة إنه «غير طبيعي»، ووصفه أحد عملاء الموساد في نيويورك بأنه «وحيد.... يحمل وجهات نظر غير واقعية عن إسرائيل».

وكان «سيلا» غير مستعد للتخلي عن دوره في عملية تبدو أكثر اثارة من الجلوس أمام لوحة مفاتيح كمبيوتر، فبحث عن طريق يحفظ الأمور مستمرة. أثناء اقامته في نيويورك تعرف على الملحق العلمي في القنصيلة الإسرائيلية هناك. كان اسمه «يوسف ياجور»، ويرأس عمليات «لاكام» في الولايات المتحدة.

ودعا سيلا «ياجور» و«بولارد» على العشاء. وهناك ردد بولارد كلامه بأن إسرائيل تحرم من المعلومات للدفاع عن نفسها ضد الارهاب العربي، لأن الولايات المتحدة لا تريد أن تضطرب علاقاتها مع الدول العربية المنتجة للبترول.

وفي تلك الليلة، اتصل «ياجور» عن طريق خط تليفوني آمن، «برافي إيتان». كان الوقت مبكرا في تل أبيب ولكن «إيتان» مازال يعمل في مكتبه. وكان الوقت فجرا

حين وضع السماعة متهلل الوجه: لقد وجد ضالته.

ولمدة الشهور الثلاثة التالية، تعهد «سيلا وياغور» «بولارد» وخطيبته «آن هندرسون»، اصطحباهما إلى أفخم المطاعم، والعروض المسرحية، وحفلات السينما. واستمر «بولارد» بتزويدهما بالوثائق. ولم يكن أمام «إيتان» إلا الإعجاب بالمادة المرسلة، وقرر ان الوقت قد حان لمقابلة «بولارد».

وفي نوفمبر ١٩٨٤ دعا سيلا وياجور، بولارد وآن إلى رحلة في باريس مكافأة على ما قدمه من خدمات لإسرائيل. وطاروا بالدرجة الأولى وكانت بانتظارهم عربة بسائق أقلتهم إلى فندق «بريستول». وكان في انتظارهم «رافي إيتان». عند آخر الليل كان «رافي اتيان» قد أنهى جميع الترتيبات العملية ليواصل «بولارد» خيانته. لن تستمر الأمور بسيرها البسيط كما كانت. سيختفي «سيلا» من المشهد فقد انتهى دوره، وسيصبح «ياجور» هو حلقة الاتصال الرسمية. ووضع نظام آمن لتسليم الوثائق. يسلمها بولارد في شقة «إرث إرب» التى تعمل سكرتيرة في السفارة في واشنطن. ويقوم «ياجور» بتصويرها على آلة تصوير «زيروكس» سريعة موجودة في المطبخ. الزيارات تتم أثناء غسل عربته في محل تحت المبنى. يقوم بولارد بتسليم الوثائق إلى ياجور الذى تكون عربته في الغسيل أيضا. كان المكان قريبا من المطار مما يسهل على ياجور الذهاب والعودة إلى نيويورك بسهولة. ومن القنصلية يرسل الوثائق عن طريق فاكس مؤمن إلى تل أبيب.

ورجع «إيتان» إلى تل أبيب منتظرا النتائج، التي فاقت كل توقعاته الطموحة: تفاصيل عن الأسلحة الروسية التى سلمت إلى العراق وسوريا والدول العربية الأخرى، بما فيها مواقع صواريخ SSCI. SAO ٢١، خرائط وصور التقطتها الأقمار الصناعية لمستودعات الأسلحة العراقية والسورية والإيرانية، بما فيها مواقع مصانع المواد الكيماوية والبيولوجية.

وحصل «إيتان» على صورة واضحة للطريقة التي تجمع فيها المخابرات الأمريكية معلوماتها، ليس فقط في الشرق الأوسط ولكن في جنوب أفريقيا أيضا. ولقد زوده «بولارد» بتقارير للعاملين في المخابرات المركزية، توضح مخططا كاملا لشبكة المخابرات الأمريكية داخل جنوب أفريقيا. إحدى الوثائق تحتوى على تفاصيل عن

كيفية قيام جنوب أفريقيا بتفجير نووى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٧٩ فى الطرف الجنوبى من المحيط الهندى، وإن أنكرت حكومة بريتوريا بثبات إنها أصبحت قوة نووية. وقد أطلع «إيتان» الموساد على كل التقارير التى تتعلق بجنوب أفريقيا، لترسلها إلى برتيوريا وتدمر شبكة المخابرات المركزية هناك، واضطر اثنى عشر من رجال المخابرات الأمريكية إلى مغادرة البلاد على وجه السرعة.

وخلال الأحد عشر شهرا التالية، استمر بولارد يكشف وثائق المخابرات الأمريكية. وقد نقلت إلى إسرائيل أكثر من ألف وثيقة مهمة و ٣٦٠ قدما مكعبا من الورق. وكان إيتان يقرأها كلها قبل ان يحولها إلى الموساد. وقد ساعدت هذه المعلومات «ناحوم ادمونى» ان يزود شمعون بيريز رئيس وزراء الحكومة الائتلافية آنذاك، ببيان كامل عن مواقف واشنطن تجاه سياسات الشرق الأوسط، بحيث كان يرد على واشنطن بطريقة بدت مستحيلة. وقد جاء فى إحدى التعليقات التى صدرت عن اجتماع الوزارة الإسرائيلية الأسبوعى يوم الأحد «إن الإصغاء لادمونى يبدو كأنك تجلس فى المكتب البيضاوى. فنحن لا نعرف فقط آخر ما تفكر فيه واشنطن فى المسائل التى تخصنا ولكن يكون لدينا الوقت الكافى للتفكير قبل اتخاذ قرار بالرد».

وأصبح «بولارد» عاملا حاسما فى صناعة السياسة الإسرائيلية الغامضة، وتعقيد اختيار البدائل. وأصدر «رافى إيتان» جواز سفر إسرائيلياً «لبولارد» باسم «دانى كوهين» مع راتب شهرى كبير، وطلب منه فى المقابل معلومات تفصيلية عن نشاطات استراق السمع الالكترونية لوكالة الأمن القومى فى إسرائيل، وعن طرق التجسس ضد السفارة الإسرائيلية فى واشنطن والمواقع الدبلوماسية الأخرى فى الولايات المتحدة.

وقبل أن يزوده «بولارد» بالمعلومات، قُبض عليه فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٨٥ خارج مقر السفارة الاسرائيلية فى واشنطن. بعد ساعات، كان سيلا، وياجور، وسكرتيرة السفارة يركبون طائرة العال من نيويورك إلى تل أبيب قبل أن توقفهم المباحث الفيدرالية. واختفوا فى إسرائيل وسط احضان الأذرع الحامية لوكالة الاستخبارات الإسرائيلية. وحكم على «بولارد» بالسجن مدى الحياة وعلى زوجته بالسجن خمس سنوات. وفى الوقت نفسه، كان «رافى إيتان» يحتفل بنجاحه فى عملية أخرى ضد الولايات المتحدة جعلت من إسرائيل القوة النووية الأولى فى الشرق الأوسط.

لدى روسيا مخزون من الأسلحة البيولوجية، بما فيها جرثومة

طاعون متطورة يمكنها قتل الملايين. ولو أفترض أن وقعت كمية صغيرة منها في أيدى الإرهابيين

فماذا سيحدث؟ القليل منها من الممكن أن يفنى تل أبيب. والأخطر من ذلك، قد تفكر روسيا في بيع

بعض المخزون من ترسانتها النووية، وهو احتمال لا يجوز اهماله.

الفصل
الخامس

سيف جدعون
النووى

شاهد «رافى إيتان» مولد العصر النووى فوق هيروشيما فى ظلام إحدى دور السينما فى تل أبيب سنة ١٩٤٥. وبينما كان الجنود حوله يصفّرون ويهللون وشريط الأنباء يعرض صور المدينة المدمرة، كانت فى ذهنه فكرتان: هل ستمتلك إسرائيل يوما سلاحا كهذا؟ وماذا لو امتلكت إحدى الدول العربية المجاورة هذا السلاح أولا؟

وكان السؤالان يعبران تفكيره من وقت لآخر، لو امتلكت مصر قنبلة ذرية لكسبت حرب السويس، ولما كانت حرب الأيام الستة، أو حرب يوم الغفران، ولأصبحت إسرائيل صحراء جرداء. بالسلاح النووى تصبح إسرائيل دولة لا تقهر.

مثل هذه القضايا الاستراتيجية، كانت فى تلك الأيام من اهتمام الأكاديميين، والإجابة عليها تخص رجالا آخرين، وليست من اختصاص رجل همه الأول اغتيال الإرهابيين.

حين تولى مسؤولية «لاكام» - وكالة المخابرات لجمع المعلومات العلمية - بدأ يفكر جديا فى الموضوع، وسيطر على تفكيره سؤال واحد: هل يستطيع أن يساعد إسرائيل فى الحصول على درع نووى؟

أثناء قراءاته لساعات طويلة في الليل، مزودا بأربعين حبة فيتامينات يبتلعها كل يوم، اكتشف كم الاختلاف بين السياسيين الإسرائيلين والعلماء حول فكرة أن تصبح إسرائيل دولة نووية. كانت الملفات تضم المناقشات الحادة في اجتماعات مجلس الوزراء، وحديث العلماء المرير، وصوت «بن جوريون» يعلو ليقطع حبل الاحتجاجات والمناقشات الطويلة العاصفة.

بدأت المشكلة سنة ١٩٥٦، حين أرسلت فرنسا لإسرائيل مفاعلا نوويا بقوة ٢٤ ميجاوات. وأعلن «بن جوريون» بأن المفاعل سيستخدم كمحطة لتحلية بليون جالون من مياه البحر سنويا لتحويل الصحراء إلى جنة زراعية.

وأدى ذلك إلى استقالة ستة أعضاء من سبعة في هيئة الطاقة الذرية الإسرائيلية، محتجين بأن المقصود من وجود المفاعل أن يكون «بادرة لمغامرة سياسية ستوحد العالم ضدنا». وأيدهم القادة العسكريون الإسرائيليون، فـ«ايجال الون» أحد قادة الصقور في إسرائيل، عارض الأمر بحماسة، وقال: «ان لدينا أفضل القوات التقليدية في المنطقة».

وتجاهل «بن جوريون» كل الاعتراضات. وأمر بأن ينصب المفاعل فى صحراء النقب قرب مستوطنة «ديمونة» المقفرة والمعرضة للرياح الرملية، والتى كانت فى الماضى محطة لقوافل الجمال بين القاهرة والقدس، وتظهر على قليل من الخرائط. أما الآن فلا يسمح بتحديد موقعها، فهى المكان الذى أدخل إسرائيل العصر النووى.

وتحت قبة ديمونة الفضية التى تتحدى حرارة الصحراء، يقع المفاعل النووى، حيث يعمل أكثر من ٢٥٠٠ من العلماء والتقنيين فى أكثر المواقع تحصينا فى العالم. تُفحص الرمال حوله باستمرار بحثا عن أى متطفل، ويعرف كل الطيارين أن أى طائرة تقترب لمدى خمسة أميال فوق الموقع قد تسقط، وقد بنى المهندسون غرفة محصنة على عمق ثمانين قدما يرقد فيها المفاعل، وهى جزء من مجمع تحت الأرض يُعرف باسم «ماخون ٢» يقع فى مركزه مصنع الفصل / واعادة المعالجة، والذى كتب عليه «معدات نسيج» حين شُحن بحرا من فرنسا إلى إسرائيل.

إن المفاعل وحده لن يزود إسرائيل بقنبلة ذرية. فهو يحتاج إلى مواد قابلة للانشطار - يورانيوم أو بلوتونيوم - ولقد أتفقت الدول الذرية - محدودة العدد - ألا تزود أى دولة خارج «النادى الذرى» بجرام واحد من هذه المواد. وهكذا سيظل مفاعل ديمونة مجرد قطعة للعرض ما لم يزود بالمواد القابلة للانشطار.

بعد ثلاثة أشهر من نصب المفاعل، افتتحت شركة صغيرة لمعالجة المواد الذرية مكان مصنع للصلب كان يعمل أثناء الحرب العالمية الثانية فى مدينة أبوللو فى ولاية بنسلفانيا تحت اسم «شركة المواد والمعدات الذرية - نوميك». وكان رئيسها التنفيذى د. سلمان شابيرو.

فى مركز معلومات كمبيوتر وكالة «لاكام» عن اليهود الأمريكيين المشهورين ذوى الخلفية العلمية كان اسم «شابيرو»، وكان أيضا من أبرز المتبرعين بالأموال لإسرائيل. وعرف «إيتان» إنه وجد ضالته فيمن يزود إسرائيل بالمواد الانشطارية. فطلب بيانات كاملة عن خلفية «شابيرو» وكل عضو يعمل فى المصنع.

وأرسلت المعلومات، وانغمس «إيتان» فى قصة انتقلت من حرارة صحراء ديمونة إلى الممرات الباردة للبيت الأبيض.

من ضمن المعلومات التى أرسلها رجل الموساد فى واشنطن، مذكرة بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٦٢، صادرة من هيئة الطاقة الذرية إلى «شابيرو» تحذره بفظاظة «من أن عدم اذعانه للاجراءات الأمنية يعرضه لطائلة القانون بما فيه المادة الخاصة بالنشاط الذرى لسنة ١٩٥٤ وقوانين التجسس».

وزاد التهديد من شعور «إيتان» بضرورة ايجاد مدخل للصناعة الذرية الأمريكية. وبدت شركة «نوميك»، ليس فقط ضعيفة الاجراءات الأمنية، بل هناك اهمال فى مسك الدفاتر والادارة يجعلها مطمعاً لكل مهتم بالأمور الذرية. هذه النقائص جعلت من الشركة هدفا جذابا.

كان «سلمان شابيرو» ابنا لحاخام تقليدى، وصل به ذكاؤه إلى أبعد مما يطمح. حصل على الدكتوراه فى الكيمياء فى سن الثامنة والعشرين من جامعة «جون هوبكنز»: وجعلته مقدرته على العمل الشاق عضوا مهما فى مختبرات شركة «وستنجهاوس» للبحوث الذرية، وهى الشركة المتعاقدة مع البحرية الأمريكية لتطوير مفاعلات الغواصات.

وأوضح البحث فى خلفيته الشخصية، ان بعض اقاربه كانوا ضمن ضحايا المذبحة، وإنه، بطريقته الخفية، قد تبرع بعدة ملايين من الدولارات لمعهد التخنيون فى حيفا حيث يتم تدريس العلوم والهندسة.

فى سنة ١٩٥٧ ترك «شابيرو» شركة وستنجهاوس، وأسس شركة «نوميك». وكانت تضم ٢٥ من المساهمين، كلهم متعاطفون مع إسرائيل. ووجد «شابيرو» نفسه على رأس شركة صغيرة فى مجال فيه المنافسة قاتلة. ومع ذلك، فازت الشركة بعدد من العقود لاستخلاص اليورانيوم المخصب، وكانت تفقد عادة كمية من اليورانيوم أثناء هذه العملية، ولا توجد طريقة لمعرفة الكم المفقود أو وقت حدوثه. هذا الاكتشاف جعل «إيتان» يبلع فيتاميناته بمزيد من الرضا.

وواصل قراءاته عن توتر العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل نتيجة تزايد رغبة الأخيرة فى أن تصبح دولة نووية. فقد زار «بن جوريون» واشنطن سنة ١٩٦٠، وبعد سلسلة من الاجتماعات مع المسؤولين الأمريكيين، أخبروه بجفاء ان امتلاك إسرائيل لسلاح نووى سيخل بتوازن القوى فى الشرق الأوسط. وفى فبراير سنة

١٩٦١ كتب الرئيس «كينيدى» إلى «بن جوريون» مطالباً بالتفتيش الدورى على مفاعل ديمونة من قبل الوكالة الدولية للنشاط الذرى.

انزعج «بن جوريون»، وطار إلى نيويورك لمقابلة الرئيس «كنيدى» فى فندق والدورف استوريا قلقا من الضغوط الأمريكية القاسية. ولكن «كنيدى» كان حاسما: لابد من التفتيش. فعاد إلى إسرائيل مقتنعا «ان وجود كاثوليكى فى البيت الأبيض أمر سيء بالنسبة لإسرائيل».

ولجأ إلى الرجل الوحيد فى «واشنطن» الذى يمكن ان يثق به: إبراهام فينبرج المشجع الصهيونى لطموحات إسرائيل النووية. وكان هذا النيويوركى أكبر المتبرعين اليهود للحزب الديمقراطي، وكان لا يخفى أسباب تبرعه بالملايين، فهو يتوقع أن يعود كل دولار منها بدعم من الكونجرس لإسرائيل. كما تبرع سرا بعدة ملايين من الدولارات لإنشاء مفاعل «ديمونة».

وقال «بن جوريون» لفينبرج «فُض المشاكل مع هذا الولد. ودعه يفهم وقائع الحياة».

وكانت طريقة «فينبرج» صريحة وواضحة: الضغط السياسى ـ وهو ما أغاظ «كيندى» أثناء حملته الانتخابية. فقد قال له بوقاحة «نحن على استعداد لدفع كل فواتيرك، فقط دعنا نسيطر على سياسة الشرق الأوسط». ووعده «كيندى» بإعطاء إسرائيل كل فرصة ممكنة، ووافق «فينبرج» ان يشارك بالحملة الانتخابية بشكل أولى بمبلغ نصف مليون دولار قابلة للزيادة.

والآن، استخدم الطريقة المباشرة نفسها: إذا أصر كنيدى على تفتيش مفاعل ديمونة «فلن يعتمد على التمويل اليهودى فى حملته الانتخابية القادمة». ثم جاء التأييد أيضا من مصدر غير متوقع، فقد قال وزير الدولة «روبرت ماكنمارا» لكيندى: «إنه يستطيع تفهم رغبة إسرائيل بالحصول على قنبلة ذرية».

لكن كنيدى ظل ثابت العزم، واضطرت إسرائيل لقبول التفتيش. فقدم كنيدى فى الدقيقة الأخيرة تنازلين فى مقابل تفتيش ديمونة: الموافقة على بيع إسرائيل صواريخ هوك أكثر الأسلحة الدفاعية تقدما آنذاك، ثم ان يقوم بالتفتيش فريق أمريكى بدلا من

الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وهذا يعنى ان يتأخر فريق التفتيش عدة أسابيع عن موعده المقرر.

ويستمتع «رافي إيتان» بسرد تفاصيل خداع إسرائيل لفريق التفتيش الأمريكي. فلقد أقيم مركز تحكم زائف فوق الموقع الحقيقي في ديمونة، بلوحات مفاتيح زائفة وبيانات كمبيوترية تعطى انطباعا حقيقيا لانتاج المفاعل من المياه لتحويل النقب إلى مراع خصبة. أما المنطقة التى تحتوى على «الماء الثقيل» المهرب من فرنسا والنرويج فقد كانت خارج نطاق التفتيش لأسباب أمنية. ان حجم كميات الماء الثقيل سيكون دليلا قاطعا ان المفاعل مجهز لغرض مختلف تماما. حين وصل فريق التفتيش، استراح الإسرائيليون ان لا أحد منهم يتكلم العبرية، مما يقلل من إمكانية اكتشاف الغرض الحقيقى من ديمونة.

وبذلك، أعد المسرح لرافي اتيان.

كان الدخول إلى مصنع «نوميك» سهلا نسبيا. فقد طلبت السفارة الإسرائيلية فى واشنطن من هيئة الطاقة الذرية الأمريكية السماح «لفريق من العلماء لزيارة المصنع من أجل فهم أفضل لعملية معالجة النفايات الذرية وذلك بناء على اقتراح مفتشيكم». ووفق على الطلب، فى الوقت الذى كانت فيه المباحث الفيدرالية تقوم بعملية رصد واسعة لمعرفة ما إذا كان «شابيرو» قد جُند كجاسوس إسرائيلي. ولم يكن كذلك، ولا يمكن أن يكون.

كان «رافي إيتان» مقتنعا تماما ان «شابيرو» صهيوني مخلص يؤمن بحق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها، وهو ليس غنيا فقط بما ورثه عن عائلته واستثماراتها بل إن ثروته الشخصية قد تزايدت بسرعة من أرباحه الهائلة من «نوميك»، وهو ليس مثل «جوناثان بولارد»، فحبه لأمريكا واضح تماما، ومحاولة تجنيده قد تأتى بنتائج عكسية، فلابد إذن أن يبقى خارج العملية. هذا ما رسخ فى ذهن «إيتان».

ومع ذلك، فهناك بعض المخاطر لا يمكن تجنبها. أرسل «إيتان» عميلين من لاكام إلى «أبوللو». «افراهام هيرموني» ويتخذ غطاء ديبلوماسيا فى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن «كمستشار علمى، و«برهام كافكافى» عميل مقيم فى الولايات المتحدة ككاتب موضوعات علمية حر (Free Lance)، وزار الاثنان المصنع، لكن لم يُسمح

لهما بالتصوير. وقال «شابيرو» إن ذلك يعد خرقا لتعليمات هيئة الطاقة الذرية. لقد قابلهما بترحاب، لكنه كما قال «هيرموني»: رجل يهرب من خياله.

وقرر «إيتان» ان الوقت قد حان ليذهب بنفسه إلى «أبوللو». كوّن فريقا أطلق عليه مجموعة مفتشين، يضم عالمين من «ديمونة» متخصصين في معالجة النفايات النووية، وشخصاً ثالثاً تحت لقب «مدير قسم الالكترونيات في جامعة تل أبيب» وبالطبع لم تكن هناك وظيفة في الجامعة بهذا المعنى، فالرجل كان ضابط أمن في «لاكام»، ومهمته اكتشاف طريقة لسرقة المواد الانشطارية من مخلفات المصنع، ثم «هارموني» الذى كانت مهمته ارشادهم إلى الأماكن الضعيفة أمنيا والتى اكتشفها فى زيارته السابقة. وسافر «إيتان» باسمه الحقيقى «كمستشار علمى لمكتب رئيس الوزراء فى إسرائيل».

وافقت السفارة الأمريكية في تل أبيب على المجموعة ومنحتهم تأشيرات الدخول. وحذرهم «إيتان» بأنهم سيكونون تحت أعين المباحث الفيدرالية منذ تطأ أقدامهم نيويورك، ولدهشته لم يلاحظ شيئا من ذلك أثناء الزيارة.

توافقت زيارة الفريق الإسرائيلى مع عودة شابيرو من جولة جنونية ثانية فى الجامعات الأمريكية للبحث عن علماء أصدقاء لإسرائيل ويوافقون على الذهاب إلى هناك لحل مشاكلها التقنية والعلمية. و«سيؤمن عليهم ويتحمل كل نفقاتهم ويعوضهم عن أى نقص فى مرتباتهم».

وكانت الزيارة منضبطة. استأجروا غرفا فى أحد الموتيلات، وكانوا يقضون معظم وقتهم فى المصنع يتعلمون تعقيد عمليات تحويل اليورانيوم المخصب بدرجة عالية من غاز فلورايد اليورانيوم السداسى. وأوضح «شابيرو» ان قوانين هيئة الطاقة الذرية تقضى بدفع مبلغ يتراوح من عشرة جنيهات إلى ٤٥٠٠ جنيه عن كل جرام من اليورانيوم المخصب إذا لم يوجد تفسير لاختفائه.

وغادر «إيتان» وفريقه «أبوللو» بهدوء كما جاءوا.

ما تلا ذلك يمكن استنتاجه من تقارير المباحث الفيدرالية، والتى تثير اسئلة طموحة عن مدى شكوك «شابيرو» فى زيارة إيتان. يقول أحد التقارير إنه بعد شهر من عودة الفريق الإسرائيلى لبلده، أصبحت شركة «نوميك» شريكة مع الحكومة

الإسرائيلية في عمل وصف بأنه «بسترة الطعام وتعقيم العينات الطبية بالاشعاع».
ويتذمر تقرير آخر «من ان الحاويات المشحونة لإسرائيل قد كُتب عليها تحذير باحتوائها على مواد مشعة ويحذر فتحها أو فحصها - وما كان أحد سيسمح لنا بذلك»..

وسبب رفض الفحص يرجع إلى أن السفارة الإسرائيلية في واشنطن قد أوضحت للإدارة الأمريكية إنه عند أية محاولة لفحص الحاويات فستنقلها تحت الحصانة الدبلوماسية. فحذرت الإدارة الأمريكية وزارة العدل من العواقب الدبلوماسية التي تنتج عن خرق الحصانة. وكل ما استطاع عمله رجال المباحث الفيدرالية المحبطين، هو مراقبة الحاويات وهي تحمّل على طائرة العال الإسرائيلية من مطار «اديلوارزد».

ولم يستطع رئيس فرع المخابرات المركزية الأمريكية في تل أبيب، رغم جهوده الكبيرة، أن يؤكد أن الحاويات قد انتهى بها الأمر إلى مفاعل «ديمونة». وسجلت المباحث الفيدرالية تسع شحنات أخرى خلال ستة أشهر بعد زيارة إيتان إلى أمريكا، تجئ عند الغروب، وترحل قبل الفجر، وكلها مغلفة بالرصاص - اللازم لشحن اليورانيوم المخصب - ومعنونة إلى حيفا كميناء الوصول الأخير. كما شاهد رجال المباحث، في مناسبات عدة، أنابيب أفران - أماكن تخزين لليورانيوم المخصب - موضوعة في حاويات من الصلب على رصيف شحن شركة «نوميك» ويحمل كل أنبوب رقما يدل على إنه من مخازن سرية جدا في الشركة. لكن لم يكن هناك شئ في أيديهم ليفعلوه، فهناك «ضغط سياسي من الحكومة بعدم خلق مشكلة دبلوماسية».

بعد ستة أشهر توقفت الشحنات فجأة. وافترضت المباحث الفيدرالية ان كميات كافية من المواد القابلة للانشطار قد وصلت «ديمونة». وقد أنكر «شابيرو»، في مقابلات تالية مع هيئة الطاقة الذرية، بأنه زوّد إسرائيل بمواد لصناعة القنبلة الذرية. وقال رجال المباحث الفيدرالية ان فحصهم لسجلات الشركة أثبت ان هناك تعارضاً في كمية المواد التي كانت موجودة. والمادة التي أعيد معالجتها. وأصر «شابيرو» على التفسير المنطقي في مثل هذه الأمور، بأن كمية اليورانيوم المفقودة إما تسربت إلى الأرض أو فقدت في الجو. وكانت كمية المادة المفقودة مئة رطل. ولم توجه أية تهمة لشابيرو.

* * *

جدّد انهيار الاتحاد السوفيتي مخاوف الموساد. فقد نشأ وضع جديد لا أحد يستطيع التأكد فيه من شئ. لا أحد يستطيع أن يتأكد كيف يمكن أن تتطور الأمور السياسية في روسيا. وقد اكتشفت الموساد بالفعل أن صواريخ سكود قد صدرت إلى عدة دول في الشرق الأوسط مقابل العملة الصعبة. وكذلك قام الفنيون الروس بمساعدة الجزائر في بناء مفاعل ذرى. كما أن لدى روسيا مخزون من الأسلحة البيولوجية، بما فيها جرثومة طاعون متطورة يمكنها قتل الملايين. ولو أُفترض أن وقعت كمية صغيرة منها في أيدى الإرهابيين فماذا سيحدث؟ القليل منها من الممكن أن يفنى تل أبيب. والأخطر من ذلك، قد تفكر روسيا في بيع بعض المخزون من ترسانتها النووية، وهو احتمال لا يجوز اهماله.

وقام المحللون النفسيون في الموساد في رسم صور نفسية للعلماء الذين بمقدورهم بيع هذه المواد، والدوافع التى قد تدفعهم إلى ذلك: فهناك من قد يقوم بذلك من أجل النقود فقط، وآخرون بسبب دوافع ايديولوجية معقدة. وأرسل «شافتاى شافيت» مدير الموساد عميلين إلى موسكو بمهمة محددة، اختراق المجتمع العلمى هناك.

وكانت «ليلى» أحد هذين العميلين. يهودية ولدت فى بيروت ونالت درجة فى العلوم من الجامعة العبرية فى القدس، ثم عملت فى القسم العلمى فى مخابرات الموساد. وقد عملت عن قرب مع عملاء الموساد فى ألمانيا وأماكن أخرى. وقد قادها اشتراكها فى بعض العمليات إلى كولومبيا فى أمريكا الجنوبية عدا بعض دول الشرق الأوسط. كما لاحظ عملاء آخرون للموساد لقاءات تتم فى القاهرة ودمشق وبغداد. وتفتحت آفاق جديدة: فقد بدا أن البوسنة هى طريق ممكن لتهريب البلوتونيوم ٢٨٩ إلى هدفه النهائي: العراق. لكن معرفة واثبات تواطؤ النظام العراقي كان أمرا صعبا كالعادة...

وقد أستطاع عميلا الموساد احباط عملية تهريب شحنة مواد مشعة داخل حقيبة عبر ألمانيا إلى الشرق الأوسط، ورأى مدير الموساد أن ذلك نصراً صغيراً آخر يضاف إلى انجازات الموساد فى معركتها اللانهائية ضد الارهاب النووى. لكنه لم يكن وحده الذى يتساءل كم من حقيبة أخرى قد عبرت دون أن يكتشفها أحد، وكم من الوقت سيمر قبل أن يحدث انفجار نووى إلا إذا تلاقت المطالب المستحيلة.

وعلى بعد أميال قليلة من المكان الذى يفكر فيه «شافيت» بمثل هذه الأسئلة، كان «رافى إيتان» الرجل الذى تعتقد المباحث الفيدرالية والمخابرات الأمريكية إنه مسؤول عن سرقة مواد ذرية من مصنع شركة «نوميك» فى «أبوللو» يواصل قضاء وقت فراغه بصنع التماثيل من قطع الخردة. كان فى سلام مع العالم الخارجى، وبهتت فى الذاكرة عمليتا «بولارد» و«أبوللو»، وحين يُسأل عن ذلك يقول إنه لا يستطيع حتى ان يتذكر الاسم الأول لكل من «بولارد» و«شابيرو»: وكانت مؤسسة «لاكام» قد أغلقت رسميا. ويُصر «إيتان» ان عمله اليوم يختلف تماما عما كان يفعله من قبل: إنه مدير شركة بحرية صغيرة فى «هافانا»، بالاضافة إلى اهتمامه بشركة تصنع المواد الكيميائية الزراعية. وقد وثق علاقته «بفيدل كاسترو» «مما لا يسر الأمريكيين بالطبع». ولم تطأ قدمه الولايات المتحدة منذ رحلته إلى «أبوللو». ويقول إنه لا يرغب فى ذلك لأن زيارته ستعرضه لأسئلة كثيرة حول «بولارد» وعما حدث بالضبط بعد زيارته «لأبوللو».

ثم، عاد اسم «رافى إيتان» ليظهر على السطح فى أبريل ١٩٩٧، مرتبطا بعميل للموساد يعمل فى واشنطن، حددت المباحث الفيدرالية الأمريكية اسمه الحركى بـ «ميجا». فقد أخبر أحد المصادر المهمة فى الموساد «إيتان» بأن المباحث الفيدرالية بدأت تبحث عن الدور الذى لعبه «ميجا» فى إدارة عملية «بولارد» وهل كان «ميجا» هو مصدر بعض المعلومات السرية جدا التى مررها «بولارد» إلى الموساد؟ ولقد أعادت المباحث الفيدرالية استجواب «بولارد» فى الفترة الأخيرة فى سجنه، واعترف بأن التصريح الذى يحمله لا يسمح له بالحصول على بعض الوثائق التى طلبها «تاجور»، وأن مثل هذه الوثائق لها كلمة سر خاصة للوصول إليها تتغير باستمرار، ويوميا فى بعض الأحيان. ومع ذلك كان «ياجور» يعرف كلمة السر خلال ساعات ويعطيها لبولارد. هل هو ميجا الذى كان يزوده بها؟ وهل ميجا هو جاسوس إسرائيل الثانى فى واشنطن؛ والذى طالما شكت المباحث الفيدرالية بوجوده؟ وإلى أى حد كانت درجة معرفته «بإيتان»؟

هذه هى الأسئلة الخطرة التى تثار فى واشنطن الآن والتى قد تهدد العلاقات بين أمريكا وإسرائيل.

وقد قبل «إيتان» انتهاء عمله في المخابرات الإسرائيلية، بعد أن حددت المباحث الفيدرالية دوره الأساسي في عملية «بولارد». ويبدأ يتطلع لانهاء حياته بدون التعرض لمخاطر كبيرة إلا تلك الحروق التي تنجم عن تشكيله لتماثيله.

وقد عرف بغريزته ان الأحداث في واشنطن تشكل خطرا ليس عليه فقط ـ فقد يقوم فريق خطف تابع للمخابرات المركزية بالقبض عليه أثناء ذهابه أو إيابه من كوبا، ثم استجوابه، والله أعلم ماذا سيحدث بعد ذلك ـ بل على المسؤولين الكبار في المخابرات الإسرائيلية الذين ينسقون النشاطات الأمنية في الداخل والخارج، خاصة بعد اكتشاف وجود «ميجا» العميل المجهول الذى لا يعرفون شيئا عنه سوى إنه في وظيفة عليا في إدارة الرئيس كلينتون، وسواء كانت إدارة كلينتون قد ورثته من إدارة «بوش» أو احضرته معها فذلك سر لا يعرفه أحد، وقلة من رجال الموساد هم الذين يعرفون مدة خدمة «ميجا» في الإدارة الأمريكية.

إن قسم مكافحة التجسس المضاد في المباحث الفيدرالية، يدرك ان قوة اللوبى الصهيوني في الولايات المتحدة، وتردد الإدارة الأمريكية في مواجهته، هى التى تشل يده في العمل ضد الموساد. وقد استطاع هذا اللوبى ان يخمد العاصفة التى هبت عند اكتشاف وجود العميل «ميجا» في الإدارة العليا، ففى ١٦ فبراير سنة ١٩٩٧ قدمت وكالة الأمن القومي الأمريكية، شريطا مسجلا لمحادثة تليفونية تمت في ساعة متأخرة من الليل صادرة من السفارة الإسرائيلية في «واشنطن» بين عميل للموساد يسمى «دوف» مع رئيسه في تل أبيب لم تكشف المحادثة عن اسمه. كان العميل يسأل هل يستعين «بميجا» للحصول على نسخة من الرسالة التى وجهها وزير الخارجية آنذاك «وارين كريستوفر» إلى ياسر عرفات. وكانت الرسالة تتضمن تأكيدات من كريستوفر عما قاله لعرفات في ١٦ يناير حول انسحاب القوات الإسرائيلية من مدينة الخليل. فقال له المسؤول في تل أبيب «انس الأمر. هذا عمل لا نستعين فيه بميجا».

وكانت هذه المكالمة، الدليل الأول الذى عرفت منه المباحث الفيدرالية أهمية «ميجا»، فلم يسبق أن سمعوا هذا الاسم الحركى أثناء رصدهم للسفارة الإسرائيلية والعاملين فيها. واستطاعت المباحث عن طريق الكمبيوتر حصر البحث حول شخصية ميجا، إما إنه يعمل هناك، أو على صلة بأحد الموظفين الكبار العاملين في

وكالة الأمن القومي، التى تشير على الرئيس فى أمور الخابرات وشؤون الدفاع، ومكتبها يقع فى البيت الأبيض، ومن بين موظفيها نائب الرئيس ووزيرى الدولة والدفاع، ومن مستشاريها مدير الخابرات المركزية ورئيس إدارة الربط بين رئاسات أركان الجيش.

أما كيف علمت السفارة الإسرائيلية بأن قناة اتصالاتها الآمنة مع تل أبيب قد اخترقت، فذلك أمر مازال سرا كشخصية «ميجا». ان السفارة في واشنطن تُحدَّث دوما بآخر أنظمة الارسال: بعض منها عُدِّل عن مخططات سُرقت من الولايات المتحدة.

* * *

فى يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٩٧، وكان يوما ربيعيا مبهجا فى تل أبيب، اتجه أعضاء لجنة رؤساء القوات المسلحة من مكاتبهم المختلفة فى المدينة، عبر شارع «ربهوف شؤول هاماليكو» إلى بوابة مدججة بالحراسة فى حائط أبيض عالٍ تعلوه أسلاك شائكة. وكل ما يُرى خلف هذا الحائط أسطح المبانى، يعلوها برج اسمنتى هائل يراه كل من يقيم فى تل أبيب، تقع على ارتفاعات مختلفة منه تجمعات من الهوائيات الالكترونية قبيحة المنظر. البرج هو مقر رئاسة أركان جيش الدفاع الإسرائيلى، والمجمع كله يعرف باسم «كيريا» أى المكان.

قبل الساعة الحادية عشرة صباحا بقليل، كان رؤساء الاستخبارات المختلفة يستخدمون بطاقاتهم الخاصة لدخول مبنى قرب البرج. ومثل كل المكاتب الحكومية الإسرائيلية، كانت غرفة الاجتماعات التى دخلوها فى حالة سيئة.

ترأس الاجتماع «دانى يا توم» الذى عينه «بنيامين نتانياهو» رئيسا جديدا للموساد، وهو معروف بالتصلب مثل رئيس وزرائه. وتقول الشائعات التى تدور فى تل أبيب، ان رئيس الموساد الجديد قد احتضن «نتانياهو» حين هددت حياته الخاصة المثيرة، مهنته. وأصغى الرجال الجالسون حول مائدة الاجتماعات المصنوعة من خشب الأرز، بانتباه و«ياتوم» يوضح لهم الاستراتيجية العامة التى سيتبعونها إذا أدى الموقف من «ميجا» إلى أزمة متفجرة مع الولايات المتحدة. ستقوم إسرائيل بتقديم احتجاج شديد اللهجة، بأن الحصانة الدبلوماسية لسفارتها فى واشنطن، قد اخترقت، مما

يسبب ارباكا لإدارة الرئيس كلينتون. ثم يقوم المساعدون للموساد الذين لهم علاقة بوسائل الإعلام باختلاق قصص ان كلمة «ميجا» هى تشفير خاطئ للكلمة العبرية «الجا» التى تستخدمها الموساد عادة للتعبير عن الخابرات المركزية. كما أن كلمة «ميجاوات» كانت رمزا مشتركا حتى وقت قريب فى الموساد للتعبير عن المعلومات الخابراتية المتبادلة. وحتى يكون القياس منسجما، فعلى المساعدين أن يقولوا أن كلمة أخرى هى: «كيلووات» كانت رمزا للتعبير عن المعلومات المتبادلة عن الارهاب. وأضاف «ياتوم» لكن لن نفعل شيئا فى الوقت الحاضر وعلينا أن ننتظر.

فى مارس سنة ١٩٩٧، وبناء على معلومة وصلت من أحد ضباط الموساد فى واشنطن، بدأ «ياتوم» العمل. فارسل فريقا إلى العاصمة الأمريكية لتتبع ما جاء فى تقرير الضابط بأن الرئيس كلينتون منغمس فى مكالمات جنسية مع مساعدة سابقة فى البيت الأبيض، ويقوم بالاتصال من المكتب البيضاوى إلى شقتها فى مجمع ووترجيت. ولأن الفريق الإسرائيلى يعرف أن البيت الأبيض محصن تماما ضد عمليات التنصت، فقد ركز جهوده على شقة «مونيكا لوينسكى». وبدأوا يسجلون مكالمات الرئيس ويرسلونها فى الحقيبة الدبلوماسية إلى تل أبيب.

فى ٢٧ مارس سنة ١٩٩٧، دعا الرئيس كلينتون «مونيكا» إلى المكتب البيضاوى وأخبرها بأنه يعتقد أن هناك سفارة أجنبية تسجل محادثاتهما ولم يقدم لها أية تفاصيل، وما لبثت العلاقة أن قطعت بعد ذلك بقليل.

وفكر رجال الموساد بكيفية استغلال هذه التسجيلات المحرجة التى تنفع للابتزاز، لكن لم يقترح أحد أية محاولة لابتزاز رئيس الولايات المتحدة. ورأى البعض أن التسجيلات تشكل سلاحا قويا فى يد إسرائيل تستخدمه إذا أصبح ظهرها إلى الحائط فى الشرق الأوسط، أو إذا لم تعد تضمن تأييد الرئيس.

وكان هناك اجماع عام بأن المباحث الفيدرالية الأمريكية، لابد أن يكون لديها علم بهذه المحادثات بين كلينتون ولوينسكى. واقترح البعض أن يستخدم «ياتوم» قناة الاتصال الخلفية ليخبر المباحث الفيدرالية بأن الموساد تعلم بمحادثات الرئيس التليفونية، وإن تكن تلك طريقة غير حاذقة لاخبار المباحث بالتوقف عن تتبع «ميجا»، بينما اقترح البعض سياسة الانتظار، قائلا إن المعلومات ستظل مؤثرة فى أى وقت

أطلقت فيه . وأخذ بهذا الرأى .

فى سبتمبر سنة ١٩٩٨ كان تقرير «ستار» قد نشر ، وكان «ياتوم» قد ترك رئاسة الموساد . وأشار التقرير باختصار إلى تحذير كلينتون إلى «لوينسكى» فى مارس ١٩٩٧ بأن هناك تجسساً على تليفونه من سفارة أجنبية ، لكن «ستار» لم يعط لهذا الأمر أهميته حين أدلت «لوينسكى» بشهاداتها أمام هيئة المحلفين العليا عن علاقتها بكلينتون . وكان هذا دليلاً آخر على عجز المباحث الفيدرالية عن كشف العميل «ميجا» .

وحسب مصدر مخابراتى موثوق فى الموساد ، فقد تلقى «رافى إيتان» مكالمة تليفونية من «ياتوم» يؤكد فيها على ضرورة الابتعاد عن التواجد فى الولايات المتحدة فى المستقبل القريب على الأقل . ولم يكن «إيتان» فى حاجة إلى من يخبره كم سيكون الأمر طريفا لو وقع ضحية لأساليبه الخاصة التى جعلت منه أسطورة ـ خطف ايخمان ، والأسوأ أن يُقتل بأحد الطرق التى عززت سمعته وسط رجال يرون فى الاغتيال جزءاً من العمل .

كل واحد وأى واحد يمكن أن يصبح أداة. ويمكننى ان أكذب عليهم

لأن الثقة ليست جزءاً من علاقتى بهم، وكل ما يهم هو استغلالهم لمصلحة إسرائيل. منذ البداية

تعلمت فلسفة: «افعل ما تراه صوابا للموساد وإسرائيل».



المنتقمون

بعد ظهر يوم حار فى منتصف أكتوبر سنة ١٩٩٥ ، قام أحد الفنيين فى قسم الأمن الداخلى للموساد باستخدام «جسّاسة Scanner» يدوية للتأكد من خلو إحدى الشقق فى شارع ينكستر فى وسط تل أبيب من أجهزة التنصت. كانت الشقة أحد الأماكن الآمنة التى تملكها الموساد فى أنحاء المدينة. وكان ذلك ايذانا بحساسية الاجتماع الذى سيعقد بعد قليل، وحين تأكد أن الشقة نظيفة اليكترونيا، غادر المكان.

لم يكن الأثاث يلفت النظر، عدة لوحات رخيصة معلقة على الجدران، مناظر من تلك التى يحب السياح رؤيتها فى إسرائيل، فى كل غرفة تليفونها الخاص غير المدرج فى الدليل، وفى المطبخ، بدل الأدوات المنزلية، هناك كمبيوتر وميدوم وفاكس وقطاعة ورق، ومكان الفرن خزانة.

وعادة ما تستخدم هذه المنازل الآمنة أماكن نوم للمتدربين فى مدرسة التجسس للموساد فى ضواحى المدينة، أثناء تعلمهم خدع العمل فى الشوارع: كيف يتتبعون شخصا ما أو يتجنبون الرصد، كيف يفخخون صندوق بريد، أو يتبادلون المعلومات الخفية فى الجرائد. وكانت شوارع تل أبيب، ليل نهار، ميدانا لمهاراتهم تحت رقابة أعين مدربيهم. ويستمر التدريب حين العودة إلى البيوت الآمنة: كيف يتصرفون

حين يستهدفون بلدا أجنبيا، كيف يكتبون رسائل بأخبار خاصة، أو يستخدمون الكمبيوتر للحصول على معلومات يمكن ارسالها على دفعات قصيرة على ترددات محددة. وجزء مهم في هذه التدريبات التي تبدو إنها لا تنتهي، كان كيفية اقامة علاقات مع أناس أبرياء لا شكوك حولهم. ويعتقد «ياكوف كوهين» الذى عمل كضابط موساد لمدة خمس وعشرين سنة تحت غطاء مصون تماما في دول كثيرة، إن أحد أسباب نجاحه هي الدروس التي تلقاها في هذه المحاضرات:

«كل واحد وأى واحد يمكن أن يصبح أداة. ويمكنني ان أكذب عليهم لأن الثقة ليست جزءاً من علاقتي بهم، وكل ما يهم هو استغلالهم لمصلحة إسرائيل. منذ البداية تعلمت فلسفة: «افعل ما تراه صوابا للموساد وإسرائيل».

أما أولئك الذين لا يعملون وفق هذا المبدأ فسرعان ما يجدون أنفسهم خارج الخدمة. يقول «ديفيد كيمحى» الذى يعتبر من أفضل رجال الموساد:

«إنها القصة القديمة، الكثيرون يُستدعون والقليلون يُختارون. ومن يبقى يطور روابط تسعفه طوال حياته. نعيش حسب مبدأ «اساعدك وتساعدني»، تتعلم ان تثق

بالناس مقابل حياتك، ولا يمكن ان تعطى ثقة كهذه بين شخص وآخر».

وتكون هذه الفلسفة قد حُفرت في عقول كل رجل وامرأة عند انهائه التدريب فى البيوت الآمنة، والانتقال إلى مرحلة أخرى. فهم الآن ضباط يسافرون فى مهمات خاصة، أو يعودون ليقدموا تقاريرهم ويُستنطقون. ويعرف هؤلاء الضباط بـ«القافزون» لأنهم يعملون على أساس فترات قريبة الأمد في الخارج، ولذا يسمون البيوت الآمنة «مواقع القفز».

وأخيرا، تستخدم المنازل الآمنة كأمكنة لقاء مع مرشد، أو استجواب مشتبه هناك امكانية لتجنيده كعميل سرى. والإشارة الوحيدة لأعدادهم، ذكرها ضابط سابق فى الموساد هو «فكتور استروفسكى»، فقد زعم إنه فى سنة ١٩٩١ كان هناك ٣٥ ألف عميل فى العالم، عشرون ألف عاملون، و١٥ ألف فى بيات لا يعملون. العملاء «السود» هم العرب، العملاء «البيض» هم غير العرب، «عملاء الانذار» هم أولئك الذين ينبهون إلى الاستعدادات الحربية: طبيب فى مستشفى سورى يلاحظ تدفق امدادات من العقاقير واللوازم الطبية، موظف فى ميناء يلاحظ حركة متزايدة للسفن الحربية.. وهكذا.

بعض هؤلاء العملاء تلقى تعليماته الأولية فى أحد المنازل الآمنة التى تحدثنا عنها، مثل ذلك المنزل الذى كان يتفحصه الخبير الفنى بعد ظهر أحد أيام أكتوبر، حيث سيلتقى في وقت متأخر من اليوم مجموعة من ضباط المخابرات يعدون على أصابع اليد الواحدة، حول مائدة العشاء فى الشقة، لاقرار عملية اغتيال ستحظى بالموافقة الكاملة من اسحق رابين رئيس الوزراء.

لقد حضر «رابين» فى السنوات الثلاث الأخيرة التى حكم فيها، عددا متزايدا من الجنازات من ضحايا الهجمات الارهابية، وفى كل مرة يسير خلف حملة النعش ويشاهد العجائز يبكون وهم يستمعون إلى صلوات الوداع، وكأن جنازة حفرت فى قلبه. بعد ذلك كان يقرأ كلمات النبى «حزقيال»: «وسيعرف الأعداء أنى أنا الرب حين أصب انتقامى عليهم».

لم تكن المرة الأولى التى يُستشف منها رغبة رابين فى الانتقام، فهو نفسه قد اشترك فى أكثر من مناسبة فى عمل انتقامى، وعلى الخصوص اغتيال نائب عرفات

«خليل الوزير» المعروف بأبي جهاد، الصوت المنادى بالحرب المقدسة، والذى كان يعيش في تونس، كان رابين وقتها وزيرا للدفاع، حين اتخذ قرار الاغتيال في شقة شارع بنكستر ذاتها.

لمدة شهرين، كان عملاء الموساد يقدمون استطلاعا شاملا للفيلا التي يقيم بها «أبو جهاد» في منتجع «بوسعيد» في ضواحي تونس: الطرق المؤدية إليها، نقاط الاقتحام، ارتفاع الأسوار وأنواعها، النوافذ والأبواب والأقفال، وعادات الحراس والطرق التى يسلكونها: كل شئ قد رُصد ورُوقب وروجعت مراقبته ثانية. راقبوا زوجة «أبي جهاد» وهي تلاعب أطفالها، وهي تتسوق، وهي تذهب إلى الكوافير. وتنصتوا على مكالمات زوجها الهاتفية، وتجسسوا على غرفة نومهما واستمعوا إلى مغازلاتهما. وحسبوا المسافة بين كل غرفة وأخرى، واستكشفوا ما يفعله الجيران، ومتى يتواجدون في منازلهم، وسجلوا أنواع السيارات وألوانها التي تأتي وتذهب إلى الفيللا.

لقد كانت القواعد التي أرساها «مئير أميت» منذ سنوات بخصوص عمليات الاغتيال مازالت في اذهانهم: «فكر كما يفكر هدفك وتوقف عن أن تكون مثله حين تضغط الزناد». وحين اقتنع الفريق بما عمله، عاد إلى تل أبيب. ولمدة شهر ظلوا يتدربون على مهمتهم القاتلة، في أحد بيوت الموساد قرب حيفا والذى يشبه تماما فيللا أبو جهاد، وعليهم أن يتموا المهمة منذ دخولهم المنزل خلال ٢٢ ثانية فقط.

وفي ١٦ أبريل سنة ١٩٨٨ صدر الأمر ببدء تنفيذ العملية.

تلك الليلة، أقلعت عدة طائرات بوينج ٧٠٧ من قاعدة عسكرية جنوب تل أبيب. أحداها تحمل اسحق رابين وعددا من ضباطه الكبار، وكانوا على اتصال دائم بفريق القتل الموجود في موقعه عن طريق قائد الفريق المسمى بكلمة السر «سيف». وكانت الطائرة الثانية مملوءة بأجهزة الرصد والمراقبة. ثم هناك طائرتان أخريان تعملان كحاملتين للوقود. هذا الأسطول من الطائرات حلّق عاليا فوق الفيللا متتبعا كل حركة على الأرض من خلال قناة لاسلكية آمنة. بعد قليل من منتصف ليلة ١٧ أبريل(*) سمع الضباط في الجو أن أبا جهاد قد عاد إلى بيته بالعربة المرسيدس التى

(*) الصحيح ١٦ أبريل (الترجمة).

أهداها له ياسر عرفات يوم زواجه. قبل ذلك، كان فريق القتل قد أخفى أجهزة حساسة جدا تستطيع التقاط كل شئ يدور داخل الفيللا. وتحدث «سيف» همسا من خلال ميكروفون الفم، من موقعه قرب الفيللا بأنه يسمع «أبو جهاد» يصعد السلم، يذهب إلى غرفة نومه، يتحدث إلى زوجته، يسير على أطراف أصابعه إلى غرفة النوم الأخرى ليقبل ولده النائم، قبل أن يتوجه أخيرا إلى مكتبه في الدور الأرضى. والتقطت الطائرة الألكترونية المعدلة عن الطائرة الأمريكية «اواس Awac» هذه التفاصيل، وأصدر رابين في الساعة ١٧ : ١٢ صباحا، الأمر ببدء التنفيذ.

كان سائق أبو جهاد نائما في عربة المرسيدس خارج الفيللا. فتقدم أحد رجال فريق القتل بسرعة، وضغط على زناد البريتا كاتمة الصوت بعد أن وضعها في إذن الحارس. فسقط ميتا على الكرسى الأمامي. ثم وضع الفريق عبوة ناسفة أسفل باب الفيللا الحديدى الثقيل، وهى نوع من العبوات البلاستيكية التى لا تصدر صوتا عند انفجارها. كان حارسان من حراس «أبو جهاد» يقفان مبهوتين من الانفجار في صالة مدخل الفيللا. فأرديا قتيلين بالأسلحة الصامتة.

جرى «سيف» إلى مكتب «أبو جهاد»، فوجده يشاهد فيلما عن منظمة التحرير الفلسطينية. حين وقف على قدميه أطلق عليه «سيف» طلقتين في صدره. فوقع بثقله على الأرض. فتقدم «سيف» وأطلق رصاصتين في جبهته.

حين غادر الغرفة، قابل «أم جهاد» تحمل طفلها الصغير، فقال لها ـ باللغة العربية «عودى إلى غرفتك». واختفى هو وفريقه في ظلام الليل. وقد استغرقت العملية منذ دخولهم الفيللا حتى مغادرتهم ١٣ ثانية فقط، أقل بثمان ثوان عما كان مقررا.

وقد قوبلت عملية الاغتيال، لأول مرة، بنقد عام. فقد حذر «عيزرا فيتسمان» «بأن اغتيال الأفراد لن يساعد في تقدم عملية السلام».

بعدشهرين، اضطرت شرطة جنوب أفريقيا إلى كشف سر عملت إسرائيل ألا يعلن : ان الموساد قد قتلت رجل أعمال في جوهانسبرج، «ألان كدجر» كان يزود العراق وإيران بمعدات الكترونية متقدمة يمكن أن تستخدم في صناعة أسلحة «بيوكيمائية». وقال رئيس المحققين في شرطة جوهانسبرج الكولونيل «شارلز لاندمان» «ان تلك كانت رسالة واضحة من الحكومة الإسرائيلية عبر الموساد».

* * *

قبل اغتيال «أبو جهاد» بستة أسابيع، لعبت الموساد دورا مهما في عملية اغتيال ثلاثة غير مسلحين من أعضاء الجيش الجمهوري الأيرلندي، قتلوا على يد فريق اغتيال بريطاني بعد ظهر يوم أحد في جبل طارق.

في سنوات سابقة، كان «رافي إيتان» قد أحضر بعضا من زملائهم إلى تل أبيب ليشهدوا كيف تغتال الموساد الارهابيين العرب في الشوارع الخلفية لبيروت ووادي البقاع اللبناني.

وقبل حادثة جبل طارق بأربعة شهور، بدأ عملاء الموساد رصد حركات كل من: «ميريد فاريل» و«سين سانيج» و«دانيال ماكان» على اعتقاد إنهم يشحنون أسلحة عربية إلى الجيش الجمهوري الأيرلندي.

يعود اهتمام الموساد بأنشطة الجيش الأيرلندي إلى الوقت الذي أرسلت فيه حكومة «تاتشر» سرا، إلى «رافي إيتان» ليتحدث إلى قوات الأمن عن العلاقات المتطورة بين الجماعات الارهابية الأيرلندية وحزب الله اللبناني:

«وصلت في يوم ممطر. وظلت تمطر طوال وجودي في أيرلندا. وأخبرت البريطانيين بكل ما نعرفه. ثم ذهبت في جولة على حدود الجمهورية الأيرلندية. وكنت حذرا ألا اخترق الحدود. تخيل ماذا ستقول الحكومة الأيرلندية لو أمسكوا بي! وقبل أن أغادر رتبت الأمر ليجئ بعض ضباط الخدمة الجوية الخاصة SAS إلى إسرائيل ليروا بعض طرقنا في معالجة الارهاب».

منذ هذه البدايات المبكرة قامت علاقة عمل وثيقة بين الموساد وSAS. وكان بعض كبار ضباط الموساد يسافرون بانتظام إلى رئاسة أركان SAS في «هيرنورد» ليتحدثوا للقوات الخاصة عن عملياتهم في الشرق الأوسط. وفي مناسبة واحدة على الأقل اشتركت الموساد ووحدة من SAS في تتبع عدد من كبار رجال الجيش الأيرلندي من بلفاست إلى بيروت وصوروا مقابلاتهم مع قادة حزب الله.

في أكتوبر سنة ١٩٨٧، تتبع عملاء الموساد السفينة البخارية «اكسند» وهي تشق طريقها في البحر المتوسط، محملة بـ ١٢٠ طناً من الأسلحة المختلفة، وقد اعترضت السلطات الفرنسية الباخرة وعطلت الشحنة.

ولعجز الموساد عن فتح قناة مع سلطات الأمن الأيرلندية، ربما بسبب معارضة إسرائيل القوية لدور أيرلندا السلمي في لبنان حسب رأى أحد ضباط الموساد، فقد كانت الخدمة الجوية الخاصة SAS هي الوسيلة لاخبار «دبلن» بشحنات الأسلحة الأخرى المتجهة إلى أيرلندا.

وقد تأكد عملاء الموساد الذين يتتبعون وحدة الصاعقة التابعة للجيش الجمهورى الأيرلندى، في إسبانيا أنهم ليسوا هناك لمقابلة تجار سلاح عرب، أو لإقامة صلة مع جمعية الباسك الارهابية، ومع ذلك ظلوا يتتبعون خطوات وحدة الارهاب الدولية الإسبانية التي كانت بدورها تتبع الثلاثي الأيرلندى. وفي البداية كانت هناك مسافة بينهما، فهي أول عملية ينغمس فيها الإسبانيون بجدية ويتعاونون مع وحدة المخابرات البريطانية م١٥ وSAS ضد الجيش الجمهورى الأيرلندى، وكانوا يريدون احراز المجد إذا نجحوا. وأوضحت الموساد بسرعة ان كل ما تريده هو المساعدة، فاستراح الإسبان وبدأوا في التعاون مع الموساد.

وحين فقد الأسبان أثر «ميريد فاريل»، ارشدهم إليه أحد ضباط الموساد، الذى اكتشف أن «فاريل» قد استأجر عربة أخرى، ركنها في مكان انتظار تحت الأرض، محملة بالمتفجرات، في «ماربيللا». وكان هذا المنتجع، ليس فقط ملاذا محببا يحمي من شمس الصحراء الحارقة حيث يقضي عدد من مشاهير العرب وقتهم، بل يقع على مقربة من حوض رسو السفن في «بورتو بانوس» حيث يحتفظ عدد من مليونيرات البترودولار العرب بيخوتهم الفاخرة. وقد كانت الموساد تخشى منذ فترة طويلة أن تكون المراكب التي تقطع البحر المتوسط، تهرّب المتفجرات والأسلحة إلى الارهابيين العرب. وقد ثار الشك بأن عربة «فاريل» مركونة هناك لهذا الغرض. ووضع فريق الموساد مراقبة على العربة. وتابعوا «فاريل» وهو يقود زميليه بالعربة القديمة، إلى ميناء «بورتو بانوس». بعد عشر دقائق من عبور المدخل إلى «ماربيلا» واصل «فاريل» طريقه على الساحل جنوبا. ونبه ضابط الموساد الشرطة الإسبانية أن الثلاثي الأيرلندى يتجه إلى جبل طارق، وأخبر الإسبان السلطات البريطانية بذلك. وتحرك فريق الاغتيال البريطاني ليأخذ مكانه في الموقع. بعد ساعات قتل بالرصاص الثلاثة الأيرلنديون، دون أن يُعطوا فرصة للاستسلام.

بعد أسبوع، تلفن «ستيفن لاندر» الضابط فى م١٥ البريطانية والذى سيصبح مديرها العام، والمسؤول عن العملية، إلى «ادمونى» ليشكر الموساد لمساعدتها فى عملية الاغتيال.

* * *

فى مساء ذلك اليوم من أكتوبر سنة ١٩٩٥، وفى البيت الآمن فى شارع بنكستر، كان كل شئ معدا لترتيب الاغتيال التالى. وكان الدور هذه المرة على زعيم حركة الجهاد الإسلامى فتحى الشقاقى. واتهمت الموساد جماعته بأنها مسؤولة عن موت عشرين إسرائيليا فى عملية انتحارية قام بها اثنان، ضد حافلة خارج مدينة «بيت لد» الصغيرة. فى يناير الماضى. وبذلك يكون عدد الهجمات الارهابية قد بلغ أكثر من عشرة آلاف خلال ربع القرن الأخير، وصل عدد ضحاياها إلى أكثر من اربعمائة إسرائيلى وجرح حوالى الألف. وكثير من المسؤولين عن هذه القائمة من القتلى والجرحى قد تم اصطيادهم وقتلهم، وعلى حد تعبير «ياكوف كوهين» أحد ضباط الموساد «فى تلك الشوارع الخلفية التى لا تحمل اسما، حيث تكون السكين أكثر فعالية من المسدس، وتكون إما قاتلا أو مقتولا».

وفى هذا العالم القاسى، كان الناس يبجّلون الشقاقى، الذى منح الانتحاريين فى عملية «بيت لد» الغفران لقيامهم بالانتحار الذى هو ضد تعاليم الإسلام، معللا ذلك باجتهاد خاص بشرعية مقاومة العدو بكل الوسائل الممكنة، مستغلا الحمية الدينية لدى الشباب، كما كان يفعل «الكاميكازى» اليابانيون فى الحرب العالمية الثانية. ثم ينشر بعد ذلك تأبينا لهم فى صحيفة الجهاد، ويمتدح تضحياتهم فى صلاة الجمعة، ويؤكد لعائلاتهم ان مثواهم الجنة. وفى هذا الجو الحماسى فى الشارع الإسلامى، يصبح تقديم ابن للشقاقى ليضحى به، عملية شرف للعائلة، فأولئك الذين يستشهدون تكرم ذكراهم من على المآذن عند الدعوة لكل صلاة، وفى ظلال المساجد فى جنوب لبنان.

فى تلك الليلة من أكتوبر، وفى البيت الآمن فى تل أبيب حيث كان يقرر مصيره، كان الشقاقى فى بيته فى دمشق مع زوجته فتحية. كانت الشقة تختلف كلية عن مخيمات اللاجئين الذين يبجّلونه. سجاجيد غالية ولوحات معلقة على الجدران،

وكلها هدايا من آيات الله في إيران . وصورة فى إطار مذهب تجمعه مع معمر القذافى، هدية من الزعيم الليبى . طقم من الفضة لشرب القهوة هدية من الرئيس السورى . وملابسه تختلف عن تلك العباءة التى يرتديها وهو يخطب فى فقراء الجنوب .

وحول طبقه المفضل من «الكسكسى»، أكد الشقاقى لزوجته ان رحلته القادمة إلى ليبيا لطلب دعم مادى من القذافى ستكون آمنة، وإنه يأمل بالعودة بمليون دولار، وهو المبلغ الذى طلبه بالفاكس من قائد الثورة الليبية فى طرابلس . وكالعادة، سيُحوّل المبلغ إلى أحد البنوك فى «فاليتا» فى جزيرة مالطا . وقد خطط الشقاقى ان يمكث أقل من يوم في الجزيرة قبل أن يأخذ الطائرة إلى سوريا .

وحين علم ولداه بتوقفه فى «مالطا»، طلبا منه أن يشترى لكل منهما دستة من القمصان، كما فعل فى مرة سابقة .

وتتذكر فتحية الشقاقى «أصر زوجى إنه لو كان الإسرائيليون يخططون لقتله لفعلوا ذلك . فهم يتصرفون بسرعة عند كل حادثة . وكان زوجى متأكدا إنهم لن يفعلوا شيئا حياله حتى لا يغضبوا سوريا» .

كان الشقاقى مصيبا فى رأيه حول وجهة النظر الإسرائيلية، لكن حتى ثلاثة شهور سابقة . فقد أوقف «رابين» فى مطلع صيف ١٩٩٥ عملية للموساد كانت تستهدف تفجير شقة الشقاقى فى ضواحى دمشق . فقد أخبر «اورى ساجى» رئيس المخابرات العسكرية آنذاك، اسحق رابين أنه يلمح تغيرا فى موقف دمشق . على الرغم من بقاء الأسد، فى الظاهر، عدونا الرئيسى . ولكن الطريقة الوحيدة للتغلب عليه هى عمل ما لا يتوقع . وذلك يعنى التنازل عن الجولان كلية لسوريا . إنه ثمن كبير ولكنه الطريق الوحيد للحصول على سلام دائم ومناسب .

وأصغى «رابين» وهو يعرف كم كلفت الجولان «اورى ساجى» شخصيا . فقد أمضى معظم خدمته العسكرية يدافع عن أرضها، وجُرح أربع مرات هناك، ومع ذلك فهو مستعد ان ينسى كل ذلك ليرى إسرائيل تحصل على سلام حقيقى .

وأجّل «رابين» خطط الموساد للتخلص من «الشقاقى»، بينما كان «ساجى» يستكشف حقيقة آماله . لكن هذه الآمال ذوت مع حرارة الصيف، وأمر رابين،

الحاصل الآن على جائزة نوبل للسلام، باغتيال الشقاقي.

وأمر «شابتاى شافيت» فى آخر عملية له كرئيس للموساد، عميلا عربيا فى دمشق بمواصلة الرصد الالكترونى لشقة الشقاقى. وكانت الأجهزة المتطورة لديه تستطيع اختراق نظام الاتصال الروسى لبيت الشقاقى. وأرسلت إلى تل أبيب تفاصيل زيارة الشقاقى إلى ليبيا.

وفى ذلك المساء من أكتوبر سنة ١٩٩٥، شق أهم ثلاثة رجال فى المخابرات الإسرائيلية طريقهم وسط الجماهير التى تتجول فى شارع بنسكر، كل منهم يحمل فى ذهنه الشروط التى وضعها «مئير أميت» حين كان مديرا عاما، لاغتيال أحد أعداء إسرائيل «لا قتل للزعماء السياسيين بل يتم التعامل معهم سياسيا. ولا قتل لأفراد عائلة الارهابى، إلا إذا تعرضوا لنا وآنذاك فالمشكلة ليست مشكلتنا. ويجب أن يوافق رئيس الوزراء على كل عملية اغتيال. كما يجب اتباع التعليمات بدقة والمحافظة على سجل الوقائع التى اتخذ بها القرار، وكل شئ بترتيب وتنظيم، ويجب ألا تبدو أعمالنا كإرهاب دولة ولكن كأعلى قرار قضائى، ودورنا لا يختلف عن أى رجل ينفذ أى قرار قضائى بالاعدام».

ومنذ مقتل الإرهابيين التسعة الذين خططوا لقتل الرياضيين الإسرائيليين فى دورة الألعاب الأولمبية سنة ١٩٧٢، فكل الاغتيالات التالية راعت هذه الشروط بوجه عام.

كان أول من وصل «شابتاى شافيت»، وسخر منه زملاؤه بأن له طريقة موظف استقبال فى فندق غير مشهور فى تل أبيب. الملابس المكوية بعناية، المصافحة السريعة. لقد أمضى فى عمله ثلاث سنوات ويوحى بأنه لا يعرف كم سيبقى فيه. ثم جاء البريجيدير جنرال «دوران تامير» رئيس مخابرات قوات الدفاع الإسرائيلية، رجل رشيق فى ريعان شبابه. يوحى كل شئ فيه بالسلطة التى حصل عليها خلال سنوات طويلة من إعطاء الأوامر.

ثم أخيرا يصل «اورى ساجى»، يدخل البيت الآمن على مهل، كإله حرب، متألقا أكثر مما تعطيه وظيفته كمدير للمخابرات العسكرية. وواصل الجدل المستفز مع زملائه حول رغبة سوريا فى السلام على الرغم من تهديداتها المتجددة.

كانت العلاقة بين الرجال الثلاثة، كما عبر عنها شافيت «ودية بحذر»، وقال «ساجي»: من الصعب المقارنة بيننا. فأنا كمدير للمخابرات العسكرية أكلف الاثنين بالمهام. هناك منافسة بيننا، لكن مادمنا نعمل للهدف نفسه، فذلك رائع.

وجلسوا لمدة ساعتين، يراجعون خطة اغتيال فتحي الشقاقي. إن قتله هو عمل انتقامي خالص، تبرره الكلمه التوراتية «العين بالعين». لكن الموساد تقتل أحيانا لمجرد ان الشخص رفض بعناد ان يساعدها بمهاراته فيما تصبو إليه. فبدلا من المخاطرة ان يقع هؤلاء العباقرة في يد العدو، فمن الأفضل قتلهم بقسوة.

كان الدكتور «جيرالد بل» عالما كنديا من أشهر خبراء العالم في مواسير القذائف. وقامت إسرائيل بمحاولات عديدة لشراء خبرته، لكنها فشلت، فالرجل لا يخفى نفوره من الدولة اليهودية.

وعرض خدماته على «صدام حسين» لبناء مدفع عملاق يحمل قذائف برؤوس نووية أو كيمائية أو بيولوجية تصل مباشرة إلى إسرائيل. كان طول المدفع ٤٨٧ قدما، ويزن ٣٢ طنا من الصلب، زودت العراق بها شركات إنجليزية. ولقد جُرب نموذج أولى لهذا المدفع فى أواخر سنة ١٩٨٩ فى الموصل، وأمر صدام حسين بعمل ثلاثة مدافع بكلفة عشرين مليون دولار. وكان «جيرالد بل» يعمل مستشارا بمكافأة تبلغ مليون دولار، وكان الاسم الكودى للمشروع «بابل». وكانت شركته (شركة البحث الفضائى) مسجلة فى بروكسل كشركة لتصميم معدات التسلح. فأرسلت قائمة بتفاصيل ما تحتاجه إلى الموردين الأوروبيين بما فيهم بريطانيا لتزويدها بمكونات تكنولوجية متقدمة.

فى ١٧ فبراير سنة ١٩٩٠ حصل ضابط موساد فى بروكسل على وثائق تحدد أهداف مشروع بابل: سيكون المدفع العملاق قاذفا لصواريخ متوسطة المدى، من طراز سكود برؤوس ثمانية من الذخيرة يصل مداها إلى ١٥٠٠ ميل. ومعنى ذلك ستطول ليس إسرائيل فقط بل بعض المدن الأوروبية. وكان «جيرالد بل» يعتقد أن بامكانه صنع مدفع يستطيع ضرب لندن من بغداد مباشرة.

طلب «ناعوم ادمونى» مقابلة رئيس الوزراء «اسحق شامير» على الفور، وهو سياسى قاد ميليشيا حاربت قوات الانتداب البريطانى فى آخر أيامه فى فلسطين، وهو

من نوع القادة السياسيين الذين تحبهم الموساد لتأييدهم المطلق لتدمير أعداء إسرائيل حين يتأزم الموقف وتفشل كل الطرق الأخرى. فخلال سنة ١٩٦٠ حين كان علماء الصواريخ النازيين يعملون فى مصر لاختراع أسلحة طويلة المدى يمكنها ضرب إسرائيل عبر سيناء، استدعت الموساد «شامير» ليزودها بخبرته فى تخطيط الاغتيالات. فقد كان تخصصه أيام الانتداب ابتداع الوسائل لقتل الجنود البريطانيين، وقد أرسل بعض الأعضاء السابقين فى منظمته السرية لقتل العلماء الألمان فى مصر، وقد أصبح بعض من هؤلاء القتلة أعضاء مؤسسين لوحدة الاغتيالات فى الموساد.

درس «شامير» ملف «جيرالد بل» فى وقت قصير، فقد قامت المخابرات بعملها الدقيق المعتاد فى تتبع حياة العالم، فقد منح شهادة الدكتوراة فى العلوم وهو فى سن الثانية والعشرين، وعمل فى مؤسسة تطوير التسليح فى الحكومة الكندية. واصطدم هناك مع رؤسائه، مما رسخ فى نفسه كراهية البيروقراطية فى العمل مدى حياته. وبدأ العمل كمستشار خاص، أو بالمعنى الحرفى «بندقية للايجار» كما جاء بالملف كلمسة فكاهة فاقعة.

وترسخت سمعته كمخترع للسلاح فى سنة ١٩٧٦ حين صمم مدفع هاوزر ٤٥ر٠ يصل مداه إلى ٢٥كم فى الوقت الذى كان حلف «الناتو» يملك مدافع مشابهة لا يصل مداها لأكثر من ١٧كم. ومرة ثانية وقع «بل» ضحية صراع الحكومات الأوروبية، فامتنع أعضاء الناتو عن شراء المدفع الجديد لأن منتجى الأسلحة الأوروبيين لديهم تكتلات سياسية مؤثرة، فباعه أخيرا لحكومة جنوب أفريقيا. ثم سافر إلى الصين ليساعد جيش التحرير الشعبى فى تطوير صواريخه. فحسّن من صواريخ «سلك وورم» الموجودة بزيادة مداها وحمولتها من الذخيرة. وقد باعت الصين آنذاك مجموعات من هذه الصواريخ إلى صدام حسين. وقد طورت العراق هذه الصواريخ خلال حربها الطويلة مع إيران، وبقيت كمية كافية منها فى قواعد الإطلاق، لتعتقد الموساد إنها ستوجه أخيرا إلى إسرائيل.

وفى الوقت ذاته كان مشروع بابل يكتمل. وجرّب نموذج متقدم ثانٍ. وأفاد عملاء الموساد فى العراق أن مقدمة الصاروخ صُممت لتحمل أسلحة كيماوية وبيولوجية.

وفى ظهر ٢٠ مارس سنة ١٩٩٠ وافق رئيس الوزراء اسحق شامير، على قتل

«جيرالد بل». وبعد يومين من اتخاذ القرار، وصل اثنان من فريق الاغتيال إلى بروكسل، وكان فى انتظارهم الضابط المكلف بمراقبة «بل» مراقبة دقيقة. وفى الساعة ٦:٤٥ مساء يوم ٢٢ مارس ١٩٩٠، اتجه الثلاثة بعربة مستأجرة إلى البناية التى يسكنها «بل». بعد عشرين دقيقة، فتح «جيرالد بل» باب شقته الفاخرة بعد سماعه رنين الجرس. فاطلق عليه القاتلان خمس رصاصات بالتناوب فى رأسه ورقبته، وتركاه ميتا على الباب. بعد ذلك، أكد ابنه ان والده تلقى انذارا بأن الموساد ستقتله. ولم يقل من الذى أنذر والده، أو لماذا تجاهل والده الانذار.

بعدما عاد فريق القتل آمنا إلى تل أبيب، بدأت إدارة الحرب النفسية فى الموساد بتزويد وسائل الإعلام بقصص تقول ان «جيرالد بل» قد قتل لأنه تراجع عن اتفاقه مع «صدام حسين». والآن، ان التكتيك الذى استخدم لقتل «بل» العالم الذى تعتبره إسرائيل بخطورة «فتحى الشقاقى»، منذ ٥ سنوات سيستخدم ثانية لتنفيذ أمر مباشر لرئيس وزراء آخر هو اسحق رابين.

فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٩٥ غادر رجلان فى أواخر العشرينات من عمرهما - اسمهما الحركى جل وران - تل أبيب على متن طائرتين مختلفتين. فطار «ران» إلى أثينا، و«جل» إلى روما. وفى المطار الذى نزل فيه كل منهما، كان هناك عميل مساعد محلى زودهما بجوازات سفر بريطانية جديدة. وطارا إلى مالطا بعد الظهر ونزلا فى فندق «دبلومات» الذى يطل على ميناء «فاليتا».

وفى ذلك المساء تسلم «ران» دراجة نارية، وأخبر الموظفين أنه ينوى استخدامها فى رحلة حول الجزيرة، لا أحد فى الفندق يذكر أن كانت هناك صلة بين الرجلين. كانا يقضيان معظم وقتهما فى غرفتهما. وحين لاحظ أحد الخدم ان الحقيبة السمسونايت الخاصة «بجل» ثقيلة، غمز بعينه قائلا إنها مملوءة بسبائك الذهب.

وفى ذلك المساء أيضا، اتصلت سفينة شحن إسرائيلية، كانت قد غادرت ميناء حيفا فى اليوم السابق متجهة إلى إيطاليا، بسلطات الميناء المالطية، قائلة إن هناك عطلاً فى محركاتها، وستتوقف بعيدا عن الميناء حتى يتم الإصلاح. وكان على متن السفينة «شابتاى شافيت» وفريق صغير من فنيى الاتصالات التابعين للموساد الذين أقاموا اتصالا مع «جل»، فحقيبته كانت تحتوى على جهاز إرسال واستقبال صغير

وقوى. كانت أقفال الحقيبة تفتح عكس اتجاه عقارب الساعة، لتبطل مفعول العبوتين المثبتتين في غطائها. فقد صممت لتنفجر في وجه من يفتحها في اتجاه عقارب الساعة. وتسلم «جل» خلال الليل عددا من الرسائل عبر الجهاز.

كان «فتحي الشقاقي» قد وصل مبكرا ذلك اليوم على المعدية التي تسير بين طرابلس وفاليتا، مصحوبا برجال الأمن الليبيين الذى ظلوا على السطح، فمهمتهم تنتهي بوصول «الشقاقي» سالما إلى الشاطئ. وقبل ان ينزل حلق ذقنه ثم قدم جواز سفره الليبي إلى ضباط الهجرة المالطيين، باسم «إبراهيم درويش». نزل في فندق «ديبلومات»، وقضى الساعات التالية جالسا على المقاهي المواجهة للبحر، يشرب العديد من فناجين القهوة ويقضم الكعك العربي.

في صباح اليوم التالي، وأثناء عودته من شراء القمصان لولديه، يسير الهوينى أمام البحر، اقتربت منه دراجة نارية يركبها رجلان، أطلق أحدهما عليه ست رصاصات مسددا إلى رأسه. فمات على الفور. واختفى الرجلان، ولم يعثر لهما أحد على أثر. ولكن بعد ساعة أبحر قارب من ميناء «فاليتا» ليرسو قرب سفينة الشحن. بعد ذلك بقليل أخبر قبطان السفينة سلطات الميناء أن العطل قد أصلح مؤقتا وعلى السفينة أن تعود إلى حيفا لمزيد من الإصلاح.

وأعلنت إيران، المقر الروحي للشقاقي، يوما للحداد القومي. وحين سُئل إسحق رابين في تل أبيب ان يعلق على موت الشقاقي قال «بالتأكيد أنا لست حزينا».

وبعد أربعة أيام، في ٤ نوفمبر سنة ١٩٩٥ اغتيل «رابين» في تل أبيب وسط حشد من المؤيدين للسلام، قريبا من المنزل الآمن الذى أعدت فيه خطة اغتيال الشقاقي بناء على أمر منه. لقد قتله متعصب يهودي، يدعى «بيجال عمير» يملك كثيرا من الصفات القاسية التي يعجب بها رئيس الوزراء في رجال الموساد. إن «اسحق رابين» الصقر الذى تحول إلى حمامة، والزعيم السياسي القوى الذى أدرك أن فرصة السلام هي الحل الوحيد في الشرق الأوسط، كما حرّف الاقتباس مرة من التوراة «أن نحوّل سيوفنا إلى محاريث ونفلح الأرض مع جيراننا العرب.»، قد قتل على يد أحد أبناء شعبه لأنه لم يدرك إن أعداءه من اليهود سيتصرفون بالعنف ذاته الذى تصرف به أعداؤه من العرب ـ وأن كلا الفريقين مصممون على تدمير رؤيته للمستقبل.

* * *

كان في وحدة الاغتيال في الموساد سنة ١٩٩٨ ، ٤٨ عضوا، ست منهم نساء. جميعهم في العشرينات من عمرهم، ولياقتهم البدنية عالية. ويعيشون بعيدا عن قيادة الموساد في تل أبيب، في منطقة محصورة داخل قاعدة عسكرية في صحراء النقب، يمكن أن تعدّل لتصبح شارعا أو بناية من التي ستتم فيها عملية الاغتيال، كما أن هناك عربات للتدريب على الفرار واجتياز العقبات. والمدربون عادة من رجال الوحدة السابقين، يعلمون الأعضاء الجدد كيفية استخدام مختلف أنواع المسدسات، وإخفاء القنابل، وإعطاء حقنة مميتة وسط جمهور كثيف، واظهار عملية القتل وكأنها مجرد حادث. ويشاهد أعضاء الفريق أفلاما لعمليات الاغتيال الناجحة ـ اغتيال الرئيس كيندى مثلا ـ ويدرسون وجوه وعادات عشرات من الأهداف الممكنة والمخزنة داخل كمبيوتر محصن جيدا ضد الاختراق، كما يحفظون التغيرات التى أجريت على شوارع المدن الكبيرة فى العالم، وتخطيط المطارات والموانئ.

وكل وحدة تعمل على شكل فريق مكوّن من أربعة أشخاص، يسافرون إلى الخارج بانتظام للتعرف على المدن. لندن، باريس، فرانكفورت ومدن أوروبية أخرى. كما أن هناك رحلات إلى نيويورك ولوس أنجلس. وتورنتو يقومون بها من حين لآخر بصحبة مدربيهم الذين يقدّرون مهاراتهم في القيام بعملية دون لفت الأنظار إليهم، وتُختار الأهداف من المساعدين المحليين المتطوعين ـ وهم دائما من اليهود ـ بعد اخبارهم بأنهم يشتركون في تدريب أمنى لحماية أماكن يهودية ـ بنك أو معبد حسب الظروف.

ويأخذ أعضاء الفريق هذه التدريبات بمنتهى الجدية، لأنهم يعون ما يعرف بـ«فشل ليليهامر». فقد حدث في يولية سنة ١٩٧٣ فى أوج عملية اصطياد قتلة الرياضيين الإسرائيليين فى دورة الألعاب الأولمبية فى ميونيخ، أن تلقت الموساد اشارة بأن «الأمير الأحمر ـ على حسن سلامة» الذى خطط للعملية، يعمل ساقيا فى بلدة «ليليهامر» النرويجية الصغيرة. فكوّن «ميشيل هرارى» مدير العمليات فى الموساد آنذاك، فريقا ليس من وحدة الاغتيال، بل من أفراد متفرقين فى أنحاء العالم يتتبعون باقى الارهابيين المشاركين فى عملية ميونيخ، وليس لديهم خبرة، واكتفى بخبرته هو كضابط موساد عمل فى أوروبا ذات يوم. وكان الفريق يشتمل على امرأتين: «سيلفيا رافائيل» و«ماريان كلادنجوف»، وأحد الجزائريين «كمال بنامى» الذى كان يعمل مع

منظمة «أيلول الأسود» قبل أن يرهبه «هراري» ويجنده كعميل مزدوج، بالاضافة إلى «هراري» نفسه وثمانية آخرين.

كانت العملية منذ بدايتها كارثة. فوصول دستة من الغرباء إلى «ليليهامر» التي لم تحدث فيها جريمة واحدة منذ أربعين عاما، أثار التفكير فبدأ البوليس المحلى يراقبهم. وحين اغتال الفريق ساقيا مغربيا اسمه «أحمد بوشيقي»، الذى ليس له علاقة بالارهاب، وكل ذنبه إنه يشبه حسن سلامة، كانت الشرطة قريبة منهم. هرب «هراري» وبعض أعوانه، لكن الشرطة قبضت على ستة من أعضاء الفريق بما فيهم المرأتين.

وأدلوا باعترافات كاملة، كاشفين للمرة الأولى طرق الاغتيال التي تتبعها الموساد وتفاصيل أخرى لا تقل أهمية عن نشاطاتها السرية. ووجهت إليهم تهمة القتل من الدرجة الثانية، وحكم على كل منهم، بما فيهم المرأتين، بخمس سنوات في السجن.

فُصل «هراري» عند عودته إلى تل أبيب، وألغيت كل الشبكة السرية في أوروبا من منازل آمنة، وصناديق البريد، وأرقام التليفونات وغيرها. وستمضى ست سنوات قبل أن يُقتل «حسن سلامة» في عملية قادها «رافي إيتان» الذى قال «ان «ليليهامر» تعطى مثلا عن الأشخاص الخطأ في العمل الخطأ، وما كان لها ان تحدث ابدا.. ولا يجوز أن تحدث ثانية».

لكنها حدثت.

* * *

ففى ٣١ يولية سنة ١٩٩٧، يوم ان قتل اثنان من انتحاريى «حماس» ١٥ إسرائيليا وجرحوا ١٥٧ آخرين في سوق بالقدس، حضر «داني ياتوم» رئيس الموساد اجتماعا برئاسة بنيامين نيتانياهو. كان رئيس الوزراء قد جاء بعد عقده مؤتمرا صحفيا مؤثرا. وعد فيه بأنه لن يستريح حتى يصبح هؤلاء الذين خططوا للانفجار لا يشكلون أى تهديد. كان ثابت العزم هادئا وهو يجيب على الأسئلة بنظام ولهجة تهديدية. لن تفلت «حماس» من العقاب، أما ما سيحدث فليس موضوع نقاش. وهذا هو «بيبى» الذى نال مديحا كبيرا لتقديراته لاستجابات «صدام حسين» أثناء حرب الخليج

وكيف ينظر إليها الإسرائيليون، وذلك عبر شبكة CNN.

ولكن في ذلك اليوم العصيب، بعيدا عن الكاميرات، يحيط به «ياتوم» وضباط المخابرات الكبار ومستشاروه السياسيون، ظهر نيتانياهو في صورة أخرى. لم يكن هادئا ولا محللا. ففي غرفة المؤتمرات المزدحمة والمجاورة لمكتبه، كان يقطع الحديث ليصرخ «سأنال من أولاد الزنا هؤلاء ولو كان ذلك آخر شئ أفعله». وأضاف، حسب قول أحد الحضور «أنتم هنا لتخبروني كيف سيحدث ذلك. لا أريد أن أقرأ في الصحف أى شئ عن انتقام «بيبى»، ان الأمر كله يتعلق بالعدالة - إنه قصاص فقط».

فقد تقرر جدول العمل.

وجلس «ياتوم» المعتاد على تقلبات مزاج رئيس الوزراء، صامتا بينما واصل نيتانياهو تهديداته «أريد رءوسهم. أريدهم موتى. لا يهمنى الطريقة. أريد أن ينفذ ذلك. وأريده اليوم قبل الغد».

وازداد التوتر، حين طلب «نيتانياهو» من «ياتوم» قائمة بأسماء قادة حماس وأماكن تواجدهم. لم يسبق لأى رئيس وزراء أن طلب تفصيلات عملية حساسة كهذه في هذا الوقت المبكر من التخطيط. وفكر عدد من الحضور «بأن «بيبى» يلمح وكأنه سيقوم بالعملية بنفسه».

وتعمق القلق وسط عدد من ضباط الموساد، لاضطرارهم للعمل بهذا القرب الشديد من رئيس الوزراء. وأحس «ياتوم» بذلك، فقال «لنيتانياهو» إنه سيقدم له القائمة فيما بعد، واقترح بأن الوقت قد حان للنظر إلى الجانب العملى في الموضوع. فمعرفة أماكن قادة حماس «كمن يبحث عن فئران في مجارى بيروت».

وقاطعه «نيتانياهو» قائلا: إنه لا يريد اعذارا. يريد عملا.. ويريده أن يبدأ الآن وهنا.

بعد أن انتهى الاجتماع، أدرك عدد من ضباط المخابرات أن «نيتانياهو» قد تجاوز الخط المسموح به حيث تنتهى السياسة وتبدأ متطلبات التنفيذ العملية. ولم يوجد أحد في الغرفة لم يدرك أن «نيتانياهو» في حاجة ماسة إلى ضربة تقنع الجمهور بأن القبضة الحديدية ضد الارهاب التى أوصلته إلى منصبه لم تكن لغوا فارغا. كما أنه كان

يخرج من فضيحة ليقع فى أخرى، ويتملص كل مرة ليلقى باللوم على الآخرين. كانت شعبيته أكثر انخفاضا من أى وقت مضى. وحياته الخاصة تتناولها الصحف كلها، إنه فى حاجة ماسة إلى اثبات إنه فى موقع المسؤولية.

وتحدث أحد كبار ضباط المخابرات بثقة قائلا. «بينما نتفق جميعا حول مبدأ أن قطع الرأس يقتل الثعبان، فإن تحديد الوقت من اختصاصنا. وكل حديث «بيبى» عن «العمل الآن» مجرد كلام فارغ. فعملية من هذا النوع تحتاج إلى تخطيط دقيق. ان «بيبى» يريد النتائج وكأننا فى لعبة كمبيوتر أو أحد أفلام الحركة القديمة التى يحب مشاهدتها؛ لكن ذلك لا يصلح فى عالم الواقع.»

وأمر «ياتوم» بالبحث الدقيق فى كل بلد عربى، وأرسل العملاء إلى غزة والضفة الغربية لاكتشاف أماكن الشخصيات الخفية التى تحكم «حماس». واستُدعى خلال شهر أغسطس إلى مكتب رئيس الوزراء عدة مرات ليقدم تقريرا عما أحرزه من تقدم. ولم يكن هناك تقدم. وكانت إدارة الاستخبارات الإسرائيلية تعج بالروايات عن طلب «نيتانياهو» من «ياتوم» إن ينشر رجالا أكثر، وعن تلميحاته بالقيام بتصرفات أخرى إذا لم يلمس نتائج سريعة. وإذا كان يقصد بذلك تهديد رئيس الموساد، فالأمر ليس جديداً. فقد قال «ياتوم» ببساطة إنه «يبذل ما فى وسعه» اشارة إلىَ أن من حق «نيتانياهو» ان يفصله إذا أراد، لكن فى النقاش العام الذى سيتلو ذلك ستثور أسئلة بالحتم عن دور رئيس الوزراء فى الموضوع. واستمر «نيتانياهو» بالضغط من أجل قتل أحد قادة حماس وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل.

وفى سبتمبر سنة ١٩٩٧، بدأ يتصل «بياتوم» عدة مرات فى الليلة الواحدة سائلا عن التقدم. وخضع رئيس الموساد للضغط. ووضع المزيد من العملاء للبحث، أولا لأنه يعيد ترتيب الخريطة لتخضع لمطالب «بيبى»، ثم لأنه رجل شرس، لكنه لا يبارى «نيتانياهو» الذى بدأ الحديث عن السرعة التى تقدم بها أخوه للمساعدة فى الغارة على «عنتيبى»، وليس للمقارنة أى معنى، ولكن هذا هو «بيبى» يستخدم أى شئ للوصول إلى هدفه.

فى ٩ سبتمبر وصلت الأنباء تل أبيب بأن حماس ضربت ثانية، وأصابت بجروح خطيرة اثنين من حراس الملحق الثقافى فى السفارة الإسرائيلية التى افتتحت حديثا فى

العاصمة الأردنية عمان.

بعد ثلاثة أيام، وقبل أن تبدأ عطلة السبت، طلب «نيتانياهو» من «ياتوم» ان ينضم إليه على الغداء في بيته بالقدس. وتناول الاثنان طعام الغداء المكون من الحساء والسلطة والسمك مع البيرة والمياه المعدنية. وبدأ رئيس الوزراء حديثة فورا عن الهجوم الذى حدث فى عمان: كيف اقترب رجال حماس إلى هذه الدرجة من رجالنا ليطلقوا عليهم النار؟ لماذا لم يكن هناك انذار مبكر؟

وماذا يفعل مركز الموساد فى عمان؟

قاطعه ياتوم في منتصف كلامه قائلا: هناك قائد من قادة حماس فى عمان اسمه «خالد مشعل» يدير العمل التنفيذى لحماس من مكتب فى المدينة. وقد كان مسافرا لعدة أسابيع في بعض الدول العربية ولكن مجموعتنا فى عمان أفادت بأنه عاد إلى المدينة.

وتكهرب نيتانياهو، وقال «اذهب واقتله. ذلك ما يجب أن تفعله. اقتله. ارسل رجالك إلى هناك لقتله».

وقرر «ياتوم» الذى تعرض لضغط متواصل لمدة ستة أسابيع تقريبا، أن يعطى رئيس الوزراء، الذى يبدو أنه ليس لديه أى حس سياسى لنتائج أى عملية للمخابرات، درسا لاذعا. ولمعت عيناه وهو يحذّر «نيتانياهو» من أن أى عملية فى عمان ستدمر العلاقة مع الأردن التى سبق لسلفه «اسحق رابين» ان أقامها. إن قتل «خالد مشعل» فوق الأراضى الأردنية معناه تعريض عمليات الموساد هناك للخطر، حيث تتدفق المعلومات المخابراتية عن سوريا والعراق والمتطرفين الفلسطينيين. واقترح «ياتوم» الانتظار حتى يغادر «مشعل» الأردن، ليُقتل خارجها.

فقال نيتانياهو صارخا «اعذار! ذلك كل ما لديك. اعذار! أريد عملا. وأريده الآن. الناس تريد عملا.. سيكون هدية فى رأس السنة العبرية الجديدة». ومنذ تلك اللحظة، كانت كل خطوة يقوم بها «ياتوم» تأخذ موافقة من «نيتانياهو» - ولم يكن أى رئيس وزراء إسرائيلى على هذا القرب الشخصى من عملية قتل تتبناها الدولة من قبل.

* * *

خالد مشعل في الحادية والأربعين من العمر، رجل ملتح وقوى البنية. يسكن في مكان قريب من قصر الملك حسين، وهو، بكل المقاييس. زوج مخلص، وأب لسبعة أطفال. وهو رجل مثقف ومهذب الحديث، وشهرته محدودة في الحركة الأصولية الإسلامية. ولكن المعلومات السريعة التي جمعها فريق الموساد في عمان اشارت إلى أن «مشعل» هو القوة المحركة وراء العمليات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين.

وزودت الموساد بتفاصيل تحركات «مشعل» مع صورة له التقطها العملاء خفية. ورفع «ياتوم» تقريره إلى نيتانياهو مع رجاء بعدم القيام بالعملية في عمان، فمثل هذا العمل المستهتر سيدمر تعاونا مهما لمدة سنتين مع الأردنيين في مجال التجسس المعتاد.

ورفض نيتانياهو الرجاء، قائلا إنه يبدو كتنبؤ بالفشل، وهو لن يحتمل ذلك.

في الوقت نفسه، كان فريق اغتيال من ثمانية أفراد يستعد: اثنان سيقومان بالتنفيذ في وضح النهار. الآخرون سيقومون بالمساندة، بما فيها السيارات. وسيعود الفريق بكامله، بعد اتمام العملية، عن طريق جسر اللنبي إلى إسرائيل.

السلاح المختار لتنفيذ العملية كان غير عادى، ليس مسدسا ولكن علبة ايروسول مملوءة بغاز الأعصاب. وهي المرة الأولى التي يستخدم الإسرائيليون فيها هذه الطريقة التي جربها جهاز المخابرات الروس KGB ووكالات مخابراتية أخرى من الكتلة السوفيتية. لقد جندت الموساد عددا من العلماء الروس الذين هاجروا حديثا إلى إسرائيل، فاخترعوا سلسلة من السموم المميتة مثل «التابون والسارين والسومان» وكلها غازات للأعصاب محرمة في المعاهدات الدولية، وتسبب الموت الفورى أو على المدى الطويل نسبيا، وفي كل الحالات فإن الضحية تفقد السيطرة على أعضاء الجسم الداخلية، وتعانى ألما شديدا يُعد الموت أرحم منه. واختيرت هذه الطريقة كأنسب طريقة لاغتيال «مشعل».

في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٩٧ طار فريق الاغتيال إلى عمان من أثينا وروما وباريس حيث كانوا ينتظرون منذ عدة أيام. البعض سافر بوثائق فرنسية وإيطالية. أما الاثنان اللذان سيقومان بالتنفيذ فقد كانا يحملان جوازى سفر كنديين باسم «بارى بيدس» و«شين كندال». وأخبرا الموظفين في فندق انترناشونال أنهما سائحان. واستقر

الآخرون في السفارة الإسرائيلية التي تقع على مسافة قريبة. وأنضم إليهما «باري وشين» في اليوم التالي، وتأكدا مرة أخرى من عمل علبة الأيروسول. ويعتقد أن المادة الكيماوية فيها قد تسبب أي شئ من الهلوسة إلى توقف القلب. وتزودا بآخر تحركات «مشعل»، الذي كان في لندن في سبتمبر سنة ١٩٧٨ حين قُتل مرتد بلغاري هو «جورجي ماركوف» بمادة كيماوية للأعصاب. فقد وخزه، عابر في الطرق، بطرف مظلة، فمات ميتة رهيبة بتأثير «الريسين» وهو مادة سامة مصنوعة من بذور زيت الخروع. وكان عابر السبيل أحد عملاء KGB ولم يلق القبض عليه قط.

وعادا إلى الفندق قبل منتصف الليل بقليل، متفائلين بالمعلومات الأخيرة، وفي الصباح طلب كل منهما افطارا في الغرفة، مكونا من القهوة وعصير البرتقال وفطائر هولندية. في التاسعة من صباح اليوم التالي، استأجرا عربتين، وقّع على استلام الأولى، وهي تويوتا زرقاء، «باري بيدس»، وعلى الثانية التي وصلت بعد قليل. وهي هيوندا خضراء، «شين كندال» الذي أخبر أحد موظفي الاستقبال إنه وصديقه سيكتشفون جنوب القطر.

في الساعة العاشرة صباحا، كان «مشعل» في سيارته التي يقودها سائق، مع ثلاثة من أبنائه، ولد وبنتين. وتبعه «بيدس» في عربته المستأجرة على مسافة معقولة حتى لا يتنبه إليه. أعضاء الفريق الآخرون كانوا في عربات أخرى على الطريق. حين دخلوا منطقة الحدائق في المدينة، أخبر السائق «مشعل» إن هناك من يتبعهم. فاتصل «مشعل» من تليفون العربة بمقر الشرطة الرئيسي في عمان وأعطاهم رقم سيارة «بيدس». حين تخطتهم عربة «التويوتا» لوح أطفال «مشعل» إلى «بيدس» كعادتهم تجاه السائقين الآخرين. وتجاهلهم عميل الموساد. وبعد قليل تبعتها «الهيوندا» واختفت العربتان في زحمة المرور.

بعد لحظات، اتصل ضابط من رئاسة الشرطة في عمان «بمشعل» ليخبره إن العربة مؤجرة إلى سائح كندي. فاستراح، وبدأ يراقب أطفاله وهم يلوحون إلى السائقين ووجوههم مضغوطة على النوافذ، فهم يرافقون والدهم، بالتناوب وهو ذاهب إلى عمله قبل أن يوصلهم السائق إلى مدرستهم.

وقبل العاشرة والنصف بقليل دخل السائق شارع «وصفي التل»، حيث يتجمع

جمهور خارج مكتب حماس اندس فى وسطه «كندال» و«بيدس». لم يسبب وجودهما أى حذر، فغالبا ما يأتى السياح ليتعرفوا بدرجة أكبر على طموحات حماس.

قبّل «مشعل» أطفاله بسرعة قبل مغادرة السيارة، تقدم «بيدس» وكأنه يريد أن يصافحه. وكان «كندال» قرب كتفه يتحسس بارتباك حقيبته البلاستيكية.

قال «بيدس» بسرور «سيد مشعل؟». فتطلع إليه «مشعل» دون أن يتيقن إنه هو المنادى، فى تلك اللحظة أخرج «كندال» علبة الأيروسول وحاول أن يرش محتوياتها فى أذن «مشعل» اليسرى. تراجع قائد حماس فزعا وهو يمسح شحمة أذنه. وقام «كندال» بمحاولة ثانية لرش المادة فى أذن «مشعل». وبدأ الجمهور حولهم يستفيق من المفاجأة، وامتدت الأيدى للامساك بالعميلين. فقال «بيدس» بالعبرية: إجر

وجرى بأقصى سرعة يتبعه «كندال» إلى عربته المركونة على مسافة قريبة فى الشارع. شاهد سائق «مشعل» ما يحدث، فتراجع بعربته محاولا الاصطدام بـ«التويوتا».

كان مشعل يئن مذهولا، والناس تحاول منعه من السقوط. بينما البعض يصرخون فى طلب سيارة إسعاف.

حاول «بيدس»، و«كندال» مستلق بجانبه في العربة ومازال ممسكا بعلبة الأيروسول، أن يتفادى عربة السائق وهو يزيد من سرعته فى الشارع.

وكانت عدة عربات تتبعهما. أحد السائقين كان لديه تليفون خلوى فبدأ يستعمله طالبا اقفال الطرق فى المنطقة. وكان السائق يستخدم تليفون السيارة للاتصال بمقر الشرطة.

كان أعضاء الفريق المساند قد وصلوا الآن. توقف أحدهم وأشار إلى «بيدس» أن ينتقل إلى عربته. وما أن قفز عميلا الموساد من التويوتا حتى كانت سيارة تسد عليهما الطريق، ونزل منها عدد من الرجال المسلحين، أجبرا «بيدس» و«كندال» على الاستلقاء على الأرض. ووصلت الشرطة بعد قليل. غادر أعضاء الفريق الإسرائيلى المكان، بعد أن أدركوا عدم استطاعتهم فعل أى شئ، وعادوا إلى إسرائيل خفية دون أن يُكتشفوا. كان بيدس وكندال أقل حظاً، فقد نُقلوا إلى المقر الرئيسى للشرطة،

وقدموا جوازات سفرهم الكندية وأصروا على إنهما ضحايا مؤامرة رهيبة. لكن وصول «سميح البطِّيخي» رئيس وحدة التجسس المضاد، وهو رجل مخيف، أنهى هذا التظاهر. فأخبرهما إنه يعرف من هما، فقد تلقى لتوه مكالمة من رئيس مركز الموساد. وحسب قوله بعد ذلك فإن الجاسوس الأعظم «أقر بكل شئ.. وقال إنهما من رجاله وأن إسرائيل ستتعامل مباشرة مع الملك».

وأمر «البطِّيخي» بأن يوضع كل من الرجلين في زنزانة منفردة دون أن يصيبهما أذى بأية طريقة.

في الوقت نفسه، أدخل «مشعل» غرفة العناية المركزية في مستشفى عمان الرئيسي. كان يشكو من رنين متواصل في أذنه اليسرى، وإحساس بالرعشة كالصدمة يجري في جسده، وتزايد متواصل في صعوبة التنفس. ووضعه الأطباء على جهاز المحافظة على الحياة.

وصلت أخبار فشل العملية إلى «ياتوم» عبر مكالمة تليفونية آمنة، من رئيس محطة التجسس في السفارة الإسرائيلية في عمان. وكان الرجلان في قمة غضبهما.

في الوقت الذي اتصل فيه «ياتوم» بمكتب رئيس الوزراء، كان نيتانياهو قد تلقى مكالمة من الملك حسين عبر الخط الساخن الذي أقيم بين الزعيمين لمعالجة الأزمات. ما دار في المكالمة، ذكره أحد ضباط المخابرات بعد ذلك «كان لدى الملك حسين سؤالين لبيبي: ما هذا الذي يفعله بحق السماء؟ وهل لديه ترياق لغاز الأعصاب القاتل؟»

وقال الملك إن، شعوره وكأن أحد أصدقائه قد اغتصب ابنته، وإذا فكر نيتانياهو بإنكار كل شئ، فإن عميليه قد أدليا باعتراف كامل صُوِّر على شريط فيديو في طريقه الآن إلى «مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية الأمريكية في واشنطن. وجلس نيتانياهو محنيا فوق تليفونه «شاحبا كمن أمسك به متلبسا بالجرم». وعرض أن يطير إلى عمان على الفور ليوضح الأمور للملك. فأخبره الحسين أن لا يضيع وقته.

ويتذكر ضابط المخابرات «كان بإمكانك سماع «طقطقة» الثلج على الخط مع عمان. ولم يحتج بيبي حين أخبره الملك حسين إنه يتوقع الآن الإفراج عن الشيخ «أحمد ياسين» (قائد حماس الذي اعتقلته إسرائيل منذ فترة) وعدد آخر من السجناء

الفلسطينيين. استمرت المكالمة عدة دقائق، ربما كانت اسوأ لحظات في حياة «بيبي» السياسية.

وسارت الأحداث، الآن بقوة دفعها الذاتي. في خلال ساعة كان الترياق قد أرسل بطائرة عسكرية إلى عمان وأعطى إلى «مشعل». وبدأ يتماثل للشفاء، وخلال أيام كان يعقد مؤتمرا صحفيا يسخر فيه من الموساد. والتقى رئيس مركز التجسس الإسرائيلي في عمان مع «سميح البطيخي» لفترة قصيرة اتصلا خلالها تليفونيا مع «ياتوم» رئيس الموساد الذي أكد بإنه لن تكون هناك محاولة اغتيال أخرى تقوم بها إسرائيل على التراب الأردني. وفي اليوم التالي اتصلت «مادلين أولبرايت» مرتين، ولفترة قصيرة، بـ«نيتانياهو» أوضحت فيهما رأيها فيما حدث، وكانت لهجتها، أحيانا، مريرة كلهجة الملك حسين.

واستدعت كندا سفيرها في إسرائيل، حين علمت باستخدام جوازات سفر كندية في العملية، وهي خطوة قريبة من قطع العلاقات الدبلوماسية.

وخلال أسبوع، كان قد أطلق سراح الشيخ «أحمد ياسين»، واستقبل استقبال الأبطال في غزة. آنذاك كان «بيدس وكندال». قد عادا إلى إسرائيل دون جوازي سفرهما حيث سلمتهما السلطات الأردنية إلى السفارة الكندية في عمان لحفظهما. ولم يعد العميلان إلى وحدة الاغتيال، بل إلى وظيفة مكتبية في رئاسة الموساد، وكما قال أحد ضباط المخابرات «هذا قد يعني إنهما مسؤولان عن أمن مراحيض البناية».

وأصبح «ياتوم» بطة عرجاء، وشعر رجاله بأنه لم يصمد أمام «نيتانياهو»، وهبطت الروح المعنوية في الموساد درجة أخرى. وسربت أخبار من مكتب رئيس الوزراء بأنها «مسألة وقت قبل أن يذهب «ياتوم»».

وحاول «ياتوم» ان يوقف ما سماه أحد كبار ضباط الموساد «الموجة العالية من الغم التي نغرق فيها». فاتخذ هيئة يسميها «الوضع البروسي» محاولا ارهاب رجاله. وحدثت مصادمات غاضبة وتهديدات بالاستقالة.

لكن «ياتوم» هو الذي استقال في فبراير ١٩٩٨، في محاولة يترأسها، قال عنها إنها «تمرد قريب». ولم يرسل له رئيس الوزراء خطاب الشكر المعتاد في هذه الظروف، تقديرا لما قدمه من خدمات.

لكن «ديجول»، غير المتعاطف مع إسرائيل، كان مقتنعا

بأن الموساد متورطة في الأمر، وقال لمساعديه أن العملية تحمل «بصمة تل أبيب» وأضاف غاضبا إن

الإسرائيليين فقط هم الذين يظهرون استهتارا بالقانون الدولي.



الجاسوس الجنتلمان

فى صباح يوم ربيعى رطب سنة ١٩٩٧، أعطى «ديفيد كيمحى» تعليماته إلى منسقى الجنائن العرب، عن الشكل الذى يريده لحديقته فى ضواحى تل أبيب. كان متشككا، وصوته الرقيق الحاث على العمل، يناسب الحرم الجامعى أكثر من مناسبته للتعامل مع عمال يدويين. فهو سليل أجيال من رجال الإدارة الذين رفعوا ذات يوم العلم البريطانى على بقاع بعيدة فى العالم. إنه الابن الإنجليزى لعائلة يهودية متوسطة، وخلوه من العيوب يعمق الصورة المثالية للرجل الإنجليزى. إن ملابسه الغالية، جيدة التفصيل، تؤكد إنه رجل مرتب، يحافظ على التدريب البدنى والريجيم القاسى. فهو يبدو أصغر بعشرين سنة من عمره الذى يقترب من الستين، ولديه سلوك صبيانى نوعا ما، فكل اشارة منه، وهو يرشد العمال - وكل حركة خصلة شعر على جبينه، فترات الصمت الطويلة، طريقة التحديق الثاقبة - توحى بأنه قضى عمره داخل حرم إحدى الجامعات.

وفى الواقع، كان «ديفيد كيمحى» كما قال عنه «مئير أميت»: أحد المثقفين ذوى القدرة العالية الذين يقفون وراء الكثير من عمليات الموساد. ان مهارته فى الاستدلال المنطقى المصحوبة باثارة الأعصاب والحذر والحركة غير المتوقعة كليا، اكسبته احترام

زملائه حتى الساخرين منهم. لكن ثقافته العالية، جعلتهم يحافظون على مسافة بينه وبينهم، كان بعيدا ومترفعا عن طرق حياتهم الدنيوية. ومعظمهم يشعر كما قال «رافى إيتان»: «لو قلت لديفيد صباح الخير.. فإن عقله يبدأ فى التساؤل كم من الخير موجود وكم مضى من الصباح».

كان يعتبر داخل الموساد خلاصة الجاسوس الجنتلمان مع مكر قطط الحارات. بدأت رحلته مع الموساد بعد أن أنهى دراسته فى جامعة اكسفورد بتفوق فى العلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٨. بعد ذلك بعدة أشهر جُنِّد تحت امرة «مئير أميت» الرئيس الجديد للموساد آنذاك، الذى كان يسعى لتطعيم المؤسسة ببعض خريجى الجامعات ليقيم التوازن مع قسوة رجال مثل «إيتان» ممن اكتسبوا مهاراتهم فى ميدان العمل.

أما من الذى جنّده، وأين وكيف جنّده، فهو سر يُقفل عليه «كيمحى» بالضبة والمفتاح. وتقدم طاحونة الشائعات فى المخابرات الإسرائيلية عدة سيناريوهات لذلك: ان ذلك قد تم على عشاء فاخر مع ناشر لندنى يهودى كان منذ فترة طويلة مساعدا للمخابرات، أو فى مكتب أحد الحاخامات فى أحد المعابد، أو أن قريبا بعيدا له هو الذى اتخذ الخطوة الأولى.

الشئ المؤكد الوحيد، إنه فى ربيع سنة ١٩٦٩ دخل «كيمحى» مبنى قيادة الموساد فى تل أبيب، كأحدث عضو فى قسم الاستراتيجية والتخطيط. على أحد الجانبين كان فرع بنك إسرائيل وعدة مكاتب عمل ومقهى. لم يعرف ماذا يفعل أو إلى أين يذهب، فوقف منتظرا فى القاعة المتكهفة. كم يختلف الأمر هذا عن مدخل المخابرات المركزية الأمريكية الذى قرأ عنه، والذى يقع فى «لانجلى» حيث تفخر الوكالة بالإعلان عن وجودها، أرضية من رخام، ودرع مرصع بستة عشر نجمة يشرف عليه نسر أجرد عليه كلمات «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية» على حائط عليه كلمات الرسول يوحنا عن الناس الذين حررتهم الحقيقة، وتحت اللوحة يوجد العديد من المصاعد التى يحرسها جنود مسلحون.

لكن هنا، فى هذه القاعة شبه البالية فى بناية شارع الملك شاؤول، حيث لا يوجد إلا صرافو البنوك فى مواقعهم، وأناس يجلسون على الكراسى البلاستيكية للمقهى. ولا يبدو أن أحدا منهم على علاقة بالموساد ولو من بعيد. فتح مصعد عادى فى ركن من القاعة وخرج منه وجه مألوف، ضابط قنصلى فى السفارة الإسرائيلية فى لندن والذى قدم له وثائق السفر. قاد «كيمحى» إلى باب المصعد قائلا أن وضعه السياسى يحمى عمله الحقيقى كضابط فى الموساد. وأعطى «كيمحى» مفتاحين قائلا من الآن فصاعدا سيدخل قيادة الموساد بطريقته الخاصة. أحدهما يفتح الباب، والثانى المصاعد التى تعمل فى الدور الثامن حيث مقر الموساد. فالقيادة عبارة عن مبنى داخل مبنى بكل مرافقه ـ الكهرباء، الماء، الصحة. كلها مفصولة عن المبنى الرئيسى. ولقد أصبح المبنى مقرا للقيادة بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦ بقليل.

فى تلك السنة، شنت إسرائيل وبريطانيا وفرنسا غزوا مشتركا على مصر لاستعادة قناة السويس التى أممها جمال عبدالناصر. لم تكن الولايات المتحدة تعلم مسبقا بالغزو الذى تحول ليكون آخر نَفَس فى السيطرة البريطانية والفرنسية على الشرق الأوسط. وبذلت الولايات المتحدة ضغطا سياسيا هائلا لإيقاف القتال، خوفا من جر الاتحاد السوفيتى للحرب بجانب مصر، وتعريض العالم لمواجهة بين القوى الكبرى. وبعد انتهاء القتال، حلت الولايات المتحدة الأمريكية مكان بريطانيا وفرنسا كقوة مسيطرة فى الشرق الأوسط. وأصرت إسرائيل على الاحتفاظ بالأرض

التى احتلتها فى صحراء سيناء. فطار «ريتشارد هيلمز» الذى تولى رئاسة المخابرات المركزية منذ أشهر قليلة، إلى تل أبيب، واستقبله كبار ضباط الموساد فى مقر قيادتهم «كفريق من سماسرة العقارات، مشيرين بفخر إلى المزايا».

أثناء صعودهما، أوضح المرشد لكيمحى أن الطابق الأسفل هو مركز التنصت والاتصال، وفى الطابق التالى مكاتب كبار الضباط، أما الطوابق العليا فللمحللين والمخططين والعمليات الخاصة. البحث والتطوير لهما دور مستقل، أما الدور الأخير فهو للمدير العام ومساعديه.

وأعطى «كيمحى» مكانا بين المخططين والاستراتيجيين، وكان مكتبه مجهزا كمكاتب الآخرين: مكتب خشبى رخيص. دولاب ملفات من الصلب بمفتاح واحد، تليفون أسود، ودليل داخلى، وسجادة طولية تكمل الأثاث.

غرفة المكتب مدهونة بالأخضر الزيتونى، وتطل على مشهد بانورامى للمدينة. ولمدة ثلاث عشرة سنة، أصاب المبنى البلى، فالدهان تشقق على بعض الجدران، والسجاد يحتاج إلى استبدال.

لكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد شعر «ديفيد كيمحى» إنه وصل فى وقت زاخر بالأحداث. «فمئير أميت» على وشك الرحيل، وسيتبعه بعد فترة قصيرة «رافى إيتان» وعدد آخر من كبار رجال الموساد.

وسرعان ما أدرك التلاعب بالألفاظ الذى يستخدمه زملاؤه: المحلل الذى يبدأ قراره دائما بهذه الكلمات «هذه مناورة أوروبية، كلاسيكية كطريقة كلاوسفتز»، مدير الإدارة الذى يعطى إشارة العمل بحشو غليونه بالتمباك، وحين يخرج الدخان الأبيض، يتخذ القرار الاستراتيجى الذى ينهى كلامه دائما بقوله ان التجسس تعلم دائم من الضعف البشرى. هؤلاء هم الرجال الذين فازوا بمواقعهم بجدارة، وقد رحبوا بحماسة «كيمحى» ومقدرته على تمحيص أية مشكلة، وأحسوا إنه فهم تماما ان معرفة وإبطال خداعات العدو مهم بالدرجة نفسها كوجود الموساد.

وكان جزء من مهامه رصد الأحداث فى مراكش، فقد كان هناك عدد كبير من اليهود مازال يعيش تحت نظام الملك الحسن الرادع، وفى محاولة لجعل الحياة أسهل

بالنسبة لهم، أنشأ «مئير أميت» علاقة عمل مع قوات الأمن المخيفة فى المملكة، على قاعدة مشتركة هى الإطاحة بعبدالناصر فقد كان عبدالناصر يرى أن الملكية عقبة كأداء فى تحقيق حلمه بتكوين اتحاد عربى قوى من قناة السويس وحتى المحيط الأطلسى عند المغرب، وإن التهديد المحتمل لإسرائيل من هذا الاتحاد، أقنع «مئير» بتدريب رجال الملك على التجسس المضاد وطرق الاستجواب التى تكاد تقترب من التعذيب.

وكانت داخل مراكش معارضة صغيرة، يقودها «المهدى بن بركة». وقد درس «كيمحى» سيرة حياة «بن بركة»: فقد كان معلم الملك الخاص، وتولى ذات مرة رئاسة الجمعية الوطنية المغربية، وهى فى واقع الأمر برلمان عاجز كل مهمته تبرير مراسيم الملك التى تزداد ظلما واستبدادا. وأصبح فى النهاية المتحدث الرسمى والأصيل للمعارضة ضد الحسن. واستطاع الهرب عدة مرات من قبضة رجال الملك. ولكنه أدرك أنها مسألة وقت قبل أن يقع فى أيديهم، ففر إلى أوروبا حيث بدأ يتآمر من هناك لاسقاط الحسن.

وقد كادت حركة المقاومة الصغيرة ـ القوية التى يقودها، ان تنجح مرتين فى اغتيال الملك. وأمر الحسن الغاضب، بمحاكمته غيابيا. وحكم عليه بالإعدام، فرد «بن بركة» بهجمات جديدة ضد الملك.

فى مايو سنة ١٩٦٥، طلب الملك الحسن من الموساد مساعدته فى التخلص من «بن بركة». وأسندت إلى «ديفيد كيمحى» عملية تقييم الطلب. فى أواخر الشهر سافر إلى بريطانيا بجواز سفره الإنجليزى زاعما إنه فى اجازة. وفى الواقع كان يضع اللمسات الأخيرة على خططه، حيث زوده أحد مساعدى الموساد بجواز سفر ثان متقن التزوير، وبتأشيرة إلى المغرب، وطار إلى روما حيث مكث يوما ليتأكد أن أحدا لا يتبعه، ثم سافر إلى المغرب. استقبله فى المطار «محمد أوفقير» وزير الداخلية المخيف. وتلك الليلة، وعلى عشاء أحيته مجموعة من أفضل الراقصات الشرقيات، أوضح «اوفقير» ما يريده الملك: رأس «بن بركة». وأضاف «اوفقير» مستظرفا، ومقدرا التاريخ اليهودى: «فى النهاية، فإن سالومى اليهودية طلبت من ملككم «هيرود» رأس أحد مثيرى الشغب».

فقال «كيمحى»: ان هذا صحيح لكنه لا يستطيع أن يبت بالمسألة، فعلى أوفقير أن

يعود معه إلى إسرائيل.

في اليوم التالي، طار الرجلان إلى روما، وركبا طائرة إلى تل أبيب. قابلهما «مئير أميت» في أحد المنازل الآمنة. كان مؤدبا وحذرا. فقد قال «لكيمحي»: إنه ليس مهتما بتنفيذ أعمال «اوفقير» القذرة، وأصر على أن يقتصر تدخلهم على عملية الإعداد فقط. والذي لم يعرفه «مئير» ان «اوفقير» قد اتفق مع مجموعة في المخابرات الفرنسية على قتل «بن بركة» إذا أمكن اخراجه من بيته الشبيه بالحصن في جنيف، وعبوره الحدود السويسرية إلى فرنسا. وأصر «مئير» المتردد بأنه لابد من موافقة رئيس الوزراء «ليفي اشكول» شخصيا على تدخل الموساد. ووافق رئيس الوزراء.

وبدأت الموساد العمل. فسافر أحد الضباط من مواليد المغرب إلى جنيف، واستطاع التسلل إلى الدائرة المحيطة «ببن بركة». ولعدة أشهر ظل يزرع فكرة أن لديه وسيلة للوصول إلى مليونير فرنسي متعاطف مع الحركة، ويسعده أن يرى سقوط الملك الحسن وقيام ديمقراطية حقيقية في المغرب. وكان كيمحي هو الذي اخترع هذه الحكاية. وعلم في ٢٦ أكتوبر ١٩٦٥ أن بن بركة قد بلع الطعم وسيسافر إلى باريس.

وأرسلت وحدة الاتصالات بالموساد رسالة مشفرة إلى «اوفقير» في المغرب. فسافر الوزير مع فريق صغير من الأمن المغربي إلى باريس في اليوم التالي. واجتمع مع فريق المخابرات الفرنسية واستمع إليهم. وكان الضابط الإسرائيلي الذي اصطحب «بن بركة» إلى فرنسا، قلقا لاستبعاده من الاجتماع، فطلب «كيمحي» على خط آمن ليسأله عن التعليمات. واستشار «كيمحي» «مئير أميت»، واتفق الاثنان «ان هناك شيئاً قذراً يُدبر ولابد أن نبقى بعيدا».

في مساء اليوم التالي، اتخذت عربة رصد من المخابرات الفرنسية، موقعها خارج مطعم في منطقة «سان جرمان» حيث وصل «بن بركة» لتناول العشاء، وهو يعتقد إنه قادم لمقابلة المليونير. وبعد انتظار لمدة ساعة لم يظهر أحد، فغادر المطعم. وما أن سار على الرصيف، حتى أمسك به رجلان من المخابرات الفرنسية وألقياه في عربة مضت إلى فيللا في منطقة «فونتوني - لوفيكونت» تستخدم، من حين لآخر، في استجواب المشكوك فيهم. وحضر «اوفقير» استجواب «بن بركة» وتعذيبه طوال الليل، وعند الفجر أعدم الرجل، وقام اوفقير بتصوير الجثة قبل دفنها في حديقة الفيللا، وسافر

إلى المغرب ليعرض الفيلم على الملك.

حين اكتشفت الجثة، وصلت صيحات الاحتجاج إلى قصر الرئيس «ديجول». فأمر بتحقيق لم يسبق له مثيل، أدّى إلى أبعاد مجموعة كبيرة من ضباط المخابرات الفرنسية، التي حاول مديرها أن يُبعد اسم الموساد عن القضية، لكن «ديجول»، غير المتعاطف مع إسرائيل، كان مقتنعا بأن الموساد متورطة في الأمر، وقال لمساعديه أن العملية تحمل «بصمة تل أبيب» وأضاف غاضبا إن الإسرائيليين فقط هم الذين يظهرون استهتارا بالقانون الدولي. وانتهت العلاقة الوثيقة التي نشأت بين فرنسا وإسرائيل بعد حرب السويس، وأمر «ديجول» بوقف شحنات الأسلحة إلى إسرائيل على الفور، مع وقف التعاون بين مخابرات البلدين. ويذكر «مئير أميت» «الضربات التي تساقطت من فرنسا كالمطر». ويقول «كيمحي»: «لقد عالج «مئير» الموقف بطريقة بطولية. كان بإمكانه أن يلقي باللوم عليَّ أو على أحد من المتورطين بالعملية، لكنه أصر على أن يتحمل المسؤولية كاملة. كان قائدا حقيقيا».

انزعج أعضاء حكومة «اشكول» من ردود فعل فرنسا، فنأوا بأنفسهم عن رئيس الموساد. وجاء النقد أيضا من مصادر غير متوقعة. وكلما احتج «مئير» بأن دور الموساد كان هامشيا. ليس أكثر من تقديم عدة جوازات سفر واستئجار بعض العربات، ازداد إصرار سلفه «أسر هاريل» على أن قضية «بن بركة» ما كانت لتحدث في أيامه. وحذر «مئير» رئيس الوزراء بأن كليهما سيغرقان في مثل هذه الأمور. فكوّن اشكول لجنة للتحقيق برئاسة «جولدا مئير» وزيرة الخارجية آنذاك. وأوصت اللجنة باستقالة «مئير»، فرفض إلا إذا استقال «اشكول» أيضا. وتجمد الموقف. بعد سنة، اعترف «مئير» بأن موت «بن بركة» لم يعد يزعجه، لكنها كانت صيحة خافتة.

أثناء ذلك، كانت لدى «كيمحي» اهتمامات أخرى. فالفلسطينيون قد دربوا سرا وحدة كوماندوز لاستغلال نقطة ضعف أمنية لم تتوقعها حتى الموساد: خطف الطائرات في الجو. وما أن تختطف الطائرة حتى تتوجه إلى بلد عربي صديق، ويحتجز الركاب للفدية - إما بمبالغ مالية لإطلاق سراحهم، أو باستبدالهم بسجناء عرب تحتجزهم إسرائيل، علاوة على الدعاية العالمية لقضية منظمة التحرير.

في يولية سنة ١٩٦٨، اختطفت إحدى طائرات شركة «العال» من روما إلى

الجزائر ، وقد ذهلت «الموساد» من البساطة التي تمت بها العملية . وطار فريق من ضباط المخابرات إلى الجزائر ، بينما كيمحي ومخططون آخرون يعملون طوال الوقت تقريبا لتدبير وسيلة لتحرير الركاب المرعوبين . ولكن أية محاولة لمهاجمة الطائرة كان يعوقها حضور مراسلي وكالات الأنباء الذين يغطون القصة . فاقترح «كيمحي» اللعب على عنصر الوقت ، أملا أن تفقد القصة زخمها ، ويمكن لضباط الموساد التحرك . لكن المختطفين توقعوا ذلك وبدأوا يهددون بقتل الرهائن إذا لم تستجب مطالبهم : تحرير السجناء الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية . وأيدت الحكومة الجزائرية مطالب المختطفين . وأدرك كيمحي «أننا بين السندان والمطرقة كما يقول المثل» . وكان من القلة التي أوصت بتردد بمبادلة السجناء بالمسافرين مدركا تماما عواقب هذا العمل . فهو سيمهد الطريق لمزيد من الاختطاف . وستحظى م . ت . ف بتغطية إعلامية كبيرة وتوضع إسرائيل في موقف الدفاع وكذلك الحكومات الأوروبية التي ليس لديها حل لمشكلة الاختطاف . وماذا يمكننا آنذاك أن نفعل سوى انتظار عملية الاختطاف التالية ؟

وفعلا حدث ذلك ، وكل عملية أكثر تنظيما من سابقتها . ففي فترة قصيرة تم اختطاف ست طائرات ، ولم يكن المختطفون خبراء فقط في اخفاء الأسلحة ووضع المتفجرات ، لكنهم أيضا مدربون على قيادة الطائرات بالفعل ومعرفة عمل الملاحين . وتدربوا في الصحراء الليبية على تبادل إطلاق النار في المساحة الضيقة لكابينة الطائرة ، بعد أن علموا أن شركة العال وضعت حراسا مسلحين على متن طائراتها - إحدى الخطوات التي أوصى بها «كيمحي» . ولقد تنبأ بشكل صحيح ، أن المختطفين سيعلمون بقوانين البلاد المختلفة التي يطيرون عبرها خروجا ودخولا ، حتى إذا ألقي القبض عليهم ، استطاع زملاؤهم استخدام هذه القوانين لإطلاق سراحهم إما بالتهديد أو الصفقات .

وأدرك «كيمحي» حاجة الموساد الماسة إلى حادثة تمكنها من التغلب على المختطفين بالمهارتين اللتين اشتهروا بها : المكر والقسوة . وكما يستخدم المختطفون وسائل الإعلام بشكل مؤثر ، فإنه يريد عملية تكتسب الموساد من ورائها مدحا كذلك الذى أعقب اختطاف «ادولف ايخمان» ولابد أن تكون الحادثة ذات دراما عالية ، ومخاطر

محسوبة، وضد كل النتائج المحتملة.

* * *

فى ٢٧ يونية سنة ١٩٧٦، اختطفت طائرة فرنسية على متنها ركاب يهود، وهي فى طريقها من تل أبيب إلى باريس، بعد توقف قصير فى مطار أثينا المشهور بإهماله فى المسائل الأمنية. وكان المختطفون أعضاء فى مجموعة «وديع حداد» المتطرفة، وكانت مطاليبهم إطلاق سراح أربعين فلسطينيا فى سجون إسرائيل، مع دستة أخرى موجودة فى سجون أوروبا، اضافة إلى اثنين من الارهابيين الألمان المعتقلين فى كينيا بعد محاولتهما اسقاط إحدى طائرات «العال» بصاروخ سام ٧، وهى تقلع من مطار «نيروبى».

وبعد توقف قصير فى «كازابلانكا»، ورفض السماح لها الهبوط فى الخرطوم، ذهبت الطائرة إلى مطار «عنتيبى» فى أوغندا. وأعلن المختطفون من هناك أن الطائرة ستفجر بمن عليها من الركاب إذا لم تُستجب مطالبهم. وكان آخر موعد لذلك ٣٠ يونية.

وفى اجتماع مغلق للوزارة الإسرائيلية، ضعف الصوت المتباهى بالقول إنه لا استسلام للارهاب، وفضّل وزراء إطلاق سراح سجناء م. ت. ف. وابرز «اسحق رابين» رئيس الوزراء، تقريرا من «الشين بيت» عن سابقة أطلق فيها سراح مجرمين محكوم عليهم. وقال «موردخاى جور» رئيس الأركان بأنه لا يحبذ عملا عسكريا بسبب نقص المعلومات من «عنتيبى». وبينما المناقشات الحادة مستمرة، جاءت الأنباء أن الركاب اليهود قد فُصلوا عن باقى الركاب الذين أطلق سراحهم، وكانوا فى طريقهم إلى باريس.

تلك كانت البداية التى تحتاجها الموساد. وجادل «اسحق هوفى» رئيس الموساد بقوة وحرارة، وهو فى أزهى ساعاته، بأن لابد من ارسال بعثة انقاذ، وذكّر بالخطة التى استخدمها «رافى إيتان» فى اختطاف «ايخمان». فهناك تشابه بين الحادثتين؛ «فايتان» ورجاله عملوا فى بيئة معادية ومكان بعيد عن الوطن. لقد ارتجلوا وهم يستخدمون الخداع الذى اشتهر به اليهود. ويمكن عمل ذلك ثانية. وأدار «هوفى» بصره فى أرجاء الغرفة: «إذا تركنا هؤلاء الناس يموتون، فستفتح بوابات الفيضان. ولن يكون هناك

يهودى آمن فى أى مكان، ويكون هتلر قد كسب نصرا وهو فى قبره». فقال «رابين» أخيرا «حسنا. فلنجرب».

كل مخطط أو استراتيجى فى الموساد اضافة إلى «كيمحى»، كان على أهبة الاستعداد. وكانت الخطوة الأولى هى فتح قناة اتصال آمنة بين تل أبيب ونيروبى، كان «هوفى» قد حافظ على الرابطة المخابراتية بين الموساد ونظيرتها فى كينيا، وهى التى أقامها «مئير أميت». وجاء ذلك بنتائج فورية. فسافر إلى نيروبى ستة من ضباط الموساد، وأنزلوا فى بيت آمن تابع للمخابرات الكينية. وسيشكلون رأس الجسر للهجوم الرئيسى. فى الوقت ذاته تغلب «كيمحى» على مشكلة أخرى. فأى بعثة انقاذ تحتاج إلى التزود بالوقود من مطار «نيروبى». وحصل على موافقة «كينيا» تليفونيا على أساس دوافع إنسانية. لكن تظل المشكلة الأكبر وهى الوصول إلى «عنتيبى». فقد عملت م. ت. ف ان يكون مطار عنتيبى مدخلها الخاص لأوغندا، حيث تدير عملياتها الخاصة ضد نظام جنوب أفريقيا المؤيد لإسرائيل. ولقد أعطى «عيدى أمين» الديكتاتور الطاغية الذى يحكم أوغندا، مقر السفير الإسرائيلى ليكون مقرا لمنظمة التحرير بعد قطع علاقته مع إسرائيل فى سنة ١٩٧٢.

وكان «كيمحى» يدرك ضرورة التأكد هل مازالت منظمة التحرير فى أوغندا؟، فإن رجالها المسلحين بصلابتهم سيكونون قوة مرعبة من الصعب التغلب عليها، فى الفترة القصيرة المقررة لبعثة الانقاذ، فالقوة الإسرائيلية لن تمكث على الأرض سوى دقائق. وإلا ستواجه هجوما مضادا قويا. فأرسل ضابطين بقارب من نيروبى عبر بحيرة فكتوريا ليرسوا قرب عنتيبى، ويعرفا أن منظمة التحرير قد غادرت البلاد منذ فترة وجيزة إلى أنجولا. ولحسن الحظ الذى تحتاجه أية عملية، فإن أحد ضباط الأمن الكينيين الذى اصطحب الضابطين، اكتشف أن قريبا لزوجته كان ضمن حراس الرهائن بالفعل. واستطاع عن طريق الخداع أن يدخل المطار، ويرى أن الرهائن بخير، ويعدّ خمسة عشر حارسا منتبهين ومتوترين. ونقلت المعلومات بالراديو إلى تل أبيب.

فى الوقت ذاته، قام ضابطان طياران آخران، باستئجار طائرة صغيرة، بحجة تصوير بحيرة فيكتوريا كذكرى، ومرت طائرتهما فوق مطار «عنتيبى» مباشرة، مما

مكن أحدهما من التقاط صور جيدة لمدرجات الطيران والمباني الملحقة. وأرسل الفيلم إلى تل أبيب. فأوصى «كيمحى» بحركة أخرى تربك المختطفين. فخلال عدة اتصالات تليفونية مع قصر «عيدى أمين» أوضح المفاوضون في تل أبيب بأن الحكومة على استعداد لقبول شروط المختطفين. وأستخدم ديبلوماسي في قنصلية أوروبية ليضفي المصداقية على هذا الاستسلام، بدعوته سرا للقيام بمفاوضات حول الشروط المناسبة التي يقبلها الطرفان. وأخبر «كيمحى» هذا المبعوث: «شروط ليست مجحفة في حق إسرائيل، وليست مستحيلة القبول من المختطفين». وأسرع الديبلوماسي إلى المطار بهذه الأبناء، وبدأ يختار الكلمات المناسبة، وكان مازال يتفاوض وعملية الانقاذ «ثندربول» في مراحلها الأخيرة.

فهبطت في مطار «نيروبى» طائرة بوينج ٧٠٧ إسرائيلية، ليست عليها علامة ما، ستستخدم كمستشفى طائر، يقودها طياران يعرفان مطار «عنتيبى». وفى الوقت نفسه تمركز ستة من ضباط الموساد حول المطار، يحمل كل منهم جهاز استقبال عالي الترددات، وجهازاً اليكترونياً للتشويش على الرادار في برج المراقبة، لم يجرب قبل ذلك في حالات القتال.

وغادر تحت جنح الظلام، خمسون من رجال المظلات، الطائرة المستشفى، واتجهوا بأقصى سرعة إلى بحيرة فيكتوريا، ونشروا قواربهم المطاطية، وعبروا البحيرة ليكونوا قرب الشاطئ الأوغندى، على استعداد للهجوم على مطار «عنتيبى».

في تل أبيب، كانت بعثة الانقاذ قد تدربت على العملية لدرجة الاتقان. وحين أزف الوقت، عبرت ثلاث طائرات هركيوليز عملاقة البحر الأحمر، واتجهت جنوبا، وتزودت بالوقود من «نيروبى» ثم طارت فوق قمم الأشجار الأفريقية، وهبطت في مطار «عنتيبى». وعمل الجهاز الذى يشوش على الرادار بامتياز. وكانت سلطات المطار مازالت تحاول معرفة ما حدث حين هبطت الطائرات مع الطائرة المستشفى في المطار. واندفع الكوماندوز إلى المبنى حيث يُحتجز الرهائن، وكانوا كلهم من اليهود آنذاك، فكل الجنسيات الأخرى قد أطلق سراحهم «عيدى أمين» مستمتعا باللحظة التي تسلطت أضواء العالم فيها عليه. لم تستدع قوات المظلات الجاهزة للمساعدة، فعادوا بقواربهم عبر البحيرة إلى نيروبى، حيث حملتهم ناقلة جنود إسرائيلية إلى الوطن.

وخلال خمس دقائق - أقل بدقيقتين من الوقت المقرر - حُرِّر الرهائن وقتل جميع الارهابيين مع ستة عشر جنديا أوغنديا كانوا في الحراسة. وفقدت القوة المهاجمة ضابطا واحدا هو الليوتينانت كولونيل «يوناتان نيتانياهو» الشقيق الأكبر لرئيس وزراء المستقبل «بنيامين نيتانياهو»، الذي يقول أن تشدده ضد الارهابيين كان نتيجة لموت أخيه، كما مات أيضا ثلاثة من الرهائن.

ان رغبة «ديفيد كيمحي» في رد سريع حاسم يحتل عناوين الصحف، ضد الارهابيين قد تحقق بأكثر مما يريد. إن عملية الانقاذ في «عنتيبي» كانت حدثا أكبر من خطف «ايخمان»، وأصبح يُنظر إليها كدعوة لزيارة الموساد.

* * *

ووجد «كيمحي» نفسه ينغمس أكثر وأكثر في نشاطات الموساد ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وكان هذا الصراع المميت يدور خارج حدود إسرائيل، في شوارع المدن الأوروبية، وكان «كيمحي» أحد المخططين لتمهيد الأرض لفرق الاغتيال التابعة للموساد، فضربوا في باريس وميونيخ وقبرص وأثينا. وبالنسبة «لكيمحي» كان القتل بعيدا، إنه كطيار قاذفة القنابل لا يرى أين تسقط قنابله. وساعدت حالات القتل هذه في تعزيز المزاج السائد في الموساد بأنها قوة لا تقهر: فالمعلومات الفائقة القادمة من المخططين، تعني أن فرق الاغتيال كانت دوما متقدمة على العدو بخطوة.

وذات صباح وصل «كيمحي» لعمله ليجد زملاءه في حالة صدمة تقريبا. فأحد أكثر الضباط خبرة في الموساد قد اغتيل في مدريد على يد رجل من م. ت. ف. وكان القاتل حلقة اتصال يحاول الضابط أن ينميها في سبيل اختراق مجموعة الفدائيين.

لم يكن هناك وقت للحزن. واتجهت كل يد قادرة للرد على النار بالنار. وحسب قول كيمحي «لا نريد أن يرحمنا أحد، ولن نرحم أحدا».

وتواصل الضغط القاسي. للبحث عن طرق جديدة للقرب من قيادة م. ت. ف واكتشاف طبيعة عملها الداخلي لاغتيال قادتها. «فقطع الرأس هو الطريقة الوحيدة لتوقف حركة الذنب» كما قال «كيمحي»، وكان ياسر عرفات على رأس قائمة الاغتيالات.

* * *

ومع حلول سنة ١٩٧٣ بدأ تهديد خطير آخر يستولى على ذهن «كيمحى»: امكانية جولة حرب ثانية مع العرب، تقودها مصر. لكن الموساد كانت صوتا وحيدا داخل مجموعة المخابرات الإسرائيلية. ورفضت المخابرات العسكرية رفضا باتا قلق «كيمحى» والذى بدا صداه على رؤسائه. وأشار مخططوها إلى أن مصر قد طردت لتوها عشرين ألفا من المستشارين الروس، مما يشير اشارة واضحة أن الرئيس المصرى أنور السادات يبحث عن حل سياسى فى الشرق الأوسط.

ولم يقتنع «كيمحى»، فمن خلال المعلومات التى تعبر مكتبه، أصبح أكثر اقتناعا بأن السادات سيوجه ضربة مباغتة - ببساطة لأن المطالب العربية من المستحيل أن تقبلها إسرائيل: فمصر تريد استعادة أرضها، واقامة وطن قومى للفلسطينيين داخل إسرائيل. واعتقد «كيمحى» أنه حتى لو لبت إسرائيل هذه المطالب، فإن م. ت. ف. ستواصل حملات القتل لتركيع إسرائيل.

وازداد قلق «كيمحى» حين استبدل السادات وزير دفاعه بآخر أكثر تشددا، وكان أول عمل يقوم به هو تقوية الدفاعات المصرية على قناة السويس. كما كان القادة المصريون يقومون بزيارات منتظمة لعواصم الدول العربية طلبا للعون. ووقع السادات اتفاقية تسليح جديدة مع موسكو. وكانت كل الدلائل تنذر بالشر «ولم يعد السؤال متى ستأتى الحرب، بل فى أى يوم ستبدأ».

لكن رؤساء المخابرات العسكرية استمروا فى تجاهل التحذيرات التى تبعثها الموساد. وأخبروا قواد الجيش، أنه حتى لو بدا أن الحرب ستبدأ، فستكون هناك فترة انذار لا تقل عن خمسة أيام، وهى كافية لكى يقوم سلاح الجو الإسرائيلى بتكرار ضربته الناجحة فى حرب الأيام الستة.

ورد «كيمحى» بأن العرب بالتأكيد قد تعلموا من أخطاء الماضى. ووجد نفسه موسوما بانه «ممسوس بالحرب» وهى تهمة لا تتفق مع رجل حذر فى كل كلمة يقولها. وكل ما كان فى استطاعته عمله، هو متابعة وتقدير الاستعدادات المصرية، ومحاولة التكهن بيوم الهجوم.

الحرارة اللاهبة فى أغسطس ١٩٧٣، تراجعت أمام نسمات سبتمبر، وكانت آخر تقارير ضباط الموساد على جانب قناة السويس فى سيناء، تبين أن الاستعدادات

المصرية بلغت حجما كبيرا. فمهندسو الجيش يضعون اللمسات الأخيرة على القوارب والأطواف لعبور المشاة والمدرعات المجرى المائي. وحين أقنعت الموساد وزير الخارجية الإسرائيلي أن يثير مسألة الاستعدادات الباعثة على القلق في الأمم المتحدة، قال مندوب مصر مهدئا: «هذه النشاطات روتينية». وبدت الكلمات «لكيمحي» كمصداقية الكلمات التي تلفظ بها السفير الياباني في واشنطن ليلة الهجوم على بيرل هاربر.

ومع ذلك، قبلت المخابرات العسكرية التفسيرات المصرية. والأكثر ادهاشا بالنسبة «لكيمحي»، إنه في أكتوبر من ذلك العام، أينما وجه بصره المدقق يجد اشارات متزايدة على قدوم المشكلة. فقد أممت ليبيا شركات النفط الغربية، وهناك حديث يدور في دول الخليج عن قطع امدادات البترول عن الغرب. لكن للأسف ظلت المخابرات العسكرية تفسر بشكل خاطئ الصورة التي تقدمها الموساد. وحين هاجمت طائرات الميج السورية الطائرات الإسرائيلية في سماء سوريا، وأسقطت دستة من الطائرات السورية - يرجع ذلك إلى المعرفة التكتيكية التي تعلمها الطيارون الإسرائيليون من طائرة الميج العراقية المسروقة - كان ذلك دليلا اضافيا للمخابرات العسكرية، بأنه إذا فكر العرب في الحرب، فيسيهزمون بالطريقة نفسها.

تلقت الموساد ليلة ٥-٦ أكتوبر، الدليل القاطع أن العدوان وشيك الوقوع، ربما بعد ساعات. وأفادت تقارير ضباطها وعملائها في مصر بأن القيادة المصرية العسكرية العليا قد رفعت الاستعدادات لغايتها القصوى. ولم يعد ممكنا تجاهل الدليل.

في الساعة السادسة صباحا، انضم «زفي زامير» رئيس الموساد، إلى رؤساء المخابرات العسكرية في وزارة الدفاع. كان المبنى خاليا تقريبا بسبب «يوم كيبور» أقدس الأعياد اليهودية، التي تغلق فيه حتى الإذاعة. وكان الراديو دائما وسيلة الاستدعاء للتعبئة في حالات الطوارئ. وبدأت أجراس الانذار تدق في كل أرجاء إسرائيل بأن هناك هجوما مزدوجا - من سوريا في الشمال ومصر في الجنوب - على وشك أن يطوق البلاد.

وبدأت الحرب الساعة ١:٥٥ بالتوقيت المحلي، بينما كانت الوزارة الإسرائيلية في

اجتماع طارئ - أكدت فيه المخابرات العسكرية أن العدوان سيبدأ الساعة السادسة، وتبين بأن هذا التحديد كان تخمينا.

لم يسبق في تاريخ المخابرات الإسرائيلية، أن وقعت في هذا الفشل الذريع في التنبؤ بحادثة. إن كم الأدلة التي قدمها «كيمحي» وآخرون تجوهلت تماما.

بعد انتهاء الحرب، التي اختطفت فيها إسرائيل نصراً من أنياب الهزيمة، حدثت عملية تطهير كبيرة في قيادات المخابرات العسكرية. وتبوأت الموساد المركز الأعلى في مجموعة الاستخبارات الإسرائيلية، ومع ذلك وقع فيها تغيير أساسي، فقد أزيح مديرها العام «زامير»، على أساس إنه لم يكن جازما مع زميله في المخابرات العسكرية، واحتل مكانه «اسحق هوفي». ونظر «كيمحي» إلى وصوله بمشاعر مختلطة. فمن بعض الجوانب، هناك تشابه بين «هوفي» و«مئير أميت»: القامة المنتصبة، الخبرة الميدانية ذاتها، والطريقة نفسها في الوضوح، والعجز الكلي عن تحمل الأغبياء بأي شكل. ولكن «هوفي» كان فظا لدرجة تصل إلى قلة الأدب، والتوتر بينه وبين كيمحي يرجع إلى أيام أن كانوا يحاضرون المجندين الجدد، بجانب مهامهم الأخرى، في مدرسة تدريب الموساد. فقد كان «هوفي» بعقليته الكيبوتزية التافهة. لا يمتلك الصبر على لغة «كيمحي» المثقفة الهادئة ولهجته الإنجليزية المهذبة حين يحاضر الطلبة. لكنه الآن نائبه، فقد عين «كيمحي» نائبا لمدير الموساد قبل فترة قصيرة من ذهاب «زامير». واتفق الاثنان إن يضعا خلافاتهما الشخصية جانبا، ليتأكدا من استمرار الموساد في عملها بكفاءة عالية.

وأسند إلى «كيمحي» أحد أصعب الأعمال في الموساد: فقد عُيِّن مسؤولا عن الخدمة الخاصة بالمسألة اللبنانية. كانت الحرب الأهلية اللبنانية قد ابتدأت منذ سنتين بعد حرب يوم الغفران، وفي الوقت الذي أصبح فيه «كيمحي» مسؤولا عن الموضوع، كان المسيحيون يحاربون معركة خاسرة. وكما حدث بالضبط منذ سنوات، حين ذهب «سلمان» إلى السفارة الإسرائيلية في باريس ليبدأ الخطوات الأولى في سرقة طائرة الميج العراقية، فقد وصل إلى إسرائيل مبعوث مسيحي من لبنان في سبتمبر ١٩٧٥ طالبا أن تمدهم إسرائيل بالسلاح قبل أن يفنوا. وانتهى الطلب على مكتب «كيمحي». فوجدها فرصة للموساد لتعمل بطريقتها في «التجارة اللبنانية».

وقال «لهوفي» من المعقول سياسيا أن نساعد المسيحيين ضد المسلمين الذين ينادون بتدمير إسرائيل. وقبل تفسيره، على أن تمد إسرائيل المسيحيين بأسلحة كافية للتعامل مع المسلمين، لكن ليس بدرجة كافية لتهدد إسرائيل. وبدأت الموساد شحن الأسلحة إلى لبنان، ثم وضع «كيمحى» ضباطا من الموساد داخل القيادة المسيحية. وكانوا هناك بحجة المساعدة في زيادة اتقان استخدام السلاح. وزوّد الضباط «كيمحى» بتيار متدفق من المعلومات مكنّه من أن يكون لديه رسم بيانى دائم لتقدم الحرب الأهلية، كما مكنت هذه المعلومات الموساد من شن عدد من الهجمات الناجحة ضد معاقل م. ت. ف فى جنوب لبنان. لكن العلاقة مع المسيحيين ساءت حين دعا قادتهم فى يناير سنة ١٩٧٦ الجيش السورى لتقديم دعم اضافى ضد حزب الله المؤيد لإيران. وكانت دمشق ترى فى تلك المجموعة تهديدا لها. وخلال أيام كان آلاف من الجنود السوريين يتدفقون على لبنان، ويتحركون بقرب الحدود الإسرائيلية. وأدرك المسيحيون فى وقت متأخر، أنهم تصرفوا كمن دعا الذئب إلى حظيرة الدجاج.

واتجه المسيحيون اللبنانيون ثانية إلى إسرائيل للمساعدة. وأدرك «كيمحى» أن شبكته الحذرة بمدهم بالسلاح ليست كافية. إن الأمر يحتاج إلى عملية ذات مجال واسع من الإمدادات والتحركات. فأرسلت عشرات من الدبابات، والصواريخ المضادة لها، وأسلحة أخرى إلى المسيحيين، وبدأت الحرب الأهلية تخرج عن السيطرة. وتحت غطائها شن «كيمحى» حربه الفدائية الخاصة ضد م. ت. ف.، ثم امتدت تلك الحرب بسرعة ضد الشيعة اللبنانيين وأصبحت لبنان ميدانا عمليا للموساد لإتقان تكتيكاتها، ليس فى الاغتيالات فقط، ولكن فى الحرب النفسية أيضا. كانت أياما سعيدة للرجال للتدرب بعيدا عن شارع الملك شاؤول الرتيب. وكانت العلاقة بين «كيمحى» و«هوفى» تتدهور داخل المبنى. وتناثرت همسات حول معارضات حادة تخص أمور العمليات، وأن «هوفى» يخاف من ان «كيمحى» يطمع فى منصبه، وإنه يشعر بأنه لم يُقدّر بما فيه الكفاية لمساهماته التى لا شك فيها. وحتى اليوم، يرفض «كيمحى» مناقشة هذه الأمور، ويكتفى بالقول: «إنه لا يعطى أبدا الاحترام لإشاعة بالتعليق عليها».

فى صباح ربيعى من عام ١٩٨٠، استخدم كيمحى «كارت» الدخول الذى حل

محل المفتاحين، للدخول إلى مبنى رئاسة الموساد. حين وصل مكتبه، قيل له أن «هوفى» يود رؤيته على الفور. فسار «كيمحى» على مهل إلى مكتب المدير العام، دق على الباب ودخل وأقفل الباب وراءه.

ما حدث هناك تحول تدريجيا إلى أسطورة فى الموساد، حكاية عن ارتفاع الأصوات المتزايد، اتهامات واتهامات مضادة. واستمرت الضجة لمدة عشرين دقيقة مكهربة. ثم خرج «كيمحى» وشفتاه مزمومتان. مهنته فى الموساد قد انتهت. لكن نشاطاته الخابراتية لصالح إسرائيل، كانت على وشك البدء فى ميدان مألوف - الولايات المتحدة الأمريكية - وليس هذه المرة عملية تورط بسرقة مواد نووية، ولكن فى فضيحة عرفت أخيرا بفضيحة «إيران جيت».

* * *

بعد تفكير فى مستقبله، قبل ديفيد كيمحى وظيفة مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية. وكانت الوظيفة مناسبة تماما لمقدرته الخاصة على التفكير، وقدمت له فرصة لممارسة مهاراته على المسرح العالمى فى مجال أوسع من لبنان بكثير.

فى الولايات المتحدة، كانت ملحمة الرئيس «نيكسون» ووترجيت قد وصلت إلى مراحلها النهائية التى لا مفر منها، تاركة المخابرات المركزية ملوثة السمعة بدرجة لم يسبق لها مثيل منذ وفاة «كنيدى»، خاصة حين تكشف المزيد والمزيد من نشاطات الوكالة أيام «نيكسون». ودرس «كيمحى» كل جوانب تلك الدراما «مستوعبا الدروس التى يمكن تعلمها من نكبة ما كان لها أن تحدث، فما كان على الرئيس نيكسون أن يظل محتفظا بالأشرطة، فبدونها كان من المحتمل أن يبقى رئيسا».

وقريبا من الوطن، كان ما يحدث فى إيران مسألة تهم إسرائيل دائما، وتشغل ذهن «كيمحى». وبسيطرة «الخمينى» ومجموعة آيات الله على الحكم، كانت صدمة حقيقية «لكيمحى» ليرى الطريقة السيئة التى تصرفت بها المخابرات المركزية والإدارة الأمريكية، وفشلهما فى الحكم الصحيح على الأمور. لكن، كان هناك رئيس جديد فى البيت الأبيض، «رونالد ريجان» الذى وعد ببزوغ فجر جديد للمخابرات المركزية. وكما علم «كيمحى» من اتصالاته الخاصة فى واشنطن، فإن «الوكالة» ستكون الورقة الرابحة فى يد «ريجان» فى الشؤون الخارجية. كان رئيس الوكالة آنذاك «وليم كيسى»

الذى شعر «كيمحى» بغريزته إنه ليس صديقا لإسرائيل.

وخلال السنتين التاليتين، تتبع «كيمحى» عن قرب، بطبيعة عمله، عمليات المخابرات المركزية في أفغانستان ووسط أمريكا الجنوبية. وصدمته كثير من هذه العمليات فهى «كتصرفات رجل ساذج غير خبير، جمع معلومات بطرق قديمة، مع بعض عمليات القتل القاسى».

ثم بدأ انتباه «كيمحى» يتركز ثانية على إيران.. وما يحدث في بيروت. فبعد أشهر قليلة من توليه منصبه، بدأت إسرائيل تزود إيران بالسلاح بتأييد ضمنى من أمريكا، وذلك لإضعاف النظام العراقي ـ كجزء من تكتيك إسرائيلى طويل المدى يسميه «كيمحى» «اللعب على كلا الطرفين».

بعد ثلاث سنوات، أثرت في الأمور حادثتان. حادثة تفجير السيارة المفخخة الذى راح ضحيتها في بيروت ٢٤١ من رجال البحرية الأمريكية، وتزايد الشكوك في أمريكا بأن الموساد ليس لها معرفة سابقة بالهجوم فقط بل أن المخابرات الإيرانية ساعدت في تجهيز العملية. ومورس الضغط على إسرائيل لوقف امدادات السلاح إلى طهران. وتزايد هذا الضغط بعد خطف وتعذيب ثم موت «وليم بكلى» رئيس محطة التجسس الأمريكي في بيروت. وفي تتابع سريع اختطفت المجموعات التي تدعمها إيران سبعة أمريكيين آخرين.

وبالنسبة للادارة الأمريكية الجديدة التي أعلنت بقوة أنها ستتصدى للارهاب بشدة، فإن فكرة أن يذوى المدنيون الأمريكيون تحت خرائب بيروت، تحتاج إلى عمل. لكن الانتقام غير وارد، وأن تُقذف طهران بالقنابل كما اقترح «ريجان» أمر لم يوافق عليه حتى أشد مساعديه صلابة. وقال رئيس قوة «دلتا» أن بعثة انقاذ لن تكون ناجحة على الأرجح.

ثم جرت محادثة بين الرئيس و«روبرت ماكفارلين» الذى كان مستشارا للأمن القومي، وقد نقل الحوار ـ الذى دار على النحو التالي ـ إلى «كيمحى»:

ـ ما الذى يريده الإيرانيون بشدة يا سيادة الرئيس؟

ـ قل لى يا بوب.

ـ أسلحة لمحاربة العراق .

ـ إذن نعطيهم ما يريدون . ونسترد الرهائن فى المقابل .

واتبع «ريجان» و«ماكفارلين» وجهة النظر البسيطة ـ على عكس نصيحة «كيسى» ورؤساء المخابرات الآخرين ـ بأن تسليح إيران لا يعنى فقط وقوع ضغط منها على الجماعات فى بيروت لتحرير الرهائن ، ولكن أيضا على تحسين علاقات أمريكا مع طهران . ثم علاوة على ذلك إضعاف موقف موسكو فى إيران . وهكذا نثرت بذور ما سيصبح بعد ذلك «إيران جيت» .

وعُيِّن الكولونيل فى البحرية «أوليفر نورث» مسؤولا عن امدادات الأسلحة . وقرر «نورث» و«ماكفارلين» استبعاد المخابرات المركزية من خططهما . كانا رجلين عمليين ، وقد نفعتهما هذه العقلية حين خدما في فيتنام ، وقد سمعا ، من بين ما سمعاه ، ان الإسرائيليين لهم عقلية عملية مشابهة . وهكذا قال «نورث» «لقد حان الوقت لاحضار إسرائيل إلى الحظيرة» . ثم كان هناك الهدف الشخصى له بزيارة الأرض المقدسة ، «فنورث» كمسيحى مخلص استمتع بفكرة أن يخطو على أثر خطوات المسيح .

وقرر رئيس وزراء إسرائيل الجديد «اسحق شامير» أن هناك شخصا واحدا يستطيع التعامل مع طلب واشنطن بالمساعدة ، مع المحافظة على مصالح إسرائيل تماما . وطار «ديفيد كيمحى» فى ٣ يولية سنة ١٩٨٣ إلى واشنطن لمقابلة «ماكفارلين» فى البيت الأبيض . وقال إنه يعتقد أن السلاح مقابل الرهائن عملية قد تنجح ، وتساءل إذا كانت المخابرات المركزية مشتركة تماما ، فأجيب بالنفى وسأل «ماكفارلين» كيمحى : إلى أى مدى يمكن للموساد أن تشترك فى العملية . . وأضاف : فى النهاية فهم الرجال الذين يقومون بكل عملك السرى فيما وراء البحار» فأخبره بأن اسحق رابين وزير الدفاع وشامير قد اتفقا على استبعاد الموساد وتركا المسألة كلها له . وراق ذلك «لماكفارلين» . ولم يخبره «كيمحى» بأن «ناحوم ادمونى» رئيس الموساد آنذاك يشارك «كيسى» مخاوفه بأن الأسلحة مقابل الرهائن أمر محفوف بخطر حدوث عمليات أخرى .

ذهب «ماكفارلين» إلى مستشفى «بيتسدا» التابع للبحرية لاخبار «ريجان» الذى كان فى دور النقاهة من عملية فى القولون ، بآراء «كيمحى» وسأل الرئيس سؤالا

واحداً: هل يضمن «كيمحى» أن إسرائيل لن تبوح بالسر؟ فإن ذلك قد يضر بالعلاقات الأميركية مع الدول العربية المعتدلة الخائفة من الراديكالية المتزايدة في طهران. ويزعم «كيمحى» ان «ماكفارلين» أكد «لريجان» أن إسرائيل لن تبوح، وتم الاتفاق، وعاد كيمحي إلى بلده، ليعود إلى واشنطن بعد أسبوعين. وعلى العشاء أخبر «ماكفارلين» بخطة اللعبة، ودار الحديث كالتالي:

سأل كيمحي: هل تريد الأخبار الجيدة أو السيئة أولاً؟

ـ هات الأخبار الجيدة.

ـ سنرسل الأسلحة نيابة عنكم مستخدمين الطرق ذاتها التي استخدمناها في السابق.

قال «ماكفارلين»: ليست هناك مشكلة.

إن الطريقة التي يعرضها «كيمحي» تؤكد أن ليس للولايات المتحدة أي اتصال مباشر بإيران، وهكذا فإن ادعاء الإدارة بمحاربة الإرهاب لن يتعرض للشبهة، ويظل حظر الولايات المتحدة السلاح على إيران سارياً وسليماً، وحين يتحرر الرهائن، فلن يكون ذلك استبدالاً مباشراً للأسلحة.

ـ والأخبار السيئة؟

فقال «كيمحي»: إن مصادره المتمركزة في إيران غير متأكدة من أن القادة الإيرانيين يمكنهم بالفعل العمل على إطلاق سراح الرهائن في بيروت، فالمتطرفون هناك بعيدون عن السيطرة الإيرانية.

وإذا كان «ماكفارلين» قد أصيب بخيبة أمل، إلا أن ذلك لم يبد عليه. في اليوم التالي أخبر «جورج شولتز» الرئيس «ريجان» بأن المخاطر كبيرة، فلنفترض أن الإيرانيين كشفوا سر الصفقة، ليحرجوا «الشيطان الكبير» كما يسمون أمريكا؟ ألن يدفع ذلك إيران بدرجة أكبر إلى أحضان الاتحاد السوفييتي؟ وماذا عن الرهائن؟ ألن يكون وضعهم أسوأ؟ وظل الجدل طوال الصباح، وعند موعد الغداء بدا التعب على «ريجان»، وكان القرار مفاجأة، فقد وافق الرئيس على أن تغطي أمريكا كل الأسلحة التي تمد بها إسرائيل إيران، وعاد «كيمحي» إلى تل أبيب بنور أخضر. ومع ذلك أصر «شامير»

على أن تُتخذ كل الخطوات الممكنة «لتنكر إسرائيل أى علاقة لها بالموضوع إذا تأزمت الأمور». ولضمان ذلك، جمع «كيمحي» فريقاً من شخصيات مثيرة لبدء العملية: «عدنان خاشقجي» البليونير السعودى الذى يأكل الكافيار بالرطل. ولديه حسن تمييز للفتيات اللواتي يُتخذن كتغطية، و«ماناكير ثوربانيفر» "Manacher Throbanifer" أحد عملاء «السافاك» ـ المخابرات سيئة السمعة زمن الشاه ـ والذى مازال يتصرف كجاسوس، ويدعو للاجتماعات فى منتصف الليل، و«ياكوف نمرودى» الذى لا يقل غموضاً عنه، وكان يجند العملاء للمخابرات العسكرية الإسرائيلية، وسبق أن عمل ملحقاً عسكرياً في سفارة إسرائيل في طهران أيام الشاه. وكان يصحبه دائماً «آل شويمر» الرجل الكتوم مؤسس صناعة الطيران الإسرائيلية.

وقام «خاشقشجى» بالسمسرة للصفقة التي ستكون مؤشراً على كل ما حدث بعد ذلك. سيرأس اتحاداً مالياً يعوّض الولايات المتحدة إذا لم تف إيران بالتزاماتها، كما سيضمن لإيران، بالتالى، أن تكون الأسلحة مطابقة للمواصفات المطلوبة. كل ذلك فى مقابل ١٠٪ من مبيعات السلاح تقدمها الولايات المتحدة نقداً، وسيعمل أيضاً، فى المقابل، على أن يكون مصداً يضمن إنكاراً مشروعاً لإيران والولايات المتحدة إذا سارت الأمور بشكل خاطئ. وفهم الجميع أن هذا الاتحاد المالى سيعمل أساساً بعيداً عن أى سيطرة سياسية وأن ما يحركه بالدرجة الأولى هو منطق الربح.

وفى أواخر أغسطس ١٩٨٥ حطت أول طائرة محملة بالأسلحة من إسرائيل فى طهران. وفى ١٤ سبتمبر أطلق سراح رهينة أمريكية هو القس «بنيامين فير». وكلما تسارعت العملية، انضم إلى الاتحاد المالى عدد آخر من المستهترين، من بينهم «مايلز كوبلاند» وهو ضابط مخابرات أمريكى سابق، الذى قام عشية سقوط الشاه وقيام الدولة الإسلامية بإرسال عملاء المخابرات المركزية لتوزيع الدولارات فى أسواق طهران، بواقع مائة دولار لكل من يهتف «عاش الشاه»، وشخصيات مشبوهة أخرى مثل ضابط طيران سابق يدير شركة فى لندن سبق أن قدمت خدمات غير محددة للموساد، فى الوقت نفسه الذى غض فيه صانعو السياسة في إسرائيل وواشنطن أبصارهم، المهم هو أن تسير العملية دون إثارة شكوك أحد ـ حتى هذه اللحظة على الأقل.

كانت الصفقة تشتمل على: ١٢٨ دبابة أمريكية، ٢٠٠ ألف صاروخ كاتيوشا من التي استولى عليها في جنوب لبنان، ١٠ آلاف طن من قذائف المدفعية بمختلف المقاسات، ثلاثة آلاف صاروخ جو - جو، وأربعة آلاف بندقية مع ٥٠ مليون طلقة. ومن قاعدة «ماراما» الجوية العسكرية في أريزونا، شحن أكثر من أربعة آلاف صاروخ TOW إلى جواتيمالا في أمريكا الجنوبية، لتبدأ رحلتها الطويلة إلى تل أبيب، وشحن ثمانية آلاف صاروخ سام ٧ من بولندا وبلغاريا مع مئة ألف AK.47، وقدمت الصين مئات من الصواريخ البحرية والعربات المصفحة والناقلات البرمائية. وقدمت السويد قذائف مدفعية ١٠٥ ملم، وبلجيكا صواريخ جو - جو.

وكانت الأسلحة تشحن، على أن وجهتها النهائية، إسرائيل. ومن القواعد العسكرية لجيش الدفاع الإسرائيلي في النقب، كان الاتحاد المالي ينظم شحن الأسلحة جواً إلى إيران، ويستلم عمولته عن كل شحنة، وكانت إيران تدفع من أموالها في البنوك السويسرية. وكان مقدار العمولة النهائية حوالي ٧ مليون دولار، ولم تتسلم إسرائيل أي مكافأة مالية، فيكفيها أن تشهد إيران تحسن من مقدرتها لقتل المزيد من العراقيين في الحرب طويلة الأمد بين البلدين. وبالنسبة «لديفيد كيمحي» كان ذلك مثالاً للسياسة التي يناصرها «فرق تسد».

ومع ذلك، فإن حاسته الغريزية العالية، أخبرته أن ما بدأ بشكل جميل، بدأت تحيطه مخاطر فقدان السيطرة عليه. فقد رأى «زيادة نفوذ الرجال غير المناسبين في التحالف المالي». فعند إنشاء هذا التحالف كان يحقق السياسة الحقيقية لإسرائيل. فهي على استعداد لمساعدة الولايات المتحدة لأنها تدرك أنها لن تستطيع الحياة دون تأييد واشنطن، كما إنه يؤكد بأن إسرائيل تستطيع العمل على المسرح العالمي بحزم، وتُبقي الأمور في طي الكتمان.

لكن، كلما طالت فترة شحن الأسلحة - مقابل الرهائن، زادت مخاطر انكشاف العملية. فأخبر الاتحاد المالي في ديسمبر ١٩٨٥ بأنه لن يستطيع الاستمرار في نشاطاته بحجة انشغاله بمهام منصبه في وزارة الخارجية، فشكره الاتحاد على مساعدته، وأقام له حفل وداع على عشاء في أحد فنادق تل أبيب، وأخبروه بأن «أميرام نير»، الذي كان مستشار «بيريز» لشئون الإرهاب، قد حل محله كحلقة

الوصل الإسرائيلية. واعترف «كيمحي» بعد ذلك، بأن تلك اللحظة كانت بداية الطريق لأن تدمر العملية نفسها. فإذا كان هناك رجل يمكن أن يفسدها، فهو «نير». فقد كان صحفياً سابقاً، يرى في العمل المخابراتي الحقيقي، وكأنه جزء من أفلام جميس بوند التي يحب مشاهدتها. وكان يشاركه هذا الضعف القاتل عدد من ضباط الموساد، الذين رأوا في الصحافة مجالاً يخدم أغراضهم.

«فصدام حسين» عدو قاس، فإذا امتلك سلاحاً ذرياً فلن يتورع عن استخدامه ضد إسرائيل. ثم منذ متى تهتم إسرائيل بهذه الدرجة فى كسب الأصدقاء فى أوربا؟ كل ما يهم هو أمريكا، وكل ما سنناله منها عند تدمير المفاعل، تربيتة على اليد، كما همست واشنطن.



أورا والوحش

كانت صالة فندق «ميريديان ـ فلسطين» التى تتخذ شكل الكهف، مزدحمة كالعادة فى تلك الجمعة الأخيرة من أبريل ١٩٨٨، وكان مزاج الجميع مرحاً. فلقد انتصرت العراق لتوها فى معركة حاسمة على القوات الإيرانية فى خليج البصرة، وهناك إجماع أن الحرب التى استمرت لمدة سبع سنوات دامية تقترب من نهايتها.

أحد أسباب هذا النصر الوشيك للعراقيين، يرجع إلى هؤلاء الأجانب الذين يجلسون فى صالة الفندق بملابسهم الأنيقة وابتساماتهم الدائمة كرجال أعمال ناجحين، فهم تجار سلاح، وهم هناك لبيع أحدث الأسلحة لديهم، وهم لا يستخدمون الكلمة حرفياً، بل يفضلون تعبيرات مثل «الأدوات المثلى» أو «أنظمة التحكم» أو «المقدرة المتزايدة»، وبينهم بائعون يقدمون عروضاً لبيع أسلحة مصنعة فى أوربا والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة والصين، واللغة المتداولة فيما بينهم هى الإنجليزية التى يتكلمونها بلهجات مختلفة ولا يحتاج المضيفون العراقيون أية ترجمة: فما يقدمه التجار مجموعات مختلفة من القنابل، والتوربيدات، والألغام وباقى أسلحة الدمار. وتُظهر كراسات العروض طائرات هليكوبتر بأسماء هزلية مثل: فارس البحر، الصينية، فرس البحر، إحداها والمسماة «الأم الكبيرة» يمكن أن تحمل

جسراً صغيراً، و«الآلة المدهشة» تستطيع أن تنقل فصيلة من الجنود، أو مدافع رشاشة تطلق ۲۰۰۰ طلقة في الدقيقة، أو تصيب هدفاً متحركاً في الظلام الدامس عن طريق منظار كمبيوترى، كل أنواع الأسلحة كانت معروضة للبيع.

ويتكلم المضيفون لغة اصطلاحية يفهمها التجار: «عشرون في اليوم»، «ثلاثون مناصفة ناقص واحد»: عشرون مليون دولار يوم التسليم، أو ثلاثين مليون للشحنة، النصف الآن، والباقي يوم شحن الأسلحة. والدفع بالدولار الأمريكي، المفضل حتى الآن، في هذا العالم المغلق.

مراقبة هذا السوق المتغير أبداً، من البائعين والمشترين، الذين يلتقون حول أكواب الشاي بالنعناع، كانت مهمة إدارة المخابرات العامة العراقية التي يرأسها «صبّاح» الأخ غير الشقيق لصدام حسين(*)، والذى لا يقل إرعاباً منه.

بعض هؤلاء التجار كانوا في صالة الفندق، منذ سبع سنوات، في يوم مختلف

(*) لم يكن هناك مدير للمخابرات العامة وقتها اسمه «صبّاح» (الترجمة).

تماماً، حين أخبرهم العراقيون مذهولين أن إسرائيل المكروهة أكثر من إيران قد وجهت لطمة قاسية لآلة الحرب العراقية.

* * *

منذ إنشاء دولة إسرائيل، وهناك حالة حرب رسمية بينها وبين العراق، وكانت على ثقة بأن قواتها تستطيع كسب أية حرب تقليدية. ولكن فى عام ١٩٧٧، اكتشفت الموساد أن الحكومة الفرنسية التى زودت إسرائيل بقدرتها النووية، قد أعطت العراق مفاعلاً ذرياً ومساعدة تقنية لإقامته فى التويثه "Al-tuweitha" شمال بغداد(*).

وبدأ سلاح الطيران الإسرائيلى يخطط كيف يضرب الموقع قبل أن يبدأ تشغيله بقضبان اليورانيوم المدخلة إلى قلب المفاعل؛ لأن تفجيره آنذاك سيؤدى إلى موت الملايين على نطاق واسع، إضافة إلى التلوث الذى سيحول بغداد وقسماً كبيراً من العراق إلى صحراءمشعة، وتكسب إسرائيل لعنة العالم.

ولهذه الأسباب، عارض «إسحق هوفى» رئيس الموساد، الغارة قائلاً إن أية ضربة جوية ستسبب كثيراً من الوفيات بين فريق الفنيين الفرنسيين، وستعزل إسرائيل عن دول أوربا التى تحاول أن تثبت لها نياتها السلمية، بالإضافة إلى أن ضرب المفاعل سينهى المناورات الدقيقة لإقناع مصر بتوقيع اتفاقية سلام. ووجد نفسه يترأس بيتاً منقسماً على نفسه. فالعديد من رؤساء الأقسام فى الموساد كانوا يرون أنه لا بديل سوى تحييد المفاعل. «فصدام حسين» عدو قاس، فإذا امتلك سلاحاً ذرياً فلن يتورع عن استخدامه ضد إسرائيل. ثم منذ متى تهتم إسرائيل بهذه الدرجة فى كسب الأصدقاء فى أوربا؟ كل ما يهم هو أمريكا، وكل ما سنناله منها عند تدمير المفاعل، تربيتة على اليد، كما همست واشنطن.

وحاول «هوفى» اتخاذ طريق آخر، فاقترح أن تضغط الولايات المتحدة على فرنسا أن توقف شحن المفاعل، وتلقت واشنطن رداً جافاً من باريس، فاتخذت إسرائيل طريقاً

(*) كان موقع المفاعل فى منطقة «الزعفرانية» (الترجمة).

أكثر مباشرة، فأرسل «هوفي» فريقاً من ضباط الموساد للإغارة على المصنع الفرنسي الذى يبني المفاعل العراقي، قرب طولون، ودمر قلب المفاعل، وأعلنت منظمة لم يسمع بها أحد من قبل مسئوليتها عن الحادث، «مجموعة الحفاظ على البيئة» وهو اسم اختاره «هوفي» شخصياً.

وبينما كان الفرنسيون يبنون قلب مفاعل جديد، أرسلت العراق «يحيى المشد» أحد أعضاء هيئة الطاقة الذرية عندها، إلى باريس للإشراف على شحن وقود ذرى إلى بغداد، فأرسل «هوفي» فريق اغتيال لقتله، كان البعض يراقب الشوارع حول الفندق، بينما دخل غرفته اثنان بمفتاح «ماستر» ذبحاه وطعناه في القلب، ونبشا الغرفة لتبدو العملية وكأنها محاولة سرقة، واعترفت فتاة ليل في الغرفة المجاورة أنها سمعت أصواتاً غير عادية في غرفة «المشد» بعد ساعات من قولها هذا للشرطة، قتلت في حادثة سير، ولم توجد العربة قط، وطار فريق القتل عائداً إلى تل أبيب.

وعلى الرغم من هذه الضربات، واصلت بغداد عروضها لتصبح قوة نووية بمساعدة فرنسا، وواصل سلاح الجو الإسرائيلي استعداداته بينما يجادل رؤساء المخابرات «هوفي» في اعتراضاته المستمرة، ثم جاء التحدى من مصدر غير متوقع، فقد قال نائبه «ناحوم أدموني» إن تدمير المفاعل ليس مهماً في حد ذاته ولكنه «سيعلم من يفكر في العرب في مثل هذا الأمر، درساً مفيداً».

وفي أكتوبر ١٩٨٠ كان هذا النقاش يشغل كل جلسة من جلسات الوزارة الإسرائيلية برئاسة «مناحم بيجين» وأصبح «هوفي» يوماً بعد يوم الصوت الوحيد المعارض، ومع ذلك واصل نضاله مستخدماً أفضل أوراقه، مدركاً أنه يكتب نعيه بنفسه، ولم يُخف «أدموني» عدم رضائه عن موقف «هوفي». وفترت العلاقة بين الصديقين، واستغرق الأمر ستة أشهر من الصراع المرير بين رئيس الموساد وكبار رجاله، حتى اتخذت القيادة العامة قراراً بالهجوم في ١٥ مارس ١٩٨١.

وكان الهجوم ضربة تكتيكية رائعة، فقد طارت ثمان قاذفات قنابل إف ١٦ ترافقها ست طائرات مقاتلة إف ١٥ على ارتفاع منخفض فوق الأردن قبل أن تتجه إلى العراق، ووصلت الهدف في الموعد تماماً، في الساعة ٥:٣٤ بعد الظهر بالتوقيت المحلي، بعد دقائق من مغادرة الفنيين الفرنسيين للموقع، كان الضحايا تسعة أشخاص،

وتحول المفاعل إلى حجارة ورجعت القوة سالمة، وانتهت خدمة «هوفى»، وحل محله «أدمونى».

* * *

والآن، فى صباح أحد أيام أبريل ١٩٨٨، هؤلاء التجار، الذين تعاطفوا منذ سبع سنوات مع العراقيين بسبب الهجوم الإسرائيلي - وقبل أن يبيعوا لبغداد أنظمة رادار متقدمة - سيدهشون حين يعلمون أن هناك عميلاً للموساد فى الفندق يسجل أسماءهم بهدوء ويكتب ما يبيعونه من أسلحة.

كان «فرزاد بازوفت Farzad Bazoft» شاباً طويل القامة، يرتدى سترة قطنية زرقاء، وبنطال من الشنتو، حسن الوجه مع وهن خفيف، وعادة عصبية تجعله يلمس شاربه أو يمسح وجهه كأن أحداً قد استثاره.

كانت وظيفته كما كتبها فى سجل الفندق - الذى تذهب منه نسخة إلى إدارة المخابرات العامة بشكل روتيني - المراسل الأجنبي الرئيسي لجريدة الأوبزرفر اللندنية. ولم يكن الوصف دقيقاً: فالمحررون فقط هم الذين يسمح لهم بإطلاق صفة «مراسل أجنبى» على مهماتهم خارج بريطانيا، فلقد كان صحفياً حراً Freelance، ساهم خلال العام الماضى فى «الأوبزرفر» بعدة قصص حول الشرق الأوسط، وقد اعترف إلى مراسلين لهيئات أخرى، كانوا معه فى رحلة بغداد، إنه يستخدم دائماً صفة المحرر الأجنبى الرئيسى للأوبزرفر فى رحلات كهذه ليضمن أن تُعطى له أفضل غرفة ممكنة فى الفندق. وقد نظروا إلى هذه القصة غير الضارة بأنها مثل آخر على صبيانته المحببة.

وكان هناك جانب مظلم فى شخصية «بازوفت»، لا يعرفه عنه زملاؤه، وقد يعرضهم للخطر لو شك أحد أن لهم علاقة بالسبب الحقيقى لوجوده فى بغداد، فقد كان عميلاً للموساد.

لقد جُند منذ ثلاث سنوات فى لندن، بعد وصوله من طهران حين تعرضت حياته للخطر لانتقاده المتزايد لنظام الخميني، ومثل الكثيرين قبله، وجد لندن غريبة عنه، والإنجليز شعباً متحفظاً. وحاول أن يجد لنفسه دوراً فى المجتمع الإيرانى فى المنفى، وأصبح لفترة ضيفاً مرحباً به على موائد العشاء لمعرفته الكبيرة للتركيبة السياسية

الحالية فى طهران، لكن رؤية الوجوه نفسها أصبحت مملة للشاب الطموح القلق. وبدأ يبحث عن إثارة أكثر من تحليل خبر وارد من طهران فاتصل بالعراقيين الذين كانوا يتواجدون فى لندن فى منتصف الثمانينيات بأعداد كبيرة، وكانوا زائرين ينزلون على الرحب والسعة، فقد كانت بريطانيا ترى فى العراق ليس فقط مستورداً كبيراً لبضائعها، بل دولة ستخضع المتطرفين الإسلاميين فى نظام «الخمينى».

أسر العراقيين بلطفه وبنكاته التى لا تنتهى عن «آيات الله» فى طهران، ووجدهم أكثر استرخاء واستعداداً للبوح من الإيرانيين.

وفى إحدى الحفلات، كان هناك رجل أعمال عراقى اسمه «أبو الحبيد Abu Al-Hibid» (عبد الحميد)، استمع إلى «بازوفت» الذى كان نشوان من السكر فى آخر السهرة، يتحدث عن طموحه الدائم لأن يكون محرراً، وأن مثله الأعلى بوب وودورد، وكارل بيرنشتين اللذان أسقطا الرئيس نيكسون، وأخبر «عبد الحميد» إنه سيموت سعيداً لو استطاع قلب نظام «آية الله خومينى». كان «بازوفت» آنذاك يكتب مقالات فى صحيفة إيرانية محدودة الانتشار للجالية الإيرانية فى بريطانيا.

«عبد الحميد» كان اسماً مستعاراً لأحد ضباط الموساد من مواليد العراق. وكتب فى تقريره التالى إلى تل أبيب نبذه عن «بازوفت» وعمله الحالى وآماله. كان هذا شيئاً عادياً، فمئات الأسماء تضاف أسبوعياً إلى بنك معلومات الموساد. لكن «ناحوم أدمونى» رئيس الجهاز، كان تواقاً لتطوير شبكة اتصالاته فى العراق. فطلب من «عبد الحميد» أن ينمى علاقته مع «بازوفت»، وحول عشاءات فاخرة، اشتكى الأخير بأن رئيس التحرير لا يستغل كل طاقته، فاقترح عليه «عبد الحميد» أن يحاول اختراق تيار الصحافة الإنجليزية الرئيسى، فهناك إمكانية لمحرر بمهارات لغوية جيدة ومعلومات كافية عن إيران، واقترح عليه أن تكون الـBBC بداية.

وهناك، فى هيئة الإذاعة البريطانية العديد من السايانيم Sayanim - المساعدين للموساد من اليهود - من بين مهامهم مراقبة البرامج التى تعد عن إسرائيل، ورصد الأشخاص الذين ينضمون إلى القسم العربى فى الإذاعة. وسواء كان لهؤلاء دور فى استخدام «بازوفت» أم لا، فذلك أمر لا يمكن التأكد منه، لكن هيئة الإذاعة البريطانية استخدمته فى مهمات بحث خاصة، وأثبت جدارته، ووثق المحررون فيما يكتبه عما

يحاك في إيران من مؤامرات.

وفي تل أبيب، قرر «أدموني» أن الوقت قد حان للخطوة التالية. ومع بوادر اكتشاف عملية «إيران جيت» في الولايات المتحدة، قرر رئيس الموساد عمداً فضح دور «ياكوف نمرودي» رجل المخابرات العسكرية السابق، كان «نمرودي» محتالاً، وقد دفع «جورج شولتز» ليدلي بتعليق «إن برنامج إسرائيل يختلف عن برنامجنا، وإن العلاقة المخابراتية معها بخصوص إيران لا يمكن أن يعول عليها.»

وحين انسحب «كيمحي» من الاتحاد المالي، بقي «نمرودي» لفترة أطول، لكن مع ارتفاع الدوّي في واشنطن، مما أحرج إسرائيل أكثر، اختفى ضابط المخابرات العسكرية السابق، وعاد لمصنوعاته الخشبية. وكانت لأدموني خطط أخرى خاصة بسبب الطريقة التي عامل بها «نمرودي» الموساد، فأراد أن يحرج «نمرودي» إعلامياً، ويعزز موقف «بازوفت»، مما يجعله يخدم الموساد بشكل أفضل، وزود «عبد الحميد» «بازوفت» بكل التفاصيل قائلاً له إنها ضربته الكبرى، فأخذ القصة إلى جريدة «الأوبزرفر»، مع إشارة إلى «إسرائيلي غامض، اسمه «نمرودي» متورط في فضيحة إيران جيت»، وأصبح محرراً منتظماً في الصحيفة، وأعطي، أخيراً، وهو ليس ضمن هيئة التحرير، مكتباً خاصاً طالما اشتهاه، وذلك يعني أنه لن يدفع ثمن مكالماته التليفونية عند تتبع قصة ما، وأنه يستطيع دفع نفقات الترفيه عن نفسه، لكنه كان يتقاضى فقط ثمن ما يكتبه في الجريدة، وكان ذلك حافزاً له للبحث عن قصص جديدة، والسعي بجد لرحلة إلى الشرق الأوسط، وفي هذه المناسبات، تُغطى تكاليفه بالكامل، بل ويستطيع طلب المزيد، وكانت قلة النقود هي مشكلة «بازوفت» الدائمة، وكان يخفي ذلك عن زملائه في الأوبزرفر، ولم يشك أحد على الإطلاق، أن هذا المحرر الذي يقضي الساعات مهاتفاً مصادره بالفارسية ما هو إلا لص مدان، فقد قضى سنة ونصف في السجن بعد سطوه على مبنى جمعية بناء المساكن، وبعد انتهاء فترة سجنه أمر القاضي بترحيله من البلاد، وناشد القضاة بأنه سيعدم لو أعيد إلى إيران، ومع أن التماسه قد رفض، لكنه منح «أذناً خاصاً» بالبقاء في بريطانيا بصورة غير محددة، وظل سبب هذه المعاملة الخاصة مقفلاً عليه في أقبية وزارة الداخلية، فهل استخدمت الموساد، بعد أن اكتشفت إمكانيات «بازوفت»، أحد مساعديها في «وايت

هول» بتسهيل الأمور له؟ سؤال يظل بلا إجابة، لكن الاحتمال قائم.

بعد أن أطلق سراحه، بدأت تنتابه نوبات من الاكتئاب، عالجها بجرعات صغيرة من الدواءنفسه الذى يسبب المرض، وقد عرف ضابط الموساد كل ذلك عنه، وكما قال بعد ذلك «روبرت أليسون» وهو كاتب بريطاني، وعضو محافظ فى البرلمان وخبير معروف في طرق التجنيد للمخابرات «إن شخصية مثل «بازوفت» تجعله هدفاً ممتازاً للموساد.»

بعد سنة، من أول لقاء لهما، استطاع «عبد الحميد» تجنيده، كيف ومتى ظل السؤلان دون إجابة، وبالتأكيد كان للنقود دورٌ كبير فى ذلك، كما أن شخصاً ينظر إلى الحياة من خلال منظور زجاجي درامي، يجب أن يعيش حلماً آخر من أحلامه، وأن يكون جاسوساً يسير على خطا مراسل أجنبى آخر كان معجباً به، هو «فيلبى» الذى عمل مرة لجريدة الأوبزرفر كغطاء لتجسسه لحساب الاتحاد السوفييتى، يشكل عاملاً آخر لعمله مع الموساد.

لكن من المؤكد، أن «بازوفت» بدأ يكوّن سمعة حسنة لنفسه، وعوّض عدم كفاءة أسلوبه، بالبحث العميق. وكل ما كان يكشف عنه فى إيران كان يرسل إلى ضابط الموساد فى لندن، وبالإضافة إلى ما يكتبه فى «الأوبزرفر»، كان يكلف بمهمات خاصة فى شبكة التليفزيون الإخبارية المستقلة، ومجموعة جرائد «الميرور»، وكان المحرر الخارجى وقتها «للديلى ميرور» نيكولاس ديفيز، الذى أجاز «ناحوم أدومونى» تجنيده للموساد، ولم يكن أحد يعرف ذلك حتى زوجته جانيت وهى ممثلة استرالية قامت بدور ناجح فى المسلسل التليفزيونى «د. هو» لحساب التليفزيون البريطانى، ويصر «ديفيز»، إنهم حتى لو فاتحوه في الأمر، فما كان ليعمل أبداً عميلاً للموساد، وأن وجوده فى صالة الفندق بعد ظهر تلك الجمعة من أبريل، كان عملاً صحفياً محضاً لمراقبة تجار السلاح الذين يبيعون بضائعهم. ولم يستطع أن يتذكر بعد ذلك الحديث الذى دار بينه وبين «بازوفت» فى الصالة، وكل ما قاله «أتخيل أنه كان عما يجرى من أمور». ورفض أن يفصح، وهو موقف حافظ عليه بثبات.

وسافر الاثنان (بازوفت وديفيز) مع مجموعة صغيرة من الصحفيين (كان من بينهم مؤلف هذا الكتاب فى مهمة لجمعية الصحفيين، والهيئة القومية للخدمات

الملكية البريطانية)، وفي الطائرة أمتعنا «ديفيز» بحكاياته البذيئة عن «روبرت ماكسويل» الذى اشترى أخيراً مجموعة صحف «الميرور» وقال عنه «وحش جنسي بشهية شرهة لإغواء السكرتيرات من موظفاته». وأوضح أنه قريب جداً من «ماكسويل» مع أن «الجحيم بعينه أن تكون معه، وهو يعرف أني أعرف الكثير فلا يستطيع طردي.»

كان «بازوفت» في الطائرة هادئاً، يتحدث قليلاً، واقتصر حديثه على مضيفي الطائرة وبالفارسية، وفي مطار بغداد ساعدت مهاراته اللغوية في تسهيل صعوبات الترجمة مع المرافقين العراقيين، وفي همسة مسرحية قال ديفيز «إنهم رجال أمن حقيقيون، فالغبى لن يعرف الجاسوس حتى لو أشير إليه.» وكأنه كان يتنبأ بذلك.

وأخبر صحفي «الميرور» زملاءه في فندق «ميريديان ـ فلسطين»، إنه هنا لأنه ضاق ذرعاً بلندن، وأوضح تماماً إنه لم يتبع خط الرحلة المقرر لهم، والذى يتضمن زيارة إلى ميدان المعركة في البصرة، حيث كان الجيش العراقي تواقاً لعرض الخسائر التى ألحقها بالقوات الإيرانية، وقال «بازوفت» «لا أعتقد أن الرحلة إلى الجنوب تهم صحيفتي».

وفي مساء تلك الجمعة من أبريل ١٩٨٨، وبعد أن أمضى ساعات في صالة الفندق يراقب تجار السلاح يدخلون ويخرجون، ويتبادل الحديث مع «ديفيز»، تناول طعامه وحده في مقهى الفندق، ورفض دعوة للانضمام إلى محررين آخرين من لندن قائلاً: «لدى جدول مواعيدى»، أثناء تناوله الطعام، جاءته مكالمة من صالة الفندق، رجع بعدها منشغل البال، وكان قد طلب الحلوى، لكنه غادر المائدة فجأة، متجاهلاً تعليقات زملائه البذيئة حول فتاة خذلته.

ولم يرجع حتى اليوم التالي، وبدا أكثر توتراً، وقال «لكيم فليتشر» وهو صحفي حر يكتب في «الديلي ميل»، على مسمع من آخرين «الأمور جيدة بالنسبة لك، فأنت إنجليزى مولداً ونشأة، وأنا إيراني، وذلك يجعلني مختلفاً». ولم يكن «فلتشر» وحده هو الذى تساءل «هل يعزف «بازوفت» ثانية على صعوبة أن يكون للمرء ظروفاً مثله».

وقضى معظم اليوم يتمشى في صالة الفندق، أو في جناحه الخاص، وغادر الفندق مرتين ولفترة قصيرة، وتحدث عدة مرات مع «ديفيز» الذى قال بعد ذلك «إن «بازوفت» مثل أى صحفي يجرى وراء قصة متسائلاً هل يحصل على ما يريد». أما

بالنسبة له (ديفيز) «فلا شيء هنا يهم كابتن بوب».

وفي وقت متأخر من بعد الظهر، غادر «بازوفت» الفندق مرة أخرى، وكالعادة تبعه أحد المرافقين، لكن حين عاد، كان وحده. وسمعه المراسلون يقول لديفيز «لن أسمح لأحد أن يتبعني ككلبة تبغي السفاد».

ولم تخفف ضحكة «ديفيز» من مزاج «بازوفت»، وصعد ثانية إلي جناحه. وحين ظهر في الصالة ثانية، قال إلى عدد من المراسلين إنه لن يعود معهم إلى لندن، وقال بصوته الغامض الذى يحب أن يستخدمه أحياناً «هناك شيء سيحدث». وقال «فليتشر» «لابد إنها قصة جيدة تلك التي ستبقيني هنا».

بعد ساعات، غادر «بازوفت» الفندق. وكانت آخر مرة يراه فيها زملاؤه، حتى ظهر بعد سبعة أسابيع من اعتقاله على شريط فيديو وزّعه النظام العراقى فى أنحاء العالم، يعترف فيه إنه جاسوس للموساد.

خلال تلك الفترة، كان «بازوفت» فى مهمة أعيت مهارات ضابط موساد خبير، لقد أُمر بمحاولة اكتشاف مدى التقدم الذى أحرزه «جيرالد بل» فى المدفع العراقى العملاق، وأن يُعطى صحفى مثل هذا العمل، لهو دليل على مدى استغلال من استخدمه لقدراته، ولقد رتبت الموساد الأمر بحيث إذا انكشف «بازوفت»، يبدو الأمر وكأنه يعمل لحساب شركة «أنظمة الدفاع المحدودة». وحين اعتقل قرب أحد مواقع المدفع العملاق، وجد الضباط العراقيون لديه عدداً من الوثائق تشير إلى أنه قام بالعديد من الاتصالات التليفونية من الفندق إلى مقر الشركة فى لندن، وأنكرت الشركة أية معرفة لها به، أو أية علاقة لها بالموساد.

وعلى شريط الفيديو، كانت نظرات عينيه تبدو أحياناً بلهاء، ثم فجأة ترف بسرعة، وتجول فى أرجاء الغرفة بستارتها الخلفية الجميلة الموشاة بسيقان النباتات المتسلقة، بدا كأنه يؤمن بعجزه فى تجنب إعدامه.

ودرس المحللون النفسيون فى تل أبيب كل لقطة، ولاحظوا أن مراحل انهياره تتبع المنوال نفسه الذى يبدو عليه الإرهابيون حين ينتزع منهم الإسرائيليون الاعترافات. فى البداية، يبدو عليه عدم التصديق فى أن ما يحدث، يحدث له بالفعل. ثم تأتى

لحظة قهر مفاجئة وإدراك محطم، إن ذلك يحدث له. فى تلك اللحظة، لابد أن المحرر العاجز قد مر بأمرين كرد فعل: رعب يشل المرء، ورغبة لا تقاوم فى الحديث، فى ذلك الوقت أدلى باعترافه الذى صُور على شريط الفيديو.

إن لهجته الرتيبة توحى بأنه مر باكتئاب ـ لأسباب خارجية ـ وهو فى الأسر، نتيجة لانتزاعه من بيئته المألوفة، وتغير أسلوب حياته العادى. ولابد أنه شعر بتعب متواصل، وهبوط نتيجة النوم القليل الذى سمح له به. وتلك هى الفترة التى يبلغ فيها لوم النفس أعلى مراحله التدميرية، ويتعاظم الإحساس باليأس، لقد تلبسه لوم النفس كبطل «كافكا» فى المحاكمة، ولابد أنه شعر بغبائه للطريقة التى تصرف بها وعرض الآخرين للخطر.

وبدا على عينيه فى شريط الفيديو إنه قد خُدِّر، لكن علماء الأدوية لم يستطيعوا تحديد نوع المخدر الذى تناوله.

وأدرك «ناحوم أدمونى» إن مثل هذا الاعتراف المهين على شريط الفيديو مقدمة لإعدام «بازوفت». فأمر المحللين المتخصصين فى إدارة الحرب النفسية بشن حملة من الأسئلة المربكة حول تورط الموساد مع «بازوفت» لتنحرف فى الموضوع عن وجهته الحقيقية.

وانتقد أعضاء البرلمان فى بريطانيا، جريدة «الأوبزرفر» لإرسال «بازوفت» إلى العراق، فى الوقت الذى كتب فيه محررون ثقاة بأن «صدام حسين» شاهد على شرائط الفيديو كل مرحلة من استجواب «بازوفت». ربما يكون ذلك صحيحاً، أو ربما كان الشريط ذريعة لتذكير العالم بأن التعذيب والقتل من أدوات السلطة فى العراق، وهو الأصوب. وأعدم «بازوفت» فى بغداد فى مارس ١٩٩٠، وكانت آخر كلماته «لست جاسوساً إسرائيلياً».

فى لندن، قرأ «ديفيز» التقرير عن الإعدام فى رسالة لوكالة «رويتر»، وصلت مكتب جريدة «الديلى ميرور». وحسب التعليمات، بأن كل الأخبار التى يراها مهمة والقادمة من الشرق الأوسط، حمل التقرير إلى «روبرت ماكسويل»، كان «ماكسويل» منذ ١٩٧٤ أقوى مساعد لليهود فى بريطانيا. ويتذكر ديفيز «قرأ بوب التقرير دون تعليق» لكنه لا يذكر «بكل أمانة» كيف كانت مشاعره تجاه موت «بازوفت».

وكان من بين الذين قرأوا عن الإعدام في تل أبيب، واحد من أكثر الشخصيات التي خدمت الجاسوسية في إسرائيل، إثارة، إنه «أرى بن منشي». حتى ذلك الوقت، لم يكن يعرف بوجود «بازوفت»، ولكن ذلك لم يمنع الرجل الزئبقي من الإحساس بالحزن «رجل جيد آخر كان في المكان الخطأ في الوقت الخطأ». كان ذلك حكماً عاطفياً، كذلك الذي منعه أن يحتل مركزاً رئيسياً في جماعة المخابرات الإسرائيلية على الرغم من ذكائه اللماح وجاذبيته، ومع ذلك، فقد شغل منصباً حساساً في قسم العلاقات الخارجية التابع لوزارة الدفاع الإسرائيلية في الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧، وهو أحد الأقسام الأكثر قوة وسرية في المخابرات الإسرائيلية، وقد أنشأ هذا القسم، إسحق رابين عام ١٩٧٤ حين كان رئيساً للوزراء، تعبيراً عن غضبه لعدم معرفة موعد الهجوم المصري - السوري على إسرائيل في يوم كيبور. وقد قرر أن الطريقة الوحيدة لتجنب مثل هذا الفشل تكمن في إنشاء «كلب حراسة» يراقب كل فروع المخابرات، وينسق كل ما تجمعه من معلومات، وأنشئت أربعة فروع لتعمل تحت مظلة قسم العلاقات الخارجية كان أهمها الفرع الذي أطلق عليه "SIM" ووظيفته تقديم المساعدة الخاصة للعدد المتزايد من «حركات التحرير» في إيران والعراق، وبدرجة أقل في سوريا والسعودية. الفرع الثاني "RESH" يختص بالعلاقات مع شبكات المخابرات الصديقة، وعلى رأسها مكتب جنوب أفريقيا للأمن، ويوجد لدى الموساد وحدة مشابهة تسمى "TEVEL" لها علاقات وثيقة مع مخابرات دولة جنوب أفريقيا. وكانت العلاقة بين RESH وTEVEL متوترة دائماً بسبب تداخل الاختصاصات الحتمي.

وكان الفرع الثالث في قسم العلاقات الخارجية، يختص بالملحقين العسكريين الإسرائيليين وشخصيات جيش الدفاع الإسرائيلي العاملين بالخارج، كما يرصد أنشطة الملحقين العسكريين الأجانب في إسرائيل. وبسبب هذا النشاط الأخير قام صراع من «الشين بيت» - إدارة الأمن الداخلي - التي كان ذلك من اختصاصها حتى ذلك الحين. أما الفرع الرابع فكان يسمى المجموعة ١٢ مخابرات، ووظيفته إقامة علاقة متبادلة مع الموساد، وكانت هذه الوحدة على علاقة متوترة بدرجة أكبر، مع سكان الطابق العلوي في البناية الموجودة في شارع الملك شاؤول، الذين شعروا بأنها ستنتقص من قوتهم.

والتحق «بن منشي» بفرع RESH مع مسئولية خاصة للشئون الإيرانية. وقد جاء

فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل على وشك فقد أهم حليف لها فى المنطقة. لقد عمل «الشاه» بجد، ومن وراءستار، طوال ربع قرن لإقناع الدول العربية المجاورة، بإنهاء عدائها لإسرائيل وكان مازال يبذل جهده خاصة مع الملك حسين، حين أُطيح بعرشه على يد آية الله خومينى فى فبراير ١٩٧٩، وأعطى خومينى، على الفور، مقر السفارة الإسرائيلية ليكون مقراً لمنظمة التحرير الفلسطينية فى طهران، وبالمثل استدارت إسرائيل لمساعدة الأكراد ضد النظام الجديد، فى الوقت الذى كانت تزود إيران بالأسلحة لمحاربة العراق، إن سياسة «قتل كل من الطرفين» التى يؤيديها «كيمحى» وآخرون كانت تسير بشكل جيد.

ووجد «بن منشى» نفسه ينغمس فى خطة «كيمحى» الكبرى فى صفقة الرهائن مقابل السلاح مع إيران، وسافر الرجلان إلى واشنطن معاً، ويدّعى «بن منشى» أنه كان يجول فى طرقات البيت الأبيض ويقابل الرئيس وكبار مساعديه. كان «بن منشى» بسحره واستهتاره، محبوباً فى حفلات المخابرات الإسرائيلية حيث يتبادل كبار السياسيين الحكايات مع كبار الجواسيس لمصلحتهم المشتركة، وقليلون من يستطيعون منافسة «بن منشى» فى سرد الحكايات، وفى الوقت الذى بدأ فيه «كيمحى» صفقة الرهائن مقابل السلاح، عُيّن «بن منشى» المستشار الشخصى لرئيس الوزراء «إسحق شامير» لشئون المخابرات، وأخبره بأنه يعرف كل التفاصيل، ولذلك قرر كيمحى أن «بن منشى» هو الاختيار الأمثل للعمل مع واحد من ضباط المخابرات الذين يكن له إعجاباً أكثر من أى شخص آخر هو «رافى ايتان». وبموافقة «شامير» الكلية، أُعفى «بن منشى» من كل واجباته ليتفرغ للعمل مع «ايتان». وسافر الرجلان إلى نيويورك فى مارس ١٩٨١، وكان هدفهما كما يتذكر «بن منشى»: «كان أصدقاؤنا فى إيران تواقين بشدة للحصول على معدات الكترونية لسلاحهم الجوى ودفاعاتهم الأرضية والجوية، وكانت إسرائيل بالطبع، ترغب فى مساعدتهم فى حربهم ضد العراق».

سافرا، بجوازات سفر بريطانية - المفضلة دائماً لدى الموساد - وأنشآ شركة فى الحى المالى بنيويورك، وسرعان ما جندوا خمسين سمساراً قاموا بالبحث عن أفضل الأجهزة الأليكترونية الأمريكية المناسبة، وكل المبيعات كانت مصحوبة بشهادات تفيد أن

استخدامها سيكون في إسرائيل. ويتذكر «بن منشى» «أصبح لدينا حزم من الشهادات، نستوفى بياناتها ونرسلها إلى تل أبيب لتحفظ فى ملفات في حالة إذا أراد أحد التأكد.»

كانت المعدات تشحن إلى تل أبيب، ودون المرور على الجمارك، كانت تنقل بطائرات مستأجرة من شركة «جينيس بيت» بأيرلندا إلى طهران. وكان اختيار هذه الشركة لهدف واضح، وفكرة استخدام طيارين أيرلنديين كانت فكرة «ايتان». فقد أقام ما يسميه بالعلاقات الأيرلندية، فإذا كان فى الأمر صفقة ما، فهم يفهمون القواعد، وكل ما يهمهم الدفع في المواعيد المحددة.

وحين تزايد حجم العمل، أصبح من الضرورى إنشاء شركة مركزية قابضة للتعامل بهذه المليارات من شراءوبيع الأسلحة، وسميت الشركة باسم أورا ORA وتعنى «نور» بالعبرية.

في مارس ١٩٨٣ أخبر «ايتان» «بن منشى» بتجنيد «نيكولاس ديفيز» فى شركة «أورا»، أما كيف سمع سيد الجواسيس عن «ديفيز»، فبالتأكيد عن طريق الموساد، فى أواخر ذلك الشهر التقى «بن منشى» معه في صالة فندق «تشرشل» في لندن، وحين افترقا أدرك «بن منشى» أن ديفيز «هو رجلهم». وتغديا فى اليوم التالى فى بيت الأخير بحضور زوجته «جانيت». وأعطى «بن منشى» الانطباع بأن الحديث الناعم العميق يعبر عن خوف ديفيز من فقدها «ذلك أمر جيد، فهو يسهل أمر مهاجمته».

وتمت تسوية دور «ديفيز» كمستشار لشركة «أورا» فى فندق «دان أكاديا» على الشاطئ الشمالى لتل أبيب، ويتذكر «بن منشى» «اتفقنا أن يكون رجلنا فى لندن بالنسبة للسلاح، وحلقة الوصل بيننا وبين الإيرانيين في صفقات أخرى، كما سيستخدم عنوان منزله فى مكاتبات الشركة، وخلال اليوم يستخدم الإيرانيون تليفون مكتبه المباشر 822-3530 كحلقة اتصال».

وبالمقابل، سيتسلم «ديفيز» ما يتكافأ مع دوره فى العملية، مبلغ إجمالى مليون دولار يوضع في حسابه فى بنك جراند كايمان فى بلجيكا ولوكسمبرج. وقد استخدم جزءمن هذا المبلغ لتسوية موضوع طلاقه، وتسلمت «جانيت» دفعة وحيدة بخمسين ألف دولار، كما سوّى جميع ديونه واشترى بيتاً من أربعة طوابق، أصبح المقر الرئيسى

فى أوربا لشركة «أورا». ورقم تليفونه 231-0015 وهو حلقة وصل أخرى لتجار السلاح الذين أصبحوا الآن جزءاً من حياة الصحفى، وخلال موقعه كمحرر خارجي، زار الولايات المتحدة ودول أوربا وإيران والعراق.

ويشير «بن منشى» برضىً «إنه أثناء سفرياته كان يقدم نفسه كممثل لمجموعة شركات أورا، وكان يعقد الاجتماعات، عادة فى أجازة نهاية الأسبوع، يطير إلى المدينة المعنية، يتمق على كميات السلاح والمبالغ التى ستدفع».

فى ١٩٨٧ تلقى «آية الله على أكبر هاشمي رافسنجاني» برقية من شركة «أورا» تتعلق ببيع أربعة آلاف صاروخ TOW بتكلفة ١٣,٨٠٠ دولار لكل صاروخ، وكانت البرقية تؤكد، «أن ممثل الشركة هو نيكولاس ديفيز، وهو الذى يملك الحق بتوقيع العقود».

كان وقتاً رائعاً، لكل من «بن منشى»، و«نيكولاس ديفيز» والرجل القوى الذى تبدو صورته أكبر فى خلفية الأحداث المعروفة: روبرت ماكسويل ولكن لا أحد يشك فى الحقيقية الهوليودية الصارمة التى يجب أن يستشهد بها «ديفيز»: لا يوجد شيء مثل الغداء المجانى.

إن العلاقة بين العمل المخابراتى والجنس قديمة قدم الجاسوسية نفسها ، ففى

كتاب يشوع التوراة ورد أن الزانية «راحاب» أنقذت حياة اثنين من جواسيس يشوع من بطش رجال

ملك أريما ـ وهذا أول ارتباط أزلى مسجل بين أقدم مهنتين عرفتهما البشرية .



رشاوى وجنس
وأكاذيب

بدت الأمور شديدة الاختلاف ذاك الصباح أواخر شهر مارس ١٩٨٥ ، عندما استقل آريه بن منشي طائرة الخطوط الجوية البريطانية في ساعة مبكرة من الصباح في رحلتها المتجهة من تل أبيب إلى لندن. وفيما كان يتناول طعام إفطاره الكوشير «الحلال حسب الشريعة اليهودية» كان لسان حاله يشي بأن الحياة ليست طيبة على الإطلاق أو على ما يرام في كل الأحوال. لم يكن بن منشي يجني «أموالاً حقيقية» فحسب بل إنه طالما تعلم الكثير بجوار ديفيد كيمحي وهما يجوبان العالم المفروش بالأشواك لبيع الأسلحة إلى إيران.

وطيلة المشوار تعززت معرفته وتعلمه من التفاعل المستمر بين ساسة إسرائيل ورؤساءمخابراتها.

وبالنسبة لبن منشي «ومقارنة بزملائي السابقين فإن تاجر السلاح العادى لا يعدو أن يكون صبياً في جوقة» وقد شخّص المشكلة وحدد أبعادها : ألا وهى توابع مغامرة إسرائيل فى لبنان التى انسحبت منها فى نهاية المطاف مكسورة محطمة المعنويات. وتلهفاً على استعادة المكانة والهيبة أطلق السياسيون يد المخابرات بقدر أكبر وأكثر حرية فى حربها الشرسة التى لا تعرف الرحمة ضد منظمة التحرير الفلسطينية التى

اعتبروها سبب كل المشاكل لإسرائيل. وكانت النتيجة سلسلة متتالية من الفضائح التى عومل خلالها المشتبه فى أنهم من الإرهابيين بل وحتى عائلاتهم بوحشية بالغة وقتلوا عمداً دون أن يطرف للقتلة جفن. ورأس إسحاق حوفى الرئيس السابق للموساد لجنة حكومية تشكلت تحت ضغط شعبى عارم للتحقيق فى تلك الوحشية. وخلصت اللجنة إلى أن مسئولى المخابرات دأبوا على الكذب أمام المحكمة باستمرار عن أساليب حصولهم على الاعترافات: وقد كانت تلك الأساليب شديدة الفظاظة والبشاعة على الدوام. وطالبت اللجنة بضرورة «اتخاذ الإجراءات المناسبة» فى هذا الصدد.

لكن بن منشى كان يعلم تماماً أن التعذيب استمر: «إنه لأمر عظيم أن يكون المرء بعيداً عن مثل تلك الأمور المروعة البغيضة». لكنه اعتبر ما يفعله من تزويد الإيرانيين بالأسلحة لقتل أعداد لا تحصى من العراقيين أمراً «مختلفا»، وكذلك لم تثر محنة الرهائن فى بيروت - وهى السبب المباشر لتجواله وتعامله فى تجارة الأسلحة - قنقة أكثر من اللازم. فالأصل عنده هو المال الذى يجمعه. وحتى مع رحيل ديفيد كيمحى كان بن منشى لا يزال يعتقد أن المشوار الذى يقطعه لن يتوقف إلا عندما يقرر هو - وسوف

يتحول إلى رجل من أصحاب الملايين ـ وفي تقديره فإن عمليات شركة أورا القابضة تبلغ الآن «مئات الملايين» التي يأتي معظمها من خلال منزل بإحدى ضواحي لندن حيث يدير نيكولاس ديفيز العمليات الدولية لشركة أورا القابضة.

وكان بن منشي يعرف أن ديفيز واصل تكوين ثروته التي تفوق كثيراً مبلغ الخمسة والستين ألف جنيه استرليني الذى يتقاضاه سنوياً عن عمله محرراً للشئون الخارجية في صحيفة «الديلي ميرور» بينما عمولته الشهرية من شركة أورا تفوق هذا المبلغ تقريباً.. ولم يكن بن منشي يعبأ بما إذا كان الصحفي «يستحوذ على قطعة إضافية من الكعكة التي لا يزال يتبقى منها ما يكفى لتوزيعه ولا يزال الوقت وقت تناول الشمبانيا». وكان روبرت ماكسويل ـ امبراطور الصحافة ـ يريقها بالزجاجة لضيوفه من مكتبه بأعلى مبنى الميرور.

وحينما هبطت طائرة الخطوط الجوية البريطانية توجه بن منشي للقاء الإمبراطور في سيارة ليموزين أرسلها ماكسويل في لفتة أشعرت بن منشي بالأهمية التي أولاها ماكسويل إياه، ورافقه في السيارة ناحوم أدموني المدير العام للموساد الإسرائيلي الذى كان يستقل طائرة العال الإسرائيلية في رحلة بفارق ساعة بعد رحلة شركة الخطوط الجوية البريطانية.

وكان بن منشي يعتزم أن يمضي هذه الساعة في انتظار أدموني بمطار هيثرو يستعرض فيها كل ما جمعه حول الكيفية التي تحول بها إمبراطور الصحافة القوى ليصبح أكبر وأهم عميل يجنده الموساد.

كان ماكسويل قد تطوع بتقديم خدماته في نهاية اجتماع عقده في القدس مع شيمون بيريز بعيد تشكيله حكومة ائتلافية في العام ١٩٨٤. ولسوف يتذكر أحد مساعدي بيريز اللقاء بالقول «إنه لقاء الغرور بجنون العظمة. كان بيريز متغطرساً ومتسلطاً. لكن ماكسويل ما لبث أن استرسل في الحديث وهو يتفوه بأقوال مثل: سوف أغرق إسرائيل بالملايين، سوف أنعش الاقتصاد، كان مثل رجل يهرول نحو السلطة. لقد كان يتحدث بكلام منمق طنان خارج عن سياق الموضوع ويلقى بالنكات الفجة القبيحة بينما بيريز جالس تعلو شفتيه ابتسامة الإسكيمو».

واعترافاً منه بأن ماكسويل أقام علاقات واتصالات قوية بأوروبا الشرقية فقد رتب

بيريز لقاءً بين ماكسويل وأدمونى. وتم اللقاء فى الجناح الرئاسى بفندق الملك داود بالقدس حيث كان ينزل ماكسويل. ووجد ماكسويل وأدمونى أرضية مشتركة لدى كليهما بالنظر إلى انحدارهما من وسط أوربا، فقد ولد ماكسويل فى تشيكوسلوفاكيا (السابقة) وهو ما دفع بيريز إلى إطلاق إحدى نكاته القليلة الساخرة التى يمكن تذكرها «إنه التشيكى الضخم الوحيد الذى أعرفه بالمال». وكانا يشتركان فى التزامهما المفرط بالصهيونية وأن لإسرائيل حقاً إلهياً فى الوجود. وكانا يشتركان أيضاً فى ولعهما بما لذ وطاب من الطعام والخمور.

وكان أدمونى يبدى اهتماماً بالغاً بوجهة نظر ماكسويل بأن كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى (السابق) لديهما رغبة فى تحقيق الهيمنة الكونية، لكن من خلال أساليب وطرق مختلفة تماماً. فقد جعلت روسيا من الفوضى العالمية جزءاً من استراتيجيتها بينما كانت واشنطن ترى العالم من زاوية «الأصدقاء» أو «الأعداء» بدلاً من النظر إليه على أنه دول تحركها مصالح أيديولوجية متصارعة. وأفضى ماكسويل بآراء ثاقبة أخرى؛ فقد رأى أن الاتصالات السرية التى تجريها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بنظيرتها الصينية تثير قلق الخارجية الأمريكية التى تشعر بأنها قد تصطدم بالسياسات والتحركات الدبلوماسية فى المستقبل.

ورسم إمبراطور الصحافة صورة لشخصين كان أدمونى يوليهما اهتماماً خاصاً. وقال ماكسويل إنه بعد اجتماعه مع رونالد ريجان خرج بانطباع بأنه رجل متفائل بلا حدود يستغل سحره وجاذبيته ليحجب شخصية السياسى الصارم المتشدد، لكن أخطر نقاط ضعف ريجان أنه شديد السطحية وقليل الدراية بالشرق الأوسط حيث إن فكرته الثانية أو الثالثة عنه ليست أفضل حالاً من فكرته الأصلية السطحية المتسرعة.

والتقى ماكسويل أيضاً مع ويليام كيسى وكان حكمه عليه بأنه رجل ضيق الأفق وليس صديقاً لإسرائيل. كان كيسى يدير وكالة «عبقرية الإمكانيات» بأفكار عتيقة عن دور المخابرات فى السياسة العالمية الحالية. وتجلى هذا بأوضح ما يكون فى رأى ماكسويل فى الطريقة التى أساء بها كيسى قراءة النوايا العربية فى الشرق الأوسط.

واتفقت تلك الآراء تماماً مع آراء أدمونى. وعقب اللقاء استقلا سوياً سيارة أدمونى التى لا تحمل أى علامات إلى مقر الموساد حيث قام ماكسويل بجولة فى بعض منشآت

الموساد رافقه فيها مدير عام الموساد بنفسه.

وبعد عام من اللقاءالأول التقيا مرة أخرى في في الخامس عشر من مارس ١٩٨٥.

وحتى اللحظة التي دلف فيها أدموني وبن منشي إلى الجناح الذي يضم مكتب ماكسويل بمقر مجموعة صحف الميرور في هاى هولبورن بلندن لم يكن مضيفهما قد أفصح عن أن شخصاً آخر سيكون حاضراً بالمكتب ليشاركهما تناول الفطائر اليهودية والسالمون المدخن والقهوة التي أمر ماكسويل بتوفيرها أثناءوجوده بالمبنى.

وكالساحر الذى يخرج الأرنب من القبعة قام ماكسويل بتقديم فيكتور شيبريكوف نائب رئيس المخابرات السوفييتية (كي جي بي) وأحد أقوى أساتذة الجاسوسية في العالم. وفي تصريح بارع اعترف بن منشي لاحقاً «إن وجود قيادى بارز بالمخابرات السوفيتية «كي جي بي» في مكتب ناشر مجموعة صحف بريطانية ربما يبدو فكرة خيالية أو ضرباً من الوهم. لكن في ذلك الوقت كان الرئيس السوفييتي السابق جورباتشوف يرتبط بصداقة قوية للغاية برئيسة الوزراء البريطانية حينذاك مارجريت تاتشر وهكذا فإن وجود شيبريكوف في بريطانا أمر مقبول».

والأمر الأكثر إثارة للجدل هو ما كان محتملاً أن تستنجه مؤسسة التاتشرية بمبادئها المؤيدة لحرية التجارة من جدول أعمال الاجتماع، ومن مكانهما على المقاعد الجلدية الوثيرة المصنوعة يدوياً بإتقان أخذ أدموني وبن منشي بزمام المناقشة. وكانا يريدان معرفة ما إذا كان بالوسع تحويل «كميات ضخمة» من النقد إلى الاتحاد السوفييتي، وهل يمكن أن يضمن شيبريكوف أن تكون في أمان؟ كانت تلك الأموال من أرباح شركة أورا القابضة من بيع الأسلحة الأمريكية إلى إيران. وسأل شيبريكوف عن حجم تلك الأموال.

ورد بن منشي «٤٥٠ مليو دولار أمريكي وسوف يتبع هذا التحويل تحويل آخر برقم مماثل،أى مليار دولار أو يزيد».

وتطلع شيبريكوف إلى ماكسويل كما لو كان يريد التأكد من أن ما يسمعه صحيح. وأومأ ماكسويل بتحمس، وقال بصوت جهورى «هذه هي البيريسترويكا».

وبالنسبة لبن منشي كانت البساطة المتناهية للصفقة عنصر جذب إضافياً. فلن

تكون هناك تلك السلسلة المتشعبة المعقدة من الوسطاء التى تستقطع نصيبها من العمولة. لن يكون هناك سوى «ماكسويل بصلاته القوية وشيبريكوف بما يحوزه من قوة» وكانت مشاركته في الصفقة خير ضمان بأن السوفييت لن يسرقوا تلك الأموال. وتم الاتفاق على تحويل دفعة أولية قدرها ٤٥٠ مليون دولار أمريكى من بنك كريدى سويس إلى بنك بودابسب بالمجر على أن يقوم هذا البنك الأخير بتوزيعها على بنوك أخرى فى الكتلة السوفييتية.

وتم دفع مبلغ محدد قدره ثمانية ملايين دولار لماكسويل مقابل توسطه لإبرام الصفقة. وانتهى اللقاء بالتصافح. واقترح ماكسويل تبادل أنخاب الشمبانيا تحية للرأسمالية المستقبلية لروسيا. وعقب ذلك استقل الضيوف طائرة ماكسويل الهليوكبتر إلى مطار هيثرو حتى يستقلوا الطائرات للعودة إلى وطنهم.

وبخلاف نيكولاس ديفيز لم يعرف أى صحفى آخر فى مبنى الميرور أن قصة بالغة الإثارة قد أفلتت منهم. ولسوف تفلت منهم بعيد ذلك رواية أخرى بسبب خيانة ماكسويل لمهاراتهم وقدراتهم الصحفية فى محاولته لحماية إسرائيل.

وفى بداية علاقته بالموساد اتفق على أن ماكسويل أصبح أثمن من توظيفه فى المسائل الروتينية لجمع المعلومات الاستخبارية، وعلى حد قول عنصر حالي بالخدمة فى المخابرات الإسرائيلية «إن ماكسويل هو مستر فيكزيت رفيع المستوى بالموساد. لقد فتح كل الأبواب المغلقة على أرفع المستويات.» فنفوذ صحفه يعنى استعداد الرؤساءورؤساء الحكومات لاستقباله. ونظراً لمكانته فقد كانوا يتحدثون إليه كما لو كان رجل دولة بالفعل وهم لا يعرفون مطلقاً أين تصب تلك المعلومات فى نهاية الأمر. وربما كان الكثير مما عرفه لا يعدو أكثر من نميمة على الأرجح لكن لا شك أن بعضه كانت له قيمة حقيقية. كان ماكسويل خبيراً فى كيفية توجيه الأسئلة. ولم يتلق تدريباً منا بل كانت تحدد له الخطوط العامة للمجالات التى نريد تقصيها».

وفى الرابع عشر من سبتمبر ١٩٨٦ اتصل روبرت ماكسويل بناحوم أدمونى على الخط المباشر الخاص به حاملاً أخبار خطيرة. فقد اتصل الصحفى الكولومبى المولد أوسكار جو بريرو بصحيفة الصنداى ميرور التابلويد التى تصدرها ذات الصحيفة حاملاً رواية بالغة الإثارة من شأنها أن تكشف ستر الحجاب الذى حيك بحرص وعناية

لإخفاء الغرض الحقيقى لمفاعل ديمونة النووى، وادعى جويريرو أنه يتحدث باسم فنى سابق كان يعمل بالمفاعل النووى. وخلال عمله فى المفاعل دأب هذا الفنى سراً على جمع الأدلة المصورة وغيرها ليظهر أن إسرائيل أصبحت قوة نووية كبرى تمتلك ما لا يقل عن مائة رأس نووية ذات قوة تدميرية هائلة.

ومثل كل المكالمات الواردة والصادرة عن رئيس الموساد فقد سجلت تلك المكالمة تلقائياً. وادعى عنصر المخابرات الإسرائيلية لاحقاً أن المكالمة المسجلة تضمنت الحوار التالى:

أدمونى: ما اسم هذا الفنى.

ماكسويل: فانونو: موردخاى فانونو.

أدمونى: أين هو الآن؟

ماكسويل: فى سيدنى باستراليا على ما أعتقد.

أدمونى: سأعاود الاتصال بك.

وبادر أدمونى على الفور بالاتصال برئيس الوزراء شيمون بيريز الذى أمره باتخاذ كل الخطوات اللازمة «لتأمين الموقف». وجاءت هذه الكلمات بمثابة تفويض من بيريز للموساد بعملية سوف تظهر مجدداً فعالية الموساد.

وسرعان ما أكد العاملون فى الموساد أن فانونو عمل بمفاعل ديمونة فى الفترة من فبراير ١٩٧٧ حتى نوفمبر ١٩٨٦. وعمل فانونو بوحدة ماخون - إثنان وهى واحدة من أكثر وحدات المفاعل الإنتاجية العشر سرية على الإطلاق. والمبنى المصمت الخالى من النوافذ أشبه ما يكون بمستودع. لكن جدرانه سميكة بدرجة تحول دون اختراق حتى كاميرات الأقمار الصناعية لتلك الجدران.

وداخل هذا الهيكل الأشبه بالمخبأ توجد شبكة من الجدران الوهمية التى تفضى إلى مصاعد تهبط لستة مستويات إلى حيث يتم تصنيع الأسلحة النووية.

وكان التصريح الأمنى الذى يحمله فانونو يكفل له الوصول دون اعتراض لكل زاوية من زوايا وحدة ماخون - أثنان. كان تصريحه الأمنى الخاص رقم (٥٢٠) مقروناً

بتوقيعه على وثيقة حماية الأسرار الإسرائيلية الرسمية يضمن ألا يعترضه أحد وهو يباشر مهامه كمراقب فى نوبة العمل الليلية.

وأُبْلِغ أدمونى الذى أصابه الذهول بأنه من شبه المؤكد قيام فانونو على مدار بضعة أشهر سراً إلى حد ما بتصوير تصميمات وحدة ماخون - إثنان ومنها لوحات التحكم وصناديق القفازات ومعدات صناعة القنابل النووية. وتشير الأدلة إلى أنه أخفى تلك الأفلام فى خزانة ملابسه وهربها خارج ما يفترض أنه أكثر الأماكن أماناً فى إسرائيل.

وطلب أدمونى أن يعرف كيف استطاع فانونو أن يفعل كل هذا بل وربما ما هو أكثر من هذا. وهناك افتراض أنه عرض تلك المادة على المخابرات المركزية الأمريكية؟ أو الروس؟ أو البريطانيين بل وحتى الصينيين وإذا حدث هذا فسيكون حجم الضرر لا يعد ولا يحصى. ولسوف تنكشف إسرائيل أمام العالم كبلد كذاب - كذاب يملك القدرة على تدمير جزءلا يستهان به من هذا العالم. وقفزت الأسئلة من هو فانونو؟ ولحساب من يعمل؟

وسرعان ما توالت الإجابات: فانونو يهودى مغربى من مواليد مراكش فى ١٣ أكتوبر ١٩٥٤ لأبوين رقيقى الحال يملكان متجراً فى المدينة. وفى عام ١٩٦٣ وعندما عادت مشاعر معاداة السامية التى لم تكن بعيدة عن السطح فى المغرب يوماً من الأيام لتتفجر فى صورة أعمال عنف صريحة هاجرت أسرة فانونو إلى إسرائيل واستقرت فى بلدة بئر سبع بصحراء النقب.

وعاش موردخاى فانونو حياة هادئة بلا صخب فى طور المراهقة وعندما بلغ سن التجنيد تم تجنيده شأن كل زملائه فى الجيش الإسرائيلى. وبدأ الصلع يزحف على رأسه فى تلك الفترة ليبدو أكبر بكثير من عمره البالغ تسعة عشر عاماً. ووصل إلى رقيب أول فى وحدة لكسح الألغام متمركزة فى مرتفعات الجولان. وعقب انتهاء خدمته العسكرية التحق بجامعة رامات أبيب بتل أبيب لكنه ترك الجامعة لرسوبه مرتين فى نهاية العام الدراسى الأول فى مادة الفيزياء.

وفى صيف عام ١٩٧٦ تقدم للالتحاق كفنى متدرب للعمل فى ديمونة بعد نشر إعلان لطلب متدربين. وعقب مقابلة مطولة مع ضابط الأمن بديمونة تقرر قبوله للتدريب وأرسل لتلقى دورة تدريبية مكثفة فى الفيزياءوالكيمياء والرياضة واللغة

الإنجليزية. وبعد أدائه الجيد التحق أخيراً بديمونة كفني فى فبراير ١٩٧٧.

وأعلن الاستغناء عن فانونو فى نوفمبر ١٩٨٦، وورد فى ملفه الأمنى فى ديمونة أنه أبدى «معتقدات يسارية موالية للعرب». وغادر فانونو إسرائيل إلى استراليا ووصل إلى سيدنى فى مايو عام ١٩٨٧. وفى مكان ما فى رحلته الطويلة التى اتبعت طريقاً معداً بشكل جيد يسلكه الشباب الإسرائيلى عبر الشرق الأقصى تخلى فانونو عن عقيدته اليهودية التى كان يعتنقها بقوة وتحول إلى المسيحية وتجمعت صورة من عشرات المصادر أمام أدمونى لدراستها لشاب هيئته غير جذابة، شاب يبدو أنه تقليدى منطو، فلم يقم صداقة حقيقية فى ديمونة ولم يرتبط بصداقات نسائية. فقد كان يمضى وقته فى منزله عاكفاً على قراءة كتب الفلسفة والسياسة. وأبلغ خبراء الطب النفسى بالموساد رئيسهم أدمونى بأن رجلاً من هذا القبيل يمكن أن يكون مقهوراً يتملكه إحساس مشوه عن القيم وغالباً ما يتملكه الوهم. ومثل هذا النوع من الشخصيات يمكن أن يكون متقلباً بدرجة بالغة الخطورة.

وفى استراليا التقى فانونو مع أوسكار جويرورو الصحفى الكولومبى الذى يعمل فى سيدنى بإحدى الكنائس.

وسرعان ما جمع الصفحى الثرثار خيوط روايته الغريبة التى يمتع بها أصدقاءه فى حى كينجز كروس السيء السمعة فى سيدنى. وزعم أنه ساعد عالماً نووياً إسرائيلياً على الانشقاق حاملاً معه تفاصيل خطط إسرائيل للهجوم بالأسلحة النووية على جيرانها العرب وأن هذا العالم يختفى الآن ـ متقدماً على الموساد بخطوة ـ فى منزل آمن بإحدى ضواحى المدينة فيما دبر جويرورو ما وصفه «بيع خبطة القرن».

وشعر فانونو بالضيق من تلك الإدعاءات الحمقاء. أما وهو الآن داعية سلام ملتزم فإنه يريد أن ينشر روايته فى مطبوعة جادة لينبه العالم إلى التهديد الذى يعتقد أن إسرائيل باتت تمثله بقدرتها النووية. ومع هذا فقد اتصل جويرورو بالفعل بمكتب صحيفة صنداى تايمز فى مدريد وأوفدت الصحيفة اللندنية الشجاعة صحفياً إلى سيدنى لمقابلة فانونو.

وسرعان ما تكشفت روايات فانونو الخيالية لتصبح موضع تساؤل وبدأ الصحفى الكولومبى يشعر أنه على وشك أن يفقد سيطرته على قضية فانونو. وتعززت

شكوكه ومخاوفه عندما قال صحفي الصنداى تايمز أنه سينقل فانونو إلى لندن لإخضاع إدعاءاته لمزيد من التقصى واعتزمت الصحيفة تكليف واحد من أبرز العلماء النوويين في بريطانيا بمناقشة الفتى الإسرائيلي.

وظل جويرورو يراقب فانونو ورفيقه في السفر وهما يستقلان الطائرة في رحلة إلى لندن فيما كانت ظنونه تتعاظم مع مرور الوقت.

وكان في حاجة إلى نصيحة حول كيفية معالجة الموقف وكان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يفكر فيه هو عنصر سابق في جهاز الأمن والمخابرات الاسترالى (إيه. إى. آى. إس)، وأبلغه جويرورو بأنه وقع ضحية عملية خداع في رواية مدوية تهز العالم وأخذ يستعرض بدقة بالغة طبيعية ما قام فانونو بتهريبه من ديمونة وهو ستون صورة فوتوغرافية التقطت داخل وحدة ماخون - إثنان إضافة إلى خرائط ورسومات. وتكشف الصور والرسومات والخرائط بما يقطع أى شك أن إسرائيل هي سادس أقوى دولة نووية في العالم.

ومرة أخرى تخلى الحظ عن جويرورو فقد اختار الشخص الخطأ ليفضى إليه بما في نفسه، إذ بادر العميل السابق في جهاز الأمن والمخابرات الأسترالى بالاتصال بجهازه القديم ليعيد على مسامعهم ما أبلغه به فانونو ولا يخفى أن هناك علاقة عمل وثيقة تربط بين الموساد وجهاز الأمن والمخابرات الأسترالى حيث كان الموساد قد قدم معلومات عن تحركات الإرهابيين العرب لدى خروجهم من الشرق الأوسط باتجاه المحيط الهادى. وقام جهاز الأمن والمخابرات الأسترالي بإبلاغ ضابط الموساد الملحق بالسفارة الإسرائيلية «كاث» في كانبرا بشأن المكالمة التى تلقاها من عنصره السابق. ونقلت المعلومات بالفاكس على الفور إلى أدمونى وفى ذلك الحين تواترت عليه أخبار مربكة. وكان فانونو في رحلته الطويلة المضنية إلى أستراليا قد عرج على نيبال وزار السفارة السوفييتية في كتماندو، فهل توجه إلى نيبال لكى يطلع موسكو على ما بحوزته منه أدلة؟

واستغرق الأمر من مساعد الموساد ومن العاملين في بلاط ملك نيبال ثلاثة أيام ليتأكد من أن هدف فانونو الوحيد من الذهاب إلى السفارة السوفييتية هو الاستفسار عن وثائق السفر المطلوبة ليمضى عطلة في الاتحاد السوفييتي في موعد لاحق لم

يحدده. وعاد ليحمل في حقيبته كومة من الكتيبات.

وفي الساعات التي انقضت منذ نقل الصنداى تايمز لفانونو جواً إلى لندن حاول جويرورو القيام بخبطة قنص بعرضه نسخاً من وثائق فانونو على اثنتين من الصحف الأسترالية. ورفضت الصحيفتان المادة المعروضة عليهما بدعوى أنها زائفة.

ومع تزايد يأسه توجه جويرورو إلى لندن لملاحقة فانونو وبعد أن عجز عن العثور عليه حمل جويرورو الوثائق إلى الصنداى ميرور ومن بينها صورة لفانونو التقطت له في أستراليا. وفي غضون ساعات عرف نيكولاس ديفيز أنهما في لندن. وبادر على الفور بإبلاغ ماكسويل. وبدوره اتصل ماكسويل بأدمونى. وبعد ساعات وعندما عاود أدمونى الاتصال بماكسويل تلقى صدمة جديدة فقد أخذت الصنداى تاميز رواية فانونو مأخذ الجد. وهكذا بات من المهم للغاية معرفة طبيعة ما قام الفنى فانونو بتصويره، وكان المأمول محاصرة الضرر الناجم عن القضية. وأفادت التقارير الواردة من كانبرا أن دافع جويرورو هو الحصول على المال. وإذا أظهر فانونو رغبة مماثلة للحصول على المال حينئذ ربما يكون من اليسير شن حملة دعائية ناجحة بأن الصنداى تايمز تعرضت لخداع محتالين.

ومرة أخرى يُستدعى بن منشى الذى لا يعرف الكلل إلى الخدمة. ويأمره أدمونى بالتوجه إلى لندن للحصول على الصور التى يعرضها جويرورو على الصنداى ميرور. ولاحقاً يقول بن منشى وهو يسترجع خواطره لصحفى التحقيقات المتمرس الشهير سيمور هيرشى:

«رتب نيكولاس ديفيز اللقاءبجمع جويرورو مع هذا الصحفى الأمريكى «اللامع» ومعى، وأثناء اللقاءعرض الصحفى الكولومبى بعضاً من الصور الملونة لوثائق فانونو متلهفاً على صفقة أخرى لبيعها. ولم تكن لدى أدنى فكرة عن مدى أهميتها. وكانت هناك حاجة ليفحصها الخبراء في إسرائيل. وقلت لجويرورو إننى احتاج نسخاً منها لكنه تمنع. فقلت لابد من معرفة ما إذا كانت حقيقية إذا كان يريد المال وسيكون هذا الرجل شاهداً.»

وسلم جويرورو عدة صور لبن منشى، وأرسلت الصور إلى تل أبيب. وآثار وصول تلك الصور إلى إسرائيل مزيداً من الذعر فقد تعرف مسئولو ديمونة على وحدة ماخون

- إثنان من الصورة.

وأظهرت إحدى الصور المنطقة التى تصنع فيها الألغام الأرضية النووية قبل زراعتها فى مرتفعات الجولان، وبهذا لم يعد هناك أى مجال للتشكيك فى مصداقية فانونو، فسوف يتعرف أى عالم نووى على طبيعة المعدات.

وقرر رئيس الوزراء شيمون بيريز تشكيل فريق أزمة لمتابعة الموقف، وطلب بعض مديرى الإدارات فى الموساد بإلحاح إرسال فريق اغتيالات إلى لندن لاصطياد فانونو وقتله. ورفض أدمونى الفكرة، ولم يتسع المجال أمام الصنداى تايمز لنشر كل ما أفضى به فانونو للصحيفة ولسوف يحتاج الأمر كتاباً مطولاً لتضمينه كافة المعلومات التى استطاع الفنى النووى الإسرائيلى أن يضع يده عليها، ولكن وبمجرد أن تنتهى الصحيفة من رواية فانونو فالاحتمال الأرجح أن تتلقفه المخابرات البريطانية (إم. آى. ٦) ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ولسوف تواجه إسرائيل المزيد من المشاكل. ولذا فقد كان من الضرورى معرفة كيف استطاع فانونو القيام بعمله التجسسى فى ديمونة وما إذا كان يعمل بمفرده أو مع آخرين وإذا كان الحال كذلك فلحساب من يعملون؟ والسبيل الوحيد للتأكد من كل هذا هو إعادة فانونو إلى إسرائيل لاستجوابه.

وكان أدمونى فى حاجة إلى طريقة لإخراج فانونو من المكان الذى تخفيه فيه الصنداى تايمز. وفى البداية سيكون من السهل التعامل مع فانونو وفى النهاية وإذا تعين قتله فلن تكون المرة الأولى التى تقتل فيها الموساد أحداً فى شوارع لندن. ففى ملاحقتها لمرتكبى مذبحة الرياضيين الإسرائيليين فى القرية الأوليمبية فى ميونيخ قتلت الموساد أحد أفراد منظمة أيلول الأسود فى حادث طريق أعد له بعناية بالغة لدى عودته إلى فندق بلومز بيرى.

وفى لندن رتبت صحيفة الصنداى تايمز - إدراكاً منها أن إسرائيل ستبذل قصارى جهدها لتكذيب فانونو والتشكيك فى روايته - لمناقشة فانونو أمام الدكتور فرانك بارنابى عالم الفيزياء النووية ذائع الصيت الذى يتمتع بمصداقية لا متناهية وعمل فى منشأة تصنيع الأسلحة النووية البريطانية فى ألدير ماستون. وخلص الدكتور برنابى إلى أن الصور والوثائق حقيقية وأن المعلومات المفصلة التى كشف عنها الفنى فانونو

وهو يسرد ذكرياته دقيقة تماماً.

ومالبثت الصنداى تايمز أن اتخذت خطوة حاسمة ومصيرية وعرض صحفي الصنداى تايمز على السفارة الإسرائيلية فى لندن موجزاً بكل ما كشف عنه فانونو من معلومات، مع صورة لجواز سفره ونسخ من الصور التى جاء بها إضافة إلى تقييم بارنابى. وكان هدف الصحيفة هو انتزاع إعتراف من الحكومة الإسرائيلية، وبدلاً من الاعتراف رفضت السفارة المادة المقدمة «لأنها عارية تماماً عن الصحة».

وفى تل أبيب أثارت الصور الضوئية التى قدمت إلى السفارة الإسرائيلية مزيداً من الرعب. وعلى حد قول بن منشى:

«لقد أُفشي السر، وكنت لا أزال فى لندن عندما قال ديفيز أن ماكسويل يريد أن يرانى. والتقينا فى ذات المكتب الذى وافقت فيه على دفع ثمانية ملايين دولار عمولة لماكسويل لترتيبه إخفاء أموالنا خلف الستار الحديدى. وأوضح ماكسويل أنه يتفهم ما يتعين عمله تجاه رواية فانونو. وقال إنه تحدث إلى رئيسى فى تل أبيب بالفعل.»

ونتيجة لهذا اللقاء توصل أدمونى أخيراً إلى طريقة لاستدراج فانونو إلى العراء.

وصدر العدد التالى من الصنداى ميرور متضمناً صورة بالحجم الكبير إلى جانب رواية تظهر الفنى فانونو والصحفى الكولومبى المولد أوسكار جويرورو بمظهر السخرية وتصف الصحفى الكولومبى المولد بالكاذب المحتال وتدعى بأن القدرة النووية لإسرائيل ما هى إلا خدعة. وأملى ماكسويل التقرير وهو أيضاً الذى أشرف على إبراز صورة فانونو فى الصحيفة. وأطلقت الطلقة الأولى فى معركة دعاية مضادة كبرى وضعتها إدارة الحرب النفسية فى الموساد.

وبعد قراءة الصحيفة بلغ فانونو حالة من الاستثارة لدرجة دفعته لإبلاغ رعاته فى الصنداى تايمز - أى الصحفيين الذين تابعوه منذ حضوره إلى لندن - بأنه «يريد الاختفاء تماماً عن الأنظار، إننى لا أريد أن يعرف أحد مكان وجودى.»

ولزم الفنى الإسرائيلى الذى تملكه الرعب مكانه بآخر فندق اختاره له رعاته وهو فندق مونتباتن قرب شارع شافتزبورى بوسط لندن.

وفى أعقاب ظهور عدد الصنداى ميرور، أعلنت حالة التعبئة بين مساعدى الموساد

فى لندن للعثور على فانونو . وأعطى لكل واحد من المتطوعين اليهود الموثوق بهم قوائم بالفنادق والنزل للبحث عن فانونو . وفى كل زيارة إلى الفندق أو النزل كانوا يعطون وصفاً لفانونو مستقى من الصورة التى نشرتها الصنداى ميرور وادعى كل متحدث أنه قريب له يريد أن يعرف ما إذا كان مسجلاً به أم لا .

ويوم الأربعاء ٢٥ سبتمبر تلقى أدمونى أنباءً بأنه تم تحديد مكان وجود فانونو ، وهكذا حان الوقت لتنفيذ المرحلة التالية لخطته .

إن العلاقة بين العمل المخابراتى والجنس قديمة قدم الجاسوسية نفسها ، ففى كتاب يشوع فى التوراة ورد أن الزانية «راحاب» أنقذت حياة اثنين من جواسيس يشوع من بطش رجال ملك أريحا ـ وهذا أول ارتباط أزلى مسجل بين أقدم مهنتين عرفتهما البشرية . وكانت ماتا هارى إحدى وريثات راحاب فى توظيف الجنس فى التجسس وهى داعرة هولندية عملت لحساب الألمان فى الحرب العالمية الأولى وأعدمها الفرنسيون . ومنذ البداية اعترف الموساد بقيمة الجنس فى العمل المخابراتى : ويلخص مائير أميت الأمر بكلماته : «إنه سلاح آخر ، فالمرأة تمتلك ملكات يفتقر إليها الرجال بكل بساطة ، إنها تعرف كيف تنصت للكلام ، فحديث الوسادة لا يمثل لها أدنى مشكلة ، ويحفل تاريخ المخابرات الحديث بالكثير من قصص النساء اللاتى وظفن الجنس لمصلحة بلدانهن . ومن الحماقة القول بأن إسرائيل لم تلجأ إلى هذا الأسلوب ،لكن نساءنا متطوعات راجحات العقل يعين الأخطار المحدقة بالعملية ويستلزم ذلك نوعاً من الشجاعة ، فالقضية لا تنحصر فى مضاجعة شخص ما ، إنها دفع الرجل إلى الاعتقاد بأن هذا يتم مقابل ما يتعين أن يقوله . ولا يكفى هذا لوصف الملكات الكبيرة التى يتم توظيفها لتحقيق هذا الهدف .»

ووقع اختيار أدمونى على عميلة تمتلك كل المؤهلات اللازمة للإيقاع بموردخاى فانونو فى أيدى الموساد .

كانت شيريل بن توف ، «بات ليفيها» أى عميل نسائى مساعد أدنى درجة من «كاتسا» ، ولدت شيريل لعائلة يهودية ثرية فى أورلاندو بفلوريدا وشهدت انتهاء زواج والديها فى معركة طلاق مريرة . ووجدت السلوى فى الدراسات الدينية مما أدى بها إلى العيش لثلاثة أشهر فى أحد الكيبوتزات فى إسرائيل ، وفى هذا الكيبوتز

استهواها التاريخ اليهودى واللغة العبرية، وقررت البقاء فى إسرائيل، وفى سنّ الثامنة عشرة التقت بشاب إسرائيلى مولود فى إسرائيل «صابرا» يدعى أوفير بن ـ توق ووقعت فى غرامه، وكان يعمل محللاً بالمخابرات العسكرية الإسرائيلية «أمان»، وبعد لقائهما بعام اقترنا بالزواج.

وكان من بين الضيوف المدعوين لحفل الزواج عدد من كبار العاملين فى المخابرات الإسرائيلية من بينهم أحد العاملين فى «الميلوكخا» إدارة التجنيد بالموساد. وأثناء حفل الزواج سأل شيريل الأسئلة المتوقع أن توجه لعروس ليلة زفافها. هل ستستمر فى العمل؟ وهل تعتزم إنجاب أطفال عما قريب أما وقد أسرها الحفل الأسطورى فقد وجدت نفسها تقول إن خطتها الوحيدة هى محاولة رد الجميل بأى طريقة وبأى شيء لبلدها الذى أعطاها الكثير والذى كانت تشير إليه «بعائلتى» وبعد شهر من عودتها من شهر العسل تلقت مكالمة هاتفية من أحد ضيوف حفل زواجها قائلاً لها إنه كان يفكر فيما تحدثا فيه وربما يمكنها تقديم المساعدة بشكل ما.

واتفقا على اللقاء بإحدى كافتيريات وسط تل أبيب وأذهلها حينما حدد لها بكل دقة درجاتها الدراسية وقص عليها قصة عائلتها وكيف التقت بزوجها. وربما ولإحساسه بغضبها لانتهاك خصوصيتها شرع فى التفسير بأن كل ما أدلى به من معلومات محفوظ بملف زوجها فى المخابرات العسكرية الإسرائيلية «أمان».

ويعى مسئول التجنيد تماماً أن العلاقة بينه وبين المجند المحتمل دائماً تكون شائكة مفروشة بالشراك، إنها أشبه بالساحر الذى يقود شخصاً مبتدئاً نحو أغوار طائفة سرية بأغانيها وتعويذاتها وطقوسها إنها علاقة مشحونة بالتعقيد والسحر والغموض كما لو كانت أسطورة «أورفيوس» الإغريقية. وبعد أن كشف طبيعة الجهاز الذى يعمل به لشيريل بادرها بالقول إن الموساد تمد يدها دائماً للراغبين فى خدمة بلدهم. وفى حفل زواجها قالت شيريل إن إسرائيل هى عائلتها، حسناً إن الموساد هى تلك العائلة. وبمجرد قبولك ستصبحين فرداً من هذه العائلة تحظين بالحماية والرعاية. وبالمقابل ستخدمين عائلتك بأى طريقة تطلب منك! فهل بدا عليها الاهتمام؟

نعم فقد أبدت شيريل الاهتمام وقيل لها إنه سيتعين المرور عليها باختبارات أولية. وفى الأشهر الثلاثة التالية تلقت عدداً من الاختبارات التحريرية والشفوية فى مختلف

البيوت الآمنة في تل أبيب. ونتيجة ارتفاع مستوى ذكائها حيث كانت تسجل دائماً (١٤٠) درجة في اختبارات الذكاء إضافة إلى خلفيتها الأمريكية ومعارفها العامة ومؤهلاتها وقدراتها الاجتماعية فقد أصبحت مجنداً فوق المتوسط.

وأُبْلِغَت أنها صالحة للتدريب، وقبل إبلاغها بالنتيجة كان لها لقاء آخر مع المسئول عن تجنيدها. وأوضح لها أنها على وشك دخول عالم لا يمكن أن تكشف عما يدور به لأى كائن حتى لو كان زوجها، وفي مثل هذا المكان الموحش سوف تشعر بأنها عرضة للوقوع في أحابيل الإغواء الفاسد بالثقة في الناس. لكن عليها ألا تثق في أحد سوى زملائها. ولسوف يتم تدريبها على الخداع وتتعلم استخدام كل الأساليب التي تتعارض مع الأدب والشرف، وعليها بقبول الطرق الجديدة للقيام بهذا، وستجد أن بعض الأعمال المطلوب منها أداؤها غير مريحة على الإطلاق لكن يجب عليها دائماً أن تضعها في إطار المهمة المكلفة بها.

ومال مسئول التجنيد علي الطاولة الموجودة في الغرفة التي تمت فيها المقابلة قائلاً لها: لا تزال هناك مهلة من الوقت للتفكير وتغيير رأيها إن شاءت وعليها أن تضع في اعتبارها أنها لن تتعرض لاتهامات أو مهاترات ويجب ألا يتملكها أى إحساس بالعجز أو الفشل من جانبها.

وقالت شيريل إنها على أتم استعداد للقيام بالتدريب.

وفي غضون العامين التاليين وجدت شيريل نفسها في عالم كان حتى ذلك الحين مجرد عالم خيالي ينتمي إلى متعتها المفضلة «السينما». وتعلمت كيف تسحب المسدس وهي جالسة على المقعد وأن تحفظ عن ظهر قلب أكبر عدد من الأسماء أثناء ظهورها على شاشة صغيرة بسرعة متناهية. وتدربت أيضاً على كيفية ربط وإخفاء مسدسها في سراويلها على فخذها وكذلك على فتح فتحة خفية في جونلتها أو ثوبها لسهولة الوصول إلى السلاح.

وبين الحين والآخر كان مجندون آخرون في فصلها يغادرون مدرسة التدريب ولم تكن تلك المغادرة محل نقاش على الإطلاق. وتلقت شيريل مهام تدريبية على عمليات مثل اقتحام غرفة مشغولة في فندق وسرقة وثائق من أى مكتب. وعكف مدربوها على تحليل أساليبها لساعات. وكم أُوقظت من نومها في جنح الليل وأرسلت

لتلقى المزيد من التدريبات : كالإيقاع بسائح فى ملهى ليلى ثم الانسحاب بسلاسة أمام فندقه . وكان مدربوها يراقبون كل تحرك وهنة تصدر عنها .

وسئلت أسئلة دقيقة عن تجاربها الجنسية . وكم عدد الرجال الذين مارست الجنس معهم قبل زواجها ! وهل تقبل ممارسة الجنس مع غريب إذا تطلبت مهمتها ذلك ؟وأجابت بكل ثقة : لم أمارس الجنس مع أحد قبل الزواج : وإذا كانت على يقين تام بأن نجاح مهمتها يعتمد على الجنس فلن تتردد فى ممارسته مع رجل غريب . فلسوف يكون مجرد جنس دون حب . وتعلمت كيف تستخدم الجنس في إجبار وإغواء وسيطرة على الهدف . وحققت نجاحاً مبهراً منقطع النظير في ذلك .

وتعلمت شيريل أيضاً كيف تقتل بإطلاق مشط كامل من الذخيرة بسرعة بالغة على الهدف . وتعلمت الكثير عن مختلف المذاهب والطوائف الإسلامية وتدريب أيضاً على صنع «ميشلاشيم» أى صندوق الرسائل الميتة(*)،وأمضت يوماً كاملاً فى صنع شريحة ميكروفيلم تلصق بداخل المظروف وخصص يوم آخر لتتدرب على التنكر باستخدام مواد حشو قطنية على وجنتيها لتغيير شكل وجهها بدقة بالغة . وتعلمت أيضاً سرقة السيارات والظهور بمظهر المخمورة والتحدث مع الرجال .

وذات يوم استدعيت شيريل بن توف إلى مكتب مدير مدرسة التدريب وتفحصها من أعلى إلى أسفل كما لو كان يقوم بعملية تفتيش، مركزاً على كل بند فى قائمة محفورة بعقله، وأخيراً أخبرها بأنها اجتازت التدريب .

وعينت شيريل بن ـ توف «بات ليفيها» للعمل فى إدارة كايسروت بالموساد المرتبطة بالسفارات الإسرائيلية فى الخارج، وكان دورها المحدد هو توفير ستار كصديقة بل وحتى «زوجة» لضباط الموساد «الكاتسا» الموجودين بالخدمة . وعملت فى عدد من المدن الأوربية مقدمة نفسها على أنها مواطنة أمريكية . ولم تمارس الجنس مع أى من «محبيها» أو «أزوجها».

وقام أدمونى بنفسه بإطلاع شيريل على أهمية المهمة المنوطة بها، فبعد أن تم تحديد

(*) مكان امن للعميل لتلقى أو وضع المعلومات .(الترجمة) .

مكان فانونو فسيتعين عليها استغلال مواهبها لاستدارجه إلى خارج بريطانيا وستختفي هذه المرة كسائحة أمريكية تتجول في أوربا بمفردها بعد طلاق مؤلم. ولإضفاء مصداقية على هذا الجانب من روايتها فعليها الاستعانة بتفاصيل من قصة طلاق والديها.

والشق الأخير من روايتها هو أن لها «شقيقة» تقيم في روما ومهمتها استدراجه إلى هناك.

ويوم الثلاثاء ٢٣ سبتمبر ١٩٨٦ انضمت شيريل بن توف إلى فريق من تسعة ضباط في الموساد يتواجدون بالفعل في لندن. كان يتولى قيادة الفريق بني زئيفي مدير العمليات بالموساد وهو رجل صارم تصطبغ أسنانه بالسواد لشراهته في التدخين.

وكان ضباط الموساد ينزلون في فنادق تقع ما بين شارع أوكسفورد وستراند ونزل إثنان في فندق ريجنث بلاس ونزلت شيريل بن توف تحت اسم مستعار هو سنيدى جونسوف في ستراند بلاس بالغرفة رقم (٤٢٠)، واستأجر زئيفي غرفة بفندق مونتباتن قرب غرفة فانونو رقم (١٠٥).

وربما كان من بين أول من لاحظوا التغيرات النفسية التي طرأت فانونو. كانت مؤشرات التوتر تظهر على فانونو بشكل متزايد، فلندن بيئة غريبة على هذا الشاب الذى اعتاد العيش في مدينة صغيرة مثل بئر سبع. ورغم الجهود التي يبذلها رفاقه للترويح عنه إلا أنه كان وحيداً محتاجاً لرفقة امرأة تروى عطشه الجنسي، وأكد خبراء الموساد النفسيون هذا الاحتمال.

وفي الأربعاء ٢٤ سبتمبر ألح فانونو على رعاته من الصنداى تايمز بضرورة السماح له بالخروج بمفرده. ووافقوا على مضض. ومع هذا تتبعه صحفي من الصحيفة مباشرة إلى ميدان ليشيستر. وهناك شاهد فانونو يتحدث مع امرأة وصفتها الصحيفة لاحقاً بأنها «في منتصف العشرينيات وطول قامتها خمسة أقدام وثماني بوصات ممتلئة الجسم ذات شعر قصير أشقر وشفاه غليظة ترتدى قبعة رجالية بنية اللون وبدلة تويد بنية اللون وحذاء بكعب عالٍ وربما تكون يهودية.»

وافترقا بعد فترة، ولدى عودته إلى الفندق أكد فانونو لرعاته من الصنداى تايمز أنه

التقى «بفتاة أمريكية تدعى سيندى» وقال إنه يعتزم لقاءها مرة أخرى، وشعر الصحفيون بالقلق، وبادر أحدهم بالقول إن ظهور سيندى في ميدان ليشستير ربما لا يكون من قبيل المصادفة. ورفض فانونو شكوكهم وقلقهم. وأيا كان ما قالته سيندى فقد كان كافياً لتحريك رغبته في العزم على قضاء مزيد من الوقت معها ليس في لندن بل في شقة «شقيقتها» في روما.

واستقل بنى زئيفي وأربعة ضباط آخرون الطائرة التي استقلتها شيريل وفانون إلى روما. واستقلت شيريل وفانونو سيارة تاكسى إلى شقة بالحى القديم في المدينة.

وكان بانتظارهما داخل الشقة ثلاثة من ضباط الموساد وسرعان ما تغلبوا على فانونو وحقنوه بعقار يصيب بالشلل، وفي ساعة متأخرة من الليل وصلت سيارة إسعاف وحمل فانونو على نقالة لخارج المبنى، وأبلغ ضباط الموساد الذين أظهروا علامات القلق أن أحد أقاربهم مريض. وقفزت شيريل إلى سيارة الإسعاف التى سارعت بالانطلاق.

وانطلقت السيارة إلى خارج روما صوب الساحل. وفي نقطة تم الاتفاق عليها كان ينتظر قارب سريع نقل فانونو إليه، والتقى الزورق السريع بسفينة شحن كانت راسية قبالة الساحل، ونقل فانونو إلى السفينة ورافقه بنى زئيفي وشيريل وبعد ثلاثة أيام وفي منتصف الليل رست السفينة في ميناء حيفا.

وسرعان ما وجد موردخاى فانونو نفسه وجهاً لوجه أمام محققى أدمونى البارعين. وكان التحقيق مقدمة لمحاكمة عاجلة أصدرت حكماً بسجن فانونو انفرادياً مدى الحياة. أما شيريل بن نوف فقد توارت عن الأنظار وانسلت عائدة إلى عالمها السرى.

ولأكثر من أحد عشر عاماً ظل موردخاى فانونو رهين الحبس الانفرادى فى زنزانة حيث تعتزم إسرائيل الإبقاء عليه حتى القرن القادم. وظروف معيشته في السجن بالغة القتامة. فالغذاء محدود وتدريب لمدة ساعة في اليوم ويمضى وقته في الصلاة والقراءة. ثم مالبثت حكومة إسرائيل أن وافقت في مارس ١٩٨٨ تحت ضغوط دولية على إمكانية تخفيف القيود المفروضة على فانونو في سجنه. ومع هذا ظل فانونو على قائمة سجناء الرأى بمنظمة العفو الدولية ودأبت صحيفة الصنداى تايمز بانتظام على تذكير قرائها بمحنة فانونو. ولم يحصل فانونو على أى أموال مقابل الانفراد العالمى

الذى حصلت عليه الصنداى تايمز، وفى عام ١٩٩٨ خرج أخيراً من حبسه الانفرادى لكن ورغم تجدد مناشدات محاميه فالاحتمال ضعيف في إطلاق سراحه من السجن.

وبعد عشرة أعوام عادت أكثر امتلاء بشعرها التى كانت تعتنى به بمختلف التسريحات والذى يتمايل مع نسمات بحر فلوريدا، إلى أورلاندو متظاهرة بقضاء عطلة في والت ديزنى مع ابنتيها.

وفى مواجهة مع صحفى فى الصنداى تايمز فى أبريل ١٩٩٧ لم تنف دورها فى اختطاف فانونو. لكن قلقها الوحيد هو أن افتضاح الأمر كان «سيضر بوضعها» فى الولايات المتحدة.

ولم يكن آريه بن منشى بأفضل حالاً. لقد شهد مجيء وذهاب كثير من الرجال ضحايا التلاعب المستمر داخل المخابرات الإسرائيلية لكن لم يدر بخلده أن ساعته ستحين يوماً ما وستدور عليه الدوائر.

ففى عام ١٩٨٩ اعتقل بن منشى بالتواطؤ «مع آخرين» بتهمة انتهاك قانون الرقابة على صادرات الأسلحة بمحاولة بيع طائرات النقل الحربى طراز سى ١٣٠ إلى إيران. وكانت الطائرات قد بيعت أصلاً إلى إسرائيل.

وأثناء جلسات الاستماع الأولية فى المحكمة أنكرت إسرائيل «معرفتها» بين منشى، وقدم الرجل ملفاً بشهادات من رؤسائه فى المخابرات الإسرائيلية، لكن الحكومة الإسرائيلية قالت إنها مزورة. وأقنع بن منشى المحكمة بأنها غير مزورة لكن الحكومة الإسرائيلية ما لبثت أن أعلنت أن بن منشى ما هو إلا «مترجم صغير» يعمل «فى» المخابرات الإسرائيلية. ورد بن منشى بأن جوهر الاتهام المثار ضده - أى بيع الطائرات لإيران - قد صدر به تفويض من الحكومتين الإسرائيلية والأمريكية وأفاض فى الحديث عن «مبيعات أسلحة بمئات الملايين من الدولارات صدر تفويض ببيعها إلى إيران».

ومرة أخرى عاد الذعر ليخيم على تل أبيب. وجرى التحقيق مع رافى إيتان وديفيد كيمحى عن حجم ما يعرفه بن منشى من معلومات وما يمكن أن يسببه من أضرار. وكانت الإجابات غير مطمئنة. وقال إيتان إن بن منشى فى وضع يمكنه من فضح الشبكة الأمريكية الإسرائيلية لبيع الأسلحة لإيران والتى تتشعب فى كل مكان، من

الأمريكتين الوسطي والجنوبية مروراً بلندن عروجاً على أستراليا اجتيازاً لأفريقيا وصولاً لعمق أوربا.

وانتظاراً لمحاكمته في نيويورك تلقى زيارة من محامي الحكومة الإسرائيلية الذين عرضوا عليه صفقة: أن يعترف بأنه مذنب مقابل تعويض مالي سخي يكفل له حياة مرفهة بعد خروجه من السجن. وقرر بن منشي البوح بتفاصيل ما جرى، وقد بدأ فعلاً في ذلك عندما برأته في نوفمبر ١٩٩٠ هيئة تحكيم فيدرالية من كافة التهم المنسوبة إليه.

وشعر عدد من زملائه السابقين في المخابرات الإسرائيلية أن بن منشي كان محظوظاً لإفلاته وادعوا أنه في محاولته للحصول على حريته استخدم ما أسماه أحد ضباط الموساد بأسلوب «البندقية الرش» بمهاجمة كل من يهدد حريته. وردد ديفيد كيمحى صدى أمل طالما راود الكثيرين بشدة عندما قال متذكراً فيما بعد «كنا جميعاً نريدأن نراه وقد اختفى من أمام ناظرينا، لقد شرع في الإضرار بنا وببلده وبأمنها. لقد كان الرجل ولا يزال شخصاً مزعجاً خطيراً.

ولم تعول إسرائيل على الثأر الذى أخذ به بن منشي وألف بن منشي كتاباً بعنوان «أرباح الحرب» كان يأمل في أنه سيكون له نفس الأثر الذى حققه كتاب «وود وارد وبيرنشتاين» بكشفهما لفضيحة ووترجيت التى أطاحت بالرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون، كانت النية التي أفصح عنها بن منشي واضحة في كلماته «تصحيح الأخطاء الفادحة التى ارتكبت في الثمانينيات والمساعدة في إزاحة المسئولين عنها عن السلطة».

وفي تل أبيب عقدت اجتماعات عاجلة. ونوقشت مسألة شراء المخطوط وإغلاق الملف إلى الأبد وأشير إلى أن بن منشي رفض بالفعل مبلغاً كبيراً من المال - يقال إنه مليون دولار - لالتزام الصمت ومن غير المرجح أن يكون قد غير رأيه. واتخذ القرار بضرورة التنبيه واستنفار كل مساعد يهودى للموساد في مجال النشر في نيويورك لاستخدام كل الوسائل الممكنة لمنع الكتاب من الظهور، ويثور خلاف حول النجاح التى تحقق رغم أن المخطوط سلم لعدد من كبريات دول النشر قبل أن تنشره دار نشر "Sheridan Square Press" وهى دار نشر صغيرة فى نيويورك، ويصف بن منشي كتابه بالقول:

«إنه قصة الحكم عن طريق المؤامرات ـ كيف تقرر حفنة من البشر في عدد قليل من أجهزة المخابرات سياسات حكومات دولهم ويديرون سراً عمليات هائلة دونما مساءلة عامة ويستغلون السلطة ويخونون الثقة العامة ويكذبون ويتلاعبون بوسائل الإعلام ويخدعون الرأى العام. وأخيراً وليس آخراً، إنها قصة حرب، حرب لا يديرها جنرالات بل رجال مستريحون فى مكاتب مكيفة الهواء لا يعبأون بمعاناة البشر».

واعتبر الكثيرون أن الكتاب تصرف غاضب من صاحبه للتكفير عن ذنبه بينما اعتبره آخرون رواية مبالغة للأحداث ومحورها بن منشى.

وفي لندن ـ وكما فعل فى كثير من المرات من قبل ـ تستر ماكسويل وراء القانون متوعداً بملاحقة قضائية لكل من تسول له نفسه أو يتجرأ على تكرار ترديد المزاعم التى آثارها بن منشى عنه. ولم يكن هناك ناشر إنجليزى مستعد لتحدى الإمبراطور، ولم تكن هناك صحيفة مستعدة لاستخدام مهارتها فى التحقيق لإثبات صحة ادعاءات بن منشى.

وكان ماكسويل مثل بن منشى يعتقد أنه حصن منيع لسبب بسيط هو أنه أصبح لصاً من أجل الموساد. وكلما سرق الكثير من أجلها ازداد اقتناعه بأنه لا غنى عنه للخدمة.

ومرة أخرى وكما قال بن منشى ذات مرة كان يحلو لماكسويل القول عن زياراته لإسرائيل أنه يعرف الكثير عن المكان الذى دفنت فيه الجثث. وكان ادعاءً لم يمر دون أن يلحظه الموساد.

وبعد ثلاثة أعوام أوشك هاميلتون على ابتكار أداة

الاستطلاع المرتقبة؛ أى برنامج يمكنه اقتفاء أثر تحركات أعداد لا تحصى - بالمعنى الحرفى للكلمة - من الأشخاص فى أى جزءمن العالم، وأصبح تحذير الرئيس ريجان للإرهابيين بأنه «بوسعكم الفرار لكن لا يمكنكم الاختفاء» على وشك التحول إلى حقيقة.



علاقة مُميتة

دأب روبرت ماسكويل ـ الذى فصل صحفياً خدعه فى مصروفاته ـ سراً على سرقة أموال صندوق التأمين ومعاشات العاملين فى مجموعة صحف الميرور(*) لمساعدة الموساد وعكست تلك السرقات المهولة مدى دهاء الموساد التى لا تعرف الرحمة واستعدادها المتزايد للإقدام على مغامرات بالغة الخطورة.

وقام ماكسويل بشخصه بتحويل الأموال عبر سلسلة من المناورات المالية التى أرهقت بعد سنوات محققى قضايا الاحتيال لبراعته الخارقة فى الازدواجية. وأعطى ماكسويل عمليات الاحتيال واسعة النطاق أبعاداً جديدة تماماً بقيامه بتحويل مئات الآلاف من الدولارات فى صفقات منفردة فى كل مرة إلى حساب خاص تحتفظ به الموساد فى بنك إسرائيل فى تل أبيب. وأحياناً تم غسل تلك الأموال من خلال حساب السفارة الإسرائيلية فى لندن ببنك باركليز. ومن البنوك الأخرى التى استغلها ماكسويل ـ دون أن تدرى ـ فى عمليات الاحتيال بنك كريدى سويس فى جنيف وهو

(*) ذكر الصحفى البريطانى جون بيلجر فى كتابه "Hidden Agandas" إنها بلغت (٢٦) مليون جنيه إسترلينى (الترجمة).

نفس البنك الذى استخدمه بن منشى فى تحويل مبلغ (٤٥٠) مليون دولار من أرباح شركة أورا القابضة بتستر من ماكسويل . وأحياناً كانت الأموال المسروقة من أموال التأمين والمعاشات تطوف حول العالم لتجد طريقها إلى كيريكال بنك فى نيويورك وفيرست ناشيونال بنك فى أستراليا وبنوك فى هونج كونج وطوكيو . كان ماكسويل وحده هو الذى يعرف أن الأموال مسروقة وهو أيضاً الذى يعرف النقطة التى وصلتها فى رحلتها فى أى وقت من الأوقات . لكن مازاد الطين بلة هو إصداره أوامر متكررة لصحفه بمهاجمة «جرائم الموظفين».

وكان فيكتور أوستروفسكى الإسرائيلي الكندى المولد - الذى عمل ضابطا بالموساد من عام ١٩٨٤ حتى ١٩٨٦ - أول من كشف ما يحدث :

«كانت الموساد تمول الكثير من عملياتها فى أوربا من الأموال التى سرقها ماكسويل من صندوق التأمين والمعاشات بمجموعة صحف الميرور . وقد وضعت الموساد يدها عن تلك الأموال تقريباً بمجرد شراء ماكسويل لمجموعة صحف الميرور بالأموال التى أقرضتها له الموساد ، والنصائح الثمينة التى تلقاها من الخبراء الماليين فى الموساد .

والأدهى من ذلك - ناهيك عن السرقة - هو أن أى شخص يعمل فى مجموعته

الصحفية يتوجه إلى أى مكان فى الشرق الأوسط كان يصبح تلقائياً موضع شبهة بالعمل لحساب إسرائيل بل إن شائعة واحدة كانت كفيلة بتوصيله إلى حبل المشنقة.»

وفى زيارته لإسرائيل كان ماكسويل يعامل معاملة رجال الدولة فقد كان ضيفاً دائماً على كل المآدب الحكومية ووفرت له أرقى أماكن الإقامة لكن الموساد كانت قد اتخذت بالفعل احتياطاتها بالاستعداد تحسباً لأن «تحجب اليد التى تطعمها» كما يقول المثل سخاءها فجأة. أما وقد اكتشف ولع ماكسويل الشديد بالجنس وأنه يفضل الجنس الفمى نظراً لضخامة حجمه فقد رتبت الموساد لأن تشمله بالخدمة أثناء زيارته لإسرائيل إحدى البغايا اللاتى يحتفظ بهن لأغراض الابتزاز. وسرعان ما أصبح بحوزة الموساد مكتبة صغيرة من أفلام الفيديو للإمبراطور فى أوضاع جنسية فاضحة، فقد زرعت كاميرا خفية فى الجناح الذى ينزل به فى الفندق.

وضمن أوستروفسكى رواياته فى كتابين لا يزالان يثيران سخط المخابرات الإسرائيلية بكاملها؛ ففى كتابيه «بطريق الخداع» و«الجانب الآخر للخداع» عرى حجب السرية عن الفترة التى أمضاها فى خدمة الموساد، ووصف أوستروفسكى الأساليب العملياتية للموساد وحدد أسماء العديد من الضباط الموجودين بالخدمة بل وربما يكون قد فضح بعضهم بذات الطريقة التقليدية التي يلجأ إليها من يعتقد أنه مغبون لمعاملته معاملة ظالمة عندما طرد من الخدمة فى الموساد.

ومن دواعى السخرية أن الحكومة الإسرائيلية تجاهلت نصيحة ماكسويل بعدم وضع أى اعتبار لادعاءات أوستروفسكى. ففى اجتماعه مع إسحاق شامير استعرض الإمبراطور ما حدث عندما حاولت حكومة تاتشر عرقلة نشر كتاب بيتر رايت الضابط السابق بالمخابرات البريطانية إم آى 5 «صائد الجواسيس» الذى احتوى على تفاصيل محيرة مماثلة عن المخابرات البريطانية. وفى حملتها لوقف نشر الكتاب وجدت الحكومة البريطانية نفسها وقد جُرْجِرتْ إلى محاكم أستراليا حيث يوجد الناشر الأساسى لكتاب رايت وسرعان ما تحول صائد الجواسيس إلى أكثر الكتب رواجاً فى العالم وظهرت الحكومة البريطانية بمظهر الأحمق.

ولقيت الحكومة الإسرائيلية نفس المصير، وتحت ضغط من أعضاء الموساد السابقين والموجودين فى الخدمة وخاصة مائير أميت وإسار هاريل بمطالبتهما القوية بضرورة

اتخاذ إجراء ضد أوستروفسكي، وهكذا أمر شامير المدعى العام الإسرائيلي باتخاذ الإجراءات القانونية الكفيلة بوقف أول كتاب لضابط الموساد السابق.

وأدت القضية أيضاً إلى تأجيج مشاعر شامير المناهضة بقوة للولايات المتحدة التي ترجع جذورها إلى اعتقاده «الراسخ» بأن الولايات المتحدة مسئولة جزئياً عن الهولوكوست. وثمت ادعاءات بأنه كان يعتقد أنه كان من المفروض على الرئيس روزفلت أن يتوصل «لترتيب» - إحدى كلمات شامير الأثيرة - مع هتلر لإحلال الرايخ الثالث محل بريطانيا القوة المهيمنة على الشرق الأوسط حينذاك وفي المقابل كان هتلر سيسمح بهجرة اليهود إلى فلسطين وما كانت الهولوكوست قد حدثت أبداً.

وبقدر سخافة الفكرة إلا أنها صبغت آراء شامير عن الولايات المتحدة لدرجة تقترب من الكراهية. فقد أمر شخصياً «أو كبادرة على حسن النية» - تعبير أثير آخر لدى شامير - بنقل جزء مما يقدر بنحو خمسة آلاف صفحة من الوثائق التي سرقها جوناثان بولارد من الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفييتي، وكان شامير يأمل أن يؤدي هذا التصرف إلى تحسين علاقة إسرائيل بموسكو. واشتملت تلك الوثائق على معلومات المخابرات الأمريكية في ذلك الحين عن الدفاعات الجوية السوفييتية والعرض السنوي للمخابرات المركزية الأمريكية حول مجمل القدرة السوفييتية على شن حرب «وتضمنت إحدى الوثائق صوراً بالأقمار الصناعية واتصالات تم اعتراضها ومعلومات عن شبكات الرادار.» وتقارير من عملاء المخابرات المركزية الأمريكية داخل الاتحاد السوفييتي. وعندما أبلغ ناحوم أدموني شامير بأنه من شبه المؤكد أن البيانات ستمكن أجهزة مكافحة التجسس السوفييتية من اكتشاف الجواسيس، لم يكترث بأقواله حسبما تردد.

وفي اجتماعهما لبحث ما يتعين عمله تجاه أوستروفسكي أعاد شامير على ماكسويل ما قاله للآخرين: إنه سيفعل أي شيء لتقليص النفوذ الأمريكي في العالم وأنه مقتنع بأن واشنطن شجعت أوستروفسكي على نشر الكتاب للانتقام من إسرائيل.

وطلب شامير من ماكسويل حشد طاقات مصادره الإعلامية القوية لتدمير مصداقية أوستروفسكي وأشار ماكسويل انه لابد وأن الموساد وبكل تأكيد قد فحصت

وراجعت كل ما يتعلق به قبل تشغيله.

وبرغم هذا أصبح أوستروفسكي هدفاً لحملة شعواء في صحف ووسائل إعلام ماكسويل بما في ذلك صحيفة معاريف الإسرائيلية التي تصدر في تل أبيب التي اشتراها ماكسويل. وهوجم ونعت بأوصاف كالخيامي الأحمق غريب الأطوار والكاذب وأنه على نقيض ماكسويل ليس صديقاً حقيقياً لإسرائيل.

أما وقد درسوا كتاب أستروفسكي بعناية فإن كبار رجال المخابرات الإسرائيلية كانوا يعرفون أن الكثير من ادعاءات أوستروفسكي حقيقية تماماً.

ورفضت محكمة نيويورك قبول دفع الحكومة الإسرائيلية بأن محتويات الكتاب تعرض أمن إسرائيل للخطر. وأصبح كتاب أوستروفسكي أكثر الكتب رواجاً.

ورغم أنه أول شخص يعرى علانية صلات روبرت ماكسويل بالموساد إلا أن أوستروفسكي لم يكشف القصة كاملة. بالإضافة إلى أشياء تتشابك جذورها بقوة في نشاط صديق شامير القديم الصدوق رافي إيتان.

وتعود معرفة الرجلين لبعضهما إلى الخمسينيات عندما خدما في الموساد وجمعهما تصميم أكيد على القتال حتى تجد إسرائيل مكاناً لها في العالم.

وبعد ثلاثين عاماً وفي عام ١٩٨٦ كان شامير هو الذى وقف بجوار رافي إيتان في مواجهة النقد الساحق الذى تعرض له في أعقاب قضية جوناثان بولارد والتنديد به باعتباره قائداً «لمجموعة من ضباط المخابرات المتمردين الذين يتصرفون من دون تفويض.»

كانت الكذبة محاولة يائسة من الحكومة الإسرائيلية لتنأى بنفسها عن حدث استفادت منه المخابرات أيما استفادة كمخابرات الاتحاد السوفييتي ومخابرات جنوب أفريقيا. فقد حصلت الدولتان وبتستر كامل من إسرائيل عن معلومات قيمة عن النشاط التجسسي للولايات المتحدة.

وبرغم هذا ومع تزامن كشف دوره في قضية فضيحة بيع الأسلحة لإيران فقد أصيب رافي إيتان مهنياً في الصميم.

وعلى الرغم من جرحه العميق وغضبه العارم من الطريقة التي اختاره بها زملاؤه

لتحميله المسئولية إلا أن أستاذ الجاسوسية القديم التزم الصمت المطبق فى العلن وبالنسبة للأصدقاء الذين يثق فيهم والذين كانوا يجالسونه فى غرفة المعيشة ويصغون بانبهار لروايته عن الإيقاع بأودلف إيخمان كانت لديه قصة جديدة ليرويها لهم هى: كيف انقلبت إسرائيل على نفسها؟

وبشكل متزايد لم يكن يطرق باب رافى إيتان فى شارع ستريت بتل أبيب أو يشاركه الإعجاب بأحدث أعماله الفنية المصنوعة من المعادن الخردة سوى أقل القليل. وكم أمضى الساعات وحيداً أمام فرنه رافعاً مسدس اللحام الملتهب. ولم يعد ذهنه مشغولاً فقط بالغضب من الطريقة التى عومل بها بل بخطط إيجاد طريقة ليس فقط «للعودة إلى اللعبة». بل أيضاً كسب قدر «لا بأس به من المال» كان قراره باستمرار خدمة بلده - رغم الخزى الذى لطخه - ينطوى على بساطة متناهية «إن الوطنية ليست كلمة تساير الموضة الرائجة بأية حال، إننى وطنى، إننى أومن ببلدى كل الإيمان، وسواءأكان خطأ أم صواباً فسوف أقاتل كل من يهددها أو يهدد شعبها.»

كان هذا هو المعين الذى استقى منه خطته التى رتبها سراً فى ذروة تورطه فى قضية إيران جيت. ومثل الكثير من خطوط رافى ايتان اقتضت تلك الخطة منه توظيف مواهبه الفذة لاستغلال فكرته الأصلية عن شخص آخر. إنها خطة ستضمن تذكره فى نهاية الأمر ليس فقط بوصفه الرجل الذى أوقع بأودلف إيخمان فى الأسر بل أيضاً بوصفه الرجل الذى أصبح صديقاً وثيقاً لروبرت ماكسويل.

فى عام ١٩٦٧ عاد خبير الاتصالات ويليام هاميلتون إلى الولايات المتحدة من فيتنام حيث زرع شبكة من مواقع التنصت الأليكترونية لمراقبة تحركات الفايتكونج فى الأحراش. وعرضت على هاميلتون وظيفة فى وكالة الأمن القومى الأمريكية. كانت مهمته الأولى هى وضع قاموس بالفيتنامية / الإنجليزية بالكومبيوتر أثبت أنه أقوى مساعدة لترجمة وفهم رسائل الفايتكونج واستجواب السجناء.

كانت حقبة تُغير فيها ثورة تكنولوچيا الاتصالات الإلكترونية بالأقمار الصناعية والدوائر متناهية الصغر وجه جمع المعلومات؛ حيث الوسائل متاحة لنقل المادة بطرق أكثر أماناً كما أن الصور الأكثر نقاء ووضوحاً تنقل عن طريق شبكات بسرعة متزايدة.

كما أن أجهزة الكمبيوتر تزداد صغراً وسرعة، وأصبح بوسع أجهزة الاستشعار الأكثر تطوراً عزل آلاف المحادثات، كما أن التحليل الطيفي للصور يحدد النقاط المطلوبة المهمة من بين ملايين النقط وأتاحت الرقائق سماع دبة النملة من على بعد مئات الأمتار ناهيك عن الرؤية الليلية بالأجهزة البصرية التى تعمل بالأشعة تحت الحمراء.

وساهمت الألياف الضوئية والبصرية من الجيل الجديد فى عمليات المخابرات؛ فقد أتاح جمع وربط البيانات على نطاق يفوق قدرة البشر أداة قوية فى البحث عن طرق وأساليب العمل فى العمليات الإرهابية. وبدأ العمل فى جهاز تحليل ومطابقة أوصاف الوجه أو استبعادها (Faces) والذى يعمل بالكمبيوتر وكانت النتيجة أنه أحدث ثورة فى طرق تحديدهوية الأشخاص من الصور. ويمكن النظام (Faces) استناداً إلى (٤٩) صفة مميزة كل منها مصنفة على مقياس من واحد إلى أربعة ، اتخاذ (١٥) مليون قرار مزدوج بنعم / لا فى الثانية الواحدة، وتقوم أجهزة الكمبيوتر المتصلة ببعضها ببحث متزامن لتتوصل فى نهاية الأمر إلى (٤٠) مليون قرار مزدوج فى الثانية بشكل مذهل، وبدأ حجم أجهزة الكمبيوتر نفسها يصغر لكنها تحتفظ بذاكرة تمكنها من تخزين معلومات لا حصر لها.

وبينما كان هاميلتون لا يزال يعمل فى وكالة الأمن القومى الأمريكية شهد بداية هذا السوق غير المسبوق فى توسعه ووضع برنامجاً للكمبيوتر يستطيع الدخول على بنوك المعلومات فى شبكات الكمبيوتر الأخرى. ويعنى التطبيق فى عالم المخابرات أنه بوسع مستخدم البرنامج الدخول على معظم الشبكات الأخرى دون علم أصحابها. وكرجل وطنى اعتزم هاميلتون أن يكون أول عميل له هو الحكومة الأمريكية.

وتماماً مثلما تقدمت وكالة الأمن القومى الأمريكى تقدماً لا يضاهى فى تكنولوجيا الفضاءكان هاميلتون واثقاً من أنه سيفعل الشيءنفسه للمخابرات الأمريكية. وبتشجيع من وكالة الأمن القومى عمل لمدة ستة عشرة ساعة يومياً لسبعة أيام فى الأسبوع. وكان باحثاً فذاً حريصاً على التزام أقصى درجات السرية مع من تمج بهم وكالة الأمن القومى الأمريكية.

وبعد ثلاثة أعوام أوشك هاميلتون على ابتكار أداة الاستطلاع المرتقبة؛ أى برنامج

يمكنه اقتفاء أثر تحركات أعداد لا تحصى - بالمعنى الحرفي للكلمة - من الأشخاص في أي جزء من العالم، وأصبح تحذير الرئيس ريجان للإرهابيين بأنه «بوسعكم الفرار لكن لا يمكنكم الاختفاء» على وشك التحول إلى حقيقة.

واستقال هاميلتون من وكالة الأمن القومي واشترى شركة صغيرة تسمى انسلاو كان نشاطها المعلن هو إعادة فحص القضايا والإجراءات القانونية لمعرفة ما إذا كانت هناك علاقة أو أرضية مشتركة تجمع بين أطراف القضايا والشهود وعائلاتهم، بل وحتى محاميهم وما إذا كان أحد منهم طرفاً في قضية أو على وشك أن يصبح طرفاً في قضية، وأطلق هاميلتون على هذا البرنامج اسم بروميس. وبحلول عام ١٩٨١ طور برنامجه إلى الدرجة التي يستطيع بها نسخ البرنامج ويحول شركة انسلاو إلى شركة صغيرة تجني أرباحاً. وبدا المستقبل باهراً.

واحتجت وكالة الأمن القومي الأمريكية على أنه استخدم منشآت الأبحاث بالوكالة لتصميم برنامجه. ورفض هاميلتون تلك الإدعاءات بشدة لكنه عرض تأجير برنامج بروميس إلى وزارة العدل الأمريكية على أساس محدد بدفع رسم عن كل مرة يتم فيها استخدام البرنامج لشركة إنسلاو. ولم تسترع الصفقة المقترحة الاهتمام، فوزارة العدل مثل أي وزارة أخرى لديها مئات المتعاقدين الذين يقدمون خدماتهم لها. وعلى غير علم من هاميلتون أرسلت وزارة العدل نسخة من برنامجه إلى وكالة الأمن القومي الأمريكية «لتقييمها».

ولن تتضح الأسباب الكامنة وراء هذا التصرف. فقد برهن هاميلتون بالفعل لوزارة العدل الأمريكية أن برنامج بروميس يستطيع إنجاز ما يدعيه: أي الفحص الإلكتروني لحياة الأشخاص بطريقة غير معهودة من قبل، وبالنسبة لوزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدرالي «إف. بي. آي» ذراع الوزارة للتحقيق قدم بروميس أداة قوية لمكافحة عمليات المافيا لغسيل الأموال وأنشطة إجرامية أخرى.

وأصبح باستطاعته إحداث ثورة في معركة إدارة مكافحة المخدرات الفيدرالية ضد أباطرة المخدرات الكولومبيين. وبالنسبة لوكالة المخابرات الأمريكية يمكن أن يصبح برنامج بروميس سلاحاً فعالاً كالقمر الصناعي، وبدت الإمكانيات بلا نهاية.

وفي الوقت نفسه علم احد الأشخاص الذين تفرزهم بانتظام دنيا الصفقات

والتعاملات والأنشطة المتشابكة والمتنوعة في أرجاء العالم بأمر برنامج بروميس. كان إيرل بريان يتولى وزارة الصحة في كاليفورنيا أثناء وجود رونالد ريجان حاكماً لها. ولأن بريان يتحدث الفارسية فقد شجعه ريجان على وضع برنامج للرعاية الصحية للحكومة الإيرانية كانت تلك واحدة من الأفكار الخيالية غير العملية التي عشقها ريجان الذي أصبح رئيساً للويالات المتحدة فيما بعد: فمن شأن برنامج كهذا إظهار وجه مشرق لأمريكا وفي الوقت نفسه تحسن صورة الولايات المتحدة في المنطقة.

وعلى حد تعبير بريان فقد قال حاكم كاليفورنيا: «إذا أثبت برنامج الرعاية الصحية فعاليته في كاليفورنيا فيمكنه أن يثبت فعاليته في أي مكان».

وخلال زياراته لطهران استرعى بريان اهتمام رافي إيتان الذي كان حينذاك واحداً من أبرز الرجال الذين رتبوا لصفقة الرهائن مقابل الأسلحة حتى النهاية. وتلقى بريان دعوة من إيتان لزيارة إسرائيل. وعلى الفور جمعت بينهما صداقة وطيدة وانبهر بريان برواية مضيفة عن الإيقاع بإيخمان في الأسر وأخذ إيتان بدوره وبنفس القدر بوصف ضيفه لنمط الحياة سريع الإيقاع والممتع في كاليفورنيا.

وسرعان ما أدرك رافي إيتان أن بريان لا يمكنه أن يوسع دائرة اتصالاته في إيران واعتقد في قرارة نفسه أن فكرة ريجان عن برنامج الرعاية الصحية «هو أكثر الأفكار المجنونة التي سمع عنها لفترة طويلة.»

وعلى مدى سنوات ظلا على اتصال ببعضهما، وأرسل رافي إيتان خطاباً من أبولو، بنسلفانيا أثناء زيارته لمصنع نوميك. كان آتيان في رسالته يغبط بريان على بلده: «إن هذا أفضل مكان تنتمي إليه.» وواصل بريان اطلاع رافي إيتان على كل ما يتعلق ببرنامج بروميس.

وفي ١٩٩٠، وصل بريان إلى تل أبيب وكان مرهقاً أيما إرهاق من طول الرحلة وكان الشحوب البادي على وجهه نتيجة غضبه من استخدام وزارة العدل نسخة من برنامجه بروميس لاقتفاء أثر عمليات غسيل الأموال والأنشطة الإجرامية الأخرى.

وحدث رافي إيتان نفسه بأن صديقه القديم ما كان ليصل في وقت أنسب من هذا الوقت، فقد تجدد النزاع مرة أخرى بين الموساد وبقية أجهزة المخابرات الإسرائيلية،

والسبب هو الانتفاضة الفلسطينية ويمكن أن يكون بروميس سلاحاً فعالاً في مواجهة الانتفاضة.

وقد انتشرت الانتفاضة بسرعة رهيبة انتشار النار في الهشيم، وأذهلت الإسرائيليين، واستقطبت الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة وشحذت عزيمتهم. وكلما ازداد عدد الذين يعتقلهم الجيش الإسرائيلي أو يطلق الرصاص عليهم أو يضربهم أو يقتلعهم من منازلهم تزايد انتشار الانتفاضة. وشاع شيء أقرب إلى الشماتة خارج إسرائيل عندما استطاع فتى عربيٌ باستخدام طائرة شراعية خداع الدفاعات الإسرائيلية المتقدمة على الحدود مع لبنان وأن يهبط في منطقة الغابات بالقرب من بلدة كريات شمونة. وفي بضع دقائق قتل الفتى ستة من الجنود الإسرائيليين المدججين بالسلاح وأصاب سبعة آخرين بجراح قبل أن يلقى حتفه.

وحفر الحادث في ذاكرة الفلسطينيين، أما داخل عالم المخابرات فتعالت أصوات الانتقاد والتوبيخ المحموم، فقد ألقى الشين بيت بالمسئولية على أمان: وحمل كلاهما المسئولية للموساد لفشلها في توجيه تحذير مسبق من لبنان، والأدهى حدوث الأسوأ بعد هذا الحادث، فقد هرب ستة من أخطر العناصر الإرهابية من سجن يخضع لحراسة مشددة للغاية في غزة. وحملت الموساد المسئولية للشين بيت. وقال الشين بيت إن مؤامرة الهرب دبرت في الخارج بما يلقي المسئولية على الموساد.

وبشكل شبه يومي بات الجنود والمدنيون الإسرائيليون يلقون حتفهم في شوارع القدس، وتل أبيب وحيفا، وفي محاولة يائسة لاستعادة السلطة أعلن وزير الدفاع إسحاق رابين انتهاج سياسة «القوة والسحق والضرب» لكن دون جدوى.

أما وقد نكب بالصراع العميق بين أجهزته فقد عجز عالم المخابرات الإسرائيلي عن الاتفاق على سياسة منسقة للتعامل مع المقاومة العربية العارمة والحاشدة على نطاق غير مسبوق منذ إقامة إسرائيل. وزاد الطين بلة الانتقادات الصادرة من الولايات المتحدة لتزايد الأدلة التي تظهر على شاشات التليفزيون على الطرق الوحشية التي يستخدمها الجنود الإسرائيليون. وللمرة الأولى بدأت الشبكات التليفزيونية الأمريكية صديقة إسرائيل الدائمة في بث لقطات تضاهي من فرط قسوتها ما حدث في ميدان تيانامين في الصين.

وصور جنديان إسرائيليان وهما يسحقان ذراع شاب فلسطينى بحجر ودورية إسرائيلية تضرب سيدة فلسطينية حامل وجنود الجيش الإسرائيلى وهم يطلقون الرصاص الحى على الأطفال فى الخليل لرشقهم بالحجارة.

واندمجت حركة الانتفاضة ليتم تشكل القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة. وتلقى كل عربى تعليمات وتوجيهات بكيفية تنظيم الاضراب وإغلاق المتاجر ومقاطعة السلع الإسرائيلية ورفض الاعتراف بالإدارة المدنية. كان الأمر أشبه بالمقاومة آخر آيام الاحتلال النازى لفرنسا فى الحرب العالمية الثانية.

وفى محاولة يائسة لإعادة الدور المتميز للموساد بين أجهزة المخابرات اتخذ ناحوم أدمونى إجراءً فى ١٤ فبراير ١٩٨٨ بإرسال فريق اغتيال إلى مدينة ليماسول الساحلية القبرصية. وقام أفراد الفريق بزرع قنبلة قوية فى هيكل سيارة فولكس فاجن جولف تخص أحدقادة الانتفاضة الفلسطينية هو محمد التميمي وكان برفقته اثنان من كبار ضباط منظمة التحرير الفلسطينية. وكانوا قد التقوا بالمسئولين الليبيين الذين سلموهم أكثر من مليون دولار لمواصلة الانتفاضة. ولقى الثلاثة مصرعهم فى الانفجار القوى الذى هز أرجاء منطقة الميناء بأسرها.

وفى اليوم التالى كررت الموساد الضربة مرة ثانية وزرعت لغماً ملتصقاً بجسم سفينة الركاب «سوى فايانى» التى كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد اشترتها للتو بنية استخدامها فى عمل دعائى بالإبحار بها وعلى متنها فريق من الصحفيين العالميين إلى ميناءحيفا كتذكار قوى «لحق الفلسطينيين فى العودة» إلى وطنهم وكتذكار أقوى على الزوارق البحرية اليهودية التى قامت قبل أربعين عاماً ـ تخليداً لذكرى الخروج ـ يتحدى البحرية البريطانية بنقل الناجين من الهولوكوست إلى إسرائيل تحت شعار «حق العودة» أيضاً، ودمرت السفينة تماماً.

ولم يكن للعمليتين أثر فى تثبيط عزيمة الفلسطينيين، ففى كل مكان استطاع الفدائيون التفوق على حيل الإسرائيليين الذين بدا أن ردهم الوحيد هو العنف والمزيد من العنف. وشاهد العالم إسرائيل وهى عاجزة ليس فقط عن وقف الانتفاضة بل أيضا خسارة حربها الدعائية. وراح المعلقون يعقدون المقارنات ويشيرون إلى أننا نشهد صورة عصرية لصراع داود وجالوت فيما يقوم الجيش الإسرائيلى بدور العملاق

الفلسطيني جالوت.

واستغل ياسر عرفات الانتفاضة لاستعادة السيطرة على شعبه السليب. ففي مختلف أنحاء العالم راح صوته يجلجل عبر الإذاعة والتلفزيون بأن ما يحدث ما هو إلا محصلة مباشرة لسرقة إسرائيل للأرض العربية ودعا كل عربي إلى تقديم الدعم، وذات يوم كان عرفات يزور الكويت ليحث حركة حماس الإرهابية التي تدعمها إيران على توظيف قدراتها التدميرية ثم كانت زيارته التالية إلى لبنان للاجتماع مع زعماءمنظمة الجهاد الإسلامي.

كان عرفات يحقق ما بدا منذ فترة قصيرة مستحيل التحقيق بتوحيد العرب من كافة المشارب حول قضية مشتركة. وبالنسبة لشكل العرب أضحى عرفات رمزاً «لفلسطين» أو أصبح «الرئيس».

وسببت استراتيجيات عرفات إرباكاً مستمراً للموساد وهو يتنقل بين مختلف العواصم العربية، ولم يكن هناك أي بادرة تنذر إلى أين ستقود خطوته القادمة أو من سينجح عرفات في ضمه إلى صفه.

وشرح ايتان كل هذا وأكثر منه إلى ضيفه إيرل بريان، وفي المقابل أفاض بريان في وصف طريقة عمل برنامج بروميس، ومن وجهة نظره فلا يزال يتعين القيام ببعض العمل لزيادة سرعة البرنامج، وأدرك إيتان أن البرنامج حينذاك سيكون له تأثير على الانتفاضة، وكبداية فقط يمكن إقحام البرنامج على أجهزة الكمبيوتر الموجودة في مكاتب منظمة التحرير السبعة عشر المنتشرة في مختلف أنحاء العالم لمعرفة إلى أين سيذهب عرفات أو بما يكون قد عقد عليه العزم. ونحى إيتان هوايته في تشكيل المعادن الخردة وانصب تركيزه على استغلال العالم الجديد الذى يقدمه برنامج بروميس.

ولن يكون من الضروري بعد الآن حصر الاعتماد على العنصر البشري للمخابرات لفهم عقلية الإرهابي. ومع بروميس سيمكن معرفة متى وأين سيوجه الضربة على وجه الدقة. ويمكن لبرنامج بروميس أن يقتفي أثر كل خطوة للإرهابي.

وبدون شك فإن تحقيق مثل تلك الانفراجة سيجعل من إيتان شخصية قوية في عالم

المخابرات الإسرائيلي. لكن الجراح التي سببها له زملاؤه السابقون تحولت إلى جراح غائرة، فقد توارى إلى الظل يتقاضى معاشاً أقل من متواضع، كان العمر قد تقدم به على مر السنين وكانت أسرته هي شغله الشاغل الذى أهمله كثيراً لفترات طويلة مضطراً بسبب عمله. وهيأ برنامج بروميس الفرصة لإصلاح ما أفسده الدهر، وبوسعه الآن جمع ثروة لو عالج الأمر بحكمة وعلى الوجه الأكمل، ومع هذا ورغم تميزه وتنوع مهاراته وقدراته لم يكن رافى إيتان عبقرياً فى مجال الكمبيوتر فلم تكن قدراته فى هذا المجال تتجاوز قدراته على فتح وإغلاق الجهاز، لكن سنوات عمله فى فرع المخابرات العلمية «لاكام» أتاح له فرصة الوصول إلى كافة الخبراء الذين ربما يحتاج إليهم.

وبعد عودة بريان إلى الولايات المتحدة جمع ايتان فريقاً صغيراً من مبرمجي الكمبيوتر السابقين فى «لاكام»، وقام أفراد الفريق بتفكيك أسطوانة برنامج بروميس وأعادوا ترتيب مكوناتها وأضافوا عدة مكونات من عندهم، ولم يعد هناك مجال بأى حال لأحد أن يدعى ملكيته لبرنامج بروميس بعد ما أدخل عليه من إضافات. وقرر إيتان الإبقاء على الاسم الأصلى «لأنه أداة تسويق جيدة تستطيع شرح طبيعة البرنامج».

وسيكون بوسع عناصر المخابرات - غير المدربة على تكنولوجيا الكمبيوتر باستثناء معرفتهم للمفاتيح اللازمة للتشغيل - الحصول على المعلومات والتقديرات بطريقة أكثر شمولاً عما يمكنهم القيام به اعتماداً على عقولهم فحسب، كما أن برنامج بروميس صالح للعمل على الكمبيوتر المحمول واختيار البديل المهم من بين تلال البدائل المتاحة، وسوف يُلغى الحاجة إلى الاستدلال العقلي نظراً لأن هناك الكثير من المواد الصحيحة لكن غير ذات صلة يتعذر على العقل البشرى وحده الإحاطة بها.

ويمكن برمجة بروميس لإزالة كافة النقاط الزائدة غير الضرورية فى الاستفسار وجمع البيانات والربط بينها بسرعة وبحجم يفوق الطاقة البشرية.

ولكن وقبل بيع البرنامج تعين على إيتان كما يقول بن منشى إضافة عنصر جديد، ويزعم بن منشى أنه استدعى للتحقيق للعبه دوراً مهماً فى وضع «الشريحة المسحورة» وهى رقيقة مدمجة - لا يعرف المشترى أى شىء عنها - تسمح لرافى إيتان بمعرفة

المعلومات التي يسعى للحصول عليها.

وكان بن منشى يعرف شخصاً يستطيع اكتشاف شريحة سحرية جديدة لا تستطيع اكتشافها حتى أكثر أجهزة المسح «سكانر» تقدماً، وكان الرجل يدير شركة صغيرة لأبحاث وتطوير الكمبيوتر في كارولينا الشمالية، كان الرجل صديق دراسة لبن منشى ووافق على إنتاج الرقيقة الصغيرة مقابل خمسة آلاف دولار. كانت زهيدة الثمن كما اعترف بن منشى، وكانت الخطوة التالية هي اختبار البرنامج.

واختيرت الأردن موقعاً لهذا الاختبار ليس فقط لأنها مجاورة لإسرائيل بل لأنها أصبحت مأوى لزعماء الانتفاضة ومن المملكة الأردنية قاموا بتوجيه الجماهير في الشوارع بالضفة الغربية وقطاع غزة لشن مزيد من الهجمات داخل إسرائيل، وبعد كل عمل دأب أرهابيو منظمة التحرير الفلسطينية على التسلل عبر الحدود إلى الأردن بموافقة ضمنية من الجيش الأردني.

ونتيجة لهذا وقبل فترة طويلة من اندلاع الانتفاضة أصبحت الأردن ساحة اختبار للموساد لتطوير قدراتها الإلكترونية، وفي السبعينيات، تمكن فنيو الموساد من الدخول على كمبيوتر «آى. بى. إم» الذى اشترته المخابرات الحربية الأردنية، وكانت المعلومات التي يتم جمعها عن طريق هذه القناة تكمل المعلومات التي يحصل عليها ضابط الموساد - المستور بعناية فائقة - والذى زرعه رافى إيتان داخل قصر الملك حسين، لكن بروميس سيقدم المزيد والمزيد.

كان بيع البرنامج مباشرة إلى الأردن ضرباً من المستحيل حيث لا ترتبط الدولتان بتعاملات مباشرة وبدلاً من هذا أبرمت شركة إيرل بريان المسماة «هاردون» الصفقة.

ولدى قيام خبراء الشركة بتركيب البرنامج في قيادة الجيش الأردني في عمان اكتشفوا وجود برنامج فرنسي لدى الأردنيين لاقتفاء أثر تحركات زعماء منظمة التحرير الفلسطينية، وتم سراً تحميل برنامج بروميس على البرنامج الفرنسي، وفي تل أبيب سرعان ما توالت النتائج على رافى إيتان حيث حددت شريحته من هو الزعيم بمنظمة التحرير الفلسطينية الذى يقتفى الأردن أثره.

وكانت المرحلة التالية هي الإعداد للاختبار العملي لبرنامج بروميس وترويج بيعه،

واختير ياسر عرفات كنموذج مثالي فرئيس منظمة التحرير الفلسطينية مشهور بحسه الأمني العالي فدائما ما يغير خططه ولاينام ليلتين متتاليتين في مكان واحد ويغير موعد تناوله الطعام في اللحظة الأخيرة.

وفي كل لحظة يتحرك فيها عرفات كان يتم إدخال المعلومات على جهاز كمبيوتر مؤمن لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكن بروميس يستطيع شق طريقه ليخترق الدفاعات ويكتشف الكنى وجوازات السفر المزورة التي يستخدمها. واستطاع بروميس الحصول على فواتير هاتفه ومعرفة أرقام الهواتف التى اتصل بها، ثم ما يلبث أن يقوم بفحص ومعرفة المكالمات التى أجريت من تلك الهواتف مع آخرين. وبهذه الطريقة سيرسم بروميس «صورة» دقيقة لشبكة اتصالات عرفات.

وفي أى رحلة له سيقوم بإطلاع سلطات الأمن المحلية بأمر الزيارة وستتخذ الإجراءات الكفيلة بحمايته، ويمكن لبروميس الحصول على التفاصيل بالدخول على شبكات الشرطة. وأينما ذهب فلن يستطيع عرفات الإفلات من بروميس.

وكان إيتان على ثقة تامة من أنه لا اريل بريان ولا شركته يملكان الموارد اللازمة لترويج بروميس عالمياً وسوف يتطلب هذا اتصالات عالمية ممتازة وطاقة لا حدود لها ومهارات تفاوضية بارعة. كان الشخص الوحيد الذى يثق رافي إيتان أنه يمتلك هذه المؤهلات هو روبرت ماكسويل.

ولم يكن ماكسويل في حاجة إلي كثير من الإقناع وبطريقته المعهودة عندما تكون هناك صفقة تفوح منها رائحة الأرباح قال إن لديه شركة كمبيوتر يمكن من خلالها بيع برنامج بروميس. كانت الشركة هى «ديجيم كمبيوترز ليمتد» ومقرها تل أبيب وتلعب بالفعل دوراً كبيراً في أنشطة الموساد. وقد سمح ماكسويل لضباط الموساد الذين يتسترون بعملهم كموظفين فى شركة ديجيم باستخدام المكاتب الفرعية للشركة في الأمريكتين الوسطى والجنوبية. والآن فقد لمح ماكسويل فرصة ذهبية ليس فقط لجنى ثروة مهولة من تسويق برنامج بروميس عن طريق شركة ديجيم بل أيضاً لإثبات أهميته للموساد وإسرائيل فى نهاية المطاف.

وخلال زيارته الأخيرة لإسرائيل كان ماكسويل قد بدأ يأتى بتصرفات محيرة. فقد أبلغ ماكسويل أدمونى بأن عليه البدء في توظيف أطباء لقراءة ما يدور في عقل

أعداء الموساد. وأراد لقاء فرق الاغتيالات وتفقد معسكرات تدريبهم. وتجنب رئيس الموساد كل تلك الطلبات بحزم وبلباقة، لكن وداخل الموساد بدأت الأسئلة تثور حول ماكسويل، فهل سلوكه هو مجرد جنون عظمة يستبد إلى ثقله؟ أم أنه مؤشر على شيء آخر؟ وهل سيأتي وقت في نهاية الأمر يصبح فيه ماكسويل - رغم كل ما فعله لإسرائيل - غير مستقر عقلياً يأتي بتصرفات لا يمكن توقعها وتثير المشاكل؟

لكن لم يكن هناك أدنى شك في أن ماكسويل كان مسوقاً ممتازاً لبرنامج بروميس وفعالية البرنامج طالما خص الأمر الموساد، وكانت الموساد أول من يحصل على البرنامج وكان أداة قيمة في حملتها لقمع الانتفاضة، وغادر الكثير من زعماء الانتفاضة الأردن بحثاً عن مخابئ أكثر أمناً في أوربا بعد أن اغتيل كثير منهم على أيدي فرق الاغتيالات الإسرائيلية.

وأحرز نجاح باهر عندما اتصل أحد قادة الانتفاضة الذي كان قد انتقل إلى روما برقم هاتف في بيروت حددته الموساد على أنه منزل صانع قنابل شهير، كان المتحدث من روما يريد لقاء صانع القنابل في روما، واستغلت الموساد برنامج بروميس للتقصي في كافة مكاتب السفر في روما وبيروت عن ترتيبات سفر الرجلين، وفي بيروت كشف مزيد من التقصي عن أن صانع القنابل طلب من أجهزة المرافق قطع المرافق عن منزله، وأسفر مزيد من المسح عن طريق بروميس لأجهزة كمبيوتر منظمة التحرير الفلسطينية عن اكتشاف أن صانع القنابل قد غير رحلته في اللحظة الأخيرة ولم ينقذ هذا التغيير حياته فقد قتل بسيارة ملغومة وهو في طريقه إلى مطار بيروت. وبعيد ذلك لقي قائد الانتفاضة الموجود في روما مصرعه في حادث خاطف غامض.

في الوقت ذاته استخدمت الموساد برنامج بروميس للاطلاع على المعلومات السرية لعدد من أجهزة المخابرات الأخرى، ففي جواتيمالا اكتشفت العلاقة التي تربط قوات الأمن في جواتيمالا بمهربي المخدرات ومنافذبيعها في الولايات المتحدة، ونقلت الموساد الأسماء إلى إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي.

وفي جنوب أفريقيا استخدم ضابط الموساد بالسفارة الإسرائيلية برنامج بروميس لاقتفاء أثر اتصالات المنظمة الثورية(*) المحظورة بغيرها من منظمات الشرق الأوسط،

(*) لعله يقصد منظمة المؤتمر الوطني الأفريقي (الترجمة).

وفي واشنطن استغل خبراء الموساد بالسفارة الإسرائيلية لاختراق اتصالات البعثات الدبلوماسية الأخرى ومختلف الوزارات الحكومية الأمريكية. وحدث الشيء نفسه في لندن وفي العواصم الأوربية الأخرى وواصل البرنامج تقديم معلومات قيمة للموساد. وبحلول عام ١٩٨٩ بيع ما قيمته أكثر من خمسمائة مليون دولار من نسخ برنامج بروميس إلى بريطانيا وأستراليا وكوريا الجنوبية وكندا، وكان بالإمكان أن يصبح الرقم أعلى من هذا بكثير لولا أن المخابرات المركزية الأمريكية قامت بتسويق نسخة خاصة بها لبقية أجهزة المخابرات وفي بريطانيا استخدمت مخابرات«إم. آي 5» بروميس في أيرلندا الشمالية لاقتفاء أثر الإرهابيين وتحركات الزعماء السياسيين أمثال جيري آدامز.

وتمكن ماكسويل من بيع البرنامج إلى المخابرات البولندية (يو.بي) مقابل أن يسمح البولنديون ـ على حد قول بن منشي ـ للموساد بسرقة طائرة طراز ميج ـ ٢٩. كانت العملية نسخة مكررة لسرقة سابقة لطائرة ميج من العراق، ورتب الجنرال المسئول عن مكتب المخابرات البولندية في جدانسك ـ مقابل مليون دولار أمريكي حولت لحساب مصرفي في سيتي بنك بنيويورك ـ لكتابة تقرير بعدم صلاحية الطائرة للطيران رغم أنها كانت قد وصلت منذ فترة وجيزة من مصنع الطائرات السوفييتي، وتم تفكيك الطائرة ووضعت في حاويات كتب عليها «آلات زراعية» ونقلت جواً إلى تل أبيب، وهناك أعيد تجميعها بواسطة القوات الجوية الإسرائيليةمما مكن الطيارين الإسرائيليين من مواجهة طائرات الميج ٢٩ السورية.

وقبيل أسابيع اكتشفت موسكو سرقة الطائرة أثناءجرد روتيني. وقدمت موسكو احتجاجاً شديد اللهجة إلى إسرائيل مقترناً بتهديد بوقف نزوح اليهود السوفييت إلى إسرائيل. وبعد أن كشف ضباط القوات الجوية الإسرائيلية كل أسرار الميج اعتذرت الحكومة الإسرائيلية بشدة عن «تحمس الضباط المفرط الخاطئ» وبادرت بإعادة الطائرة على الفور، وما لبث جنرال المخابرات البولندية أن لحق بدولاراته في الولايات المتحدة. ووافقت واشنطن على منحه هوية جديدة مقابل السماح للقوات الجوية الأمريكية بمعرفة أسرار الطائرة الميج.

وبعد فترة وجيزة طار ماكسويل إلى موسكو، ورسمياً كان يزور موسكو لإجراء

حديث مع ميخائيل جورباتشوف، أما في الواقع فإنه وفد إليها لبيع برنامج بروميس للمخابرات السوفييتية (كي. جي. بي). وبواسطة شريحته السرية فقد أعطى فرصة فريدة للمخابرات الإسرائيلية للدخول على الخابرات العسكرية السوفييتية مما جعل الموساد واحدة من أفضل أجهزة الخابرات العالمية اطلاعاً على النوايا السوفييتية.

ومن موسكو توجه ماكسويل جواً إلى تل أبيب. وكالمعتاد عومل معاملة رجال الدولة واستثنى من كافة الإجراءات في المطار واستقبله ممثل لوزارة الخارجية.

وعامله ماكسويل بنفس معاملته لموظفيه وأصر على أن يحمل مسئول الخارجية حقائبه وأن يجلس بجوار السائق. واستفسر ماكسويل عن طاقم الحراسة بدراجاتهم البخارية وعندما علم بعدم وجودهم ثار وهدد بالاتصال بمكتب رئيس الوزراء لفصل ممثل الخارجية من الخدمة، وفي كل توقف مروري كان ماكسويل يعنف المسئول سيء الحظ، وظل على هذا الحال طيلة الطريق حتى وصوله إلى جناحه بالفندق، وكانت في انتظاره عاهرته المفضلة، لكنه صدمها؛ فقد كانت هناك أمور أهم من إشباع نزواته الجنسية.

ففي لندن كانت امبراطوريته الصحفية تعاني من اضطرابات مالية خطيرة، وإذا لم يضخ إليها مبلغ كبير من المال فستضطر إلى وقف عملياتها خلال فترة وجيزة، ولكن وفي مدينة لندن حيث كان يحصل دائماً من قبل على أي تمويل يطلبه فهناك عزوف عن الاستمرار في تمويله.

واستشعر رجال المال الحازمون الذين التقوا ماكسويل أن خلف تصرفاته الغاضبة والقاسية يتخفى رجل يفقد ذكاءه المالي الذى كان يسمح لهم في الماضي بالصفح الجميل، لكنهم لن يستمروا في تقديم هذا الصفح، وفي بنك إنجلترا وسائر المؤسسات المالية الأخرى في المدينة كانت الكلمة المتداولة هي أن ماكسويل لم يعد رهاناً آمناً.

واستندت معلوماتهم في جانب منها إلى تقارير سرية خرجت من إسرائيل بأن ماكسويل يتعرض لضغوط من جانب مستثمريه الإسرائيليين الأصليين لتسديد الأموال التي ساعدته في شراء مجموعة الميرور.

وقد انقضت المهلة الزمنية المحددة للسداد منذ فترة طويلة وأصبحت مطالب

الإسرائيليين أكثر إلحافاً. وفي محاولة منه لدرء خطرهم وعدهم ماكسويل بدفع عائدات أعلى لأموالهم إذا صبروا عليه.

ولم يشعر الإسرائيليون بالارتياح وطلبوا رد أموالهم على الفور، وهذا هو سبب وجود ماكسويل في تل أبيب حيث كان يأمل في تملقهم ليمنحوه مهلة أخرى للسداد، ولم تكن المؤشرات جيدة. وأثناء الرحلة تلقى العديد من المكالمات الهاتفية الغاضبة من المستثمرين تهدد بإحالة الأمر إلى السلطة المختصة بالتنظيم في مدينة لندن.

كانت هناك مسألة أخرى تثير قلق ماكسويل فقد سرق مبلغاً من الأرباح الطائلة لشركة أورا القابضة التي كان مكلفاً بإخفاء أموالها في بنوك الكتلة السوفييتية. واستخدم الأموال في محاولة لدعم مجموعة الميرور، كان ماكسويل قد سرق بالفعل كل ما يستطيع سرقته من صندوق التأمين والمعاشات بمجموعته الميرور، ولن تدوم أموال شركة أورا القابضة طويلاً.

وعلى نقيض المستثمرين الإسرائيليين فبمجرد أن تكتشف تلك السرقة فسيجد نفسه في مواجهة رجال بالغي القسوة من بينهم رافي إيتان. وكان ماكسويل يعرف الكثير عن ضابط الموساد السابق بما يجعله على يقين تام بأنه سيواجه تجربة غير سارة بالمرة.

ومن جناحه بالفندق شرع ماكسويل في وضع استراتيجياته. فلن يكفي نصيبه من أرباح تسويق شركة ديجيم لبرنامج بروميس في انتشال مجموعة الميرور من أزمتها. ولن تكفي أيضاً أرباحه من صحيفة معاريف، ولم يبق هناك سوى احتمال واحد هو شركة سيتيكس التي يملكها ومقرها تل أبيب وتقوم بتصنيع معدات الطباعة المتقدمة، وإذا بيعت شركة سيتيكس بسرعة حينئذ يمكن استخدام الأموال بطريقة ما في تسوية المشاكل.

واستدعى ماكسويل المدير التنفيذي لشركة سيتيكس وهو نجل رئيس الوزراء إسحاق شامير إلى جناحه بالفندق، كان المدير التنفيذي للشركة يحمل أنباءً سيئة: فليس من المتاح بيع الشركة بسرعة، وكانت سيتيكس تواجه منافسة شرسة متزايدة ولم يكن الوقت مناسباً لطرحها في السوق ولبيع الشركة سيتعين أيضاً فصل العمال المهرة منها في وقت تعد فيه البطالة مشكلة خطيرة في إسرائيل.

وهاج ماكسويل وماج لدى سماعه باستحالة بيع شركته مما بدد آخر أمل لإنقاذه من عثرته، وارتكب ماكسويل خطأ غير هين بانتقاده لحل رئيس الوزراء الإسرائيلى الذى سارع بإبلاغ والده بالوضع المالى الخطير لماكسويل، وإدراكاً من شامير بعلاقة الإمبراطور بالموساد بادر بإبلاغ أدمونى الذى دعا بدوره لعقد اجتماع ضم كبار العاملين بالموساد لتدارس كيفية التعامل مع ما أصبح يشكل مشكلة. وتبين فيما بعد أنه جرى بحث عدة خيارات.

كان أحدها أن تطلب الموساد من رئيس الوزراء ممارسة نفوذه الكبير على المستثمرين الإسرائيليين ليس فقط لمنحه مهلة لرد أموالهم بل لحشد موارده‌م واتصالاتهم الخاصة لإيجاد الأموال اللازمة لانتشاله من أزمته. ورُفض هذا الخيار على أساس أن ماكسويل أثار حفيظة شامير بتصرفه المتعجرف، ويعلم الجميع أن شامير شخص معتد بكرامته وسيحرص والحال كذلك على أن ينأى بنفسه عن ماكسويل.

ودار الخيار الثانى حول قيام الموساد بحثّ كبار المساعدين اليهود فى مدينة لندن على دعم الوصول إلى صفقة لإنقاذ ماكسويل من أجل الموساد. وفى الوقت نفسه أيضاً يمكن تشجيع الصحفيين أصدقاء الموساد فى بريطانيا على كتابة روايات تدعم الأمبراطور المتعثر فى محنته.

ومرة أخرى قوبل هذا الخيار بالاستياء فالتقارير التى تلقاها أدمونى من لندن تشير إلى أن الكثير من المساعدين اليهود فى لندن يرحبون بالقضاء على ماكسويل وأن قلة فقط من الصحفيين خارج مجموعة الميرور هم الذين يمكن أن يكتبوا روايات مواتية عن الإمبراطور الذى دأب على تهديد وسائل الإعلام على مدار سنوات.

وكان الخيار الأخير للموساد هو قطع كافة الصلات بماكسويل، لكن هناك مجازفة فى ذلك، فماكسويل فى حالته العقلية الراهنة التى لا يمكن توقع تصرفاتها يمكن أن يستخدم صحفه بمهارة لمهاجمة الموساد وفى ضوء ما حصل عليه وما أتيح له فيمكن أن يكون لهذا الخيار عواقب وخيمة.

وعن هذا الاحتمال المخيف توصل الاجتماع إلى ضرورة أن يلتقى أدمونى بماكسويل ويذكره بالمسئولية تجاه الموساد وإسرائيل، وفى تلك الليلة التقى الرجلان على العشاء بجناح ماكسويل بالفندق. وسيظل مادار بينهما سراً مدفوناً. لكن وبعيد ساعات

غادر ماكسويل تل أبيب على متن طائرته الخاصة، وستكون هذه هى المرة الأخيرة التى يراه أحد فى إسرائيل على قيد الحياة، فقد قضى الأمر.

وبعد عودته إلى لندن بدأ ماكسويل فى مواجهة كافة الاحتمالات مستميتاً فى التشبث بمجموعته الصحفية، فقد كان أشبه بالدرويش الأفريقى الجوال وهو يذهب من اجتماع لآخر بحثاً عن الدعم المالى، وبين الحين والآخر كان يتصل بالموساد للتحدث مع أدمونى ويبلغ سكرتارية رئيس الموساد بأن «التشيكى الصغير» على الخط، وقد أطلق عليه هذا اللقب بعد تجنيده فى الموساد أما ما دار فى تلك المحادثات الهاتفية فأمر غير معلوم.

لكن ضابط الموساد السابق فيكتور أوستروفسكى كشف حل اللغز فيما بعد، ويعتقد أوستروفسكى أن ماكسويل أصر على أن هذا هو وقت رد الأموال؛ أى أنه يتعين الآن رد المبلغ الضخم الذى سرقه من صندوق التأمين والمعاشات بمجموعة الميرور. واقترح أيضاً ضرورة قيام الموساد بالإنابة عنه بتنظيم حملة ضغط للإفراج عن فانونو وتسليمه له على أن يقوم ماكسويل بنقله جواً إلى لندن ويجرى معه بنفسه حواراً لنشره فى الديلى ميرور. وستكون الرواية بمثابة «تكفير من فانونو» عن تصرفاته وستكتب بطريقة تظهر تسامح ورحمة إسرائيل. وأضاف ماكسويل - بعصبيته المعهودة فى الكثير من تصرفاته - أن تلك الرواية ستساهم فى تنشيط توزيع الديلى ميرور وستفتح الأبواب التى لا تزال مغلقة أمامه فى لندن.

ولم يكن أوستروفسكى هو الوحيد الذى يعتقد أن الخطة الخيالية جعلت الموساد تقرر فى النهاية أن ماكسويل أصبح مدفعاً خطيراً لا يمكن السيطرة على انطلاقه.

وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٩١ ظهر مزيد من الأدلة عن غرابة تصرفات ماكسويل فى حديثه الهاتفى مع أدمونى، ولم تكن لهجة التهديد خافية هذه المرة فى كلمات ماكسويل الذى أخذت أزمته المالية منعطفاً جديداً أشد سوءاً حيث يجرى التحقيق معه فى البرلمان ووسائل الإعلام البريطانية مما زج به فى موقف حرج بما يتكبده من مصاريف باهظة لمحاميه الذين يتقاضون بالفعل أتعاباً كبيرة، مع سيل الأوامر القضائية. وما لبث ماكسويل أن استدرك قائلاً إنه مالم تقم الموساد على الفور بإعادة الأموال المسروقة من صندوق التأمين والمعاشات بمجموعة الميرور فلن يضمن أن يستمر

سكوته عن الإفصاح عن الاجتماع الذى عقد بين أدموني وفلاديمير كريوتشيكوف الرئيس السابق للـ (كي. جي. بى) الذى كان في ذلك الحين محتجزاً بأحد سجون موسكو على ذمة المحاكمة لضلوعه في الانقلاب الفاشل الذى استهدف الإطاحة بميخائيل جورباتشوف، وكان العنصر الرئيسي في المؤامرة هو الاجتماع الذى عقده كريوتشكوف على يخت ماكسويل في البحر الأدرياتيكي قبيل وقوع المحاولة الانقلابية في موسكو.

ووعدت الموساد بأن إسرائيل ستمارس نفوذها على الولايات المتحدة والدول الأوروبية الكبرى لتعترف دبلوماسياً بالنظام الجديد في موسكو، وفي المقابل سيرتب كريوتشكوف لرفع الحظر على اليهود السوفييت وإرسالهم إلى إسرائيل، ولم تنته المناقشة في الحديث الهاتفي بين ماكسويل وأدموني إلى شيء، لكن تكشف أن ضررا فادحاً يمكن أن يلحق بمصداقية إسرائيل مع النظام القائم حينذاك في الاتحاد السوفييتي ومع الولايات المتحدة.

كانت تلك هي اللحظة التي خرج فيها «اجتماع صغير من اليمينيين بمقر الموساد بقرار بالإجماع بضرورة الخلاص من ماكسويل.» على حد كلمات أوستروفسكي.

ولو صدق ادعاء أوستروفسكي الذى لم تكذبه إسرائيل رسمياً على الإطلاق، فمن غير المعقول أن تكون تلك المجموعة قد تصرفت من دون تفويض من أعلى مستوى بل وربما بموافقة ضمنية من رئيس وزراء إسرائيل إسحاق شامير الرجل الذى ساهم بنصيبه في قتل أعداء الموساد.

وأصبحت المسألة أكثر إلحاحاً بالنسبة للموساد فقط؛ مع نشر صحفي التحقيقات الأمريكي المتمرس «سيمور هيرش» كتابه «الخيار شمشمون، إسرائيل أمريكا والقنبلة» الذى كشف فيه ظهور إسرائيل كقوة نووية. وفاجأ الكتاب الموساد مفاجأة تامة وتقاطرت نسخه على تل أبيب. وبعد تقصٍ مسهب فقد تم استيعاب الدرس المؤلم لخطأ مواجهة ناشر كتاب أوستروفسكي «وهو أيضاً ناشر كتاب هيرش» ومع هذا لا يزال بالإمكان التعامل بفاعلية مع الأمر بالتزام الصمت، لكن هناك مشكلة واحدة؛ فقد كشف هيرش صلات ماكسويل بالموساد ودارت معظم تلك الصلات على تناول مجموعة الميرور لرواية فانونو والعلاقة مع نيل ديفيز وشركة أورا القابضة وآريه بن

منشي، وكالمتوقع احتمى ماكسويل بمجموعة من المحامين وصدرت أوامر قضائية بحق هيرش وناشر كتابه، لكن وللمرة الأولى واجه شدة ولم ينتصر. فلم يَجْبُن هيرش الحاصل على جائزة البوليتزر أمام ماكسويل.

وفي البرلمان ثار المزيد من الأسئلة الملتهبة عن صلات ماكسويل بالموساد وطفت الشكوك القديمة على السطح وطالب أعضاء البرلمان - في ظل الحصانة البرلمانية - معرفة كل ما يعرفه ماكسويل من معلومات عن عمليات الموساد في بريطانيا. وبعبارات أوستروفسكي «بدأت الأرض تميد أو تشتعل تحت قدمي ماكسويل.»

ويقول أوستروفسكي إن الخطة التي أعدتها الموساد جيداً لقتل ماكسويل كانت مرهونة بمدى القدرة على إقناعة باللقاءفي موعد ومكان تستطيع فيه الموساد أن توجه ضربتها، كان هناك تطابقاً كبيراً بين الخطة والمؤامرة التي أودت بحياة المهدي بن بركة في باريس.

وفي ٢٩ أكتوبر ١٩٩١ تلقى ماكسويل مكالمة هاتفية من ضابط للموساد بالسفارة الإسرائيلية في مدريد وطلب من ماكسويل القدوم إلى أسبانيا في اليوم التالي «ووعد محدثه - بتعبير أوستروفسكي - بأن الأمور سيتم ترتيبها بما لا يدعو لأي خوف». وطُلب من ماكسويل التوجه جواً إلى جبل طارق وأن يستقل يخته «الليدي جيزلين» وأن يأمر طاقمه بالإبحار نحو جزر الكناري «وأن ينتظر هناك لتلقي رسالة». ووافق ماكسويل على ما أُبلغ به.

وفي ٣٠ أكتوبر وصل أربعة إسرائيليين إلى مدينة الرباط المغربية الساحلية، وأذاعوا أنهم سياح يقضون عطلتهم للصيد في أعماق البحر واستأجروا يختاً يصلح للإبحار في المحيط وانطلقوا به نحو جزر الكناري.

وفي ٣١ أكتوبر وبعد وصول ماكسويل إلى ميناء سانتا كروز بجزيرة تناناريف تناول العشاء بمفرده في فندق مينكي، وبعد العشاء انضم إليه رجل لفترة قصيرة، وسيظل هذا الرجل وما دار بينهما من حديث جزءاً من الغموض الذي أحاط بالأيام الأخيرة للإمبراطور روبرت ماكسويل، وبعيد فترة وجيزة عاد ماكسويل إلى يخته وأمر طاقمه بالعودة إلى عرض المحيط، وعلى مدى الساعات الست والثلاثين التالية تنقل اليخت الليدي جيزلين ما بين الجزر بعيداً عن البر مبحراً بمختلف السرعات،

وأبلغ ماكسويل قائد اليخت بأنه لم يتخذ قراراً حول الوجهة التالية للإبحار، ولا يتذكر طاقم اليخت أنهم شاهدوا ماكسويل بمثل هذا التردد من قبل.

وفيما وصف بأنه «انفراد عالمي» بعنوان «كيف ولماذا قُتل روبرت مردوخ؟» روت مجلة «بيزنيس أيج» التي تصدر في بريطانيا أن فريق اغتيال يضم رجلين عبر إلى يخت ماكسويل بزورق صغير في جنح الليل من اليخت الذي كانوا يستقلونه وكان يلاحق يخت غريمهم كظله. وفور اعتلائهما يخت ماكسويل وجداه في مؤخرة سطح اليخت، وتغلبا عليه قبل أن يتمكن من الاستغاثة ثم قام «أحد القاتلين بغرس حقنة مليئة بفقاعات الهواءفي حبل وريد ماكسويل ولم يستغرق الأمر سوى بضع لحظات ليلفظ الإمبراطور أنفاسه».

وخلصت المجلة إلى أن جثة ماكسويل ألقيت في البحر وعاد القاتلان أدراجهما إلى يختهما، ومضت ست عشرة ساعة قبل أن يتم انتشال الجثة وهو وقت كاف تماماً لتختفي آثار الحقنة بحيث يستحيل التعرف عليها نتيجة غمر الجثة في المياه ونهش السمك لها. والمؤكد هو أنه في ليلة الرابع / الخامس من نوفمبر طوت أمواج المحيط الأطلنطي الباردة مشاكل الموساد مع ماكسويل إلى الأبد. وتركت تحقيقات الشرطة وتشريح الجثة في أسبانيا لاحقاً عدداً من الأسئلة دون إجابة. فلماذا لم يكن مستيقظاً وقت الحادث سوى اثنين فقط من طاقم اليخت البالغ عددهم أحد عشر شخصاً؟ حيث أنه في الأحوال العادية كان خمسة أفراد يتولون نوبة المراقبة الليلية، ولمن أرسل ماكسويل عدداً من الرسائل بالفاكس خلال ساعات الليل؟ وما مصير تلك النسخ؟ ولماذا استغرق الأمر من أفراد الطاقم وقتاً طويلاً لاكتشاف عدم وجود ماكسويل على ظهر اليخت؟ ولماذا تأخروا في الإنذار لمدة سبعين دقيقة أخرى؟ ولحد الآن لم تقدم إجابات شافية مقنعة لتلك الأسئلة.

وتولى ثلاثة من علماء الباثولوجي الإسبان تشريح جثة ماكسويل، وكانوا يريدون إرسال الأعضاء والأنسجة الحيوية إلى مدريد لإجراء مزيد من الفحص.

وقبل أن يحدث هذا تدخلت أسرة ماكسويل وأمرت بمعالجة الجثة ونقلها جواً على الفور إلى إسرائيل لدفنه هناك، ولم تعترض السلطات الإسبانية على غير العادة. فمن وماذا أقنع الأسرة للتصرف بهذا الشكل؟

وفي العاشر من نوفمبر ١٩٩١ أقيمت جنازة ماكسويل على جبل الزيتون بالقدس حيث مقابر أعظم أبطال إسرائيل، وكانت حدثاً من أحداث الدولة؛ فقد شهدها قادة الحكومة والمعارضة واستمع ستة على الأقل من رؤساء المخابرات الإسرائيلية الحالين والسابقين لرئيس الوزراء حينذاك إسحاق شامير يؤبن ماكسويل «لقد قدم الكثير لإسرائيل يفوق ما يسع ذكره اليوم».

وكان من بين المشيعين رجلٌ يرتدى بدلة وقميصاً داكنين، كان شخصاً يبدو كالشبح بطوله الذى يبلغ خمسة أقدام بالكاد ووزنه الذى يزيد قليلاً عن مائة رطل. لكن فاطر إبراهيم المولود لعائلة مسيحية لبنانية لم يكن قساً عادياً فقد كان يعمل بسكرتارية الدولة بالفاتيكان.

لكن حضوره المميز في الجنازة لم يكن مجرد احتفاء بماكسويل في الجانب الأهم بل امتناناً للعلاقات المتنامية التي كانت لا تزال في طور السرية بين إسرائيل والكرسي الرسولي. إنه خير مثال لمقولة مائير أميت بأن التعاون بين أجهزة المخابرات لا يعرف أى حدود.

كان البابا يرى أن العنف ضرورى، وشاطر الرأى القائل

بأنه إذا لم تنجز الولايات المتحدة ما أسماه ذات مرة «أفعالاً حزينة لكنها ضرورية» فسوف

يرزح العالم تحت وطأة مزيد من المعاناة لعقود قادمة.



أحلاف غير مقدسة

طالما افتتن رؤساء الحكومات الإسرائيلية المتعاقبون بمفهوم البابا كحاكم مطلق ينتخب مدى الحياة. إنه زعيم لا يمكن مساءلته أمام أى نظام قضائى أو تشريعى. ويتمتع الحبر الأعظم باستخدام هيكل سلطة مطلق لصياغة الرؤى السياسية والاقتصادية والأيديولوچية ليس للعالم الكاثوليكى فحسب بل للعالم بأسره. وذات مرة غمغم ديفيد بن جوريون بالقول: «دعك من عدد الإدارات التى بحوزة البابا، وانظر إلى عدد الأشخاص الذين يمكنه استدعاءهم ليهبوا إلى مساعدته.»

وبالنسبة للموساد كان الإعجاب ينصب على السرية المطلقة التى يعمل بها الفاتيكان. إنها آلية محددة بدقة متناهية تطبق بحذافيرها وبصرامة، وتشمل كل ما يفعله الكرسى الرسولى. ومرت أشهر قبل أن تصدر أولى الإيماءات عن مشاركة بابوية فى مبادرة دبلوماسية ما، وحتى عند ذاك نادراً ما ظهرت الرواية كاملة. واحتار كل رؤساء الموساد فى كيفية اختراق هذا الحجاب. لكن كل محاولة من جانب حكومة إسرائيل والموساد لإقامة علاقة عمل جيدة مع الفاتيكان قوبلت بالصد بلباقة وبكل حزم.

والحقيقة أن أروقة سكرتارية الدولة بالفاتيكان ـ التى تقابلها وزارة الخارجية فى

الدول الأخرى ـ تحفل بفصيل قوى مناهض لإسرائيل. ودائماً ما يهوى هؤلاء المونسينورات الكهنة الإشارة إلى الضفة الغربية وقطاع غزة بعبارة «الأراضى المحتلة» إن الجولان «أراضٍ» سورية ضمتها إسرائيل، وفى المساء يحلو لهم الخروج من دولتهم المدينة الصغيرة قاصدين شقق الأثرياء العرب فى شارع كونديتى بروما، أو يشاركونهم حفلات الكوكتيل فى ميدان نافونا ويصغون فى هدوء إلى أحلام إزالة «إسرائيل من على وجه الأرض.»

كان القساوسة حريصين وهم يتحدثون؛ اعتقاداً منهم بأن للدولة اليهودية عملاء فى كل مكان يراقبون ويستمعون بل وربما يسجلون أو يصورون. وكان أول تنبيه يتلقاه الوافد الجديد إلى سكرتارية الدولة هو أن يحذر من «التجسس أو الانخداع بمعسول الكلام، خاصة من عملاء الدول التى ترفض الفاتيكان بقوة الاعتراف بها دبلوماسياً». وكانت إسرائيل على صدارة قائمة تلك الدول. ولدى اختياره عام ١٩٧٨ أعاد البابا يوحنا بولس الثانى التأكيد على أن الحال سيبقى على ما هو عليه وأنه فى مرحلة متقدمة فقط من بابويته سيوافق فى النهاية على منح وضع دبلوماسى كامل لإسرائيل.

واستمرت المعلومات التي يتلقاها البابا عن إسرائيل عرضة لأثر الاتصالات التي يجريها دبلوماسيوه القساوسة مع العرب . كانت غزواتهم لروما يعقبها أن يصعد المونسيورات العائدون إلى الدور الثالث بالقصر البابوى، وهو المقر المزدحم المضاء صناعياً ضعيف التهوية، للسلك الدبلوماسي البابوى - والمعروف بأنه قسم الشئون غير العادية - كان هذا السلك يتولى مسئولية تنفيذ السياسة الخارجية للكرسى الرسولى، وكانت «مكاتبه» العشرون تقوم بعمل مكتبى بنفس القدر تقريباً الذى تقوم به وزارات الخارجية الكبرى الأخرى وهذا دليل على مدى توسيع المصالح الدبلوماسية للفاتيكان فى مختلف أنحاء العالم كما لم يحدث من قبل .

كان مكتب الشرق الأوسط يقع فى الغرف الضيقة المطلة على فناء سان داماسو وهو ساحة هامة فى قلب القصر الكبير . وكانت أولى المذكرات التى عرضها المكتب على الحبر الأعظم الجديد القادم من بولندا هى دعوة محكمة الأساقفة إلى ضرورة تدويل القدس على أن تتولى قوات من الأمم المتحدة مهام الدورية بالمدينة ويتولى الفاتيكان مسئولية المقدسات المسيحية فيها . ووصلت أنباء الاقتراح إلى تل أبيب أوائل عام ١٩٧٩ بعد أن تم تصويره من وثيقة نقلها أحد المنسيورات إلى رجل لبنانى مسيحى ثرى يقيم فى روما . وكان فريق العاملين لديه يضم أحد مساعدى الموساد . وأثار احتمال تدويل القدس غضب رئيس الوزراء مناحيم بيجين الذى أمر رئيس الموساد إسحاق حوفى بمضاعفة جهوده لإقامة اتصالات مع الفاتيكان .

كان كلاهما يعلم ماذا حدث فى آخر محاولة للموساد لتحقيق هذا الهدف تحت ستار زيارة الدولة لسلف بيجين، جولدا مائير .

ففى أواخر عام ١٩٧٢ تلقت جولدا مائير رداً من البابا يوحنا بولس السادس بأنه على استعداد لاستقبالها فى لقاء خاص قصير . وفى ديسمبر عام ١٩٧٢ أبلغت الجلسة الأسبوعية لمجلس الوزراء الذى استفسر أعضاؤه عما إذا كان لقاؤها مع البابا سيسفر عن شيء ذى مغزى يعادل إعجابها بالهيكلية الماركسية للبابوية، وأولها الصلاحيات المالية المطلقة للبابوية بشكل غير مسبوق، ناهيك عن أنها تعمل بدون أحزاب سياسية أو نقابات عامة . فكل هياكلها منظمة لتخضع للسيطرة؛ فرعاة الأبرشيات يسيطرون على القساوسة الذين يسيطرون بدورهم على رجال الدين الذين يسيطرون

بدورهم على رتب أدنى. وبسكرتاياراته المتعددة وبعثاته وهياكله فإنه نظام صنع خصيصاً للتجسس وجمع المعلومات.

وتحدد موعد اللقاء البابوى الخاص بصباح الخامس عشر من يناير ١٩٧٣ وأبلغت جولدا مائير بأن مدة اللقاء مع الحبر الأعظم هى خمس وثلاثون دقيقة على وجه الدقة، وسوف يتبادلان الهدايا فى آخر اللقاء. ولم يكن هناك جدول أعمال محدد للقاء لكن جولدا مائير أملت فى أقناع البابا بزيارة إسرائيل، وسيكون السبب الرسمى لزيارته هو إقامة قداس لمائة ألف مسيحى أو أكثر فى إسرائيل. لكنها كانت على يقين من أن وجوده فى إسرائيل سيعطيها زخماً هائلاً على الساحة الدولية.

ولأسباب أمنية لن يعلن عن اللقاء قبل إتمامه. وفى ختام مشاركتها فى مؤتمر الدولية الاشتراكية فى باريس ستتوجه مائير بطائرة العال إلى روما. ولن يبلغ بأمر زيارتها للفاتيكان سوى الصحفيين الذين يرافقونها على الطائرة فقط.

وطار زئيفى زامير رئيس الموساد إلى روما لمراجعة الترتيبات الأمنية. كانت روما مأوى للمنظمات الإرهابية من الشرق الأوسط وأوربا. كما تحولت أيضاً إلى موقع تنصت مهم للشغل الشاغل للموساد حينذاك أى رصد وقتل مرتكبى مذبحة الرياضيين الإسرائيليين فى ميونخ.

وجعل زامير روما قاعدة لمارك هسينر أحد أبرع ضباط الموساد لمعرفة كل ما يتعلق بالجالية العربية الكبيرة المقيمة فى المدينة. وفى ميلانو حيث هناك مركز آخر للنشاط الإرهابى وضع رئيس الموساد ضابطاً آخر متمرساً هو شاى قولى. وبعد أن أطلعهما على الزيارة المرتقبة رافقاه إلى الفاتيكان.

وفى العاشر من يناير ١٩٧٣ وفيما هم يستقلون السيارة عبر روما فى الطريق إلى الفاتيكان كانوا يعرفون الكثير عن علاقة الفاتيكان طويلة الأمد مع جهاز مخابرات آخر ربما يفوق معرفة مضيفهم.

ففى عام ١٩٤٥ استقبل «مكتب الخدمات الاستراتيجية» زمن الحرب وهو سلف وكالة المخابرات الأمريكية فى الفاتيكان بترحاب شديد أو «بذراعين مفتوحتين» على حد قول جيمس جيسيز أنجليتون مدير محطة «مكتب الخدمات الاستراتيجية» فى

روما. فقد طلب البابا بيوس الثاني عشر وإدارته البابوية من انجليتون مساعدة حملته المتشددة المناهضة للشيوعية بإيصال الحزب المسيحي الديمقراطي إلى السلطة. وقد استخدم انجليتون الكاثوليكي المؤمن كل ما بحوزته من موارد مهمة لرشوة وابتزاز وتهديد الناخبين لتأييد المسيحيين الديمقراطيين واتيحت له فرصة الوصول كاملة للجهاز الفذ للفاتيكان لجمع المعلومات في إيطاليا. فعلى كل راعي أبرشية وقس أن يقوم بالإبلاغ عن نشاط الشيوعيين الإيطاليين في أبرشيته. وعندما يفرغ الفاتيكان من تقييم تلك المعلومات يتم نقلها إلى انجليتون الذى يرسلها بدوره إلى واشنطن.

وفي واشنطن تستخدم تلك المعلومات لتأييد المخاوف القوية عميقة الجذور في تلك الخطة بأن الاتحاد السوفييتي يمثل تهديداً حقيقياً طويل الأمد على الغرب. وطُلب من انجليتون بذل كل ما في وسعه وكل ما من شأنه منع وصول نشطاء الحزب الشيوعي الإيطالي في حركة المقاومة أثناء الحرب. ومثل البابا كان انجليتون يشعر بالانزعاج من شبح التهديد الشيوعي للعالم الذى سيقسم العالم إلى نظامين: الشيوعية والرأسمالية، وهما نظامان لا يمكن أن يتعايشا بسلام. ولم يقل ستالين نفسه غير هذا.

كان البابا مقتنعاً بأن الشيوعيين الإيطاليين يقودون حملة لتدمير الكنيسة عند أى فرصة تسنح لهم، وفي الاجتماعات الدورية بين بيوس وانجليتون بدا شبح الشيوعية أضخم بكثير. وحث البابا بيوس انجليتون التقى على إبلاغ الولايات المتحدة بضرورة بذل كل ما هو متاح للقضاء على هذا التهديد وهكذا تحول البابا رمز السلام على الكرة الأرضية إلى عنصر متحمس في صنع السياسة الخارجية الأمريكية التى رسمت الحرب الباردة.

وبحلول عام ١٩٥٢ تولى ويليام كولبي وهو كاثوليكي تقى آخر رئاسة محطة روما فيما أصبح حينذاك وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وهو نفسه ويليام كولبي الذى سيدير أنشطة المخابرات المركزية الأمريكية في فيتنام. وزرع كولبي شبكة قوية من المخبرين داخل سكرتارية الدولة بالفاتيكان وفي كل أبرشية وفي كل إدارة. واستخدمهم لمساعدة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لمكافحة التجسس والتخريب السوفييتي في أرجاء العالم. وكان القساوسة يبلغون الفاتيكان بانتظام بما يحدث.

وفي بلاد كالفلبين كان الشيوعيون يحاولون القيام باختراق في هذا البلد الكاثوليكي. واستطاعت المخابرات المركزية الأمريكية شن عدد من الهجمات المضادة الفعالة. كان البابا يرى أن العنف ضروري، وشاطر الرأى القائل بأنه إذا لم تنجز الولايات المتحدة ما أسماه ذات مرة «أفعالاً حزينة لكنها ضرورية» فسوف يرزح العالم تحت وطأة مزيد من المعاناة لعقود قادمة.

وفي عام ١٩٦٠ حققت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية انفراجة عندما قدم كاردينال ميلانو مونتيني - الذى أصبح بعد ثلاث سنوات البابا يوحنا بولس السادس - قائمة بأسماء القساوسة العاملين في الولايات المتحدة الذين يعتبر الفاتيكان أنهم لا يزالون متساهلين مع الشيوعية، كانت الحرب الباردة قد بلغت ذورتها وجنون العظمة يستشرى في واشنطن. وقام مكتب التحقيقات الفيدرالي بتعقب ومضايقة القساوسة واضطر الكثير منهم إلى مغادرة الولايات المتحدة واتجهوا إلى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية. كانت المخابرات الأمريكية تخصص أموالاً كثيرة وهبات تحت اسم «برنامج الأموال» الذى يستخدم في تقديم هدايا سخية للجمعيات الخيرية الكاثوليكية والمدارس ودور الأيتام لتدفع تكاليف ترميم الكنائس التابعة للفاتيكان. كان القساوسة والراهبات المعروف عنهم ولاؤهم الشديد لأمريكا يتمتعون بقضاء عطلات مجانية. وكان كاردينالات إيطاليا يتلقون صناديق الشمبانيا وكراتين الملابس في بلد لا يزال يخرج من عنق زجاجة نقص الغذاء أثناء الحرب العالمية الثانية. كان الفاتيكان يعتبر الرؤساء المتعاقبين لمحطات المخابرات المركزية الأمريكية أكثر أهمية من السفراء الأمريكيين لدى إيطاليا.

وعندما اختير يوحنا الثالث والعشرون حبراً أعظم في عام ١٩٥٨ أذهل إدارة الفاتيكان بالقول إن حملة مكافحة الشيوعية أخفقت إلى حد كبير. وأمر كبار الأساقفة الإيطاليين «بالتزام الحياد السياسي». وانتابت المخابرات المركزية الأمريكية حالة سعار عندما أمر البابا يوحنا بمنع وصول المخابرات المركزية الأمريكية بحرية إلى الفاتيكان. وازداد هلعها عندما علمت بأن البابا بدأ في بذر بذور انفتاح جنيتي على الشرق «الأوستوبوليتيك» وبدأ حواراً حذراً مع الزعيم السوفييتي نيكيتا خروشوف. ولخص رئيس محطة المخابرات المركزية الأمريكية في روما رأيه في الفاتيكان بقوله «لم

يعد الفاتيكان ملتزماً كلية بالنظام الأمريكى فالكرسى الرسولى معاد، ويجب علينا من الآن فصاعداً النظر إليه من هذه الزاوية.»

وفى واشنطن أعد محللو المخابرات المركزية الأمريكية تعميمات شاملة بعناوين مثيرة مثل «الصلات بين الفاتيكان والشيوعية». وفى ربيع ١٩٦٣ أبلغت محطة روما أنه من المقرر أن تقيم الفاتيكان علاقات دبلوماسية كاملة مع الاتحاد السوفييتى. وتوجه جون ماكونى مدير المخابرات المركزية الأمريكية جواً إلى روما وشق طريقه للاجتماع مع البابا يوحنا قائلاً إنه جاء بناء على إلحاح من الرئيس جون فيتز جيرالد كيندى أول رئيس كاثوليكى لأمريكا. وقال ماكونى للبابا إنه يتعين على الكنيسة أن «توقف انجرافها نحو الشيوعية. وأن المقايضة مع الكرملين خطيرة بل وغير مقبولة. فالشيوعية هى حصان طروادة كما تشير الانتصارات الأخيرة لليسار فى الانتخابات العامة. وبعد توليهم السلطة الغى الشيوعيون الكثير من السياسات التى أيدتها الأحزاب الكاثوليكية».

ولعشر دقائق كاملة تحدث ماكونى بطريقته الصريحة المعهودة دون توقف. وأخيراً ران الصمت على قاعة الاجتماعات فى القصر البابوى ولبرهة راح البابا العجوز يتفحص زائره الطويل الزاهدثم شرع فى الحديث برقة شارحاً أن الكنيسة التى يرأسها تقع عليها مهمة ملحة هى: القضاء على الفقر والحرمان من حقوق الإنسان وإزالة الأماكن السكنية العشوائية والفقيرة والقضاء على العنصرية والقمع السياسى بما فى ذلك فى الاتحاد السوفييتى. والطريق الوحيد لمواجهة تحدى الشيوعية هو مواجهتها بالحجج المنطقية.

وبعد أن فقد ماكونى قدرته على كبح جماح غضبه، انفجر قائلاً: «لم آت للمناقشة فالمخابرات المركزية الأمريكية لديها أدلة قاطعة على أنه فى الوقت الذى ينتهج فيه البابا سياسة الانفراج مع موسكو فإن الشيوعيين يضطهدون القساوسة فى مختلف أنحاء الكتلة السوفييتية وآسيا وأمريكا اللاتينية»، لكن البابا كان يعتقد أن هذا هو السبب الذى يدعو إلى إقامة علاقات أفضل مع الاتحاد السوفييتى. وعاد ماكونى المنهزم إلى واشنطن وهو على اقتناع بأن البابا «أكثر تساهلاً مع الشيوعية من أى من البابوات السابقين عليه.»

وشعر ماكوني ورئيسه كيندى بالارتياح للوفاة المتوقعة للبابا الذى كان مصاباً بالسرطان في مراحله الأخيرة.

وعندما أصبح كاردينال ميلانو مونتيني البابا يوحنا بولس السادس أواخر عام ١٩٦٣ شعرت واشنطن بالارتياح وبعد يومين فقط عن اعتلائه الكرسي البابوى استقبل البابا الرئيس كيندى في لقاء خاص. وفي الخارج كان ماكوني يتجول في أرجاء حدائق الفاتيكان كما لو كان مالك أرض عاد إلى وطنه بعد طول غياب.

ونكبت فترة ولاية الحبر الأعظم يوحنا بولس السادس على الصعيد الشخصي باعتلال صحته وعلى الساحة الدولية باندلاع حرب فيتنام. ووصل إلى اقتناع بأن أوامر الرئيس ليندون جونسون بالتصعيد في عام ١٩٦٦ كان خطأ أدبياً وأنه كان يتعين منح الكرسي الرسولي دور صانع السلام. وبعد ثلاثة أشهر من دخول جونسون إلى المكتب البيضاوى طار إلى روما للقاء البابا، وأطلعه الرئيس الأمريكي على اقتراح تعزيز الوجود الأمريكي في فيتنام. ومرة أخرى وجدت المخابرات المركزية نفسها كماً مهملاً في الفاتيكان.

وعلم زئيفي زامير بكل هذا من ضابط الموساد في واشنطن. والآن وفي هذا الصباح المشرق الساطع العاشر من يناير ١٩٧٣ وأثناء توجهه مع اثنين من زملائه إلى الفاتيكان لبحث الترتيبات الأمنية لزيارة جولدا مائير، راود الأمل زامير بأن ينتهي الأمر بأن تحل الموساد محل المخابرات المركزية الأمريكية في حقل جمع المعلومات الذى تقوم به الفاتيكان منذ عهد بعيد.

وانتظرهم أمام القصر البابوى رئيس جهاز الأمن بالفاتيكان وهو رجل طويل ممصوص الوجه يرتدى بدلة زرقاءداكنة هي الزى الرسمي لجهاز الأمن بالفاتيكان ورافقهم في جولة استغرقت عدة ساعات في الدولة ـ المدينة الصغيرة لتفتيش الأماكن التي يمكن أن يختبىء فيها مسلح عربى لمحاولة اغتيال مائير. ودون أن يدرى رئيس جهاز الأمن بالفاتيكان كان زئيفي يبحث عن الأماكن التي يستطيع الموساد أن يزرع فيها أجهزة تنصت بمجرد الاتفاق على إقامة علاقة عمل مع الكرسي الرسولي. وعاد زامير إلى تل أبيب يشعر بالارتياح تجاه الترتيبات الأمنية التي أعدها الفاتيكان. والأكثر أهمية هو أنه عاد باعتقاد أنه لمس تساهلاً في موقف الفاتيكان تجاه إسرائيل.

وحتى قبل أن يهبط زامير في إسرائيل كانت تفاصيل زيارة مائير قد وقعت في أيدى منظمة أيلول الأسود ومن شبه المؤكد أنها تسربت إليها عن طريق قس موال للعرب من العاملين بسكرتارية الدولة في الفاتيكان. كانت زيارة جولدا مائير للفاتيكان فرصة ذهبية لا يستطيع أن يتجاهلها «على حسن سلامة» زعيم المنظمة الذى تطارده الموساد لتدبيره قتل الرياضيين الإسرائيليين في ميونخ وشرع في التخطيط لهجوم صاروخي على طائرتها لدى هبوطها في مطار ليناردو دافنشي بروما.

ولم يكن على حسن سلامة يعقد الأمل على قتلها وحدها فحسب بل القضاء أيضاً على الوزراء المهمين الذين يرافقونها مع ضباط الموساد الذين يستقلون طائرتها أيضاً. وحتى تفيق إسرائيل من تلك الضربات كان على حسن سلامة يأمل في أن يستطيع هو ورجاله أن يكونوا قد تواروا في مأوى يتفاوض مع السوفييت لتوفيره لهم.

ومنذ العام ١٩٦٨ الذى شهد الجيل المولود بعد الحرب العالمية فإن هذا الجيل يشن حربه ضد المجتمع تحت أسماء مثل الألوية الحمراء في إيطاليا والجيش الأحمر في ألمانيا وجيش التحرير الشعبى التركى ومنظمة التحرير الفلسطينية وأيتا الإسبانية، وقد اعترف الكرملين بقيمة هذه المنظمات للمساعدة في تدمير الإمبريالية وإسرائيل.

وكان الإرهابيون العرب يرتبطون بعلاقة خاصة مع الـ«كى. جى. بى» وكانوا أكثر جرأة وجسارة ونجاحاً من بقية المنظمات الأخرى. ولأنهم يواجهون عدواً شديد البأس «الموساد» فقد أعجب «الكى. جى. بى» ذو التاريخ الطويل وعانى في الوقت نفسه قسوتهم البالغة. ورتب الكى جى بى لمجموعة منتقاة من النشطاء العرب الحصول على تدريب في جامعة باتريس لومومبا في موسكو. ولم تكن تلك الجامعة جامعة عادية بل مدرسة لتخريج الإرهابين. فلم يكونوا يتلقون تلقيناً سياسياً فحسب بل يتدربون أيضاً على أحدث أساليب الكى جى بى على الاغتيال وانتقاء الأهداف. وفى جامعة باتريس لومومبا وضع على حسن سلامة اللمسات النهائية في خطته لمذبحة ميونيخ. وبعد تنفيذ العملية طلب الناجون ممن نفذوها، اللجوء إلى الاتحاد السوفييتي، لكن السوفييت عزفوا عن تقديم المأوى، فقد أثار الغضب العارم الذى فجرته عملية ميونيخ عدم الرغبة حتى في الكرملين لإيواء القتلة. وأبلغ السوفييت سلامة بأن طلبه للحصول على اللجوء في الاتحاد السوفييتى لا يزال قيد الدراسة.

ومع هذا فلم يبذل السوفييت شيئاً للتعاون في ملاحقة منظمة أيلول الأسود وبالقطع لم يكشفوا عن أن لدى المنظمة مستودعاً للصواريخ السوفييتية في يوغوسلافيا ولسوف تستخدم تلك الصواريخ في محاولة إسقاط طائرة جولدا مائير .

كانت الخطة شأن كل الخطط التي وضعها على حسن سلامة غاية في الجرأة والبساطة، فسيتم نقل الصواريخ إلى زورق بميناء دوبروفنيك لتبحر عبر البحر الأدرياتيكي إلى ميناء باري على الساحل الشرقي لإيطاليا. ومن هناك ستنقل جواً إلى روما قبيل وصول طائرة جولدا مائير، ولم ينس على حسن سلامة أيضاً الدروس الاستراتيجية التي تلقاها في جامعة لومومبا: عليك دائماً أن تجعل عدوك ينظر في الاتجاه الآخر وكان سلامة في حاجة إلى تحويل انتباه الموساد لاتجاه آخر أثناء الإعداد للهجوم على طائرة جولدا مائير .

وفي ٢٨ ديسمبر ١٩٧٢ هاجمت وحدة من منظمة أيلول الأسود السفارة الإسرائيلية في بانكوك. ورُفع علم منظمة التحرير الفلسطينية على مبنى السفارة وأُحتجز ستة إسرائيليين كرهائن. وسرعان ما هرع خمسمائة من قوات الشرطة والجيش لمحاصرة المبنى وطالب الإرهابيون بإطلاق سراح ستة وثلاثين من سجناء منظمة التحرير الفلسطينية وإلا فسوف يقتلون رهائنهم .

وفي تل أبيب تكشف سيناريو مماثل. فقد عقد مجلس الوزراء الإسرائيلي جلسة طارئة. ودار الحديث كالمعتاد على اتخاذ موقف متشدد أو الاستسلام. وعادت إلى الذاكرة عملية عنتيبي، فهل يمكن تكرار العملية؟ لكن زئيفي زامير قال إنه لا يمكن تكرار العملية. فالذهاب إلى بانكوك يتطلب دعماً لوجيستياً لن يتوفر ببساطة على طول طريق مليءبالأعداء. وعلى خلاف مطار عنتيبي الهدف النائي والمعزول فإن السفارة الإسرائيلية تقع بوسط بانكوك المزدحم، ولن تجازف الحكومة التايلاندية مطلقاً باحتمال حدوث تبادل إطلاق النار. ومالبث الإرهابيون أن وافقوا ومن دون توقع وبعد مفاوضات خاطفة مع ضابط تايلاندي على أن يخرجوا بسلام من البلاد مقابل إطلاق سراح رهائنهم وبعد ساعات كانت وحدة أيلول الأسود في رحلة إلى القاهرة حيث تلاشوا من هناك .

وفي تل أبيب عادت الشكوك لتغلف ارتياح زامير لعدم مقتل أي إسرائيلي في

العملية. وكانت منظمة أيلول الأسود مدربة تدريباً رفيعاً تحركها دوافع قوية وتتلقى دعماً مالياً جيداً كما أظهرت دهاءً استراتيجياً بارعاً. وكانت المنظمة شديدة التمرس على أساليب وطرق الضغط الكفيلة بتركيع أى حكومة. فلماذا استسلمت بهذه السرعة هذه المرة؟ كانت السفارة الإسرائيلية في بانكوك هدفاً مثالياً لمنحهم مزيداً من الشهرة وكذلك جذب آخرين إلى تأييد قضيتهم. وبالتأكيد لم تكن هناك عشوائية في انتقاء هدفهم. كان كل ما فعلته المنظمة جزءاً من هجومها المركز على الديمقراطية وداخل مقر السفارة اتبع الإرهابيون نصيحة معلمهم «شي جيفارا» بضرورة الإبقاء على الكراهية وتعميقها.. فقد أُسمع الرهائن العزل تقريعاً ينضح بمعاداة السامية لكن هل كل هذا مجرد تكتيك لتحويل الانتباه؟ هل يجرى التحضير لعملية أخرى ضد إسرائيل في مكان ما من العالم؟ أين ومتى؟ كانت تلك الأسئلة تدور في عقل زامير لدى مرافقته جولدا مائير إلى مؤتمر باريس، وهناك واصل البحث عن أجوبة لها.

وفي الساعات الأولى ليوم الرابع عشر من يناير ١٩٧٣ انكشف المستور، فقد أوصل مساعد للموساد يعمل في السنترال المركزى بروما مكالمتين هاتفيتين من هاتف بمبنى سكنى أحياناً ما يقيم فيه إرهابيون من منظمة التحرير الفلسطينية، كانت الأولى إلى بارى والثانية إلى أوستيا الميناء الذى يخدم روما. وجرت المكالمتان بالعربية التى يجيدها مساعد الموساد، وقال المتحدث «حان وقت تسليم شموع عيد الميلاد للاحتفال».

واقنعت تلك الكلمات زامير أنها أمر مُشفر للقيام بهجوم إرهابى مرتقب. ويمكن أن تشير كلمات «شموع عيد الميلاد» إلى الأسلحة، والمغزى الأرجح لكلمة شمعة هو الصاروخ، فالصاروخ هو الطريقة المثلى لتدمير طائرة جولدا مائير.

وراود زامير نفسه بأن تحذيرها لن يجدى فهى امرأة لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبها، كما أن إبلاغ الفاتيكان يمكن أن يؤدى إلى إلغاء الزيارة: أما أخشى ما يخشاه الفاتيكان فهو أن يتم ضبطه في حادث إرهابي خاصة إذا كان حادثاً سيدفعه إلى إدانة أصدقائه العرب.

واتصل زامير هاتفياً بكل من هيسنر وقولى ضابطى الموساد اللذين رافقاه أصلاً إلى الفاتيكان ونقل قولى من ميلانو إلى روما. ثم ما لبث زامير أن استقل - يرافقه فريق

صغير من ضباط الموساد المرافقين لجولدا مائير ـ أول طائرة متجهة إلى روما .

وتشكلت نفسيتهم بما سمعوه من زامير عن المحاولة المدبرة لاغتيال جولدا مائير في روما . وفي المدينة أفضى زامير بمخاوفه لرئيس مكتب مكافحة الإرهاب بإيطاليا (Di-gos) وقام ضباط المكتب بالإغارة على المبنى الذى أجريت منه المكالمتان لبارى وأوستيا وأسفر تفتيش إحدى شقق المبنى عن العثور على كتيب إرشادات سوفييتي لكيفية إطلاق صاروخ .. وطيلة الليل شن ضباط الموساد سلسلة من الغارات على شقق أخرى معروف أنها تخص منظمة التحرير الفلسطينية ولكن لم يعثر على شيء يؤكد شكوك زامير . ومع انبلاج الفجر حيث لم يتبق سوى ساعات على وصول طائرة مائير قرر تكثيف البحث في المطار وحوله ، وبعيد طلوع الشمس وجد هيسنر سيارة فان طراز فيات تنتظر في حقل قريب من مسار الطائرة وأمر ضابط الموساد قائد السيارة بالخروج لكنه فوجيء بانفتاح الصندوق الخلفي للسيارة وانطلاق دفعة من الأعيرة النارية ولم يصب هيسنر لكن اثنين من الإرهابيين أصيبا بإصابات بالغة عندما رد على النار . وتعقب هيسنر السائق على الأقدام وأدركه وهو يهم بمحاولة اختطاف سيارة كان يقودها قولي . وجذب ضابط الموساد الإرهابي سيء الحظ لداخل السيارة وانطلقا بأقصى سرعة إلى موقع قيادة زامير المتحرك بإحدى الشاحنات .

كان زامير قد تلقى بالفعل رسالة باللاسلكي بأن السيارة الفان كانت تحمل ستة صواريخ لكن كان يتعين أن يتأكد من عدم وجود صواريخ أخرى في أماكن أخرى وأشبع سائق السيارة ضرباً موجعاً قبل أن يفصح عن مكان المجموعة الثانية من الصواريخ . وشك زامير بأن السائق أحد الذين ساعدوا في تدبير مذبحة ميونيخ .

وانطلق زامير وهيسنر وقولي بالشاحنة بأقصى سرعتها والإرهابي المضعضع محشور بينهم صوب الشمال .

ووقعت أعينهم على سيارة فان تقف على جانب الطريق . ويطل من سقفها ثلاثة رءوس صواريخ لا يمكن أن تخطئها العين ، وعلى مرمى البصر لاحت طائرة مائير البوينج ٧٤٧ التي ستهبط في غضون ثوان وعلاماتها المميزة تبدو واضحة تحت أشعة الشمس . ودون تردد اندفع زامير بشاحنته بأقصى سرعة ليرتطم بأقصى قوة بأحد جانبي السيارة الفان لتنقلب على جنبها الآخر ، وانسحق الإرهابيان الموجودان

بالسيارة الفان تقريباً بعد أن سقطت عليهما الصواريخ.

وعاد زامير لينطلق بشاحنته ولم يتوقف إلا برهة ليقذف بالسائق عديم الحيلة على الطريق بجوار السيارة الفان ويبلغ رجال مكتب مكافحة الإرهاب الإيطالى «بأن هناك حادثاً مهما يجب أن يعاينوه». وفكر زامير لبرهة فى قتل الإرهابيين لكنه شعر بأن قتلهم سيلقى بظلال قاتمة على لقاء البابا بجولدا مائير.

وأحست جولدا مائير وكأن شموم العالم منثالة على كاهل الحبر الأعظم وتوشك أن تسحق جسده النحيل. وفى ختام اللقاء ورداً على أسئلتها قال البابا إنه سيزور الأراضى المقدسة وتحدث عن حج قداسته وعندما سئل عن إمكانية إقامة علاقات رسمية بين إسرائيل والفاتيكان تنهد قائلاً «إن الوقت غير مناسب» وأهدته جولدا مائير كتاباً بغلاف من الجلد عن الأرض المقدسة، وسلمها البابا نسخة مشفوعة بإهدائه من المنشور البابوى «حياة البشر» الذى رسّم به فترة ولايته البابوية.

ولدى مغادرتها الفاتيكان قالت جولدا مائير لزامير إن الكرسى الرسولى يملك على ما يبدو ساعة تختلف عن بقية ساعات العالم.

ونُقل إرهابيا منظمة أيلول الأسود اللذان شاركا فى مذبحة الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ إلى المستشفى وبعد شفائهما سُمح لهما بالتوجه إلى ليبيا. لكن وفى غضون شهور ستضع فرقة اغتيالات بالموساد نهاية لحياتهم جميعاً.

وقوبل هذا الانتقام الذى أمرت به جولدا مائير تنفيذاً لما جاء بالتوراة بأن العين بالعين، بنفور من البابا يوحنا الذى تقوم سلطة بابويته على عقيدة الصفح. كما ساهم أيضاً فى تعزيز علاقة الفاتيكان مع منظمة التحرير الفلسطينية التى أبقى عليها البابا يوحنا بولس الثانى بعد اختياره فى العام ١٩٧٨.

ومنذ ذلك الحين استقبل البابا ياسر عرفات وكبار مساعديه فى لقاءات خاصة مطولة أعاد البابا خلالها التأكيد على التزامه بمواصلة السعى النشط لإقامة وطن للفلسطينيين. وأقامت منظمة التحرير الفلسطينية بعد انتقال مقرها إلى تونس مكتب اتصال دائماً مرتبطاً بسكرتارية الدولة بالفاتيكان كما كان للفاتيكان مبعوثها الخاص لدى المنظمة وهو الأب أيدى عياد.

وفيما بدأ يجرجر ثوبه الكهنوتى على رمال الصحراء قدم الأب عياد خدماته بإخلاص تام لكل من الحبر الأعظم وياسر عرفات لدرجة علق معها صورتين بإطارين تحملان توقيع البابا وعرفات على جدران غرفة نومه. وساعد عياد عرفات فى إعداد مسودة خطاب إلى البابا عام ١٩٨٠ أدخل السرور عليه جاء فيه «أرجو أن تسمحوا لى بأن أحلم أننى أراكم تذهبون إلى القدس يحف بكم اللاجئون الفلسطينيون حاملين أغصان الزيتون ينثرونها تحت قدميكم».

واقترح عياد ضرورة أن يتبادل عرفات والبابا المجاملات فى المناسبات الدينية وبدأ عرفات فى إرسال بطاقات تهنئة بالأعياد إلى البابا بمناسبة عيد الميلاد وبدأ البابا يرسل التهانى لعرفات بمناسبة المولد النبوى. وتوسط الأب الذى لا يعرف الكلل أو الملل فى التوسط لعقد اجتماع بين وزير(*) خارجية منظمة التحرير الفلسطينية والكاردينال كازرولى وزير خارجية الفاتيكان وبعد ذلك جرت توسعة مكتب شئون الشرق الأوسط كما تلقى السفراءالباباويون تعليمات بإقناع الحكومات المعتمدين لديها بتأييدطموحات منظمة التحرير الفلسطينية بإقامة دولة فلسطينية وأصابت كل تلك التحركات إسرائيل بالهلع. وكانت اتصالاتها الرسمية مع الفاتيكان لا تزال محدودة فى بضع زيارات غير متكررة يقوم بها مسئول حكومى لا يمنح سوى بضع دقائق فى حضور البابا.

ويعود منشأ العلاقة الفاترة بين الجانبين فى ناحية منه إلى واقعة غريبة حدثت بعد إقامة إسرائيل عام ١٩٤٨.

فقد أوفد وزير خارجية الفاتيكان حينذاك مبعوثاً إلى المدعى العام فى إسرائيل حاييم كوهين حاملاً طلباً بضرورة قيام إسرائيل بإعادة محاكمة السيد المسيح وبالطبع تعديل الحكم الأصلى الصادر ضده. وبمجرد حدوث هذا فسوف يعترف الفاتيكان بإسرائيل رسمياً. ولم نكن أهمية مثل تلك العلاقة الدبلوماسية خافية على كوهين. ولكن لكى يحقق هذا الطلب بهذه الطريقة فأمر رآه كوهين بمثابة «نزوة يصعب تصديقها فلا مغزى لإعادة تلك المحاكمة وهناك على أية حال أولويات ملحة يتعين

(*) فاروق القدومى رئيس الدائرة السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية (الترجمة).

تسويتها كالإفلات من مذابح الجيران العرب فإثارة سيرة المسيح تشكل أولوية متأخرة للغاية في قائمة أولوياتي».

وبعد المقابلة الجافة التي لقيها المونسنيور من كوهن ارتد الفاتيكان على عقبيه بالنسبة لإسرائيل.

ومنذ ذلك الحين لم تلح أي بادرة أمل إلا عندما ألمح «البينو يوشيانو - يوحنا بولس الأول(*) - الخلف المباشر للبابا يوحنا بولس السادس خلال الأيام الثلاثة والثلاثين التي أمضاها على عرش القديس بطرس إنه سيدرس إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. وبعد وفاته المفاجئة بنوبة قلبية بسبب مسئوليات موقعة كما تردد جاء كارول فويتيلا(**) وفي عهده ظل الباب البرونزي للقصر البابوي شبه مغلق تقريباً أمام إسرائيل فيما تحرك الفاتيكان بقدر أكبر نحو السياسة الدولية وقد شجعه في ذلك إعادة علاقاته مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

ففي عام ١٩٨١ كان ويليام كيسي الكاثوليكي. من بين أوائل المسئولين الذي استقبلهم البابا الجديد في لقاء خاص فور اختياره وانحنى كيسي أمام البابا البولندي ذي الشخصية الكاريزمية وقبل خاتمه، وفي كل كلمة وإيماءة كان مدير المخابرات المركزية الأمريكية متضرعاً ذليلاً ليس كأسلافه المغالين القساة لكن كيسي شاطرهم والبابا انعدام الثقة والخوف من الشيوعية.

ولأكثر من ساعة بحثا القضايا ذات الاهتمام المشترك، إلى أين يتعين أن تذهب سياسة الانفتاح على الشرق الآن؟ كيف سيرد النظام البولندي بل والكتلة السوفييتية بأسرها الآن على تغيير التوجه الذي تعتزم الكنيسة الإقدام عليه الآن؟ وغادر كيسي غرفة الاجتماعات واثقاً من شيء واحد هو: أن البابا يوحنا بولس الثاني ليس الرجل الذي يسعى للتسويات السهلة. وهذا هو الذي جعل منه شخصية كاريزمية، فمعتقداته الظاهرة ربما كانت تقدم خير إجابة على السؤال الممل القديم وهو السؤال المفترض أن ستالين قد طرحه عما يعانيه البابا من انقسامات. وفي اعتقاد كيسي كان البابا يوحنا بولس الثاني هو البابا الذي سيثبت بمفرده أن الإيمان يمكن أن يفعل

(*) يوحنا بولس الأول تولى من ٢٦ / ٨ حتى ٢٨ / ٩ ١٩٧٨

(**) البابا الحالي يوحنا بولس الثاني. (الترجمة).

المعجزات أكثر من أى قوة أخرى.

وعاد كيسى إلى واشنطن ليطلع الرئيس ريجان الذى كلف مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بالعودة إلى روما ليبلغ البابا بأنه ووفقاً لترتيبات سرية فقد وافق الرئيس اعتباراً من الآن على أنه سيتم اطلاعه على كافة جوانب السياسة الأمريكية السياسية والاقتصادية والعسكرية بالكامل.

ومساء كل يوم جمعة كان رئيس محطة المخابرات المركزية الأمريكية فى روما يحمل إلى القصر البابوى أحدث الأسرار التى جلبها عملاء المخابرات المركزية الميدانيون عن طريق الأقمار الصناعية وأجهزة التنصت الألكترونى. ولم يكن بوسع أى زعيم آخر الحصول على المعلومات التى يحصل عليها البابا. فقد مكنت تلك المعلومات أكثر البابوات المسيسين فى عصرنا الحديث من صياغة أسلوبه الفريد وسلطته المميزة على كل من الكنيسة والعالم العلمانى على حد سواء؛ فقد أصبحت الدبلوماسية البابوية - وهى الجوهر السياسى لبيروقراطية الفاتيكان المركزية المفرطة - أكثر انخراطاً فى الأحداث العالمية بشكل لم يحدث فى تاريخ الفاتيكان الحافل منذ خمسمائة عام. وكزعيم عالمى أوشكت تلك المشاركة على أن تفقده حياته عندما تعرض لمحاولة اغتيال فى ميدان القديس بطرس فى ١٣ مايو ١٩٨١.

وفى إحدى ليالى روما الباردة بعد عامين فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٣ أوشك على معرفة إجابة السؤال الذى يؤرقه: من الذى أمر باغتياله فكل لحظة مرت فى محاولة اغتياله لاتزال محفورة فى ذاكرته تماماً كالندبة التى خلفها إطلاق الرصاص عليه.

كان الميدان لحظتها يغص بنحو مائة ألف شخص بعد ظهر الأربعاء ١٣ مايو ١٩٨١، وكان هذا الحشد متجمعاً فى ثلاثة أرباع دائرة تطوق أعمدة بيرتينى (٢٨٤ عموداً و٨٨ قاعدة) تحمل ١٦٢ تمثالاً للقديسين، وحدد سياج الطريق الذى ستسلكه مركبة البابا إلى المنصة التى يلقى عليها خطابه الأسبوعى. كانت الأجواء أجواء احتفالية، وخمن بعض الحضور ماذا عسى أن يكون الحبر الأعظم يفعله فى المقار السكنية البابوية بينما هم ينتظرون مقدمه.

أما ما كان يضمره الشاب التركى داكن اللون محمد على أغا فلم يكن لأحد علم به. فقد وصل إلى الميدان ضحى ذلك اليوم وشق طريقه قرب الطريق الذى ستجتازه

مركبة البابا. كان أغا عضواً في منظمة إرهابية تركية تطلق على نفسها اسم الذئاب الرمادية ومقرها تركيا. لكنه تركها وتنقل بين معسكرات تدريب مختلفة في الشرق الأوسط تتبع منظمات إسلامية أشد تطرفاً، والآن أوشك على الوصول إلى نهاية الرحلة، كان أغا موجوداً بالميدان لا ليحيي البابا بل ليقتله.

وفي الساعة الرابعة بدل البابا ملابسه ليرتدي رداء كهنوتياً حريرياً أبيض اللون مكوياً، وبناء على نصيحة المخابرات المركزية الأمريكية تم تعديل الرداء بمهارة ليسمح بارتداء سترة واقية من الرصاص تحته، كان كيسي قد حذر البابا في آخر زيارة له للقصر البابوي من أنه في «زمن الجنون الذي نعيشه فإن البابا نفسه عرضة للهجوم، لقد أبلغته بأنه ليس لدينا أدلة دامغة على أنه عرضة للخطر، لكن البابا شخصية مثيرة للجدل ويمكن لأي مهووس أن يقدم على قتله.»

ورفض البابا ارتداء السترة الواقية من الرصاص، وأبلغ سكرتيره المونسينور جون ماجي الذي يتحدث الإنجليزية بأن الفكرة تتناقض تماماً مع ما تمثله البابوية.

وهبط البابا يوحنا بولس الثاني إلى فناء سان داماسو داخل القصر البابوي في تمام الساعة الرابعة وخمسين دقيقة بعد الظهر.. وشرع كاميلو سيبين رئيس أمن الفاتيكان في وضع علامة صح على نسخته من الجدول الزمني الذي يحكم العمل اليومي للبابا لحظة بلحظة عقب كل خطوة يقطعها البابا. وفي جاكيت سيبين رمادي اللون يوجد جهاز تليفون خلوي صغير لكنه بالغ القوة متصل بمقر شرطة روما. لكن الحماية اللصيقة للحبر الأعظم كانت من اختصاص رجال جهاز أمن الفاتيكان ذوي السترات الزرقاء «فيجيلي»، وكانت قوة أمن الفاتيكان الصغيرة جيدة التدريب هي عين القناص بعد الحرس السويسري الذي اتخذ موقعه في ميدان القديس بطرس.

وكانت تنتظر بالفناء مركبة البابا «كامبا جنيولا» بمقعدها الجلدي بالمتكأ الذي يمسك به البابا أثناءتقدمه نحو الميدان الفسيح.. والتف حول المركبة كبار العاملين بالفاتيكان. ويتذكر ماجي بأن البابا يوحنا بولس الثاني «كان في حالة طيبة على غير المألوف».

وفي تمام الساعة الخامسة تحركت المركبة خارج الفناء وبدأ الترحيب من ميدان القديس بطرس.. ومع اقتراب مركبة البابا من قوس الأجراس انضمت شرطة مدينة

روما إلى أمن الفاتيكان «فيجلي» الذين اصطفوا أمام وخلف مركبة البابا مباشرة، ومع ظهور المركبة البابوية بالميدان تعالى هدير الجماهير وأخذ البابا يلوح بيديه ويبتسم، وقد منحه قيامه بالتمثيل فى شبابه حضوراً قوياً.

تحركت المركبة البابوية باتجاه المسلة المصرية بوسط الميدان بسرعة ميلين فى الساعة بينما البابا يلتفت من جانب إلى آخر، وفى تمام الساعة الخامسة والربع بدأت الكامبا جنيولا دورة ثانية بالميدان تحت مراقبة لصيقة من رئيس الأمن سيبين الذى كان يهرول خلف المركبة البابوية.. وتعالى هدير الحشود أكثر فأكثر. وأقدم البابا على تصرفات تثير أعصاب سيبين، فقد اقترب من الجماهير وحمل طفلاً، واحتضن وقبّل طفلة صغيرة ثم أعادها إلى أمها المشدوهة. كانت تلك التصرفات جزءاً من التصرفات المعهودة للبابا. وطالما ساور القلق سيبين من أن طفلاً قد يفلت من يدى البابا ويسقط على الأرض مما ينجم عنه حادث قد لا تحمد عقباه، لكن البابا بدد كل ذلك القلق.

وفي الساعة الخامسة وسبع عشرة دقيقة اقترب مرة ثانية ليلمس رأس طفلة صغيرة أخرى ترتدى ثوباً أبيض، ثم استقام البابا متلفتاً حوله كما لو كان يترقب الشخص القادم الذى سيحييه كانت تلك طريقته في إضفاء لمسة إنسانية للبابوية فى أكبر حشد جماهيرى.

لم يكن يعلق بذهنه فى تلك اللحظة أى من تلك المخاطر التى تواجهه فى ظل حشود أخرى، فهى أبعد ما تكون عنه الآن. فقبل ثلاثة أشهر فقط وفى ١٣ فبراير ١٩٨١، انفجرت قنبلة فى استاد بلدية كراتشى قبل أن يبدأ رحلته مع المؤمنين، وفى كانون الثانى ١٩٨٠ حذرت المخابرات الفرنسية من وجود مؤامرة لاغتيال البابا وكان ذلك مجرد واحد من عشرات التهديدات التى تلقاها الفاتيكان وتستهدف حياة البابا، وأجرى التحقيق لأقصى مدى ممكن فى كل منها، وقال ماجى لاحقاً «ما كان يسعنا فى الواقع سوى الانتظار والترقب، ولم يكن أمامنا من سبيل سوى وضع البابا فى هيكل واقٍ من الرصاص عندما يظهر أمام الجمهور وهو أمر دأب على رفضه على الإطلاق، ولم يكن باليد حيلة».

وفى الساعة الخامسة وثمانى عشرة دقيقة دوى صوت أول طلقة فى ميدان القديس بطرس، كان البابا لا يزال واقفاً بالمركبة ويداه قابضتان على المتكأ، وفى ثوان بدأ

يترنح فقد اخترقت الرصاصة الأولى التى أطلقها محمد على أغا بطنه لتصيبه بجراح عديدة فى الأمعاء الدقيقة والغليظة والجزء السفلي من القولون والمساريقا أى الأغشية التى تغلّف الأمعاء وتربطها بجدار البطن. وتلقائياً وضع البابا يوحنا بولس الثانى يده على مدخل المقذوف فى محاولة منه لوقف الدم المتدفق منه، وبدأت علامات الألم ترتسم على وجهه ورويداً رويداً بدأ يسقط مغشياً عليه، ولم تكد تمر على إصابته سوى بضع ثوان.

وأصابت الرصاصة الثانية التى أطلقها أغا الذراع اليمنى للبابا الذى تهاوى على جنبه دون حراك وتناثر الدم القانى فوق ردائه الكهنوتى الابيض، وأصابت الرصاصة الثالثة عيار ٩ مم بمنطقة أعلى فى الذراع اليمنى.

وتكور السائق فى مقعده فاغراً فاه وقد ألجمته الصدمة عن الكلام، وأخذ سيبين يصرخ فيه ليتحرك بالمركبة. وألقى أحد مساعدى البابا بجسده عليه لحمايته. ودبت الفوضى بين الجماهير وأخذت تتمايل كما لو كانت أشجاراً غضة يعصف بها إعصار. وتناهت إلى الأسماع من ساحة المعركة عبارة واحدة صادمة ترددت بكل اللغات فى نفس الوقت «لقد أطلق الرصاص على البابا».

وشهر سيبين ورجال أمن الفاتيكان ورجال شرطة مدينة روما بنادقهم وراحوا يصدرون الأوامر والأوامر المضادة، وانطلق أغا بين الحشود يعدو بأقصى سرعة شاهراً مسدسه بيده اليمنى، وواصلت الجماهير إفساح الطريق أمامه تحت إرهاب مسدسه، وفى نفس اللحظة عرقله أحدهم وقام ضابط بشرطة روما بإلقاء القبض عليه فى نفس اللحظة. وما هى إلا برهة حتى كان الرجلان تحت كومة من البشر فى مشهد أشبه بمباراة للرجبى.

وانهال عدد من الضباط لكماً وركلاً وضرباً فى محمد على أغا قبل اقتياده إلى سيارة الشرطة. وواصلت مركبة البابا تحركها ببطء مميت باتجاه أقرب سيارة إسعاف موجودة قرب الباب البرونزى للفاتيكان، لكن لم تكن هناك أسطوانات أوكسجين بالسيارة ولذا فقد نُقل البابا إلى سيارة إسعاف أخرى مجاورة. كانت اللحظات الحرجة تضيع هباءً.

وانطلقت سيارة الإسعاف تطلق عويلها وتضىءأنوارها بسرعة بالغة صوب

مستشفى جيميلى بروما أقرب المستشفيات إلى الفاتيكان لتقطع المسافة فى زمن قياسى قدره ثمانى دقائق فقط، وأثناءهذه المسافة لم ينبس البابا بكلمة تنم عن اليأس أو الحنق بل مجرد كلمات لمبتهل متضرع «أمى يا عذراء.. أمى يا عذراء».

وفى المستشفى نقل بأقصى سرعة إلى جناح العمليات بالدور التاسع الذى يضم غرفة عناية مركزة وغرفة عمليات ووحدة إفاقة، وفى هذا المركز للأزمات لا مجال للهلع أو الكلمة المهدرة أو الحركة بدون جدوى. فلا يسود سوى السرعة البالغة والنظام والانضباط الصارم، وفى هذا المكان أمكن للبابا الجريح أن يشعر ببداية شعاع الأمل.

وخُلِع عنه رداؤه الكهنونى المطلخ بالدماءوملابسه الداخلية وكذلك الصليب المتدلى من سلسلته الذهبية القوية الملطخ بالدماءبحرص بالغ، وبُسطت الفوط الجراحية فوق جسد البابا العارى، وبدأت الأيدى الخبيرة للفريق الجراحى التعامل مع الحالة فى معركة جراحية ليست بالهينة.

وعندما أفاق البابا بعد الجراحة التى استغرقت نحو ست ساعات كان يعتقد أن الذى أنقذ حياته هو ظهور القديسة فاتيما التى تحظى بمكانة رفيعة فى العالم الكاثوليكى والتى صادف يوم عيدها يوم محاولة اغتياله.

وخلال فترة نقاهته الطويلة أصبح البابا يوحنا بولس الثانى أكثر انشغالاً بمن الذى أمر باغتياله. وحاول تمحيص وقراءة حتى أوهى الأدلة التى جمعتها الشرطة ومختلف أجهزة المخابرات كالمخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات الفيدرالية الألمانية الغربية وأجهزة الأمن التركية والنمساوية، وكان من المستحيل قراءتها جميعاً فقد كانت هناك ملايين الكلمات مدرجة فى التقارير والبيانات والتقييمات.

ولم تشف وثيقة واحدة غليل البابا أو تجيب على سؤاله من الذى أراد قتله؟ وحتى مع مثول أغا أمام محكمة جنايات روما فى الأسبوع الأخير من يوليو ١٩٨١ كان البابا لا يزال يجهل من الذى أمر بقتله، ولم تلق جلسات الاستماع السريعة لثلاثة أيام أى ضوءعلى دوافع الجانى محمد على أغا. وصدر الحكم بالسجن مدى الحياة على أغا وسيكون مؤهلاً للإفراج عنه لحسن السير والسلوك فى عام ٢٠٠٩ إذا كان سلوكه مستقيماً.

وأخيراً وبعد عامين من الحكم على أغا بالسجن تلقى البابا وعداً بالإجابة على السؤال الذى لا يزال يعذبه. وجاء هذا الوعد من قس كان يثق فيه أكثر من كل الآخرين، كان لقبه هو «الراعى الرسولى ذو المسئولية الخاصة» وهى ألفاظ لا توحى بأى دلالة على أن كبير الأساقفة لويجي بوجى هو الوريث الطبيعى لعالم السياسات البابوية الحافل بالأسرار المكلف بمسئوليات خاصة لجمع معلومات من أوربا الشيوعية.

ودأب العاملون فى الفاتيكان على إطلاق اسم «جاسوس البابا» عليه، ولعدة أشهر انهمك بوجى فى إجراء اتصالات بالغة السرية مع الموساد، وفى اللحظات الأخيرة وبعد أن قطعت تلك الاتصالات شوطاً متقدماً أبلغ البابا بطبيعة اتصالاته، وطلب منه البابا الاستمرار، ومنذ ذلك الحين بدأت الاجتماعات فى الانعقاد مع ضابط للموساد فى فيينا وباريس ووارسو وصوفيا، وأراد القس وضابط الموساد التأكد مما هو معروف وما هو متوقع. وعقب كل اتصال ولقاء ذهبا إلى بحث الخطوة التالية.

وعقد اجتماع آخر فى فيينا المدينة المفضلة لبوجى وضابط الموساد لإجراء اتصالاتهما السرية. ومن هذا الاجتماع عاد بوجى إلى الفاتيكان فى ليلة تساقطت فيها الثلوج فى روما عام ١٩٨٣ حاملاً معه الإجابة عن السؤال الذى يؤرق بال البابا: من الذى أمر أغا باغتياله؟

«السبب الأرجح لدس الموساد أنفها في القضية ربما

يكون محاولة الوصول إلى الفاتيكان. فلابد وأن أدموني اعتقد بأنه

سيتوصل إلى شيء يقايض به الكرسي الرسولي».

الفصل
الثاني
عشر

براقو: أساتذة الجاسوسية

كانت إحدى البوابات الضخمة فى قوس الأجراس قد أغلقت بالفعل توطئة لطقوس إغلاق كافة المداخل المؤدية إلى الفاتيكان مع منتصف الليل، وفى تلك اللحظة تناهى صوت سحق إطارات سيارة فيات كسارة الزلط أمام البوابة، ولم يخطئ الحارسان السويسريان فهم دلالة الأضواء التى تصدر عنها. وخلفهما كان يقف أحد أفراد أمن الفاتيكان، وتقدم أحد الحراس رافعاً يده بالتحية وفي الوقت نفسه آمراً السيارة بالتوقف. كان قدوم السيارة متوقعاً كما أن وجه سائقها كان مألوفاً لحرس الفاتيكان، لكن وبعد محاولة اغتيال البابا لم يعد أحد يأخذ الأمور اعتباطاً.

وقد انتظر سائق السيارة لمدة ساعة بمطار روما ترقباً لوصول الطائرة القادمة من فيينا والتي تأخرت بسبب سوء الأحوال الجوية. وتراجع الحارس بعد تأدية التحية كاملة لراكب السيارة المستتر خلف ستائر داكنة بالمقعد الخلفى.. ولم يتلقَ الحارس رداً على تحيته.

وانطلقت السيارة بجوار كنيسة القديس بطرس فوق الزلط الذى يفترش فناء سان داماسو لتتوقف أمام المدخل الرئيسى للقصر البابوى. وقفز السائق خارج السيارة ليفتح الباب لراكبها. وخرج كبير الأساقفة لويجى بوجى مرتدياً ثياباً سوداءداكنة

ومتلفحاً بكوفية تخفي بياض ياقته. كانت هيئته الجسدية تشبه هيئة رافي إيتان بكتفيه العريضتين وعضلاته القوية ومشيته وعينيه الجامدتين كتلك الليلة قارسة البرودة.

وكالمعتاد كان بوجي يسافر بحقيبة جلدية صغيرة بها متعلقاته الشخصية وحافظة صغيرة مزودة بقفل، وأحياناً ما كان يتندر بأنه يقضي أوقاتاً أطول بمقعده في الطائرة مما يقضيه في سريره بجناحه الفسيح بمؤخرة القصر البابوي.

كانت رحلات قليلة أخيرة فقط هي التي على قدر أهمية ما أبلغ به بوجي أخيراً في اجتماع معه بالحي اليهودي القديم في فيينا. وهناك وفي مبنى ضيق شاهق يبعد بضعة مبان على مكاتب صائد النازي سيمون فينرنتال أصغى كبير الأساقفة باهتمام إلى رجل اتفق على تسميته باسمه الأول فقط: إيلي.

واعتاد بوجي على مثل تلك التحذيرات في تعاملاته مع الموساد. ولم يكن هناك أحد بمثل هذا الحرص على الأمن مثل عملاء الموساد. كانت التفاصيل الشخصية الوحيدة التي يعرفها عن إيلي هي إجادته عدة لغات وإجابته أخيراً عن السؤال المؤرق: من الذي دبر محاولة اغتيال البابا؟

ومن جانبه فإن عمل لويجي بوجي كان بالغ السرية لدرجة أن أنواريو بونتيفيشير مسجل الفاتيكان الذى كان يدوّن أسماء كافة العاملين بالفاتيكان لم يدر شيئاً عن أنه على مدى أكثر من عشرين عاماً أجرى كبير الأساقفة بوجي اتصالات بالغة السرية طالت حتى الكرملين وواشنطن ودهاليز السلطة فى أوربا. وكان بوجي أول من عرف أن الزعيم السوفييتي يورى أندروبوف يحتضر بسبب إصابته بمرض مزمن فى الكبد وفشل كلوى. كان بوجي هو الذى جلس فى مقر البعثة السوفييتية فى جنيف وهو قصر منيف يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر وتقدم به أفخر أنواع الكافيار والفودكا التى يولع بها وعلم أن موسكو مستعدة لسحب رؤوسها النووية الموجهة إلى أوربا إذا كفّت واشنطن عن تشددها فى مباحثات الحد من التسلح. وأبلغت تلك المعلومات إلى رئيس محطة المخابرات المركزية الأمريكية فى روما فى لقائه يوم الجمعة التالى مع البابا. وعلى مدى أكثر من عقدين من الزمان أمدّ بوجي البابوات بتفاصيل مكنتهم من استخلاص أفضل تقييم للمعلومات التى يتم الحصول عليها من مصادر أخرى. كان كبير الأساقفة بوجي يمتلك القدرة - وهى قدرة نادرة حتى بين الدبلوماسيين - على استخلاص تقييم سريع ومتوازن للمادة الواردة من دستة مصادر وبكثير من اللغات التى كان يتحدث معظمها بطلاقة.

وفى لقائه التالى مع إيلى تحدث كبير الأساقفة بوجي بصوته الرقيق المألوف الذى يميزه منذ أمد طويل وتألقت عيناه وزم شفتيه قبل أن يطرح سؤالاً جديداً لم يتغير جوهره على مايبدو.

وفى تلك الليلة الشتوية الباردة وقد نال التعب منه بسبب كثرة أسفاره لدرجة لا يستطيع معها ارتقاء السلالم، اتجه بوجي أمام حارس أمن الفاتيكان والحارسين السويسريين فى نوبة حراستهم حيث وقفوا انتباه لدى مروره ليستقل المصعد المؤدى إلى المساكن البابوية.

وقاد كبير خدم البابا كبير الأساقفة بوجي إلى مكتب البابا. كانت أرفف مكتبة البابا تشي بتنوع اهتماماته. فإلى جانب الكلاسيكيات المطبوعة باللغة البولندية ازدحمت أرفف المكتبة بأعمال علماء اللاهوت والفلاسفة ودوريات مثل انترناشيونال ديفينس ريفيو، وكتب بعناوين مثيرة مثل مشكلات الاستعداد والتوازن العسكرى

والهجوم الباغت. كان ذلك يعكس اقتناع البابا العميق بأن العدو الرئيسى للعالم عام ١٩٨٣ لا يزال هو الشيوعية السوفييتية.

لم يكن البابا يدع فرصة دون إبلاغ موظفيه المقربين منه بأن فجر الألفية الجديدة لن يبزغ إلا ويكون شيء «حاسم» قد اجتاح العالم. وفى الرد على كل أسئلتهم لم يكن البابا يسهب فى الحديث بل يهز رأسه الضخم طالباً منهم جميعاً الصلاة كى لا تتراجع الكنيسة أمام الشيوعية أو العلمانية التى تجتاح دولاً مثل الولايات المتحدة وألمانيا وهولندا. وأكد أن حياته أُنقذت فى ميدان القديس بطرس ليقود المعركة.

كان بوجى يدرك تمام الإدراك أن قلق البابا أكثر من أى شيء آخر هو الذى أثر على حالته الجسدية والعقلية. وبعد انتهاء الترحيب لم يكن يغيب عن بوجى أنه - بعيداً عن الناس - يصبح البابا يوحنا بولس الثانى أكثر انطواءً. فلم تترك طلقات محمد على أغا آثارها على عظامه أو أنسجة جسمه فحسب بل خلفت ندوباً نفسية جعلته يشرد مع أفكاره بل ويبدو شديدالانطواء فى بعض الأحيان.

وبدأ بوجى وقد جلس واضعاً ذراعيه فو ق ركبتيه، وهو وضع جلوسه الأثير عندما تكون لديه أنباءٌ مهمة يريد الكشف عنها، يروى القصة التى بدأت فى الأسابيع الأولى بعد أن أطلق عليه أغا الرصاص.

وعندما تناهت أنباء ما حدث فى ميدان القديس بطرس بعد ظهر ١٣ مايو ١٩٨١، إلى تل أبيب كان تعليق رئيس المخابرات إسحاق حوفى الفورى هو أنه فعل من تدبير مهووس. ومع شعوره بالصدمة رغم وقوع الحادث فى روما إلا أنه لم يكن على قائمة اهتمامات الموساد الملحة.

كان العرب والإسرائيليون أشد تطرفاً بينما وفى الوقت نفسه ازدادت نزعة العنف لدى المتطرفين اليهود بقيادة حزب كهانا كاخ(*). وتم اكتشاف مؤامرة أوقفت فى

(*) اسم الحركة «هكذا كاخ» تأسست على يد مائير كهانا فى إسرائيل عام ١٩٧٣ كامتداد لرابطة الدفاع اليهودية التى أسسها كهانا فى الولايات المتحدة عام ١٩٦٨. وحظر نشاط الحركة عشية انتخابات عام ١٩٨٨ بسبب أفكارها وممارساتها العنصرية، وقتل رئيسها مائير كهانا عام ١٩٩٠ وانقسمت الحركة بعد مقتله إلى حركة كاخ برئاسة باروخ مرزل ومقرها كريات أربع وتنظيم (كهانا حى) بمستوطنة كفار تبواح بنابلس ويرأسها ابن كهانا (الترجمة).

الوقت المناسب لتفجير المسجد الأقصى. ولو كانت المؤامرة قد نجحت لكانت العواقب وخيمة أو كابوساً لا يمكن تحمله. كما تواصلت حرب لبنان رغم الوساطة الأمريكية المكوكية اللانهائية بين دمشق وبيروت وإسرائيل. وفي الحكومة كان حزب الليكود الذى يقود حكومة مناحم بيجين متلهفاً على مواجهة حاسمة «نهائية شاملة» مع منظمة التحرير الفلسطينية، وكان اغتيال ياسر عرفات لا يزال أمراً متفقاً عليه في الموساد؛ ففي نفس الشهر الذى تعرض فيه البابا للاغتيال جرت محاولتي اغتيال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وأثرت حقيقة أن كل مخابرات الغرب منهمكة على ما يبدو في التحقيق فى ملابسات اغتيال البابا في قرار حوفى بإبعاد الموساد عن الانشغال بالقضية. وفي حالة وقوع أى حادث فالمتوقع أن يقف عن طريق أى منها على خلفية ذلك الحادث. وظل حوفى ينتظر إبلاغه بخلفية اغتيال البابا حتى تولى مكانه ناحوم أدمونى فى سبتمبر ١٩٨٢ . ولجذوره البولندية حيث كان أبواه مهاجرين ينتميان إلى الطبقة الوسطى من بلدة قرب جدانسك عرف أدمونى الكثير عن الكنيسة الكاثوليكية وخلال عمله متستراً فى الخارج في الولايات المتحدة وفرنسا لمس مدى النفوذ الذى تحظى به الكنيسة. فقد ساعدت الكنيسة الكاثوليكية على انتخاب جون كنيدى وأوصلته إلى البيت الأبيض وفى فرنسا واصلت الكنيسة الاضطلاع بدور مهم فى الحياة السياسية.

وبمجرد أن استقر به الحال في مكتبه بعث أدمونى فى طلب ملف محاولة اغتيال البابا من الموساد. لم يكن الملف يضم في معظمه سوى قصاصات إخبارية وتقرير من ضابط للموساد فى روما لا يحوى شيئاً جديداً. وعلى غير العادة فشلت أجهزة الأمن الست التى أجرت تحقيقاتها بشأن القضية بمافى ذلك استجواب أغا فى سجن ريبيا بروما الذى يخضع لحراسة مشددة فى تجميع معلوماتها واستخلاص نتائج موحدة ولذا قرر أدمونى القيام بتحقيق خاص.

وأشار ويليام كيسى مدير المخابرات المركزية الأمريكية لاحقاً إلى أن«السبب الأرجح لدس الموساد أنفها فى القضية ربما يكون محاولة الوصول إلى الفاتيكان. فلابد وأن أدمونى اعتقد بأنه سيتوصل إلى شيء يقايض به الكرسي الرسولى».

وفى أعقاب محاولة جولدا مائير غير الناجحة لإقامة علاقات دبلوماسية مع

الفاتيكان احتفظ زئيفي زامير بوجود دائم للموساد في روما في محاولة لاختراق الفاتيكان لكن ضابط الموساد الذي كان يعمل من مبنى قريب من السفارة الإسرائيلية في روما فشل في تجنيد عملاء من القساوسة. كانت معظم معلوماته مستقاة من النميمة التي تدور في المطاعم والحانات التي يرتادها العاملون في الفاتيكان. ولم يفعل شيئاً أكثر من مشاهدة رئيس مكتب المخابرات المركزية الأمريكية ـ وكله غيرة ـ وهو يقود سيارته متوجهاً إلى الفاتيكان للقاء البابا مساء كل جمعة. تلك اللقاءات استؤنفت فور شفاء البابا من إصابته.

وخلال فترة نقاهة البابا تولى الكاردينال أوجستينو كازارولي وزير خارجية الفاتيكان مهام تسيير أمور الفاتيكان. ونما إلى علم ضابط الموساد أن كازارولي مستاء للغاية من إطلاق النار على البابا؛ فقد كان يتعين على المخابرات المركزية الأمريكية أن تعرف كل شيء عن أغا وعن المؤامرة برمتها. ونقل آراء وزير خارجية الفاتيكان إلى تل أبيب.

وفي أروقة عالم المخابرات الأمريكية ساد رأى بأن أغا لم يكن سوى أداة في مؤامرة دبرتها المخابرات السوفييتية «كي. جي. بي» واستهدفت حياة البابا. ففي تقرير صنف على أنه «سرى للغاية» وعنوانه «محاولة أغا قتل البابا: حقيقة التورط السوفييتي»، كانت الحجة المثارة هي أن موسكو أصبحت تخشى من قدرة البابا على تأجيج مشاعر القومية البولندية.

وفي عام ١٩٨١ بدأت نقابة تضامن العمال بقيادة ليخ فاونسا في استعراض عضلاتها وتعرضت السلطات البولندية لضغوط هائلة من موسكو للحد من نشاط هذه النقابة، وحث البابا فاونسا على عدم الإقدام على أي شيء من شأنه إثارة تدخل عسكري سوفييتي. وطلب من كاردينال بولندا ستيفان فيزينيسكي الذي كان يقضي أواخر أيامه لطمأنة زعماء البلاد الشيوعيين بأن البابا لن يسمح للتضامن بتجاوز الحدود. وعندما قررت تضامن تنظيم إضراب عام في بولندا توجه الكاردينال فيزينسيكي بنفسه إلى مكتب فاونسا وتشبث ببنطلونه قائلا إنه سيظل ممسكاً به حتى يموت. وهكذا قرر فاونسا إلغاء الإضراب.

وفي تل أبيب توصل محللو الموساد إلى أن الحبر الأعظم كان يعي تماماً أهمية

مداهنة الاتحاد السوفييتي في مسألة بولندا حتى يمكن تجنب خسارة الأرضية المهمة التي كسبتها تضامن. ولذا يبدو من غير المرجح إلى حد كبير أن موسكو تريد اغتيال البابا. لكن لا يزال هناك احتمال بأن موسكو ربما عهدت بمحاولة الاغتيال لأحد عملائها من أجهزة المخابرات؛ ففي الماضي قامت المخابرات البلغارية بتنفيذ مهام مماثلة بالإنابة عن الكي جي بي عندما كان من الضروري إخفاء ضلوع المخابرات السوفيتية. وخلص محللو الموساد أيضاً إلى أنه من غير المرجح هذه المرة أن تكون الكي جي بي قد فوضت جهازاً آخر في إنجاز تلك العملية المهمة ويستحيل أيضاً أن تكون المخابرات البلغارية قد أقدمت على هذا العمل بإرادتها.

وبدأ أدموني يستطلع نشاط المخابرات المركزية الحالي مع البابا فما بين زيارات كيسي الدورية إلى البابا كان هناك لاعب مهم في العلاقة بين الفاتيكان والمخابرات المركزية الأمريكية هو كاردينال فلاديلفيا جون كارول الذى كان يقوم بجولات مكوكية بين البيت الأبيض والقصر البابوى. وبالنسبة للمونيسينور جون ماجي سكرتير البابا الذى يتحدث الإنجليزية «كان كرول هو صديق البابا الصدوق». فهما من نفس الجذور ويحفظان نفس الأغاني والقصص البولندية ويتبادلان النكات على مائدة عشاء البابا بلغة بولندية خالصة. أما الباقون فكانوا يجلسون مبتسمين دون أن يفهموا كلمة واحدة.

كان كرول هو الذى رافق كيسي في أول لقاء له مع البابا بعد شفائه. ولاحقاً قدم كرول نائب كيسي، كيرنون والترز إلى البابا. ومنذ ذلك الحين تراوحت الموضوعات التي يبحثها البابا مع ضابط المخابرات المركزية الأمريكية بين الإرهاب والشرق الأوسط إلى القضايا السياسية الداخلية للكنيسة الكاثوليكية إلى صحة زعماء الكرملين. ويرى ريتشارد آبن ـ الكاثوليكي وأول مستشار للأمن القومي في عهد ريجان: «أن العلاقة بين البابا والمخابرات المركزية الأمريكية كانت واحدة من أعظم التحالفات في كل العصور. وكان ريجان يؤمن إيمانا عظيماً بأن البابا سوف يساعده على تغيير وجه العالم».

والمؤكد أن هناك أهدافاً مشتركة قد تقررت. فالرئيس الأمريكي والبابا مشتركان في معارضتهما للإجهاض. وعرقلت الولايا ت المتحدة وصول مساعدات بمئات الملايين

إلى الدول التي تتبنى برامج لتحديد النسل.

وأيد البابا «من خلال الصمت الجميل» السياسات العسكرية الأمريكية بما في ذلك تزويد حلف الأطلنطي بجيل جديد من صواريخ كروز. وطالما تنصتت المخابرات المركزية الأمريكية بشكل دوري على هواتف الأساقفة والكهنة في أمريكا الوسطى الذين يدافعون عن لاهوت التحرير، وعارضت القوات التي تؤيدها الولايات المتحدة في نيكاراجوا والسلفادور، حيث شكلت تلك المحادثات الهاتفية المسجلة جزءاً من اللقاء الأسبوعي مساء كل جمعة بين محطة المخابرات المركزية الأمريكية والبابا. وكان ريجان شخصياً قد فوض الكولونيل أوليفر نورث الذي كان يعمل حينذاك بمجلس الأمن القومي بدفع أموال كبيرة إلى القساوسة الذين يعتبرهم الفاتيكان «موالين» في الأمريكيتين الوسطى والجنوبية وإفريقيا وآسيا. واستخدمت تلك الأموال لرفع مستوى معيشة هؤلاء القساوسة والترويج لمعارضة الفاتيكان لتحديد النسل والطلاق.

كانت إحدى مهام المونسينور إيميري كابونجو أحد أفراد السكرتارية الشخصية للبابا هي تجديد قائمة القساوسة الموالين حذفاً أو إضافة. وكانت إحدى مهامه الأخرى هي إعداد ملفات بالوثائق التي تقدمها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتدوين اجتماعاتها السرية مع البابا.

يعود أول لقاء بين كابونجو وأساتذة التجسس إلى ٣٠ نوفمبر ١٩٨١ بعيد فترة وجيزة من عودة البابا يوحنا بولس الثاني لممارسة مهام عمله بعد محاولة اغتياله. وبعيد مشاركة كابونجو البابا أولى صلوات اليوم في الساعة الخامسة والربع صباحاً في الممر الواقع خارج الكنيسة الخاصة في المساكن البابوية. توجه الرجلان إلى مكتب البابا للقاء فيرنون والترز نائب مدير المخابرات المركزية الأمريكية ذلك اللقاء الذي يتذكره كابونجو بالقول: «أخذت مكاني المألوف في زاوية الغرفة ودفتر الورق علي ركبتي. لم يكن هناك مترجم، استفسر والترز عن اللغة التي يتعين أن يتحدث بها وقال قداسته إنه سيشعر بالارتياح لاستخدام الإيطالية. واستهل والترز الحديث بالقول إنه ينقل إلى البابا تحيات الرئيس ريجان، ورد البابا على التحية بمثلها ثم بدأ العمل. وعرض والترز صور أقمار صناعية وأبدى قداسته إعجابه الشديد بها لوضوحها التام. وأفاض والترز في الحديث لأكثر من ساعة عن آراء المخابرات المركزية الأمريكية في

أحدث النوايا السوفيتية. وشكره قداسته، وفي ختام اللقاء قدم والترز عدداً من المسابح ليباركها البابا مشيراً إلى أنها للمعارف والأصدقاء، وقدفعل البابا».

أما وقد أسرته قدرة البابا على التنقل بسلاسة من المسائل الدنيوية إلى المسائل الروحية، فقد استغل أدمونى علاقته الشخصية الحميمة مع وزير الخارجية الأمريكي الكسندر هيج - الذى التقى به أثناء عمله بالسفارة الإسرائيلية في واشنطن - للحصول على نسخة من ملف المخابرات المركزية الأمريكية عن التحليل النفسي لشخصية البابا.

كان الملف يرسم لوحة لرجل متقد الحماس الديني لدرجة تجعله يرفع عقيرته عند الصلاة وكثيراً ما شوهد على الأرضية الرخامية لكنيسته الخاصة مطأطأ الرأس في خشوع وذراعاه معقودتان على هيئة صليب كما لو كان جثة معدة للدفن. وربما أمضى الساعات على هذا الوضع. لكن غضبه قد ينفجر ليلقي الخوف في قلوب ناظريه وحينئذ لا يتورع عن الغضب ورفع الصوت. ويتمتع البابا بدراية هائلة بالسياسة ويمكن ألا يتزحزح عن موقفه قيد أنملة شأن أى ديكتاتور. ولم يخش البابا يوحنا بولس الثاني الدخول في مواجهة مع الإدارة الباوبية أو وزير خارجيته الذى يشغل موقعه منذ فترة طويلة أوجستينو كازارولي. وفي الختام يصور الملف البابا على أنه «رجل مسيّس لأقصى درجة نتيجة خبرته وتجاربه في بولندا وأنه يستطيب دور اللاعب على المسرح العالمي».

وبالنسبة لناحوم أدموني كانت هناك مسألة واحدة شديدة الوضوح: هي أن العلاقة الوثيقة والذاتية بين المخابرات المركزية الأمريكية والبابا قد لعبت دوراً حساساً في قبول البابا لرأى المخابرات المركزية الأمريكية بأن الكرملين هو الذى دبر محاولة اغتياله.

والآن فإذا أمكن إثبات خطأ هذا الرأى؟ فماذا سيكون رد فعل البابا؟ هل سيدمر هذا ثقته واعتقاده الراسخ في المخابرات الأمريكية؟ وهل سيساوره القلق من كافة أجهزة المخابرات؟ وهل سيسمح هذا للموساد - إذا استطاعت إثبات أن هناك يداً أخرى تقف وراء محاولة اغتياله - أن تشق طريقها في النهاية عبر الباب البرونزى للفاتيكان، وحتى إذا لم يقبل الفاتيكان بالموساد كمستشار مخابراتي علماني شامل

له فسوف تجد أذناً صاغية على الأقل لمعلوماتها بأمل القدرة على تغيير موقف الفاتيكان من إسرائيل في المقابل؟

وبعد ستة أشهر ظهرت إجابة شافية للسؤال الأول لأدموني: هل هناك جهة أخرى دبرت لاغتيال البابا؟

فقد حيكت المؤامرة في طهران وبموافقة تامة من آية الله روح الله الخوميني، وكان الهدف من قتل البابا هو الإيذان ببدء الجهاد ضد الغرب وضد ما ارتآه الخميني أنه قيم الانحلال الغربي التي تقرها أكبر الكنائس المسيحية.

وجاء في تقرير أعده أدموني «لا يزال الخميني يمثل النموذج التقليدي للهوس الديني. فقد صور نفسه في صورة مرشد شعبه، وللإبقاء على هذه الأسطورة سيكون في حاجة إلى التصرف على نحو متزايد بطريقة تشكل أكبر خطورة على إسرائيل والغرب والعالم بأسره».

وتحسباً لفشل أغا في مهمته ضمن الإيرانيون الذين سيطروا عليه إظهاره في صورة المهووس الذي تصرف بمفرده وذلك عن طريق تسريب كل ما يتعلق به من تفاصيل.

ولد محمد علي أغا في قرية يسيلتي النائية بشرق تركيا ونشأ في أحضان الأصولية الإسلامية. وفي سن التاسعة عشرة انضم إلى منظمة الذئاب الرمادية الإرهابية الموالية لإيران والمسئولة عن كثير من أعمال العنف الذي يحدق بتركيا التي كانت تتمسك بالديمقراطية. وفي فبراير ١٩٧٩ قتل أغا صحفياً بإحدى صحف اسطنبول تشتهر بتأييد السياسات الموالية للغرب، وعقب اعتقاله استطاع أغا الهروب من السجن بمساعدة منظمة الذئاب الرمادية. وفي اليوم التالي تلقت الصحيفة رسالة تهديد حول زيارة البابا لتركيا التي لم يتبق عليها حينذاك سوى ثلاثة أيام، وجاء فيها: «إن الإمبرياليين الذين يتملكهم الخوف من أن تصير تركيا وشقيقاتها الإسلاميات قوة سياسية وعسكرية واقتصادية في الشرق الأوسط يرسلون في هذا الوقت الحساس قائد الحملات الصليبية جان بولس المكلف بأن يكون زعيماً دينياً. وإذا لم تلغ الزيارة فسوف أقتل هذا البابا القائد».

وأصبح أدموني أكثر اقتناعاً بأن الرسالة صيغت في طهران فأسلوب ومضمون

الرسالة يتجاوز بكثير قدرات أغا شبه الأمي على الكتابة. وكشف بحث كمبيوتر الموساد في خطب الخميني عن إطلاقه لفظ«قائد الحملات الصليبية» و«البابا القائد» لوصف البابا يوحنا بولس الثاني.

وفي النهاية مرت زيارة البابا دون حادث يعكر صفوها ووجدت صورة واسم أغا طريقها إلى كمبيوترات عدد من أجهزة الخابرات ليس منها الموساد، فقد شعر أوتو كورميك ضابط جهاز الأمن النمساوي المكلف بالتحقيق في حادث إطلاق النار على البابا «بأنه من غير الضروري إبلاغ الموساد، فإسرائيل هي آخر مكان يمكن أن يفكر أغا في الذهاب إليه».

وأشار تحقيق الموساد إلى أنه عقب هروبه من السجن وجد أغا طريقه إلى إيران ليمضي شهوراً في معسكرات التدريب حيث يجري تلقينه. ومن مصادرها في تلك المعسكرات رسمت الموساد صورة لحياة أغا في تلك الفترة.

كان يستيقظ قبل الفجر وعيناه الضيقتان اللتان تحيط بهما هالات حمراء غائرتان بعمق في وجهه المستطيل في حالة انتباه تام كما هو شأن الجندين الآخرين، وتقع أول خيوط ضوء النهار على الملصقات المعلقة على جدران كوخهم: وهي عبارة عن صور لآية الله الخميني وشعارات ثورية تستهدف إلهاب تطرفهم ويتعزز هذا بالأغاني التي تنطلق عبر مكبرات الصوت بأكواخهم.

ومحمد علي أغا ليس بالشخصية الجذابة فهو رجل عريض اليدين مفلطح القدمين بشكل لا يتناسب مع هيئة جسده بصدره المقعر وأكتافه البارزة. كان أول ما يفعله بعد الاستيقاظ هو بسط سجادة الصلاة مثل كل المجندين لأداء صلاة الفجر. وبعد الصلاة يبدأ في تلاوة القائمة المليئة بالكراهية التي شجعه معلموه على كتابتها، واستطالت القائمة وتنوعت لتشمل كافة الإمبرياليين مثل حلف الأطلنطي والدول العربية التي رفضت قطع إمدادات البترول عن الغرب. وطالما دعا الله بأن يدمر الولايات المتحدة أقوى دول العالم وشعبها مبتهلاً بأن يكون الفناء هو مصير حياتهم وقيمهم ومصدر وجودهم.

وأخيراً لم يتبق لديه سوى الكراهية الدينية. كانت مرضاً فتاكاً ينهش في فمه كالسرطان. وكان يعتقد أن كافة الديانات الأخرى تهدد بالقضاء على ديانته التي

يؤمن بها بكل قوة. وعلمه مدربوه أن يختزل تلك الكراهية فى صورة واحدة لا تفارقه باستمرار لرجل يرتدى زياً أبيض اللون يعيش فى قصر ضخم وراء الجبال ومن هذا القصر يحكم كخليفة قديم يصدر المراسيم والأوامر التى يلتزم بها الملايين. وينشر هذا الرجل رسالته البغيضة بنفس الطريقة التى اتبعها أسلافه منذ تسعة عشر قرناً. ومدعوماً بما يتمتع به من جلال وخيلاء يعكسه ما يحمله من ألقاب تفوق أسماء الله يعرف البابا بأنه خادم خدم الرب وبطريرك الغرب ومثل المسيح على الأرض، وأسقف روما وعاهل دولة الفاتيكان، والحبر الأعظم وقداسة البابا يوحنا بولس الثانى.

وتلقى محمد على أغا وعداً بأنه عندما يحين الوقت فسوف يمنح الفرصة لقتل البابا. وعن طريق الإلحاح طبع معلموه فى ذهنه أنه ليس من قبيل المصادفة أن يصل البابا إلى السلطة فى نفس الوقت الذى تسلم فيه زعيمهم الملهم آية الله الخمينى حكم إيران. بعد الإطاحة بالشاه. فقد جاء «هذا الكافر المقيم فى روما» ـ كما تعلم أغا أن يطلق على البابا ـ لتدمير الثورة التى قام به آية الله باسم القرآن.

كان الاتهام يتضمن جانباً من الحقيقة، فقد أخذ البابا يتحدث بشكل متزايد وبقسوة ضد الإسلام ويعدد الأخطار التى يعتقد أن الإسلام الأصولى يحتويها. فلدى زيارته لمصنع أوليفتى فى إفريقيا أذهل البابا العمال بتضمين خطابه عبارة وردت على خاطره فى تلك اللحظة «إن القرآن يغرس العداوات فى نفس المسلمين بينما نحن نغرس السكينة والسلام فى نفوس شعبنا. وبالطبع فإنكم جميعاً بشر تكمن فيكم الطبيعة البشرية التى يمكن أن تشوه الرسالة التى توجهها الأديان. لكن ومع أن البشر القساة يمكن أن تقودهم الرذيلة والعادات السيئة إلى الضلال والانحراف فإن المسيحية تنشر السلام والمحبة. والإسلام هو دين العدوان. وإذا بدأ الأمر بغرس العدوان فى نفوس طائفة بأسرها فالنتيجة هى تأصيل العناصر السلبية فى نفوسهم جميعاً. وكما تعلمون إلى ماذا يقود هذا فسوف نتعرض لعدوانهم وأذاهم».

فى يناير ١٩٨١ توجه أغا إلى ليبيا. وفي البداية شعرت الموساد بالحيرة لذهابه إلى ليبيا حتى أبلغها أحد عملائها فى طرابلس بأن فرانك تيربيل ضابط المخابرات المركزية الأمريكية المتمرد زار ليبيا فى ذلك الوقت. كانت هيئة محلفين كبرى في واشنطن قد أدانت تيربيل بتزويد ليبيا بالأسلحة. والتآمر لاغتيال معارضى القذافى فى القاهرة

وتجنيد الطيارين العسكريين الأمريكيين السابقين لقيادة الطائرات وكذلك تنجيد أفراد البحرية السابقين لإدارة معسكرات الإرهابيين. وفي ليبيا كان يعلم الإرهابيين طرق التخفي من رصد أجهزة المخابرات الغربية وانتقل تيربيل إلى بيروت حيث توارى عن الأنظار. وتعتقد الموساد أنه قتل بعد أن فقد جدواه.

وعرفت الموساد أن اتصال أغا بتيربيل قد تم ترتيبه بواسطة مدربى أغا الإيرانيين وتم تسريبه إلى الكى جى بى بعد محاولة اغتيال البابا مما أتاح للسوفييت فرصة الادعاء بأن المخابرات المركزية الأمريكية هى التى دبرت المحاولة ومثل الموساد فإن فى الكى جى بى إدارة للحرب النفسية. ويحوى ملف المخابرات المركزية الأمريكية الآلاف من أعمدة الصحف والساعات الإذاعية. ولتعكير المياه أكثر فأكثر رتب له ملالى إيران السفر إلى صوفيا بعد مغادرته ليبيا فى فبراير ١٩٨١ للقاء من أبلغوه بأنهم أعضاء فى المخابرات البلغارية. ولم يظهر أى دليل مطلقاً عن هويتهم. ورداً على محاولات الكى جى بى تشويه سمعتها ردت المخابرات المركزية الأمريكية بهجوم مضاد بالادعاء بأن المخابرات البلغارية رعت أغا بالإنابة عن الكرملين.

وبالنسبة للموساد كانت الفرصة مواتية تماماً لإعمال قاعدة «فرق تسد»، فلن تستطيع الموساد تبديد ثقة الفاتيكان فى المخابرات المركزية الأمريكية فحسب بل إنها ستنجح أخيراً وبترويج روايتها الصحيحة عن المؤامرة فى أن تجد أذناً صاغية لدى البابا. إلى جانب هذا فلسوف يستطيع ضباطه أن يشقوا طريقهم إلى شبكة جمع المعلومات الرهيبة بسكرتارية الدولة بالفاتيكان وسوف يمكن هذا ضباط الموساد من العمل معها بل واستغلال القساوسة والراهبات إذا دعت الضرورة، وعندما تسنح الفرصة أخيراً يجرى زرع أجهزة التنصت الإليكترونية فى الأماكن التى اختارها زئيفي زامير فى الفاتيكان.

وعندما جمعت الموساد أطراف ملحمة محمد على أغا فى تل أبيب استعد أدمونى لتقديم إجابة على السؤال المزعج من الذى دبر المحاولة، ومرة أخرى عثر الكمبيوتر على الحل. كان أحد جواسيس إيتان الناجين وهو كاثوليكى يقيم فى ميونخ قد تحدث عن الدور المهم الذى يضطلع به لويجى بوجى فى الفاتيكان وأرسل أدمونى إلى إيلى يطلب منه الاتصال ببوجى.

والآن وبعد عامين كاملين من إطلاق أغا النار على البابا جلس كبير الأساقفة «السفير البابوى الرسولى ذو الصلاحيات الاستثنائية» فى ساعة متأخرة يسرد على البابا بالكامل كل ما أبلغه به إيلى.

وبعد شهر وفى ٢٣ ديسمبر ١٩٨٣ وفى الساعة الرابعة والنصف صباحاً أى قبل ثلاث ساعات تقريباً من إضاءة شجرة عيد الميلاد فى ميدان القديس بطرس كان خادم البابا يوقظه.

بدت غرفة النوم صغيرة على غير توقع فجدرانها لاتزال مغطاة بالكتان الملون الذى يغطى ما كان محبباً لنفس سلفه. كما كانت أرضيتها الخشبية التى تبدو براقة بعد تلميعها مغطاة بسجادة نسجتها الراهبات البولنديات. وعلى الجدار الذى يلى السرير الذى احتضر عليه أربعة من أسلافه يعلق الصليب، وعلى جدار آخر بالغرفة علقت لوحة مرسومة باتقان للسيدة العذراء وكان كلاهما هدية من بولندا. وبالإضافة إلى الخادم الخاص للبابا شعر أولئك الذين يرونه فى تلك الساعة - حيث عادة ما يوجد أحد القساوسة الإداريين حاملاً الأنباء العاجلة التى لا يمكن أن تنتظر - بالارتياح لاستعادة البابا شيئاً من حيويته وتألقه القديم.

وكما يحدث دائماً يبدأ البابا يومه بالتوجه لمركعه الخاص لأداء صلاة خاصة وبعدها يقوم بحلاقة ذقنه وأخذ حمامه ويرتدى ملابسه التى أعدها خادمه الخاص وهى عبارة عن رداء كهنوتى أبيض من الصوف الثقيل مكسوٌ عند الأكتاف وقميص كهنوتى أبيض وجورب أبيض يصل إلى الركبة وحذاء بنى اللون وطاقية بيضاء. وبهذا كان قد استعد ليرى أغا فى سجن ريبيا بروما.

ورُتب هذا الاجتماع بناء على طلب البابا بنية «الصفح» كما قال. لكن الواقع هو أن البابا أراد التأكد من صحة أقوال الموساد. وقاد سيارته إلى السجن نفس السائق الذى كان يقود مركبته البابوية يوم تعرضه لمحاولة الاغتيال وتحت حراسة من قوة شرطة روما وانطلقت السيارة عبر المدينة باتجاه الشمال الشرقى حيث السجن، وفى سيارة أخرى كان هناك فريق صغير من الصحفيين (من بينهم مؤلف هذا الكتاب). ووجهت لهم الدعوة لشهود هذه اللحظة التاريخية عندما يلتقى البابا بمن حاول قتله وجهاً لوجه.

وبعد ساعتين نُقل البابا إلى جناح يخضع لحراسة مشددة بالسجن وسار بمفرده فى ممر يفضى إلى باب الزنزانة تى ٤ المفتوح حيث ينتظر أغا واقفاً بها. وانتظر الصحفيون فى مكان أبعد بالممر وبجوارهم حرس السجن على أهبة الاستعداد لاقتحام زنزانة أغا إذا بدرت منه أى حركة تهدد زائره.

وفيما بسط البابا يده تحرك أغا فى تردد لمصافحته لكنه ما لبث أن انحنى ليقبلها. ثم سحب يد البابا لتلامس جبهته.

ووجه البابا سؤاله برقة: أنت محمد على أغا؟ وكان قد أُبلغ بأن محمد على أغا قد تعلم الإيطالية في السجن ورد أغا (نعم) وقد ندت عنه ابتسامة خاطفة كما لو كان قد ارتبك لإفصاحه عن نفسه.

وسأل البابا «أتقطن هنا؟» وهو يتفحص حواليه - وباهتمام بالغ حقيقي - الزنزانة التى سيقضى فيها الرجل الذى حاول قتله بقية حياته. ورد أغا (نعم) ثم جلس البابا على كرسى وضع أمام باب الزنزانة مباشرة وغاص محمد على أغا فى سريره يعقد يديه مرة ويفرضهما مرة أخرى.

ووجه البابا سؤالاً شبه أبوى لأغا مستفسراً عن شعوره «بماذا تشعر هنا؟» وأجاب آغا فجأة «بخير.. بخير» والكلمات تخرج من فمه واهية وبصعوبة وبسرعة ولايكاد يسمعها سوى البابا.

وأصبحت تعبيرات البابا أكثر حزناً. واقترب بوجهه من أغا ليحجبه جزئياً عن الصحفيين والحراس.

وشرع أغا يهمس فى أذن البابا اليسرى، وهز البابا رأسه هزة خفيفة. وتوقف أغا والغموض يعلو وجهه، وإشار البابا بحركة مفاجئة سريعة بيده اليمنى بضرورة أن يستمر أغا فى الحديث. كان البابا وأغا متقاربان للغاية لدرجة تكاد معها رأساهما أن تتلامسا. كان أغا يحرك شفتيه بالكاد أما البابا فقد بدا الهلع على وجهه. وأغلق عينيه كما لو كان يساعده على التركيز بشكل أفضل.

وتوقف أغا فجأة عن الحديث فى منتصف الكلام. ولم يفتح البابا عينيه. كانت شفتاه هما اللتان تتحركان. لم يكن يستطيع سماعه سوى أغا فقط. وبعد بضع دقائق

أشار البابا بحركة سريعة مفاجئة أخرى بيده وكف أغا عن الحديث. ووضع البابا يده اليسرى على جبهته كما لو كان يريد أن يحجبها عن محمد على أغا.

وضغط البابا على ذراع أغا كما لو كان يشكره على ماقاله له. واستغرق الحديث إحدى وعشرين دقيقة ثم نهض البابا ببطء واقفاً على قدميه ومد يده ليشجع أغا على مد يده هو الآخر، وحدق كل منهما في عيني الآخر. وأنهى البابا اللحظة الدرامية بإدخال يده في جيب ثوبه الكهنوتي ليخرج علبة صغيرة من الكرتون بيضاء اللون عليها الصليب وسلمها إلى محمد على أغا وفي حيرة كبيرة قلب أغا العلبة بين يديه.

وانتظر البابا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بالغة الرقة وفتح أغا العلبة ليجد بداخلها مسبحة مصنوعة من الفضة واللؤلؤ.

وقال أغا بامتنان «أشكرك.. أشكرك».

ورد البابا: «عفواً.. عفواً» ثم مال وهمس ببضع كلمات لأغا وحده. ولم يزد البابا شيئاً وما لبث أن انسحب خارجاً من الزنزانة.

وفي وقت لاحق قال متحدث باسم الفاتيكان «إن محمد على أغا لا يعرف شيئاً إلا لمستوى معين. أما على المستوى الأعلى فإنه لا يعرف أى شيء. وإذا كانت هناك مؤامرة فقد نفذها محترفون والمحترفون لا يتركون أى أثر ولن يجد أحد شيئاً».

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقتصد فيها الفاتيكان في قول الحقيقة. فقد أكد أغا ما أبلغته الموساد لكبير الأساقفة لويجي بوجي بأن مؤامرة قتل البابا حيكت في طهران. وستؤثر معرفة البابا هذه على موقفه من الإسلام وإسرائيل. فقد أخذ يردد بشكل متزايد على مسامع العاملين في الفاتيكان بأن الصراع الحقيقي القادم في العالم لن يكون بين الشرق والغرب، أى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بل بين الأصولية الإسلامية والمسيحية. أما في العلن فإنه حريص على الفصل بين الإسلام كعقيدة وبين الأصولية الإسلامية.

وفي إسرائيل اعتبر محللو الموساد أن النهج الجديد للبابا جاء بمثابة أولى المؤشرات على أن الدليل الذى قدمه إلى لويجي بوجي قد حظي بالقبول. ولكن في الوقت الذى لم يصدر فيه تحرك فورى لدعوة الموساد إلى المساهمة في فهم البابا للعالم إلا أن البابا

بات أكثر اقتناعاً بقيمة الحوار الذى أجراه بوجي مع إيلي. وفى تل أبيب طلب أدموني من إيلي مواصلة الاتصالات مع بوجي واستمرا فى اللقاء فى عدد من المدن الأوربية أحياناً فى السفارات الإسرائيلية وأحياناً أخرى فى السفارات البابوية، ورغم أن مباحثاتهما تناولت موضوعات شتى إلا أنها كانت دائماً تدور حول قضيتين هما: الوضع فى الشرق الأوسط والزيارة التى يرغب البابا فى القيام بها للأراضى المقدسة. وارتبط بهذا الجهود المستمرة للبابا يوحنا بولس الثانى لإقامة وطن دائم للفلسطينيين.

وأوضح بوجي أن البابا يحب بل إنه مفتون بياسر عرفات. ولم يشاطر جون بولس الثانى آراء رجال مثل رافى إيتان وديفيد كيمحي وأورى ساجور بأن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية على حد قول إيتان «قاتل شرس لا يعرف الرحمة» و«سفاح قتل نساءنا وأطفالنا، رجل سوف أقتله بيدى».

أما البابا الذى نشأ وفى ذهنه المقاومة البولندية البطولية للنازى فإن عرفات ضحية تستغيث من الظلم وشخصية كاريزمية تستطيع الإفلات دائماً من مختلف محاولات الموساد لاغتياله. وردد بوجي أمام إيلي كيف أن عرفات أبلغ البابا ذات مرة بأن «حاسته السادسة بل والسابعة أحياناً ما تستنفر عندما يحدق به الخطر». وقال بوجي «إن رجلاً كهذا يستحق أن يعيش».

وعن طريق إيماءات كتلك استطاع إيلي تكوين رأى أوضح عن عقلية البابا، لكن البابا يوحنا بولس الثانى أبدى ما هو أكثر من الاحترام الظاهرى للحقيقة التاريخية بأنه لا يجوز مطلقاً نسيان الجذور اليهودية للمسيحية وأن معاداة السامية لابد من القضاء عليها رغم تفشيها فى بلده بولندا.

وفى مايو ١٩٨٤ دعا بوجي، إيلي إلى الفاتيكان وتحادث الرجلان لساعتين بمكتب كبير الأساقفة بوجي بالقصر البابوى ولا أحد يعرف حتى الآن طبيعة ما دار بينهما من حديث.

وفى إسرائيل كان الوقت مرة أخرى وقت فضيحة لأجهزة المخابرات الإسرائيلية، فقبل شهر أى فى ١٤ أبريل اختطف أربعة من إرهابيى منظمة التحرير الفلسطينية حافلة تقل خمسة وثلاثين راكباً أثناء توجهها إلى بلدة عسقلان الجنوبية. وجاء فى الرواية الرسمية للحادث أن عملاء أجهزة الأمن العام شين بيت اقتحموا الحافلة

وخلال تبادل إطلاق النار الذى تبع الاقتحام قتل اثنان من الإرهابيين بالرصاص وتوفى الاثنان اللذان أصيبا بجراح أثناء نقلهما إلى المستشفى.

وكانت تقرير الصحف قد أظهرتهما أثناء اقتيادهما من الحافلة وإصابتهما غير خطيرة. واتضح أنهما تعرضا لضرب مبرح من ضباط الشين بيت وهما في سيارة الإسعاف حتى لفظا أنفاسهما. وانهالت الإدانة الدولية على الموساد رغم عدم ضلوعها المباشر في القضية.

وعلى هذه الخلفية أبلغ بوجى، إيلى بأنه لا مكان للتساؤل عن إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. ورد إيلى بالتأكيد على أنه حتى يتم هذا فلا مجال للسماح بإتمام زيارة البابا للأراضى المقدسة.

لكنهما اتفقا على أن القضية لم تمت.

وفى ١٣ أبريل ١٩٨٦ فعل البابا يوحنا بولس الثانى مالم يفعله بابا كاثوليكى آخر. فقد زار معبد روما فى لونجوتيفرى دى سينشى حيث استقبله كبير حاخامات المدينة بالعناق. وسار كل منهما جنباً إلى جنب وهما يرتديان زيهما الكهنوتى عبر الكنيس الذى يلفه الصمت إلى «التيبا» - المنبر الذى تتلى من فوقه التوراة - وفى آخر الكنيس جلس إيلى الرجل الذى لعب دوراً مهما فى ترتيب هذه اللحظة التاريخية. لكن لم يتحقق حتى الآن الهدف الذى تريده إسرائيل أى الاعتراف الدبلوماسى البابوى بها.

ولم يتحقق هذا فى النهاية إلا فى ديسمبر عام ١٩٩٣ عندما قرر البابا رغم الاعتراضات الدائمة من متشددى سكرتارية الفاتيكان تبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل.

فى ذلك الحين لم يعد ناعوم أدمونى رئيساً للموساد، وواصل خلفه شابتاى شافيت العملية الدقيقة بمحاولة تقريب الموساد من الفاتيكان. كان جزءٌ من تلك المناورات يتمثل فى إظهار أن إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية معنيتان بالتوصل إلى تسوية. وتقران بالتهديد المشترك للأصولية الإسلامية التى كانت ندباتها محفورة على جسد البابا.

وفى الوقت نفسه كانت الموساد مشغولة بقارة يعلق الفاتيكان عليها آمالاً عريضة في المستقبل هى قارة أفريقيا . فمن هناك توقع الكرسى الرسولى ذات مرة أن يرى ظهور أول بابا أسود للكنيسة. لكن هناك وفى ربوع القارة الإفريقية رسخّت الموساد نفسها بالفعل كأستاذ قدير في الفن الأسود بتأليب كل جهاز مخابرات ضد الآخر لضمان مركزها.

«كانت أوقاتا مجنونة بالفعل في أفريقيا

حيث يتسابق الجميع للحصول على موقع في القارة. كنا قد تأخرنا كثيراً

ونظرت إلينا الموساد كما لو كنا متطفلين».

الفصل
الثالث
عشر

صلات إفريقية

على بعد بضعة أبنية قليلة من فندق نورفولك الفخم فى نيروبى يوجد نادى الواحة، المكان المفضل والأثير لرجال الأعمال في كينيا. وبداخله حيث الأضواء الخافتة يمكنهم الشرب طيلة الليل واصطحاب إحدى فتيات البار لإحدى الغرف بالخارج بعد فحص أحدث شهادة طبية تثبت خلوها من مرض الأيدز.

ومنذ عام ١٩٦٤ بدأ زائرون آخرون يعرفون طريقهم إلى النادى، صينيون يرتدون بدل سفارى، روس بوجوههم المنتفخة، ورجال توحى ملامحهم بأنهم من دول البحر المتوسط. ولم يفد هؤلاء الرجال إلى هذا المكان للاستمتاع بالبيرة المثلجة أو ما يعلن عنه الملهى بأن لديه «أفضل فتيات إفريقيا قاطبة». كان هؤلاء الرجال يعملون فى أجهزة مخابرات تقاتل للحصول على موطئ قدم فى وسط أفريقيا حيث لم يكن يعمل سراً سوى المخابرات البريطانية إم آى ٦ . كان الوافدون الجدد يمثلون المخابرات الصينية السرية (ى. إس. آى. إس) والمخابرات السوفيتية كى. جى. بى والموساد. كان لكل جهاز منهم جدول أعمال خاص به، أى تأليب كل جهاز ضد الآخر. ولم يكن هناك أفضل من الموساد فى تلك اللعبة.

إجمالاً كان هناك اثنا عشر ضابطاً بالموساد ينتشرون حول خط الاستواء ـ يعملون

من دار السلام على المحيط الهندى إلى فرى تاون على المحيط الأطلنطى. وتلقى هؤلاء العملاء الذين يحملون عدداً هائلاً من جوازات السفر المزورة ويتمتعون بحيوية وشباب متدفق إلى جانب القدرات المطلوبة - تدريبات على أساسيات الطب الميدانى والجراحة لتمكينهم من إنقاذ أنفسهم في الأدغال التي تغص بالأسود والنمور ورجال القبائل الأعداء.

بدأت مغامرة الموساد في أفريقيا بعيد وصول فيدل كاسترو إلى السلطة في كوبا عام ١٩٥٩ وشروعه فى تصدير ثورته. وبدأ أول نجاح له عندما استطاع أحد رجاله تجنيد جون أوكيلو «فيلد مارشال» مثل كاسترو - فقد أخرجه من الأدغال ليتلقى دورة تدريبية مكثفة فى هافانا على حرب العصابات جرى على أثرها تكليفه بالتوجه إلى جزيرة زنجبار الصغيرة قبالة الساحل الشرقى للمحيط الأطلنطى والاستيلاء عليها. كان طوله الفارع وحجمه الضخم - وزنه ثلاثمائة رطل - كفيل بإدخال الرعب فى قلب أفراد قوة الشرطة الصغيرة بالجزيرة ودفعهم للاستسلام له، وفرض جيش أوكيلو رث الثياب سلطته الوحشية على السكان الذين لم يكن لديهم سلاح سوى الأدوات البدائية التى يستخدمونها فى حصاد التوابل التى اشتهرت بها جزيرتهم عالمياً،

وأصبحت الجزيرة نقطة الانطلاق لاختراق أرض القارة الإفريقية. كان هناك سكان من أصل صينى يقطنون مدينة دار السلام الساحلية وأثارت تقاريرهم التى ترسل إلى الوطن عما يحدث اهتمام حكومة بكين؛ إدراكاً منها للفرصة التى تمنحها الثورة الوليدة للصين لكسب أرضية كبيرة فى القارة، وهكذا صدرت الأوامر للمخابرات الصينية بالتواجد فى المنطقة وتقديم كل مساعدة ممكنة للثوار.

فى الوقت نفسه أعد فيدل كاسترو عملية شاملة لإضفاء النفوذ الكوبى على حركة التحرير السوداء الناشئة. وانصب التركيز على مدينة الدار البيضاء المغربية على ساحل غرب إفريقيا؛ كانت شحنات الأسلحة الكوبيه تصل، وفى رحلة العودة تحمل السفن الفدائيين المتدربين من مختلف أنحاء وسط أفريقيا . وسرعان ما كانت المخابرات الصينية تساهم فى اختيارهم.

كان احتمال وجود الآلاف من الثوار المدربين والمسلحين جيداً بالقرب من إسرائيل أمراً يثير انزعاج السياسيين والمخابرات الإسرائيلية، لكن استفزاز هذا الجيش من الفدائيين فى حين أنهم لا يمثلون تهديداً مباشراً لإسرائيل يمكن أن يقود إلى مواجهة لا تريدها إسرائيل. ونظراً لأن الموساد تخوض بالفعل معركة شرسة ضد تهديد الإرهابيين العرب كان من المتعين تجنب الضلوع فى عمل مباشر ضد الثوار السود. وأصدر مائير عاميت أوامر لضباطه في أفريقيا بمراقبة الموقف عن كثب دون الضلوع فيه مباشرة.

لكن ظهور رجال الكى جى بى فى الساحة غير كل هذا. فقد تقدم السوفييت بعرض لا يسع الإرهابيين المحتملين رفضه بإتاحة الفرصة أمامهم للتدريب فى جامعة باتريس لومومبا فى موسكو. وفى تلك الجامعة سيلقون أرقى تدريب من الكى جى بى على أساليب حرب العصابات وكيفية استخدامها تحت ذريعة مساعدة المعدمين والمعوزين والمهملين فى الدول الديمقراطية. وللمساعدة فى ترويج الفكرة فقد أحضر الكى جى بى معه بعضاً من أنجح خريجي جامعة باتريس لومومبا وهم الإرهابيون العرب.

وعزز مائير أميت قوة ضباطه فى أفريقيا بفرق اغتيالات. وقضت الأوامر الجديدة لمائير باستخدام كافة الوسائل المتاحة لعرقلة العلاقة بين السوفييت ومُضيِّفيهم، وبين

الكي جي بى والمخابرات الصينية، وقتل الإرهابيين العرب كلما سنحت الفرصة وتعزيز العلاقات مع الثوار الأفارقة السود بوعدهم بأن إسرائيل سوف تساعد حركاتهم على تجاوز أساليب رجال حرب العصابات والسماح لمنظماتهم بالحصول على الشرعية السياسية وكل ما تريده إسرائيل فى المقابل هو ضمان بألا تهاجمها تلك الحركات.

وأصبح نادى الواحة جزءاً من المعركة الرامية لكسب قلوب وعقول الثوار الأفارقة. كانت الليالى مشحونة بالمناقشات المطولة عن كيف أن الإرهاب ليس سوى سلاح «فشنك» وحول الحاجة إلى عدم فقدان الرؤية الثاقبة للهدف النهائى أى نيل الحرية والاستقلال.

وفي أجواء النادى الخافتة كم حيكت المؤامرات وأبرمت الصفقات واختيرت الأهداف إما للتدمير أو الإعدام. فسيقع البعض فى أكمنة تنصب لهم أثناء قيادتهم على الطرق الترابية والأخرون سيقتلون على أسرتهم. وسيكون أحدهم يوماً عميلاً للكى جى بى، ثم ينقلب جاسوساً للمخابرات الصينية فى اليوم التالى.

ثم تكون العودة إلى نادى الواحة لتستمر الليالى كما كانت مع وضع خطط جديدة حول موائد البامبو مع انحدار الأمطار من المرتفعات لتأكل السقف.

ولم تكن هناك حاجة إلى الهمس فقد اندثرت التقاليد القديمة واطلع مائير أميت عملاءه على كل ما يعرفه عن المخابرات الصينية. فلتلك المخابرات تقاليد في التجسس تعود إلى أكثر من (٢٥٠٠) عام. وعلى مدى قرون كانت تلك المخابرات صنيعة الإمبراطور الحاكم للتجسس على رعاياه لكن ومع وصول واو ووينج شياوبينج أخذ جمع المعلومات مثل أشياء كثيرة اتجاهات جديدة. فقد بدأت المخابرات الصينية فى مد شبكاتها عبر المحيط الهادى إلى الولايات المتحدة وأوربا والشرق الأوسط ثم أفريقيا أخيراً.

واستخدمت تلك الشبكات فيما هو أكثر من التجسس؛ فقد كانت طرقاً مهمة لتهريب المخدرات وغسل الأموال. ومع إنتاج نحو نصف إنتاج العالم من الأفيون على أعتاب جمهورية الصين الشعبية فى المثلث الذهبى تايلاند ولاوس وميانما(*)، فقد

(*) بورما (سابقا) (الترجمة).

عملت المخابرات الصينية مع عصابات المثلث لتهرب المخدرات إلى الغرب. ووجدت المخابرات الصينية فى هونج كونج باعتبارها واحداً من أكبر مراكز غسل الأموال فى العالم أفضل ستار لإخفاء أرباحها من تهريب المخدرات. واستخدمت تلك الأموال فى تمويل عمليات المخابرات الصينية فى أفريقيا وكانت تلك العمليات ومنذ عام ١٩٦٤ تخضع فى نهاية الأمر لسيطرة مدير المخابرات الصينية تشيا وتشى. كان تشى طويل القامة محنى الظهر مولعاً بالكونياك الفرنسى والسيجار الكوبى، يرأس مئات الجواسيس وميزانية للرشوة والابتزاز لا تضاهيها سوى ميزانية الكى جى بى. وكانت معسكرات العمل فى وسط الصين تغص بأولئك الذين تجرؤا على تحدى تشى، ووصفت التقارير النفسية للموساد تشى كرجل تقتصر كل حياته العملية على تحركات حاذقة لا تلفت النظر.

كانت أنشطة المخابرات الصينية المحلية فى أفريقيا خاضعة لقيادة الكولونيل كاو لينج وهو شخصية أسطورية فى المخابرات الصينية صنع شهرته فى نيبال والهند بأساليبه فى التخريب. وفى قاعدته فى زنجبار عاش كاو لينج حياة مرفهة مع مجموعة عشيقات من الفتيات الإفريقيات. وتنقل بين أرجاء وسط أفريقيا كالحيوان المفترس ليختفى عدة أسابيع كل مرة. كانت زياراته لنيروبى فرصة لحفلات خاصة فى نادى الواحة. فأجواء النادى معبأة بالرائحة الذكية لأعواد البخور المحترق، والأطعمة الشهية المستوردة رأساً من الصين تقدم خلالها. والبغايا الأفريقيات يرتدين الكونجسام(*) وهناك بالداخل أيضاً الملاهى والألعاب النارية المستوردة من هونج كونج.

كان الفدائيون العائدون من كوبا يكرمون قبل دفعهم إلى الأدغال الأفريقية لشن الحرب. وقام أحدهم كالعادة المتبعة في الحفل بشرب كوب من دماء أعدائه الذين قتلهم.

فى الوقت نفسه كان كاو يتوسع فى عملياته ليس فقط فى أعماق أفريقيا بل أيضاً باتجاه الشمال فى أثيوبيا واليمن الجنوبى ومصر. وزود إرهابييه بأموال طائلة لشن هجمات على إسرائيل وكانت المخابرات الصينية تعتبر إسرائيل ألعوبة فى أيدى

(*) رداء محكم يرتفع إلى أعلى الركبة بفتحات جانبية (الترجمة).

واشنطن وهدفاً مشروعاً لما أسماه «مقاتليّ في سبيل الحرية».

وقرر أميت ضرورة أن تدخل الموساد في مواجهة مباشرة مع المخابرات الصينية. ففي البداية أحبط مؤامرة صينية للإطاحة بنظام هاستينجز باندا الموالي للغرب في مالاوي ثم أبلغ السلطات الكينية بالطبيعة والحجم الكامل للشبكة الصينية في كينيا. ولاحقاً أظهرت نيروبي امتنانها للموساد بالسماح للمقاتلات الإسرائيلية بعبور أجوائها في طريقها إلى عنتيبي لإنجاز مهمتها.

وأُغلق نادي الواحة ورُحّل رعاته الصينيون على طائرات أقلتهم خارج كينيا رغم احتجاجهم الصاخب بأنهم مجرد رجال أعمال. وكان هؤلاء محظوظين فسيظل هناك عدد من عملاء المخابرات الصينية دائماً في أفريقيا ليقتلهم ضباط الموساد ويتركوهم في غابات السافانا لتلتهمهم الضباع والسباع والنمور.

وكلما حاول الصينيون الرد في دولة أفريقية أخرى ازدادت شراسة الموساد فقد لاحقت فرق اغتيالات الموساد عملاء المخابرات الصينية في كل مكان. ففي غانا قتل عميل للمخابرات الصينية بالرصاص لدى مغادرته ملهى بصحبة صديقته. وفي مالي قتل آخر بسيارة ملغومة وفي زنجبار التي كانت لا تزال درة تاج المخابرات الصينية التهمت النيران مبنى سكنياً يقيم به العاملون بالمخابرات الصينية. وفي تحركاته الميدانية نجا كاو لينج نفسه من الموت بأعجوبة عندما قادته فطرته إلى تغيير سيارته في برازافيل بالكونغو في اللحظة الأخيرة. وبعددقائق انفجرت السيارة. وفي زامبيا عُلق أحد عملاء المخابرات الصينية على شجرة في انتظار أن تلتهمه الأسود.

وعندما كان كوامي نكروما رئيس غانا الموالي للصين يقوم بزيارة بكين حركت الموساد القلاقل التي أطاحت بنكروما من السلطة وأسفرت عن تدمير البنية الأساسية للمخابرات الصينية في غانا.

وعلى مدى ثلاث سنوات شنت الموساد حرب استنزاف طاحنة ضد المخابرات الصينية بطول أفريقيا وعرضها. لم تعرف الحرب أي بعد أخلاقي على الجانبين وعندما نصب فريق اغتيالات من المخابرات الصينية كميناً لضابط موساد في الكونغو وألقموه لتمساح وصوروا لحظاته الأخيرة في فم التمساح وأرسلوا الشريط إلى رئيس محطة الموساد في الكونغو. انتقم هذا الرئيس بأن قام بنفسه بإطلاق صاروخ على المبنى الذي

تمارس منه المخابرات الصينية نشاطها. وقتل ثلاثة صينيين.

وأخيراً ومن خلال وسيط هو الرئيس موبوتو سيسي سيكو أبلغت المخابرات الصينية الموساد بأنها لا ترغب فى المزيد من المعارك بل أن لهما مصلحة مشتركة فى القضاء على النفوذ السوفييتى. وتناسب هذا الرأى تماماً مع سياسة الموساد تجاه كافة القوى العظمى والتى يلخصها مائير أميت بالقول «إن انقسامهم على بعضهم يساعد إسرائيل على البقاء».

وفيما كانت الموساد والمخابرات الصينية منهمكتين فى القتال فيما بينهما كانت الكى جى بى قد اتخذت مزيداً من الخطوات للهيمنة على خطط كاسترو بفرض النفوذ الكوبى على أفريقيا. فقد اجتمع رؤساء الكى جى بى والمكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى فى الكرملين واتفقوا على دعم الاقتصاد الكوبى بالكامل، وكان هذا كفيلاً بحتمية ارتباط كوبا بسكانها البالغ عددهم سبعة ملايين نسمة بالاتحاد السوفييتى.

وفى المقابل وافق كاسترو على قبول الرأى القائل إن النموذج السوفييتى لا الصينى للشيوعية هو الأصلح فى أفريقيا كما وافق أيضاً على استقبال خمسة آلاف مستشار ليتولوا «تدريب» المخابرات الكوبية على أنسب طرق العمل «الصحيحة» فى أفريقيا.

وبدأت الكى جى بى تعمل إلى جانب الكوبيين فى أفريقيا. وفى غضون ستة أشهر هيمن السوفييت على كل عمل إرهابى، ومن معسكرات التدريب التى أقامتها فى الشرق الأوسط لتدريب الإرهابيين جلبت الكى جى بى أفضل العناصر إلى أفريقيا لشن الحرب ضد نظام العزل العنصرى فى جنوب أفريقيا. وسرعان ما قدم إرهابيون من أوربا وأمريكا اللاتينية وآسيا خبراتهم فى أنجولا وموزمبيق والدول المجاورة لجنوب أفريقيا.

وعلى حد قول مائير أميت «كانت الأمور تشتعل جنوب خط الاستواء». وكان على يقين تام بأنها مسألة وقت فقط ثم يحول هؤلاء المرتزقة الأشداء الذى صقلتهم المعارك وجهتهم نحو إسرائيل. وقوبل عرض المخابرات الصينية بالتعاون ضد العدو المشترك الكى جى بى وإرهابييه بوافر الامتنان من رئيس الموساد، وشرع الصينيون فى تقديم التفاصيل عن تحركات العرب داخل وخارج إفريقيا. وقتل بعضهم بأساليب

الموساد المعتادة مثل سيارة ملغومة أو متفجرات تزرع فى غرف الفنادق . وفى إحدى المرات وضعت الموساد قنبلة فى مرحاض مرتزق يعانى من آلام «المعدة الكونغولية» وهى نوع مؤلم من الدوسنتاريا وتمزق نصفه الأسفل أرباً أرباً بعدأن شد سيفون مرحاضه بأحد فنادق الخرطوم . .

وأوفت الموساد بما يخصها فى الصفقة، وأبلغت المخابرات الصينية بأن موسكو تعتزم تقديم مساعدة مالية ضخمة إلى واحدة من أفقر دول العالم (الصومال) وبادرت الصين على الفور بمضاعفة عرضها . وساعدت الموساد الصين فى السودان حيث أقامت موسكو رأس جسر عبر حكومة الرئيس نميرى العسكرية، لكن وعندما رفض الديكتاتور السودانى أن يعتمد اعتماداً مطلقاً على السوفييت دبرت الكى جى بى محاولة انقلابية ضد النميرى . وأبلغت الموساد المخابرات الصينية التى أبلغت النميرى بدورها . ورد النميرى بطرد كافة الدبلوماسيين السوفييت ووقف كافة برامج المساعدة من الكتلة السوفييتية . أما وقد حشرت نموذجى الشيوعية كل منهما فى حلق الآخر وشرعت فى الوقت نفسه بتعبير أميت «تعمل لحساب نفسها وتشق طريقها فى أفريقيا» فقد حولت الموساد أنظارها إلى مخابرات أخرى فى أفريقيا بدأ ينظر إليها على أنها صديق وهى : مكتب أمن الدولة فى جنوب أفريقيا «ب. و. س. س» وهو أكثر أجهزة الأمن المرهوبة الجانب فى جنوب أفريقيا . كانت «بوسى» تضارع الموساد فى أساليب الابتزاز والتخريب والتزوير والاختطاف واستجواب السجناء والحرب النفسية والاغتيال . وكالموساد كانت «ب. و. س. س» مطلقة اليد فى التعامل مع خصومها . وسرعان ما أصبح الجهازان سمناً على عسل . وغالباً ما عملا فى ترابط تام يجوسان عبر أنحاء أفريقيا مدعومين «بتفاهم» سرى بين رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير ونظام بريتوريا .

كانت أولى ثمار هذا التعاون الوثيق تصدير أول شحنة من صخور معدن اليورانيوم إلى مفاعل ديمونة . ونقلت الشحنات بواسطة طائرات الشحن التجارية بشركة العال الإسرائيلية من جوهانسبرج إلى تل أبيب وسجلت فى الوثائق على أنها معدات زراعية . وزار علماء جنوب أفريقيا ديمونة وكانوا الوحيدين من خارج إسرائيل الذين يعرفون بالطبيعة الحقيقية للمنشأة . وعندما أجرت جنوب أفريقيا تجربة بشحنة نووية

بجزيرة منعزلة نائية بالمحيط الهندى شهد العلماء الإسرائيليون تلك التجربة. وفى عام ١٩٧٢ اجتمع عيزرا فايتسمان أحد كبار مسئولى وزارة الدفاع الإسرائيلية فى ذلك الحين مع رئيس الوزراء بى دبليو بوتا فى بريتوريا للتصديق على مزيد من «التفاهم»، فإذا تعرض أى منهما للهجوم وتطلب الأمر مساعدة عسكرية فسوف يقدم الآخر تلك المساعدة. وزودت إسرائيل جنوب أفريقيا بكميات كبيرة من الأسلحة الأمريكية الصنع مقابل السماح لإسرائيل بإجراء تجاربها النووية للشحنات التى تنتجها فى ديمونة فى موقع اختبارات جنوب أفريقيا فى المحيط الهندى.

وحينذاك عمقت الموساد علاقتها الخاصة مع مخابرات جنوب أفريقيا. وبينما لم تستطع الموساد حمل عملاء «بوس» على الإقلاع عن أساليبهم الوحشية فى الاستجواب فقد دربهم مدربو الموساد على أساليب أخرى اثبتت فعاليتها فى لبنان وأماكن أخرى: مثل الحرمان من النوم وتعصيب العينين وإجبار المشتبه فيه على الوقوف لساعات طويلة أمام الحائط والضرب على الأعضاء التناسلية ومجموعة أخرى من أساليب التعذيب العقلى التى تتراوح بين التهديدات والإيهام بالإعدام.

ورافق ضباط الموساد وحدات «ب. و. س. س» إلى الدول الأفريقية السوداء المجاورة فى مهام تخريبية. ودربت فرق الاغتيال بالموساد أعضاء «ب.و.س.س» على كيفية تنفيذ عمليات القتل دون ترك أى أثر يمكن اقتفاؤه. ورحبت مخابرات جنوب أفريقيا كل الترحيب بعرض الموساد بتحديد أماكن إقامة زعماء منظمة المؤتمر الوطنى الأفريقى المقيمين فى المنفى فى بريطانيا وأوربا لقتلهم. ولكن حكومة جنوب أفريقيا اعترضت على الفكرة أخيراً خشية أن تفقد تأييد السياسيين المحافظين فى لندن.

كانت الموساد وب. و. س. س يحركهما هاجس أن أفريقيا تنجرف يساراً نحو ثورة سوف تطال بلديهما لا محالة. ولمنع هذا فكل الوسائل مسموح بها. أما وقد غذت كل منهما مخاوف الأخرى فلم تند عن أى منهما (الموساد وب. و. س.س) أى بادرة رحمة واشتركتا فى قناعة ذاتية بأنهما وحدهما فقط هم اللذان يعرفان كيفية التعامل مع الخصم. وبين كل أجهزة المخابرات أصبحت الموساد وبوسى أكثر المخابرات الأجنبية المرهوبة الجانب فى أفريقيا.

ولم يرق هذا التحالف لواشنطن. وخشيت المخابرات المركزية الأمريكية أن يؤثر

هذا التحالف عن جهودها الرامية لإبقاء قبضتها قوية على القارة السوداء. فقد أثارت موجة تصفية الاستعمار فى القارة أوائل الستينيات اهتمام الوكالة من جديد بأفريقيا وتزايد النشاط السرى فيها وتشكلت إدارة أفريقية بالوكالة وبحلول عام ١٩٦٣ أسست الوكالة محطات لها فى كل دولة أفريقية.

كان بيل بكلى واحداً من أوائل الذين خدموا فى أفريقيا وهو بكلى الذى اختطفه وقتله إرهابيو حزب الله فى بيروت لاحقاً. وقبيل اختطافه يتذكر بكلى بالقول «كانت أوقاتاً مجنونة بالفعل فى أفريقيا حيث يتسابق الجميع للحصول على موقع فى القارة. كنا قد تأخرنا كثيراً ونظرت إلينا الموساد كما لو كنا متطفلين».

وفى واشنطن بذلت الخارجية الأمريكية جهوداً حذرة لكن قوية لتقليص النفوذ الإسرائيلى فى أفريقيا. فقد سربت تفاصيل توجه عدة مئات من يهود جنوب أفريقيا إلى إسرائيل لمساعدتها فى حرب السويس(*).

وقطعت عشرون دولة أفريقية سوداء علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل ومن بينها نيجيريا التى كان قطعها لعلاقتها مع إسرائيل أقوى لطمة؛ حيث تحصل إسرائيل على (٦٠) فى المائة من احتياجاتها البترولية من نيجيريا مقابل الأسلحة التى حصلت عليها إسرائيل من الولايات المتحدة أصلاً. ورغم قطع العلاقات إلا أن رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق شامير وافق على استمرار تزويد نيجيريا سراً بالأسلحة مقابل استمرار تدفق النفط النيجيرى إلى إسرائيل. وبالنسبة لبكلى كان هذا «مثالاً صارخاً آخر للسياسة الواقعية» وثمة مثال آخر يوضح كيف ساعدت الموساد مخابرات جنوب أفريقيا «ب.و.س.س». ففى أعقاب الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ عثرت الموساد على كميات ضخمة من الوثائق تكشف وجود علاقة وثيقة بين منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمة المؤتمر الوطنى الأفريقى خصم (ب.و.س.س) اللدود. ونقلت مواد الاتهام إلى مخابرات جنوب أفريقيا ومكنتهم من اعتقال وتعذيب المئات من أعضاء المؤتمر الوطنى الأفريقى.

كانت الثمانينيات هى العصر الذهبى للموساد فى رحلتها السفارى العظمى فى

(*) يقصد المؤلف حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ (الترجمة).

القارة الأفريقية. فبتأليب المخابرات الصينية ضد الكى جى بى فقد صعبت الأمور أمام المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية أم آى ٦ والمخابرات الأوربية الأخرى الى تعمل فى القارة، وحين يهدد أحدها مركز الموساد فإنها تكشر عن أنيابها. ففى كينيا قتل عميل للمخابرات البريطانية أم آى ٦ فى انفجار. وقضى على شبكة للمخابرات الفرنسية فى زائير. وفى تنزانيا أجهضت عملية للمخابرات الألمانية بشكل مفاجئ بعد أن كشفتها الموساد بإبلاغ صحفى تنزانى بها.

وعندما سعى الزعيم الإرهابى أبو نضال ـ الذى دبر اغتيال السفير الإسرائيلى لدى بريطانيا شولومو أرجوف فى ٣ يونيو ١٩٨٢ أمام فندق دورشيستر بلندن ـ للجوء إلى السودان وعدت إسرائيل النظام السودانى بتقديم مليون دولار أمريكى مقابل تسليمه حياً أو ميتاً لكن أبو نضال فر ولجأ إلى بغداد.

وفى اثنتى عشرة دولة افريقية استغلت الموساد القومية الأفريقية الجديدة. ومن العملاء الذين خدموا فى عدد من تلك الدول كان باكوف كوهين الذى يقول «لقد قدمنا لهم قدرات استخباراتية مكنتهم بالبقاء على قمة المعارضة. ففى دول مثل نيجيريا أدى التنافس القبلى الحاد إلى اندلاع حرب أهلية. كانت سياستنا هى العمل مع أى أحد يريد أن يعمل معنا. وقد مكننا هذا من معرفة كل ما يدور فى بلد ما. وبالتالى يتم الرد على أدنى تغيير قد يؤثر على إسرائيل».

وقبل التوجه إلى أفريقيا أثبت كوهين وجوده من خلال مهام سرية فى مصر وفى أماكن أخرى. وإمعاناً فى التخفى قامت الموساد بتغيير ملامح كوهين الجسدية بإجراء جراحة تجميل لإخفاء ملامحه العرقية المميزة (أنفه). ولدى عودته من المستشفى لم تتعرف عليه زوجته تقريباً.

وفى أول أيام العام الجديد ١٩٨٤ تضمن تقرير أدمونى اليومى الموجز للمخابرات أخبارا عن وقوع انقلاب فى نيجيريا. فقد تولى مجلس عسكرى برئاسة الميجور جنرال محمد بخارى السلطة فى البلاد. كان أول سؤال استفسر عنه شامير رئيس الوزراء هو مدى تأثير الانقلاب على إمدادات البترول النيجيرية لإسرائيل. ولم يجب أحد على السؤال. وعلى مدار اليوم بذلت محاولات مستميتة دون نجاح للاتصال بالنظام الجديد.

وفي ثاني أيامه في السلطة أصدر قائد الانقلاب قائمة بأعضاء الحكومة السابقين المتهمين بعدد متفاوت من التهم وعلى صدر القائمة جاء عمرو ديكو وزير النقل المخلوع واتهم باختلاس عدة ملايين من الدولارات من أرباح مبيعات البترول من الخزانة الحكومية. وهرب ديكو من البلاد ورغم المحاولات المستميتة للعثور عليه إلا أنه تلاشى تماماً.

ووجدها أدموني فرصة واستقل الطائرة بجواز سفر كندى ـ وهي وثيقة سفر أخرى اختارتها الموساد للمهام السرية ـ وتوجه بها إلى العاصمة النيجيرية لاجوس. واستقبله الجنرال بخارى في ساعة متأخرة من الليل. وأصغى الجنرال لأدموني وهو يشرح عرضه الذى حظى بموافقة تامة من رابين. ففي مقابل ضمان استمرار تدفق إمدادات البترول الذى يجرى لإسرائيل فسوف يعثر الموساد على ديكو ويعيده إلى نيجيريا. وطرح بخارى سؤالاً: هل تستطيع الموساد معرفة المكان الذى أخفى فيه ديكو الأموال المختلسة؟ وقال أدموني إنه من شبه المؤكد أن الأموال موجودة في حسابات سرية بالبنوك السويسرية وسيكون من المستحيل تقريباً الوصول إليها مالم يتطوع ديكو بكشف مكانها. وابتسم بخارى للمرة الأولى قائلاً إنه بمجرد عودة ديكو إلى نيجيريا فلن تكون هناك مشكلة. لكن بخارى طرح سؤالاً أخيراً هل توافق الموساد على التعاون مع جهاز أمن نيجيريا ذاته بمجرد العثور على ديكو فلاتباهي بأسره؟ ووافق أدموني ولم يكن هناك فخر يمكن أن تجنيه الموساد من عملية في غاية البساطة مثل هذه.

وأعلنت حالة التأهب في صفوف «جواسيس إيتان الناجون» في مختلف أنحاء أوربا. وأرسل ضباط الموساد يجوسون من إسبانيا إلى السويد. وأعلن التأهب أيضاً بين المساعدين اليهود وطُلب من الأطباء أيضاً الإبلاغ عن ديكو إذا سعى للعلاج أو طلب إجراء جراحة تجميل لتغيير ملامحه ووصل الطلب أيضاً إلى حراس الفنادق في ملاعب ديكو القديمة في سان موريز ومونت كارلو. وطلب أيضاً من موظفى مكاتب تأجير السيارات من مدريد حتى ميونيخ الإبلاغ عنه حال استئجاره سيارة وكذلك مكاتب الطيران إذا اشترى تذكرة طائرة. وطلب أيضاً من المساعدين العاملين في شركات بطاقات الائتمان التأكد مما إذا كان قد استخدم بطاقات الائتمان الخاصة به. وعرضت

تفاصيل أوصاف ديكو علي الجرسونات وزودت محال تفصيل الملابس بمقاساته ومقاس ياقته وزودت محلات الأحذية من روما إلى باريس أيضاً بمقاس أحذيته (١٢) وفي لندن طلب إلى ماكسويل إجراء اتصالاته الرفيعة مع الدبلوماسيين الأفارقة في لندن لمعرفة أى مؤشر عن المكان الذى ذهب إليه ديكو لكنه عاد بخفى حنين كالآخرين .

ومع ذلك فقد قرر أدمونى أن ديكو يختبئ في مكان ما في لندن التي تحولت إلى مأوى لخصوم النظام النيجيرى الجديد ولذا فقد نقل أفضل ضباطه إلى المدينة ويرافقهم عدد من عملاء جهاز الأمن النيجيرى بقيادة الميجور محمد يوسفو . واستأجروا شقة في شارع كرومويل واختار ضباط الموساد الفنادق التي يفضلها السياح الأفارقة .

وتحركت المجموعتان اللتان تعملان بشكل منفصل في أوساط الجالية النيجيرية كبيرة العدد في المدينة وتنكر رجال يسوفو على أنهم لاجئون معارضون للنظام الجديد بينما تنكر ضباط الموساد في صورة المتعاطفين مع طموحات الأفارقة السود للإطاحة بالنظام الغربي العنصرى في جنوب أفريقيا . وتدريجياً قرروا حصر دائرة البحث في منطقة غرب لندن والمنطقة المحيطة بهايد بارك حيث يقيم الكثير من أثرياء النيجيرين في المنفى وبدأوا في مسح التسجيلات الالكترونية المتاحة في منطقة قائمة البلدية وكانوا يعودون كل مرة بخفي حنين .

وبعد سبعة أشهر من يوم فرار ديكو من لاجوس ظهر مرة أخرى إلى الوجود . ففي ٣٠ يونيو وقعت عينا ضابط موساد أثناءقيادته السيارة على طريق كونيزواى قبالة بايزووتر على رجل تنطبق عليه أوصاف ديكو وقد بدا أكبر سناً وأنحف لكن العين لا تخطئ شكل الوجه العريض والعينين السوداوين الفاحمتين اللتين لم توجها نظرة ثابتة لسيارة ضابط الموساد .

وبعد أن لمح مكان انتظار أوقف ضابط الموساد سيارته وانطلق على قدميه مقتفياً أثر ديكو في منزل بالقرب من دورشيستر تيراس . وأبلغ أدمونى على الفور الذى أصدر أوامره باتخاذ الخطوة التي تناسب اللحظة أى مراقبة المنزل لأربع وعشرين ساعة . وعلى مدى الأيام الثلاثة الأولى في شهر يوليو ١٩٨٤ تولى اثنان من العملاءمراقبة ديكو بشكل مستمر . في الوقت نفسه أعد النيجيرون سفارتهم

كقاعدة للإعداد لعملية اختطاف شبيهة بتلك التي وضعها إيتان لاختطاف أودلف ايخمان.

وفي العادة كان يكلف شخص خارجي بدور مهم هو الطبيب الشهير ليفي آربيه شابيرو استشاري التخدير ومدير وحدة الرعاية المركزية بمستشفي هاشارون في تل أبيب الذي جنده الكسندر باراك ضابط الموساد الذي حرك نعرة الوطنية فيه. ووافق الطبيب على السفر إلى لندن وأنفق الألف دولار التي منحها إياه باراك على شراء أجهزة طبية اشتملت على مخدر وأنبوب طبي، علي أن ينتظر المزيد من المعلومات في لندن. ورفض شابيرو قبول أتعاب على خدماته قائلاً إنه فخور بخدمة إسرائيل. ووصل ضابط الموساد الآخر فيليكس أبيتول إلى لندن على متن رحلة قادمة من أمستردام في الثاني من يوليو تموز. ونزل بفندق راسيل. كانت أولى تعليماته لرئيس الفريق النيجيرى الميجور يوسفو هي استئجار سيارة فان. ووقع اختيار أحد رجال يوسفو على سيارة صفراء اللون. وربما كانت تلك اللحظة التي بدأ فيها تنفيذ الخطة.

و في ساعة متأخرة من ليل يوم الثالث من يوليو هبطت طائرة شحن نيجيرية بوينج ٧٠٧ بمطار ستانستيد على بعد ثلاثين ميلاً شمال شرق لندن، كانت الطائرة قد أقلعت فارغة من مطار لاجوس. وأبلغ قائد الطائرة سلطات المطار بأن طائرته هبطت لشحن أمتعة دبلوماسية من السفارة النيجيرية. ورافق طاقم الطائرة عدد من أفراد جهاز الأمن النيجيرى وكشفوا عن هويتهم قائلين إنهم جاءوا لحراسة الأمتعة وأبلغ الفرع الخاص بشرطة سكوتلانديارد بوجودهم. وكانت قد راجت خلال الأشهر الماضية ادعاءات بأن النظام العسكرى النيجيرى الحاكم يهدد حياة المقيمين في منفاهم بلندن. وطلب من رجال الأمن النيجيريين عدم مغادرة المطار. وباستثناء التوجه إلى كافيتريا المطار التزم رجال الأمن النيجيريون الطائرة.

وفي ضحى اليوم التالى تقريباً تحركت السيارة الفان الصفراء للخروج من جراج نوتيج هيل جيت الذى يستأجره أحد النيجيريين. كان يقودها رئيس الفريق النيجيرى يوسفو. وفي الخلف جلس الدكتور شابورو بجوار صندوق، وانحشر معه بجوار الصندوق كل من باراك وأبيشول وعند الظهر طلب قائد البوينج ٧٠٧ تحديد موعد للإقلاع من مطار ستانستيد إلى لاجوس في الساعة الثالثة بعد الظهر. ودون بوثائق

الشحن أن الشحنة هى صندوق «وثائق» لحساب وزارة الشئون الخارجية في لاجوس وادعت الوثائق أن الصندوقين يتمتعان بالحصانة الدبلوماسية.

وقبيل الظهر توجهت الشاحنة عبر الشوارع وانتظرت أمام منزل فى دورشيستر تيراس وبعد برهة ظهر عُمَرو ديكو خارجاً فى طريقه للقاء صديق على الغداء في مطعم قريب. كانت تراقبه من النافذة سكرتيرته الخاصة إليزابيث هايس وأثناء استدارتها انفتح الباب الخلفى للسيارة الفان بسرعة فائقة، وأطبق رجلان يرتديان ملابس داكنة علي ديكو واقتاداه إلي مؤخرة السيارة الفان. وصرخ بشيء ما بالكاد قبل أن يقفزا خلفه لتنطلق السيارة الفان بأقصى سرعة.

وبعد أن أفاقت السكرتيرة من ذهولها اتصلت بالطوارئ على رقم (٩٩٩). وفي غضون دقائق كانت الشرطة قد وصلت إلى مسرح الحادث تلاها علي الفور ويليام هاكليزباى قائد مكافحة الإرهاب بالشرطة البريطانية وساورته الشكوك فيما حدث وأعلنت حالة التأهب في كل الموانى والمطارات. وبالنسبة لهاكليزباى كان الموقف ينطوى على صعوبة بالغة، فلو كان النظام النيجيرى قد اختطف ديكو فيمكن أن يثير هذا أسئلة سياسية بالغة الإحراج وأخطرت وزارة الخارجية البريطانية ورئاسة الحكومة البريطانية وصدرت الأوامر لهاكليزباى باتخاذ ما يراه مناسباً.

وقبيل الساعة الثالثة بعد الظهر وصلت السيارة الفان إلى مطار ستانستيد. وأخرج يوسفو جواز سفر دبلوماسياً نيجيرياً لرجال الجمارك البريطانيين الذين شاهدوا الصندوقين ليتم شحنهما على الطائرة النيجيرية ويتذكر أحد الضباط هو تشارلز مورو قائلاً «كان هناك شيء ما مريب بأحد الصندوقين. ثم سمعت ضجة تصدر من أحدهما. وذهبت بى الظنون. وقلت لنفسى سواءأكان هناك حصانة دبلوماسية أم لا فلابد وأن أرى ما بداخلهما».

وأنزل الصندوقان من الطائرة ونقلا إلى هنجز رغم الاحتجاج الغاضب من يوسفو بأنهما محميان بموجب الحصانة الدبلوماسية وفى الصندوق الأول عثر على عُمَرو ديكو موثقاً غائباً عن الوعى بسبب المخدر وبجانبه الدكتور شابيرو ممسكاً بحقنة فى يده على أهبة الاستعداد لزيادة جرعة المخدر. ووضع أنبوب طبى بحلقه لمنع اختناقه نتيجة التقيؤ. وفى الصندوق الثانى كان ينحشر كل من باراك وأبيشول.

وأثناء المحاكمة لم يحد العميلان عن القول بأنهما مرتزقة تصرفا لحساب مجموعة من رجال الأعمال النيجيريين الذين أرادوا إعادة ديكو إلى نيجيريا لمحاكمته. وفي ختام مرافعته أمام المحكمة، قال چورچ كارمن أحد أبرز وأغلى المحامين في بريطانيا «ربما يكون أكثر التفسيرات المقنعة هو أن المخابرات الإسرائيلية ليست بعيدة على الإطلاق عن العملية» كان هذا المحامي قد وكل للدفاع عنهما.

ولم يقدم الادعاء أي أدلة على تورط الموساد وتُرك الأمر للقاضي ليفعل هذا في العرض الختامي للقضية. فقد أبلغ المحلفين «أن أصابع الاتهام تشير بشبه يقين إلى الموساد».

وحكم على باراك بالسجن لأربعة عشر عاماً وعلى الدكتور شابيرو بعشر سنوات ومثلها لأبيثول. وصدر حكم بالسجن لاثنى عشرة سنة على يوسفو. وقد أفرج عنهم جميعاً بعد فترة لحسن السير والسلوك ورحلوا بهدوء إلى إسرائيل.

وكما حدث مع آخرين قبلهم خدموا الموساد بإخلاص فقد تأكدت الموساد بأنهم سيظلون بعيداً عن الأضواء وأن عليهم عدم الإجابة على الأسئلة الشائكة أما الدكتور شابيرو. الذى حنث بشكل فاضح بقسم أبو قراط فلا يزال يمارس الطب!

وأبلغت المخابرات البريطانية أم آى ٥ أدموني بأنه إذا حدثت زلة أخرى فستعامل الموساد كجهاز مخابرات غير صديق. لكن وفي تلك اللحظة كان رئيس الموساد يحضر لعملية أخرى تهدف إلى تذكير بريطانيا بمن هم أعداؤها الحقيقيون وفي الوقت نفسه كسب التعاطف لإسرائيل.

كان الاعتقاد السائد بأنه لا يتعين إهدار أى فرصة لبث الرعب والهلع فى نفوس العرب وشعر محققو «أمان» بالارتياح لإدراك أن ركاب الطائرة سيعززون صورة إسرائيل القوية والقادرة.

الفصل
الرابع
عشر

خادمة
القنبلة

في صباح يوم مشرق غير ملبد بالغيوم من شهر فبراير ١٩٨٦ انقضت مقاتلتان من مقاتلات القوات الجوية الإسرائيلية على طائرة مسجلة في ليبيا كانت في طريقها من طرابلس إلى دمشق. كانت الطائرة تحلق في المجال الجوى الدولي على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق البحر المتوسط وعلى وشك الدخول إلى الأجواء السورية وكانت تُقل على متنها وفوداً عائدة من مؤتمر للمنظمات الفلسطينية ومنظمات راديكالية أخرى عقده معمر القذافى لبحث الخطوات الجديدة التى هدف القذافى منها إلى إزالة إسرائيل من على وجه الأرض.

ألقى مشهد المقاتلتين وهما تأخذان مواقعهما على جانبى الطائرة الرعب في قلوب ركابها الأربعة عشر ولسبب وجيه، فقبل أربعة أشهر أى فى الأول من أكتوبر ١٩٨٥ قامت قاذفات مقاتلة إسرائيلية طراز إف ـ ١٥ بتدمير مقر منظمة التحرير الفلسطينية بجنوب شرق تونس وقطعت نحو ثلاثة آلف ميل في الذهاب والعودة بما في ذلك التزود بالوقود في الجو والعمل المخابراتى الذى يثير القشعريرة الجماعية في العالم العربى.

كانت الغارة رداً مباشراً على قتل منظمة التحرير الفلسطينية ثلاثة من السياح

الإسرائيليين في منتصف العمر أثناء وجودهم على يختهم بميناء لارنكا القبرصي قبل أيام فقط. وقتل الثلاثة في يوم كيبور فيما اعتبره الإسرائيليون أنه يجدد ذكرياتهم عن بدء الحرب في يوم الكفارة حينما أخذت الأمة نفسها على حين غرة كالسياح تماماً.

ورغم تعرض الإسرائيليين للإرهاب على مدى أربعة عقود وتحملهم له تقريباً إلا أن قتل السياح الثلاثة نشر الرعب والخوف على نطاق كبير بين الإسرائيليين. فقد أحتجز السياح الثلاثة بعض الوقت على متن يختهم ليكتبوا أفكارهم الأخيرة قبل قتلهم: كان أول من يقتل هو سيدة أطلق عليها الرصاص في مقتل في بطنها. وأجبر رفيقاها الرجلان على إلقائها من اليخت في البحر، ثم أطلق الرصاص على الواحد تلو الآخر من مسافة قريبة على مؤخرة الرأس.

وفي حرب الدعاية السوداء وهي أحد ملامح الحرب الدائرة منذ أمد طويل بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل ادعت المنظمة أن الضحايا الثلاثة ما هم إلا عملاء للموساد كانوا مكلفين بمهمة. وحاكت منظمة التحرير القصة بإتقان إلى حد أن بعض الصحف الأوروبية كتبت عن المرأة كأحد العملاء الذين ضبطوا في قضية

ليلهامر ١٩٧٣ . كانت تلك السيدة لا تزال على قيد الحياة وقد تركت منذ فترة طويلة نشاطها في الموساد.

ومنذ ذلك الحين حفلت الصحف العربية بتحذيرات حادة بأن إسرائيل سوف تنتقم. كان الكثير من أنباء ذلك الانتقام من وضع إدارة الحرب النفسية بالموساد لمزيد من الضغط على أعصاب ملايين العرب.

ورأى ركاب الطائرة الليبية الذين كانوا يهتفون لتدمير إسرائيل قبل ساعات فقط في المؤتمر الذى عقد في ليبيا الوجه الشرس لعدوهم يحدق فيهم. وهزت إحدى المقاتلتين جناحيها، وهي إشارة تعني «اتبعني» المعترف بها دولياً في كافة أنحاء العالم. ولتعزيز الرسالة وجه إسرائيلي إشارة مباشرة بيده التي يرتدى فيها قفازاً. ثم هبط باتجاه الجليل، وأخذت السيدة التي كانت على متن الطائرة في الصراخ والعويل وبدا بعض الرجال في التضرع إلى الله وحملق آخرون وكأن على رءوسهم الطير. كانوا جميعاً يعرفون أن هذا احتمال وارد فالكفرة الملاعين يمكن أن يختطفوهم حتي في الجو.

وأطلقت إحدى المقاتلات الإسرائيلية دفعة أعيرة من مدفعها محذرة قائد الطائرة من الاستغاثة بالمقاتلات السورية التي تكفيها دقائق للوصول، وازداد خوف ركاب الطائرة، فهل هم أيضاً على وشك أن يلاقوا نفس المصير المحتوم الذى لاقاه أبطال العالم العربي؟

فقبل شهر واحد فقط من غارة تونس أوقف زورق بحرية إسرائيلي يقل عملاء للموساد سفينة صغيرة تسمى «أوبورتيونيتي» في رحلتها المعتادة بين لارناكا وبيروت، ومن جوف السفينة انتزعوا الإرهابي فيصل أبو شراع الملطخة يداه بالدماء. وألقى ككم مهمل علي زوق الدورية تمهيداً لاستجواب لا يعرف الرحمة في إسرائيل يليه محاكمة سريعة ثم فترة طويلة بالسجن. عززت السرعة والدقة التي تمت بها العملية من جدية صورة إسرائيل التي لا تقهر في العالم العربي.

كانت مثل تلك العمليات أمراً شائعاً. فقد قامت الموساد بالتعاون الوثيق مع البحرية الإسرائيلية الصغيرة جيدة التدريب منذ ذلك الحين باعتراض عدد من الزوارق والسفن منتزعة المشتبه في أنهم إرهابيون من ركابها. ولم تكن سواحل إسرائيل

الطويلة على البحر الأبيض هى التى تستدعى الحيطة والحذر بل إن البحر الأحمر يشكل مصدراً مستمراً للخطر بدوره. وكان عميل للموساد في اليمن مصدراً لعملية أحبطت مؤامرة أعدتها منظمة التحرير الفلسطينية بإبحار زورق صيد فى مياه البحر الأحمر نحو منتجع إيلات وتفجير شحنة الزورق من المتفجرات على الساحل بما يغص به من فنادق. واعترض زورق إسرائيلى مسلح زورق الصيد وتغلب على الانتحاريين الذين كانا على متنه قبل أن يفجرا الشحنة التى يحملها.

ولدى هبوط الطائرة فى شمال إسرائيل خشى الركاب من أن تكون هذه العملية انتقاماً أيضاً لاختطاف بطل عربى آخر هو أبو العباس قبل بضعة أشهر فى ٢ أكتوبر ١٩٨٥ للسفينة الإيطالية أكيلى لاورو فى أكثر حوادث القرصنة البحرية إثارة سيتذكرها العالم. وقتل أبو العباس أحد ركابها هو ليون كلينجهوفر اليهودى الأمريكى المقعد بإلقائه فى البحر.

وتحولت الجريمة إلى واقعة دبلوماسية طالت إسرائيل والولايات المتحدة ومصر وإيطاليا وسوريا وقبرص ومنظمة التحرير الفلسطينية، وعلى مدى أيام طوفت الأزمة حول المتوسط حاشدة الشعبية للخاطفين وكاشفة المصلحة الذاتية فى الشرق الأوسط التى تحكم التوجهات نحو الإرهاب، وأثار اختطاف سفينة سياحية تحمل سياحاً وتجلب نقداً أجنبياً تحتاجهما إسرائيل بشدة وما تلى ذلك من قتل أحد ركابها موجة عارمة من التردد وعدم الحسم. ومن الناحية الفنية البحتة فقد وقعت عملية القتل على أرض إيطالية «إكيلى لاورو المسجلة فى جنوة»، وأرادت إيطاليا المعرضة للإرهاب وضع نهاية هادئة للحادث. وكانت الولايات المتحدة تريدإعمال العدالة لقتل مواطنها. وفى أنحاءالولايات المتحدة انتشرت ملصقات كتب عليها: «لا تصابوا بالجنون، عليكم بالثأر» وأخيراً استسلم الإرهابيون الذين تصدروا عناوين الصحف العالمية لعدة أيام للسلطات المصرية التى سمحت لهم بمغادرة مصر مما أثار غضب إسرائيل.

وتساءل أكثر من واحد من الركاب عما إذا كانوا سيحتجزون فى سجن إسرائيلى، انتقاماً منهم. وجنباً إلي جنب وجناحاً إلى جناح كانت المقاتلتان والطائرة الليبية تهبط فى مطار حربى إسرائيلى فى شمال الجليل وفى انتظارهم كان فريق من محققى المخابرات العسكرية الإسرائيلية «أمان» وقد أبلغتها الموساد أن الطائرة تقل اثنين من

العناصر الإرهابية المطلوبة بشدة فى العالم وهما أبو نضال وأحمد جبريل سيئا السمعة. وبدلاً منهما وجد المحققون أمامهما مجموعة من العرب المرعوبين لم يتعرف الكمبيوتر على اسم أى منهم، وأخيراً سمح للطائرة بالإقلاع بركابها.

وأصرت إسرائيل على أن اعتقال الإرهابيين هو السبب الرئيسى لاعتراض الطائرة، لكن داخل الموساد كان الاعتقاد السائد بأنه لا يتعين إهدار أى فرصة لبث الرعب والهلع فى نفوس العرب وشعر محققو «أمان» بالارتياح لإدراك أن ركاب الطائرة سيعززون صورة إسرائيل القوية والقادرة.

واعتقد أيهود باراك رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية «أمان» بأن العملية ما هى إلا نموذج آخر لرعونة الموساد وأبلغ هذا الشعور بوضوح لناعوم أدمونى.

وكرجل لا يفت فى عزيمته الخطأ أو الانتقاد بأدنى قدر، شرع رئيس الموساد فى الإعداد لعملية لن تضع فقط نهاية لاستهزاء الإدعاءات العربية من الموساد التى تهاوت لتصبح مجرد جهاز يستعرض عضلاته باعتراض طائرة مدنية عزلاءبل تقضى أيضاً على ما يدور فى عالم الاستخبارات الإسرائيلية من مقولات بأنه يتعين على الموساد أن تكون أكثر حيطة وأكثر يقيناً فى المرة القادمة قبل ارتكاب حماقة أخرى.

وهكذا بدأت عملية ستدمر حياة خادمة غرف إيرلندية حامل وتودع حبيبها العربى السجن ليمضى أطول حكم بالسجن تصدره محكمة بريطانية، وتصيب المستشار الألمانى هيلموت كول ورئيس الوزراء الفرنسى جاك شيراك بالارتباك وتكشف مجدداً غضب ماكسويل العارم، الذى استغله لمصلحته، وتطرد سوريا من الحلبة الدبلوماسية الدولية، وتجبر محطات الإذاعات العربية التى سخرت فى شماتة من الموساد على تغيير لهجتها.

وككل العمليات كانت هناك لحظات توتر بالغ وفترات انتظار على أحر من الجمر. شابها بعض من اليأس الذى ينتاب البشر، لكن وبالنسبة لرجال على شاكلة أدمونى فإن مثل تلك المؤامرة مسألة حياة أو موت. فلطالما راود نفسه وسألها نفس الأسئلة المرة تلو الأخرى هل يمكن أن تثبت فعاليتها؟ هل سيعتقد شخص آخر أنها على هذا النحو بالفعل؟ وبالطبع هل ستظل الحقيقة الأصلية مدفونة إلى الأبد؟

وقد حشدت الموساد مختلف قدرات ومهارات رجلين لهذه العملية فأحدهما ضابط موساد خدم في بريطانيا تحت اسم مستعار هو توف ليفي والثاني هو عميل فلسطيني كنيته «أبو ...». وتم تجنيد هذا الفلسطيني بعد أن اكتشفت الموساد اختلاسه أموال صندوق لمنظمة التحرير الفلسطينية كان يتولى إدارته في قرية على الحدود الأردنية الإسرائيلية. وباللعب على وتر خوفه من أنه يمكن اكتشاف الجريمة من خلال إخبارية من مجهول لمختار القرية الأمر الذى قد يودى بحياته قامت الموساد باستدراجه للسفر إلي لندن. وزود بوثائق سفر مزورة تثبت أنه رجل أعمال كما أعطى أموالاً تغطى تكاليف إقامته في لندن بما يتناسب مع دوره كرجل مبذر وكان توف ليفي هو المكلف بالسيطرة عليه.

ومن كل الزوايا انطبق على «أبو» تعريف عوزى ماهنايمى عضو المخابرات الإسرائيلية السابق لما يتعين أن يكون العميل عليه «عليك أن تقضى معه ساعات بل وأياماً، عليك أن تعلمه كل ما يحتاج أن يعرفه، عليك أن تمضى الدورات معه، وتساعده وتتآلف معه، أدرس صور أسرته. عليك بمعرفة أسماء وأعمار أبنائه، لكن العميل ليس بإنسان، لا يجب مطلقاً أن تفكر فيه على أنه بشر، إنه مجرد سلاح، وسيلة لتحقيق غاية مثل الكلاشينكوف تماماً، هذا هو كل ما فى الأمر، وإذا تعين عليك أن ترسله إلي حتفه فلا تفكر في الأمر، فالعميل دائماً مجرد لا شيء، شخص تافه لا شأن له إنه ليس إنساناً بالمرة».

وأدى «أبو» دوره إلى حد الإعجاز وأصبح شخصية ووجها مألوفاً على طاولات القمار في ماى فير. وفى ضوء نجاحه قوبلت نزواته الجنسية وإفراطه فى الشرب بالتسامح. وخلال ملازمته لتجار السلاح ومؤيدى منظمة التحرير الفلسطينية حصل «أبو» على معلومات مكنت الموساد من توجيه ضربات قاتلة لأعدائه. فقد قتل خمسة عشر من رجال منظمة التحرير الفلسطينية خلال الأسابيع التالية نتيجة لمعلومات «أبو».

وعقد «أبو» عدداً من الاجتماعات واللقاءات فى بارات ومطاعم فندق هيلتون في بارك لين وفى ذلك الفندق كانت تعمل فتاة أيرلندية من دبلن تدعى آن ماريا ميرفى.

وشأن الكثيرات روادها حلم جنى ثروة بالعمل في لندن، لكن كل ما استطاعت

الحصول عليه هو وظيفة عاملة غرف، كان راتبها ضعيفاً وساعات العمل طويلة ومرهقة. واعتادت آن ماري قضاء وقت فراغها المحدود في بارات منطقة ستيفا روز بوش التي يعيش فيها العاملون الإيرلنديون في بريطانيا، كانت تشارك في ترديدأغاني التمرد وتساير الجو. ثم تنسحب إلى غرفتها وحيدة لتستعد ليوم آخر طويل تمضيه في تغيير الملاءات وتنظيف فوط الحمامات لتترك كل غرفة في حالة تبرق من النظافة على طريقة الهيلتون.

وقبيل أعياد الميلاد عام ١٩٨٥ والدموع توشك أن تطفر من عينيها كلما خطرت على بالها فكرة أنها ستمضى العيد وحيدة في مدنية تختلف تمام الاختلاف عن مدينة دبلن السعيدة التي تعشقها، التقت آن ماري برجل عربي داكن البشرة راق لها كثيراً. وبدا الرجل ببدلته الحريرية ورابطة عنقه الأنيقة اللامعة نموذجاً للثراء الفاحش. وعندما ابتسم لها الرجل بادلته ابتسامة عذبة كان اسمه نزار هنداوى وابن عم من بعيد «لأبو».. كان هنداوى في الخامسة والثلاثين من العمر رغم أنه كذب بشأن عمره أمام آن ماري وأسقط ثلاثة أعوام ليبدو في مثل سنها أى (٣٢) عاماً وسيواصل الكذب على سيدة ساذجة وثقت به.

والتقيا في بار قرب مسرح البى بى سى في شيفاردز بوشي جرين. ولم تكن قد دخلت هذا البار من قبل وفوجئت بهنداوى وهو بين عمال البناء كالحى الوجوه الذين تعكس لهجاتهم كل مقاطعات أيرلندا. وبدا هنداوى يعرف الكثير من الشاربين ويشاركهم مزاجهم الفج ويدلي بدلوه عندما يأتي دوره.

ودأب هنداوى على ارتياد البار يراوده أمل بالاتصال بالجيش الجمهورى الأيرلندى. وطلب منه «أبو» أن يقوم بهذا رغم أنه لم يشرح لماذا؟ ونحى الرجال الذين لم يكن يعنيهم سوى الشراب جانباً محاولات هنداوى المتكررة لمناقشة الموقف السياسى في أيرلندا. وسيظل ما يدبره «أبو» سراً في كل ما يتعلق بهنداوى. وأضاف دخول آن ماري حياة هنداوى «لأبو» بعداً جديداً يستعين به.

وسرعان ما وجدت آن ماري نفسها تضحك على روايات هنداوى عن حياته في الشرق الأوسط. بعد أن أسرها سحره وجاذبيته. وقص هنداوى روايته بصوت جعلتها أشبه بأساطير ألف ليلة وليلة بالنسبة لامرأة لم تر بلداً آخر سوى لندن، ورافقها

هنداوى إلى المنزل فى تلك الليلة وقبلها على وجنتيها ثم غادرها، وتساءلت آن مارى عما إذا كان الشعور الأهوج الذى يتنابها هو بداية السقوط فى الحب، وفى اليوم التالى اصطحبها للغداء فى مطعم سورى وقدم لها أشهى المأكولات العربية. وبعد أن ترنحت بفعل النبيذ اللبنانى المعتق لم تبد آن مارى سوى مقاومة صورية عندما عاد بها إلى شقته. وبعد ظهر ذلك اليوم مارسا الجنس. كانت مارى عذراء حتى هذا اليوم. ولنشأتها الدينية الكاثوليكية التقليدية فلم تكن معتادة على استخدام وسائل منع الحمل. ولذا فلم تأخذ احتياطها.

وفى فبراير ١٩٨٦ اكتشفت أنها حامل وأبلغت هنداوى الذى طمأنها مبتسماً بأنه سيعنى بكل شىء، وردت فى انزعاج بأنها لن توافق على الإجهاض، وطمأنها بأن فكرة الإجهاض لم ترد على خاطره مطلقاً، وفى الواقع كان هنداوى مرعوباً من احتمال أن يضطر للزواج من امرأة يعتبرها من طبقة اجتماعية أدنى منه، وخشى أيضاً من ذهابها إلى السلطات لتشكوه. ولعدم درايته الكافية بمدى اللامبالاة التى ستبديها السلطات الرسمية تجاه مثل تلك الأمور. اعتقد أن الأمر سينتهى بترحيله كأجنبى غير مرغوب فيه. والتمس هنداوى المساعدة من المصدر الوحيد الذى يستطيع تقديم المساعدة ابن عمه «أبو».

كان «أبو» يواجه مشاكله بعد أن خسر أموالاً كثيرة فى القمار. وقال صراحة لهنداوى إنه لا يستطيع إقراضه الأموال التى قرر هنداوى تقديمها لمارى للعودة إلى دبلن بطفلها وعرضه للتبنى وأبلغته بأن هذا أمر شائع فى أيرلندا.

وفى اليوم التالى التقى «أبو» مع توف ليفى. وعلى العشاء أبلغ ضابط الموساد «أبو» أنه يريد القيام بشىء ما يدفع الحكومة البريطانية إلى إغلاق السفارة السورية فى لندن والأمر بطرد العاملين فيها والمشتبه فى أنهم ضالعون فى أنشطة إرهابية منذ فترة طويلة، وقال ليفى إنه يريد «صنارة» لتحقيق هذا الهدف. فهل يستطيع «أبو» أن يبلغه بشخص أو أى شىء قد يكون مفيداً؟ وقال «أبو» إن له ابن عم له صديقة أيرلندية حامل فى لندن.

بدأت خيوط المؤامرة تتجمع بعد توابع الزلزال الذى هز عالم المخابرات الإسرائيلى نتيجة ما تكشف فى واشنطن عن فضيحة صفقة الأسلحة مقابل الرهائن مع إيران.

وتلقت صورة إسرائيل الصارمة فى التعامل مع الإرهاب لطمة قوية. وعم غضب جارف في الموساد لسماح إدارة ريجان بتدهور الأمور إلى حد السماح بكشف دور إسرائيل في فضيحة إيران جيت على السطح.

وزاد هذا الكشف من صعوبة الاحتفاظ حتى بأدنى تأييد من الجيران الأصدقاء الحذرين مثل مصر والأردن فى وقت بات فيه سأمهما يتزايد أخيراً من منظمة التحرير الفلسطينية وتمثيل ياسر عرفات. فقد أصبح رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يشكل متزايد أسيراً لتطرف من صنعه هو. ووجد عرفات وهو نفسه غير ماركسي يستعير تعبيرات مثل «تصفية الكيان الصهيونى سياسياً وثقافياً وعسكرياً».

ولم يفلح هذا فى تحسين موقفه بين مختلف الفصائل المنشقة على منظمة التحرير الفلسطينية، وبالنسبة لهم بات عرفات هو الرجل الذى أجبر على الانسحاب المخزى من بيروت تحت حماية الأمم المتحدة، وتحت سمع وبصر الإسرائيليين. حيث استقل نحو (١٥) ألف مقاتل فلسطينى السفن التى أقلتهم إلى تونس. وانشق آخرون على عرفات على وعد بالحصول على تأييد سوريا وأصبحوا أكثر تشدداً سواء تجاهه أو تجاه إسرائيل.

وحتى تلك اللحظة ظل عرفات بالنسبة للموساد هو حجر العثرة أمام السلام ولا يزال قتله يمثل أولوية قصوى. وإلى أن يلقى حتفه سوف يتم تحميله فى النهاية مسئولية كافة الأعمال الوحشية التى ترتكبها الفصائل الفلسطينية اليائسة فى سوريا..

وما لبثت أن وقعت حادثتان حولتا التركيز ـ فى ذلك الحين على الأقل ـ عن عرفات وحسمتا فى نهاية الأمر المؤامرة التى أصبح فيها «أبو» شخصية محورية.

كانت المشكلة الملحة المتنامية بين سوريا وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية الواقعة تحت نفوذها تتمثل فى الحاجة إلى إشباع الحاحها المستمر بالقيام بعمل ما. وكدولة من دول العالم الرئيسية المشهورة برعاية إرهاب الدولة، كانت سوريا أكثر تلهفاً على تمويل أية عملية لاتساهم في تلطيخ صورتها الملطخة بالفعل إلى حد كبير، كان الكثير من الخطط التى طرحتها فصائل منظمة التحرير على المخابرات السورية تنطوى على مغامرة كبيرة يصعب على السوريين إقرارها.

كانت إحداها تقضي بتسميم إمدادات المياه الإسرائيلية. وقضت أخرى بإرسال انتحارى عربى متنكراً فى صورة يهودى متطرف لتفجير نفسه عند حائط المبكى. وكان تنفيذ أى منها كفيل بانتقام إسرائيلي عنيف، ثم جاءت مؤامرة جسور أقرت المخابرات السورية بأنها لن تؤتى مفعولها فقط بل ستوجه ضربة بالغة العنف إلى التفوق العسكرى الإسرائيلى. كانت الخطوة الأولى هى شراء سفينة وبعد أسابيع من البحث في موانئ البحر المتوسط تم شراء السفينة التجارية أتا فاريوس المسجلة فى بنما وأبحرت إلي ميناء الجزائر.

وبعد أسبوع من وصولها إلى الميناء وصلت مجموعة من الكوماندوز الفلسطينيين قادمين من دمشق على متن طائرة نقل حربية سورية، ومعهم أقلت الطائرة ترسانة صغيرة من الأسلحة شملت رشاشات وأسلحة مضادة للدبابات وصناديق وبنادق الكالاشينكوف الأثيرة لدى الإرهابيين. وفي تلك الليلة وتحت جنح الظلام نقل الكوماندوز والأسلحة إلى السفينة أتافاريوس.

وعند الفجر أبحرت السفينة وأبلغ قبطانها سلطات الميناء بأنه متجة إلى اليونان لفحص محركات السفينة. واستقل الكوماندوز الكبائن الموجودة بأسفل السفينة لكن وصولهم كان مرصوداً فقد ساورت الشكوك عميلاً للموساد يعمل بمكتب قائد الميناء فسارع بإبلاغ ضابط الموساد في المدينة الذى بادر بإبلاغ رسالة إلي تل أبيب.

وفور وصول الرسالة أعلنت حالة التأهب «الحالة أصفر». وعممت فى كافة شبكة الموساد فى منطقة المتوسط. كانت ذكريات المحاولات غير الناجحة لتفجير واجهة إيلات البحرية لاتزال حية وربما يحدث هجوم من هذا القبيل لكن ضد حيفا هذه المرة. فقد كان هذا الميناء المزدحم على البحر المتوسط هدفاً جيداً وواضحاً ومكشوفاً. واتخذ زورقان حربيان موقعهما قبالة الميناء على أهبة الاستعداد للتعامل مع أى محاولة تقوم بها السفينة لدخول الميناء الذى يعد المنفذ الرئيسى لتجارة إسرائيل مع العالم الخارجى.

كانت وجهة السفينة هى سواحل إسرائيل شمال تل أبيب. وتصورت الخطة التي لا يمكن إلا أن تكون مأخوذة من أحد أفلام هوليود إنزال الكوماندوز إلى زوارق مطاط لنقلهم إلى الساحل ليشقوا طريقهم إلى تل أبيب نحو هدفهم «كيريا» مقر قيادة

قوات الدفاع الإسرائيلية الأشبه بالقلعة الحصينة الذى يلوح فى الأفق وسيسعى لاستخدامه كنقطة إرشاد واعتمدت الخطة على المفاجأة التامة والشجاعة منقطعة النظير التى خولها الإسرائيليون أنفسهم إلى مادة للسخرية.

وتحدد توقيت الهجوم ليواكب يوم الاحتفال بإقامة دولة إسرائيل حيث تسود أجواء كرنفالية، كما أن كيريا ووفقاً لاستطلاعات المخابرات السورية لا يوجد به سوى عدد أقل من أطقم الحراسة التى تتواجد فى الأيام العادية. ولم يكن الكوماندوز يتوقعون أن ينجوا بحياتهم، لكنهم اختيروا لهذه المهمة لأنهم أظهروا نفس عقلية ونفسية الانتحاريين الذين نفذوا عمليات بيروت.

وفى الوقت نفسه فبوسعهم الاسترخاء والاستمتاع بالرحلة البحرية القصيرة التى مروا بها أمام تونس فى طريقهم إلى وجهتهم التالية جزيرة صقلية. وربما لم يلتفت أى من ركاب السفينة أتافاريوس لسفينة صيد كانت تمخر البحر أثناء مرور سفينتهم. كانت السفينة مزودة بأجهزة أليكترونية متقدمة تستطيع التقاط المحادثات اللاسلكية التي تجرى على السفينة التجارية. وأعلنت رسالة قصيرة بالعربية أن السفينة تسير وفقاً للجدول المقرر. وأبلغ أحد أفراد طاقم سفينة الصيد الاثنين وكلاهما مساعدان للموساد تلك الأخبار باللاسلكي إلي تل أبيب. وعلي مدى الساعات الأربع والعشرين القادمة لاحقت سفن أخرى تابعة للموساد السفينة أتافاريوس كظلها لدى مرورها أمام كريت ثم جزيرة قبرص.

وعبر يخت سريع بجوار السفينة كان هو الآخر مزوداً بجهاز رصد يشتمل على كاميرا قوية للغاية مثبتة بأحد جوانب غرفة ربان اليخت وعلى ظهر اليخت كانت توجد سيدتان تستمتعان بحمام شمس. كانتا ابنتا عم مساعد قبرصى للموساد هو نفسه مالك اليخت، وكانت مهمتهما هى لفت اهتمام ركاب السفينة أتافاريوس، وأثناء مرور اليخت بجوار السفينة وقف عدد من أفراد الكوماندوز بجوار سور السفينة يصيحون ويبتسمون للسيدتين. وفي غرفة ربان اليخت قام مساعد الموساد بتشغيل الكاميرا لالتقاط صور لهؤلاء الرجال وانتهى دور اليخت في الاستطلاع ليعود بسرعة بالغة إلى قبرص، وفى منزل مساعد الموساد تم تحميض الفيلم وطبع الصور التى بثت إلى تل أبيب لتتعرف كمبيوترات الموساد على ثلاثة وجوه لإرهابيين عرب معروفين.

وعلى الفور رُفعت حالة التأهب من الحالة (أصفر) إلى الحالة (أحمر).

وأمر رئيس الوزراء الإسرائيلي بيريز بمهاجمة السفينة أتافاريوس ودرست خطة لتفجيرها لكنها رفضت وربما تسيء مصر تقدير هجوم جوى وتعتبره ضربة وقائية رغم أن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ظلت قائمة رغم عدد من الحوادث حيث تسود أجواء توتر وشكوك في القاهرة تجاه أنشطة تل أبيب. ووافق بيريز على ضرورة أن يكون الهجوم بحرياً.

وزودت ستة زوارق من البحرية الإسرائيلية بالوقود والصورايخ، واستقلت الزوارق وحدات من القوات الخاصة بالجيش الإسرائيلي. ومحققى الموساد المقرر أن يستجوبوا أى إرهابى يسقط حياً. وأبحرت الزوارق الحربية فى ساعة مبكرة نحو حيفا وانحرفت غرباً نحو المتوسط. وانطلقت فى البحر فى تشكيل المؤخرة ـ للمقدمة لتقليل احتمال رصدها بواسطة رادار السفينة أتافاريوس وحدد الإسرائيليون توقيت الهجوم مع شروق الشمس مباشرة.

وبعيد الساعة السادسة والنصف صباحاً لمح الإسرائيلون السفينة أتافاريوس. وفي مناورة بارعة ـ كما هو منصوص عليه فى الكتب ـ التفت الزوارق البحرية حول السفينة وشرعت فى الهجوم عليها من الجانبين وأمطرت جسمها وسطحها بوابل من الصواريخ. ورد الكوماندوز على السطح لكن أسلحتهم الثقيلة كانت لا تزال رابضة فى صناديقها أسفل السفينة ولم تكن رشاشاتهم تستطيع الصمود أمام القوة النيرانية الساحقة للإسرائيليين. وفى غضون دقائق اشتعلت النار فى أتافاريوس وبدأ طاقمها وأفراد الكوماندوز فى القفز منها، وأطلقت النار على بعضهم أثناء قفزهم للبحر.

وإجمالاً فقد قتل عشرون من أفراد الطاقم والكوماندوز. وأسر ثمانية من الناجين وقبل العودة إلى إسرائيل أغرقت الزوراق الحربية الإسرائيلية السفينة بالصواريخ التى زودت رءوسها بمتفجرات بالغة القوة.

ودفنت جثث القتلى بلا مراسم فى صحراء النقب. وحوكم الأسرى أمام محاكمة سرية وصدرت ضدهم أحكام بالسجن لفترات طويلة. وأثناء استجوابهم أشاروا إلى ضلوع سوريا باعتبارها مدبر الهجوم، لكن وبدلاً من شن هجوم على سوريا أبقت الحكومة الإسرائيلية بناء على نصيحة الموساد الحادث طى الكتمان. وتوقع محللو

الموساد النفسيون أن يظل اختفاء السفينة وطاقمها وركابها لغزاً يثير توقعات مخيفة ومقلقة بين الفصائل الفلسطينية التي تتخذ من سوريا مقراً لها. وحذرت الموساد رئيس الوزراء الإسرائيلي بأن الشيء الوحيد المتوقع هو أن الإرهابيين سيستميتون بعيد إدراك فشل عمليتهم في استعادة ماء وجههم أمام السوريين.

وفي الوقت ذاته استمر انفجار الفلسطينيين ضد عرفات وآزروا الحرب القاتلة التى خاضها ضده رفيقه يوما ما «أبو نضال». كان «أستاذ أساتذة المفاجآت» فى الإرهاب منذ أمد طويل قد اختلف مع عرفات حول التكتيكات.

كان عرفات يقترب رويداً رويداً من فكرة أن الحركة التى لا تملك فى جعبتها سوى الإرهاب سوف تفشل فى نهاية المطاف، لكنه فى حاجة إلى برنامج سياسى وحس دبلوماسيٍ. وحاول عرفات البرهنة على أنه حصل فى تصريحاته العلنية الأخيرة على تشجيع من واشنطن بالاستمرار في الطريق الجديد. واعتبرت إسرائيل تصريحات عرفات بأنها مجرد ادعاء كاذب أما «أبو نضال» فقد اعتبرها خيانة غادرة لما نذر نفسه له أى الإرهاب الفاضح بلا هوادة.

ولعدة أشهر انتظر أبو نضال فرصته. وعندما تناهت إليه أنباء إخفاق مهمة السفينة أتافاريوس والطريقة التى اختفت بها من على وجه الأرض خلص إلى أن الوقت قد حان ليذكر إسرائيل بأنه لا يزال حياً. وبموافقة تامة من حُماته من المخابرات السورية رد أبو نضال رداً عنيفاً مرعباً. ففى مطارى روما وفيينا فى ديسمبر ١٩٨٥ فتح مسلحوه النار على المسافرين العزل القادمين لقضاء أعياد الميلاد. وفى ظرف ثوان معدودات قتل تسعة ركاب من بينهم خمسة أمريكيين فى مكاتب شركة العال الإسرائيلية فى المطارين. فكيف استطاع هؤلاء الإرهابيون التحرك دون عقبات للالتفاف على الشرطة الإيطالية للوصول إلى هدفهم؟ وأين كان أمن مكاتب شركة العال؟

وفيما جرى البحث عن إجابات فورية وشافية كان استراتيجيو الموساد يرنون بأبصارهم إلى مناطق أخرى. فبرغم انضمام بريطانيا إلى حملة الإدانة الدولية للهجمات إلا أنها لا تزال تحتفظ بعلاقاتها الدبلوماسية الكاملة مع سوريا رغم أن الموساد زودت المخابرات البريطانية إم آى ٥ بأدلة دامغة على إرهاب الدولة الذى تمارسه

سوريا. لم تكن تلك الأدلة كافية لرئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر لتوجيه إدانة قوية للإرهاب في البرلمان، كانت هناك حاجة قوية لإجراء مباشر ومع هذا وفي الماضى كانت إم آى ٥ قد ذَكرتْ الموساد بأن إسرائيل ذاتها أظهرت من وقت لآخر وسائل تحقق مصالحها الذاتية. وأقرت بالحاجة إلى التعامل حتى مع ألد أعدائها. فإسرائيل هى التى كانت قد قررت إطلاق سراح أكثر من ألف معتقل فلسطيني - قبل أشهر قلائل فقط من عملية مطارى روما وفيينا - مقابل إطلاق سراح ثلاثة جنود إسرائيليين محتجزين فى لبنان.

لكن الموساد مصممة الآن على توجيه ضربة قاضية تضطر معها بريطانيا لقطع كافة علاقاتها الدبلوماسية مع دمشق بإغلاق سفارتها فى لندن التى طالما اعتبرتها الموساد منذ أمد طويل بأنها أبرز قلاع التآمر ضد إسرائيل فى أوربا. وسيكون محور المؤامرة في هذه العملية نزار هنداوى ابن عم «أبو».

وعقب تناوله العشاء مع توف ليفى سعى «أبو» وراء هنداوى وأخذ فى الاعتذار له عن عدم اهتمامه السابق بمسألة آن مارى. وبالطبع فإنه سيساعده فى المسألة لكنه يحتاج قبل تقديم المساعدة الحصول على بعض الأجوبة: هل ستستمر فى الاحتفاظ بوليدها؟ وهل لا تزال تلح عليه ليتزوجها؟ وهل يحبها بالفعل؟. إنهما ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين ونادراً ما يكون الزواج المختلط موفقاً.

وأجاب هنداوى بأنه إذا كان قد أحب آن مارى من قبل فإنه لا يحبها الآن. فقد أصبحت الآن دائمة الشكوى والبكاء وتتساءل دائماً عما سيحدث كما أنه بالتأكيد لا يريد الزواج بخادمة غرف.

وأعطى «أبو» ابن عمه عشرة آلاف دولار وهو مبلغ كاف للتخلص من مشكلة آن مارى والعيش كأعزب فى لندن. كانت تلك بالطبع من أموال الموساد وفى المقابل يتعين على هنداوى أن يقدم شيئاً ما للقضية التى يومنان بها: أى القضاء على إسرائيل.

ومساء ١٢ أبريل ١٩٨٦ زار هنداوى آن مارى فى مسكنها بمنطقة كيلبورن بلندن. وحمل هنداوى معه وروداً وزجاجة شمبانيا اشتراها من النقود التى أخذها من «أبو». وقال لها إنه يحبها ويريد الاحتفاظ بالمولود وأغرورقت عيناها بالدموع. وفجأة بدا

عالمها أفضل بكثير.

وقال هنداوى إن هناك عقبة أخيرة يتعين تذليلها. فيجب عليها أن تحصل على موافقة والديه ليتزوجا. فبر الوالدين فضيلة مقدسة لدى العرب. وعليها أن تنتقل إلى قرية عربية حيث تعيش عائلته. ورسمت آن صورة لشكل حياتها لا تختلف كثيراً عن تلك التي ظهرت مع ظهور المسيح.. فالبنسبة لفتاة تعلمت على أيدى الراهبات وتحتل الجماعة جانباً مهماً فى حياتها، كان هذا التصور بمثابة تأكيد نهائي على أنها تتخذ القرار الصحيح بالزواج من حبيبها. فربما لا تكون أسرته مسيحية الديانة لكن هذا لا يهم. فالأهم هو أنهم ينحدرون من أرض الرب، ومن وجهة نظرها فإن هذا يجعلهم يخافون الله. ومع هذا فقد ترددت آن مارى، فلا يمكنها ترك عملها بكل بساطة ثم من أين لها الحصول على ثمن تذكرة الطائرة؟ ومن أجل هذه الحياة الجديدة فيلزمها ملابس جديدة. وبدد هنداوى قلقها بوضع يده فى جيبه وأخرج رزمة من أوراق النقد. وأبلغها بأنها تكفي لشراء ما تريد من الملابس. وباغتها بمفاجأة أخرى وقدم لها تذكرة طيران فى رحلة شركة العال يوم ١٧ أبريل، أى بعد خمسة أيام.

وضحكت آن مارى وقالت هل أنت واثق أننى سأسافر؟ وأجاب تماماً مثلما أنا متأكد من حبك.

ووعدها بأنه بمجرد عودتها إلى لندن فسوف يتزوجان. وعاشت آن مارى الأيام التالية فى دوامة. فقد تركت عملها وتوجهت إلى السفارة الأيرلندية فى لندن لاستخرج جواز سفر جديد. واشترت ملابس للوليد. وفى كل ليلة كانت تمارس الجنس مع هنداوى. وكل صباح كانت تخطط لمستقبلها على الإفطار الذى كانا يتناولانه على مهل. فسوف يعيشان فى أيرلندا فى كوخ بجانب البحر وسيعمدان طفلهما باسم شون إذا كان ولداً وباسم سينيد إن كانت بنتاً.

وفي يوم مغادرتها أبلغها هنداوى بأنه رتب لها «هدية» لوالديه سيسلمها لها «صديق» من عمال النظافة على الطائرة.

ولاحقاً أكد آريبه بن منشي الذى ادعى أنه كان على علم تام بتفاصيل الخطة «أنه حرصاً من هنداوى على عدم اعتراضها لحملها وزناً زائداً فقد رتب أن يسلم صديقه الحقيبة لها فى صالة المطار».

كانت سذاجتها بعدم السؤال عما تكون «الهدية» مجرد رد فعل امرأة تذوب عشقاً في حبيبها وتثق فيه ثقة عمياء. كانت آن ماري هي خير نموذج لكبش الفداء في المؤامرة المتسارعة.

وفي السيارة التاكسي التي أقلتهما إلى المطار بدا هنداوي المحب الولهان والأب المتلهف على قدوم وليده، فهل تدربت على تمرينات التنفس أثناء الرحلة الطويلة؟ وعليها شرب كميات كبيرة من المياه وأن تجلس على مقعد بالصف الأوسط من الطائرة لتفادي التشنجات التي بدأت تعاودها مؤخراً.. وقالت آن ماري ضاحكة صه: «باركك الرب هل تظن أنني ذاهبة إلى القمر».

وسارت ببطء حتى باب منطقة المغادرة وكأنها لا تريد أن تتركه ووعدته بأن تتصل به هاتفياً من تل أبيب قائلة إنها ستحب والديه مثل حبها له. وقبلها القبلة الأخيرة ثم دفعها برفق لتتجه إلي مكتب فحص وثائق السفر.

وظل يراقبها حتى توارت عن الأنظار واستمر هنداوي في تنفيذ التعليمات التي لقنها له «أبو» واستقل حافلة شركة الطيران السورية عائداً إلى لندن. في الوقت نفسه لم تثر آن ماري أي شبهات واجتازت بأمان فحص وثائق السفر والتفتيش الأمني بالمملكة المتحدة. ثم شقت طريقها إلى المنطقة المخصصة لرحلات شركة العال والتي تخضع لحراسة مشددة للغاية. واستجوبها عملاء الشين بيت المدربون للغاية بدقة بالغة وقاموا بتفتيش حقيبة يدها. وحدد مقعدها على الطائرة وسمح لها بالمرور إلى قاعة المغادرة النهائية للانضمام إلى بقية الركاب الـ (٣٥٥).

ويقول بن منشي إنها تسلمت «هدية» والدى هنداوى من رجل يرتدى الأوفرول الأزرق الذى يرتديه عمال النظافة بالمطار. واختفى الرجل بنفس الطريقة الغامضة التي ظهر بها. وأشار بن منشي إلى «أنه في غضون ثوان طُلب من ان ماري العودة للخضوع للتفتيش. وعثر أفراد الأمن الإسرائيليون الذين قاموا بالتفتيش على متفجرات باليستيكية في جيب سحرى بالحقيبة.

كانت المتفجرات عبارة عن أكثر من ثلاثة أرطال من مادة السيمتكس. وقصت آن ماري روايتها على ضباط الفرع الخاص وجهاز إم آي ٥. كانت قصة سيدة منحوسة لم تنكب في حبها فقط. بل في شريكها. وركز المحققون على الصلات القائمة بين

هنداوى والسوريين بعد تأكدهم من براءة آن مارى».

وفي الوقت الذى دخلت فيه حافلة الخطوط الجوية السورية إلى لندن أمر هنداوى السائق بالتوجه إلى مقر السفارة السورية وعندما احتج السائق قال هنداوى إنه «مفوض» فى ذلك وفي السفارة طلب هنداوى من مسئولي القسم القنصلى منحه اللجوء السياسى وأبلغهم بأنه يخشى من أن تكون الشرطة البريطانية على وشك اعتقاله لأنه دبر محاولة لتفجير طائرة شركة العال الإسرائيلية لخدمة «القضية». وسلم مسئولوا السفارة الذين أصابهم الذهول هنداوى إلى رجلى أمن بالسفارة. وبعد استجوابه طلبا منه البقاء في إحدى شقق العاملين. وربما يكون الشك قد راودهما بأن هذا قد يكون شركاً منصوباً للإيقاع بسوريا وإحراجها. وتعززت تلك الشكوك عندما غادر هنداوى الشقة بعد فترة وجيزة.

وسعى هنداوى فى البحث عن «أبو» وبعد فشله فى العثور عليه. نزل بفندق فيزيتورز أوتيل فى منطقة نوتيج هيل حيث اعتقل بعد فترة قصيرة.

وأذاعت هيئة الإذاعة البريطانية أنباء إحباط الشرطة للمؤامرة. كانت التفاصيل دقيقة على غير العادة. أن مادة السيمتكس المتفجرة التشيكية الصنع أخفيت فى جيب سحرى أسفل حقيبة آن مارى وحدد توقيتها لتنفجر على الطائرة على ارتفاع (٣٩) ألف قدم.

وذكر بن منشى أن العملية وصلت إلى نهاية مرضية سريعة «فقد قررت تاتشر إغلاق السفارة السورية فى لندن وصدر حكم بالسجن لخمسة وأربعين عاماً على نزار هنداوى، وأعيدت آن مارى إلى أيرلندا حيث وضعت مولودتها». وعاد «أبو» إلى إسرائيل فقد انتهى دوره.

وعقب صدور الحكم على هنداوى دبج روبرت ماكسويل افتتاحية بالديلى ميرور بعنوان: «نال الوغد ما يستحقه» ويوم طرد السفير السورى لدى بريطانيا خرجت الصحيفة بعنوان «سفير الموت» وعنوان آخر «أخرج أيها الخنزير السورى». وكان بن منشى أول من ادعى أن «الموساد» أنجزت بنجاح «انقلاباً رائعاً سيلقى بسوريا فى أتون عزلة دبلوماسية موحشة».

لكن تظل هناك أسئلة وجيهة وراء تلك العملية، فهل أعطيت آن ماري ميرفي قنبلة حية أم أنها كانت جزءاً من مؤامرة محكمة؟ وهل كان الرجل الذي يرتدي أوفرولاً أزرق اللون - والمفترض أنه «صديق» هنداوي ضابط أمن؟ وإلى أي مدى كانت إم آي ٥ على علم مسبق بالمؤامرة. وهل يعقل أن يسمح الموساد للأجهزة الأمنية البريطانية فعلياً بوصول متفجرات سيمتيكس إلى طائرة مع وجودلو أقل فرصة لأن تنفجر على الأرض؟ فمثل هذا الانفجار حال وقوعه كان سيؤدي بالتأكيد إلى تدمير منطقة شاسعة في واحد من أشد مطارات العالم ازدحاماً في وقت يتواجد فيه آلاف الأشخاص. وهل كانت العبقرية الباهرة للمؤامرة تتمثل في أن الموساد حققت هدف قطع العلاقات الدبلوماسية مع سوريا من دون أي مغامرة على الإطلاق لشركة العال ومطار هيثرو باستخدام مادة غير ضارة تشبه تماماً مادة السيمتيكس؟ وبشأن كل تلك الأسئلة قال رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز: «إن ما حدث معروف دائماً لمن يتعين عليهم أن يعرفوا أما من لا يعرف فيجب أن يستمر في عدم معرفته».

ومن سجنه الذي يخضع لحراسة مشددة في وايتمور واصل هنداوي احتجاجاته بأنه ضحية مؤامرة تحمل البصمات المعهودة للموساد ولم يفتأ هنداوي - الذي أبيض شعره ولم يعد نحيلاً - على أن يردد أنه يتوقع الموت في سجنه. وكان يكتفي بالإشارة إلى آن ماري «بتلك المرأة» وحتى عام ١٩٩٨ كانت تعيش في دبلن ترعى ابنتها التي تحمد الله أنها لا تشبه حبيبها. ولم تتحدث مطلقاً عن هنداوي.

وثمة هامش محير في تلك الرواية. فبعد أسبوعين من صدور الحكم على نزار هنداوي بالسجن الذي سيمكث فيه حتى أوائل القرن الحادي والعشرين وضع أرناد دي بورشيجريف المحرر المرموق بصحيفة واشنطن تايمز جهاز التسجيل على مكتب جاك شيراك رئيس وزراء فرنسا في باريس، كان دي بوشيجريف يزور أوربا لتغطية اجتماع وزراء خارجية المجموعة الأوربية في لندن وكان هدف الحديث مع شيراك هو معرفة موقف فرنسا. لكن الحديث انتقل إلى مواضيع غير متوقعة حيث أوضح شيراك أن فرنسا وألمانيا اضطرتا لإظهار التأييد للحكومة البريطانية التي كان تعنتها يتزايد تجاه سياسات السوق الأوربية لكن دي بورشجيريف أثار سؤالاً عن علاقة فرنسا الخاصة مع منطقة أخرى. فقد أراد التوقف عن المرحلة التي وصلتها مفاوضات شيراك

مع سوريا لإنهاء موجة الانفجارات الإرهابية بالقنابل في باريس وجهود فرنسا الرامية إلى إطلاق سراح الرهائن الثمانى الذين يحتجزهم حز ب الله في لبنان. وتوقف رئيس الوزراء الفرنسي عن الحديث ناظراً إلى جهاز التسجيل. وما لبث أن استدرك قائلاً إن المستشار الألمانى هيلموت كول ووزير خارجيته هانز ديتريش جينشر قد أبلغاه بأن الحكومة السورية غير ضالعة فى مؤامرة هنداوى لتفجير طائرة العال الإسرائيلية، وأن المؤامرة «من تدبير الموساد الإسرائيلى».

وقوضت الضجة الدبلوماسية التى أثارتها كلمات شيراك عمله السياسى. فقد وجد نفسه بين شقي الرحى عرضة للهجوم من كلا الجانبين من رئيسه فرانسوا ميتران ومن المستشار هيلموت كول الذى طالبه بالتراجع. وفعل شيراك ما يفعله كل السياسيين دائماً وقال إن تصريحاته أسيىءاقتباسها. وفي لندن قالت الشرطة البريطانية إن المحكمة فرغت من معالجة القضية من كل أبعادها ولا مجال هناك لأى تعليق. وفي باريس قال مكتب جاك شيراك رئيس فرنسا - ١٩٩٧ - إنه لا يتذكر شيئاً عن حديث واشنطن تايمز.

وسرعان ما ستتعرض الموساد للدغة أخرى ستترك بصمتها على سمعتها.

كانت الرسوم الكاريكاتورية من رسم ناجي العلى رسام الكاريكاتير العربي الشهير ، ومن مقر إقامته في لندن شن ناجي العلي حرباً بمفرده ضد عرفات يصوره فيها على أنه سياسي مرتش يعمل لمصلحته الخاصة وأحمق سياسياً ، وبهذه الرسوم أصبحت القبس صوت المعارضة ضد عرفات .



التضحية برسام الكاريكاتير

بدأ نجم ناعوم أدمونى رئيس الموساد الإسرائيلى فى الأفول بعد ظهر أحد أيام يوليو ١٩٨٦ نتيجة لحادث وقع بأحد شوارع بون التى شقت بعد الحرب العالمية الثانية فى غمرة ازدهار عملية الإعمار التى شهدتها ألمانيا بعد الحرب. فبعد أربعين عاماً أصبح هذا الشارع طريقاً رائعاً تحف به على الجانبين حدائق أمامية رائعة التنسيق رغم صغرها وفى الخلف توجد أماكن الخدم. وأخفيت أجهزة الإنذار بعناية فائقة خلف البوابات الحديدية وركبّ شبك معدنى على نوافذ الأدوار السفلى.

لم ير أحد الشخص الذى ترك حقيبة بلاستيكية فى كابينة التليفون القابعة فى نهاية الشارع. واستلفتت الحقيبة انتباه إحدى دوريات الشرطة التى توقفت لتقصى الأمر. كانت الحقيبة تحتوى على ثمانية جوازات سفر بريطانية سوداء صادرة لتوها. وكان رد الفعل التلقائى والفورى للفرع المحلى للمكتب الجنائى الفيدرالى الألمانى (بوندس كريمنال آمت) (بى كى إيه) المقابل لمكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى هو أن هذه الجوازات تخص إحدى المنظمات الإرهابية التى جلبت الإرهاب إلى شوارع أوربا بسلسلة من التفجيرات وعمليات الاختطاف التى تتسم بالعنف والوحشية.

وعقدت تلك المنظمات التى تعبر عن قضايا وتمثل أقليات من مختلف بقاع العالم

العزم على الاضطلاع عنوة بدورها في تحديد جدول أعمال وأولويات السياسة العالمية ولست تأييداً قائماً بالفعل من السياسات الطلابية الراديكالية التي كانت تجتاح بريطانيا والقارة الأوربية. فمنذ عام ١٩٦٨ عندما اختطفت الشابة الفلسطينية الثورية ليلى خالد طائرة إلى لندن وأُفرج عنها على الفور بعد أن خشيت الحكومة البريطانية حدوث مزيد من العمليات الإرهابية هتف الطلبة السذج بالشعارات الدعائية اليسارية لمنظمة التحرير الفلسطينية. فهؤلاء الطلبة الشباب الراديكاليون الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى يعتنقون رأياً رومانسياً عن منظمة التحرير الفلسطينية فأعضاؤها، «مقاتلون من أجل الحرية» يقومون بدلاً من تعاطى المخدرات بحصد أرواح البرجوازيين وبدلاً من تنظيم الاعتصامات فإنهم يحتجزون الرهائن.

واعتقد المكتب الجنائي الفيدرالى الألمانى أن طالباً يعمل كهمزة وصل لمنظمة إرهابية هو الذى ترك الجوازات. وقائمة تلك المنظمات الإرهابية طويلة وتضم منظمات تتراوح ما بين منظمة الجيش الأيرلندى إلى الجيش الأحمر الألمانى والجبهة القومية الإسلامية فى السودان. وجيش التحرير الوطنى في كولومبيا، وحركة تحرير أنجولا وحركة نمور تحرير تاميل إيلام، ولهذه المنظمات وكثير غيرها خلايا فى مختلف

أنحاء ألمانيا الاتحادية، وربما يكون أى منها يخطط لاستغلال هذه الجوازات في شن هجوم على قواعد عسكرية بريطانية في ألمانيا أو السفر لشن عملية هناك.

ورغم أن بريطانيا قوة أوربية غربية أمبريالية بارزة ساحقة إلا أن بريطانيا لم تكن تواجه في البداية سوى الإرهاب الذى يشنه الجيش الجمهورى الأيرلندى، لكن المخابرات البريطانية كانت تحذر من أنها مسألة وقت فقط قبل أن تستدرج المنظمات - التى يسمح لها بالعمل ضد بلدانها حتى لندن - إلى مستنقعها.

وظهر مؤشر على ما سوف يحدث عندما استولت منظمة معارضة للنظام الإيرانى على السفارة الإيرانية في لندن عام ١٩٨١ . وإثر فشل المفاوضات أمرت حكومة مارجريت تاتشر بإرسال القوات الخاصة التى قتلت الإرهابيين وأدى هذا العمل العلنى الجديد إلى إنحسار مفاجئ في عدد المؤامرات التى تحيكها المنظمات الشرق أوسطية في لندن. وتحولت باريس بدلاً من ذلك إلى ساحة للمعارك الدامية فيما بين مختلف المنظمات الأجنبية المتنافسة وأهمها بين منظمة التحرير الفلسطينية وأبو نضال ورجاله المسلحين وساهمت الموساد بنصيبها أيضاً في قتل أعدائها العرب في شوارع العاصمة الفرنسية.

واعتقد المكتب الجنائى الألمانى أن جوازات السفر الى عثر عليها في كابينة التليفون بالمدينة الألمانية ما هي إلا نذير بوقوع مذبحة جديدة. وقام المكتب بإخطار المخابرات الفيدرالية الألمانية (بوندس ناخريختين دنيست) (بى إن دى) التى أخطرت بدورها ضابط اتصال إم آى ٦ الملحق بمقر (بى إن دى) في بولاخ جنوبى ألمانيا. وفي لندن تأكدت إم آى ٦ من أن الجوازات مزورة بأيدى خبراء محترفين. وأدى هذا إلى استبعاد الجيش الجمهورى الأيرلندى ومعظم المنظمات الإرهابية الأخرى فليس لديها الإمكانيات التى تمكنها من صنع وثائق عالية الاتقان إلى هذا الحد. وتحولت الشكوك لتحوم حول الكى جى بى فقد كان خبراء التزوير بها من أمهر المزورين في العالم. لكن معروف أن بحوزة السوفييت مخزون هائل من الجوازات المزورة وليس من أسلوبهم استخدام كابينات التليفون كهمزة وصل. واستبعدت مخابرات جنوب أفريقيا (ب. و. س. س) أيضاً فقد توقفت بالفعل عن ممارسة نشاطها في أوربا كما أن الجوازات البريطانية غير مطلوبة بإلحاح في الدول الأفريقية غير المتقدمة التي تركز

عليها مخابرات جنوب أفريقيا الآن وتحولت المخابرات البريطانية إلى جهاز المخابرات الآخر والوحيد الذى يمكنها استغلال تلك الجوازات على أفضل وجه: (الموساد).

واستدعى آري ريجيف الملحق بالسفارة الإسرائيلية فى لندن وضابط الموساد المقيم فى لندن للقاء أحد كبار ضباط إم آى ٦ لمناقشة المسألة معه. وقال ريجيف أنه لا يعلم شيئاً عن الجوازات لكنه وعد بإثارة الأمر مع تل أبيب. وسرعان ما جاء الرد من ناعوم أدمونى بأن الموساد ليس لها علاقة بالجوازات وألمح إلى أنها ربما تكون من وضع الألمان الشرقيين؛ فقد اكتشفت الموساد مؤخراً أن جهاز أمن الدولة (شتاسى) لا يتورع عن بيع جوازات السفر المزورة لليهود الذين يرغبون بشدة فى التوجه لإسرائيل مقابل النقد الأجنبى. كان أدمونى يعلم تماماً أن خبراء التزوير بالموساد هم الذين زوروا تلك الجوازات حتى يستخدمها ضباط الموساد المستترين فى أوربا لتمكينهم من الدخول والخروج بسهولة من بريطانيا.

ورغم «التفاهم» مع إم آى ٥ الذى ساهم رافى إيتان أصلاً فى التوصل إليه والذى وافقت الموساد بموجبه على إخطار إم آى ٥ باستمرار بكافة عملياتها فى بريطانيا إلا أن الموساد كانت توجه سراً عميلاً لها فى إنجلترا على أمل إحراز نتيجة مزدوجة: بقتل قائد القوة ١٧ التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية والقضاء على النجاح المتزايد الذى يحرزه ياسر عرفات فى إقامة علاقة مع حكومة تاتشر.

وفى لندن لم يعد اسم عرفات مرادفاً للإرهاب وأصبحت السيدة تاتشر أكثر اقتناعاً بأن بوسعه المساهمة فى إقرار سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط يلبى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ويضمن أمن إسرائيل. وأصبح الزعماء اليهود أكثر تشككاً. وأشاروا إلى أن الإرهاب وحده هو الذى جاء بمنظمة التحرير إلى المسرح الذى تقف عليه الآن وأن المنظمة ستواصل التهديد بشن المزيد من العمليات الإرهابية مالم تلب كل مطالبها. ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى لا تعبأ فيها لندن باحتجاجات تل أبيب. وواصلت الموساد النظر إلى بريطانيا كبلد يبدى استعداداً لتأييد القضية الفلسطينية رغم نتائج حصار السفارة الإيرانية. كان القلق يساور الموساد بالفعل بسبب الطريقة التى استطاعت بها منظمة التحرير التقرب من المخابرات المركزية الأمريكية.

وحدد هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق فيما بعد على وجه الدقة تاريخ الاتصالات. فقد كشف في مذكراته «سنوات الغليان» أنه بعد ستة أسابيع من قتل السفير الأمريكي بالرصاص في الخرطوم على يد مسلحي منظمة أيلول الأسود عقد اجتماع سرى في ٣ نوفمبر ١٩٧٣ ضم فيرنون والترز نائب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وتوصل الاجتماع إلى «معاهدة عدم اعتداء» بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكتب كسينجر «أن الهجمات على الأمريكيين من جانب فصيل عرفات في منظمة التحرير الفلسطينية على الأقل قد توقفت».

وثارت ثائرة إسحاق حوفي عندما تناهت إليه أنباء معاهدة عدم الاعتداء بين عرفات ووالترز وصاح قائلاً إنه عبر تاريخ انتهاز الفرص الأزلي لا يوجد نموذج أسوأ من هذا النموذج. واستخدم حوفى قناته السرية مع المخابرات المركزية الأمريكية لحمل والترز على إلغاء الاتفاق لكن نائب مدير المخابرات المركزية قال إن هذا غير ممكن، وأضاف محذراً بأن واشنطن ستعتبر نشر أنباء الاتفاق «تصرفاً غير ودى». كانت تلك طلقة تحذير بعدم ترك الحبل على الغارب لخبراء الحرب النفسية بالموساد للاتصال بأصدقائهم الصحفيين.

واستشاط حوفى غضباً لدى اكتشافه هوية الشخص الذى كلفه عرفات بالتوصل إلى الاتفاق بالإنابة عن منظمة التحرير الفلسطينية، إنه على حسن سلامة الأمير الأحمر زعيم أيلول الأسود الذى دبر مذبحة الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ وقتل السفير الأمريكى فى الخرطوم، إنه على حسن سلامة الذى ما لبثت حياته أن انتهت بنفس الطريقة التى عاش لها، فى انفجار قوى دبره رافى إيتان. لكن هذا لن يحدث إلا بعد سنوات. ففى عام ١٩٧٣ كان على حسن سلامة شخصية مرموقة داخل منظمة التحرير الفلسطينية ولم يكن عرفات ليتردد في تكليفه بالاتصال بالمخابرات المركزية الأمريكية، لكن الذى أصاب الموساد بالصدمة فى الحقيقة هو قبول قيام الأمير الأحمر بهذا الدور ولم يكد يمضى سوى عام على قتل الرياضيين فى ميونيخ وقتل السفير الأمريكى فى الخرطوم.

وسرعان ما أصبح سلامة زائراً دائماً لمقر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى لانجلى. وبرفقة فيرنون والترز فى العادة كان سلامة يسرع الخطى بالمدخل الرخامى

لمقر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ويمر أمام الحرس ليستقل المصعد إلى الدور السابع حيث مكتب فيرنون الرحب الفخم. ولم تكن تلك الاجتماعات تتوقف إلا للانضمام إلى كبار ضباط المخابرات المركزية الأمريكية في قائمة الطعام الخاصة بهم. وسيدفع فيرنون ثمن وجبة الأمير الأحمر باستمرار وأى شيءيماثل وجبة مجانية في لانجلى.

أما ما دار بين سلامة والمخابرات المركزية الأمريكية فقد ظل سراً. ويتذكر بيل بكلى الذى قُتل على أيدى الإرهابيين في بيروت لاحقاً أثناء رئاسته لمحطة المخابرات المركزية الأمريكية في بيروت بالقول «إن سلامة لعب دوراً بارزاً في كسب عقول وقلوب الأمريكيين لمنظمة التحرير الفلسطينية، فقد كان شخصية كاريزمية تتمتع بقدرة هائلة على الإقناع ويعرف تماماً متى يتحدث ومتى ينصت. وباصطلاح مخابراتى كان مخبراً من الطراز السوبر».

وظهر أول مثال على ذلك عندما حذر على حسن سلامة المخابرات الأمريكية بمؤامرة حرضت إيران عليها لإسقاط طائرة وزير الخارجية الأمريكية عندما يتوجه إلى بيروت في إطار جولته المكوكية لإقرار السلام. ثم توسط سلامة في صفقة أخرى قامت منظمة التحرير الفلسطينية فيها بحراسة مجموعة تضم (٢١٣) غربياً في بيروت الغربية حتى وصلوا إلى بر الأمان في ذروة الحرب الأهلية اللبنانية. وبعيد ذلك بقليل نقل على حسن سلامة للمخابرات المركزية الأمريكية تحذيراً بمحاولة اغتيال السفير الأمريكي في بيروت. ثم وفي اجتماع آخر مع المخابرات المركزية الأمريكية كتب الأمير الأحمر ووقع «ضماناً بعدم اغتيال» كافة الدبلوماسين الأمريكيين في بيروت.

وفي بيروت تكررت نكتة «أن أموالاً تدفع له ليقيم في نفس المبنى كالدبلوماسين لأن حراسة منظمة التحرير هي الأكثر أماناً».

وطلب إسحاق حوفى رئيس المخابرات الإسرائيلية حينذاك من المخابرات المركزية الأمريكية قطع كافة اتصالاتها مع الأحمر. وقوبل الطلب بالتجاهل التام. وحول مقر المخابرات المركزية الأمريكية في لانجلى كان على حسن سلامة يُعرف بأنه «الرجل الشرير الذى أسدى لنا معروفاً» واستمر على حسن سلامة في تقديم المعلومات الاستخباراتية والعملياتية التى أبقت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على معرفة

تامة بما يدور في الشرق الأوسط وتحول إلى أهم أصولها فى المنطقة. وعندما لقى حتفه استشاطت المخابرات المركزية الأمريكية غضباً وفترت علاقتها بالموساد ولفترة طويلة.

وقال هيرمان إيلتس الذى عمل سفيراً للولايات المتحدة فى لبنان تعليقاً على اغتيال على حسن سلامة «عرف أنه وفى الكثير من المناسبات وبطريقة غير معلنة قدم مساعدات غير عادية وساهم فى حماية أمن المواطنين والمسئولين الأمريكيين، إننى اعتبر اغتياله خسارة كبيرة».

وبعد مرور ستة أعوام كانت منظمة التحرير الفلسطينية تعاود خداعها لحكومة مارجريت تاتشر بينما القوة (١٧) تحت قيادة قائد جديد تواصل قتل الإسرائيليين. واعتقد ناعوم أدمونى أنه سينجح حيث فشل أسلافه. فلسوف يعمل على قطع علاقات منظمة التحرير الفلسطينية مع بريطانيا وفي الوقت نفسه يقتل قائد القوة (١٧). وسيعتمد نجاح هذه العملية على شاب عربى طالما تضرع إلى الله فى طفولته بمسجد قريته أن يمنحه الله القدرة على قتل أكبر عدد ممكن من اليهود.

وتم رصد إمكانيات إسماعيل صوان قبل عشرة أعوام عندما استجوبه عام ١٩٧٧ وهو لا يزال صبياً في فترة المراهقة يعيش في قريته بالضفة الغربية ضابط بالمخابرات العسكرية الإسرائيلية فى إطار عملية تحديث دورية لمعلومات الجيش الإسرائيلى عن المنطقة.

واستوطنت عائلة صوان تلك القرية فى حقبة الثلاثينيات عندما كانت دماء كل العرب تغلى بالثورة ضد الانتداب البريطانى واليهود. كان العنف يعم كل مكان: فإراقة الدماء لا تجلب سوى إراقة الدماء وانضم والد إسماعيل إلى حزب فلسطين العربى الذى نظم المظاهرات وأجج المشاعر الوطنية بين أفراده. فى البداية انصب غضبه على البريطانيين ولكن بعد انسحابهم منها عام ١٩٤٨ تحولت الكراهية إلى الدولة اليهودية الجديدة، كانت أولى الكلمات التى يتذكر إسماعيل أنه رددها تقطر كراهية لليهود.

وخلال طفولته كانت الكلمة التى يسمعها دائماً وشب عليها هى كلمة «الظلم» ولاحقته فى المدرسة، وكانت محور الحديث الذى يدور فى أسرته أثناء تناول الطعام لا سواها: الظلم الفادح الذى حاق بشعبه وبأسرته وبه.

ثم ما لبث وبعد أن بلغ الخامسة عشرة أن شاهد هجوماً وحشياً على حافلة مليئة بحجاج يهود كانوا في طريقهم إلى القدس، وذبح العرب النساء والأطفال، وفي تلك الليلة سأل إسماعيل نفسه سؤالاً سوف يغير تفكيره إلى الأبد: فلنفترض أن اليهود مؤهلون للدفاع عما يملكون؟ ونبع كل شيء من نفوره المتزايد من عنف مواطنيه ومن اعتقاده بإمكانية تعايش اليهود والعرب سوياً بل ويجب أن يتعايشا سوياً. ومن هنا تملكه الاعتقاد بأنه سيفعل أى شيء لتحقيق هذا الهدف.

وبعد عامين وهو يكاد يتم عامه السابع عشر جلس وأبلغ ضابط المخابرات العسكرية الإسرائيلية بما لا يزال يشعر به، وفي البداية أصغى الضابط باهتمام ثم راح يسأل إسماعيل أسئلة شاملة ودقيقة، فكيف استطاع أن يدير ظهره لكافة معتقدات شعبه تلك المعتقدات التي تشبه الناقوس الذى يدق نغمة واحدة: فهل العرب مخطئون؟ وهل يتعين عليهم القتال حتى الموت في سبيل ما يعتقدون أنه صواب؟ كانت أسئلة الضابط كثيرة وكانت إجابات إسماعيل مطولة.

ولاحظ الضابط أنه على نقيض بقية الشباب العرب الذين يعيشون في ظل الاحتلال الإسرائيلي أبدى صوان بعض الاعتراضات على الأساليب الأمنية المشددة التي يفرضها الجيش الإسرائيلي. ويبدو أن الشاب نحيل الجسم والابتسامة الجذابة قد تفهم لماذا يفعل الإسرائيليون هذا. وكان كل ما يقلقه هو أن القمع المستمر من جانب الجيش يعني عدم استطاعته الذهاب إلى المدرسة في القدس الشرقية ليتابع دراسته المفضلة: العلوم.

وأخذ ملف صوان ذورته في المخابرات العسكرية الإسرائيلية واستحق مزيداً من الدراسة وانتهى به المطاف إلى مكتب أحد ضباط الموساد ليحيله بدوره لإدارة التجنيد.

ودعى إسماعيل للسفر إلى تل أبيب بحجة بحث مستقبله التعليمي ظاهرياً؛ وكان قد تقدم مؤخرا بطلب للدراسة في القدس واستجوب إسماعيل فترة بعد الظهر بكاملها. وفي البداية استطلع المحقق معرفة إسماعيل العلمية وأرضته الإجابات. ثم اصبح كل تاريخ أسرة إسماعيل واضحاً وضوح الشمس وجرى مطابقة إجابات إسماعيل بتلك التي سبق وأدلى بها لضابط المخابرات الحربية الإسرائيلية. وأخيراً أبلغ إسماعيل بمضمون العرض. فسوف يتكفل الموساد بتعليمه شرط أن يحصل على

دوراته التدريبية وعليه أن يعي تماماً أنه لو تفوه بكلمة واحدة بهذا الأمر فستكون حياته في خطر.

كان هذا تحذيراً نمطياً يوجه إلى كافة العرب الذين تجندهم الموساد، لكن بالنسبة للشاب المثالي إسماعيل صوان فقد كانت هذه الفرصة التي كان ينتظرها ليتعايش العرب واليهود معاً. وأجريت كافة الأحاديث واللقاءات في منازل مؤمنة قبل إرساله إلى مدرسة التدريب على مشارف تل أبيب. وأبدى إسماعيل تفوقاً بارعاً في عدد من الموضوعات مظهراً شهية غير عادية لمهارات الكمبيوتر، محتلاً مركزاً متقدماً. وبدون مفاجأة فقد نال درجات متقدمة في الموضوعات الخاصة بالإسلام وكانت الدراسة التي أعدها عن دور منظمة التحرير الفلسطينية في الصراع في الشرق الأوسط على درجة كافية من الأهمية لعرضها على إسحاق حوفي مدير المخابرات الإسرائيلية «الموساد».

وبعد انتهاء تدريبه أصبح إسماعيل صوان (بودل) أي رسولاً أو مسئول اتصال بين مقر الموساد والسفارات الإسرائيلية حيث يعمل ضباط الموساد تحت ستار دبلوماسي. وبدأ في التنقل حول البحر المتوسط وزيارة أثينا ومدريد وروما بشكل دوري حاملاً الوثائق في الحقائب الدبلوماسية كما كان يتردد بين الحين والآخر على بون وباريس ولندن. كانت الفرصة التي أتيحت له لرؤية العالم والحصول على أموال - ٥٠٠ دولار في الشهر - إغراءً لا يقاوم لفتى لم يتعد التاسعة عشرة.

أما ما كان صوان لا يعرفه فهو أن الوثائق التي يحملها ليس لها أهمية. كان ذلك جزءاً من اختبار آخر للتأكد من أنه لم يحاول اطلاع أي عربي ربما يصادفه في أي مدينة يزوها على تلك الوثائق وفي كل زيارة له كان يتبعه كظله ضابط موساد إسرائيلي تأهل لتوه لاختبار قدرته على المراقبة، والاستطلاع، ولم يكن الشخص الذي سلمه إسماعيل صوان الوثائق في لقاء يرتب سلفاً في كافيتريا، أو قاعة انتظار بأحد الفنادق دبلوماسياً إسرائيلياً كما يتصور بل ضابطاً بالموساد.

وبعد أسابيع أمضاها في التجول الحر في الخارج لزيارة المدرج الروماني في روما وكنيسة البابا وشارع أوكسفورد تلقى أمراً بالتوجه إلى بيروت والانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

كان الانضمام إلى المنظمة أمراً يسيراً؛ فقد توجه ببساطة إلى مكتب تجنيد المنظمة

في بيروت الغربية. كان مسئول التجنيد رجلاً ذكياً على دراية تامة بالقضايا السياسية. وأمضى المسئول بعضاً من الوقت يفحص توجهات إسماعيل تجاه الحاجة إلى العنف وما إذا كان مستعداً للتخلى عن كل انتماءاته وارتباطاته السابقة ـ أسرته وأصدقائه ـ ليعتمد على منظمة التحرير الفلسطينية في الدعم الروحي. وقيل له إنه لو قبل فستكون فرصة عظيمة فى حياته، فالمنظمة ستكون الحماية الوحيدة له من العالم المعادى. وفى المقابل لن تطلب منه المنظمة سوى الولاء المطلق.

وأعده مسئول السيطرة عليه فى الموساد لتقديم الإجابات الصحيحة ثم أُرسل إلى معسكر تدريب في ليبيا حيث استمرت عملية تلقينه، وأُفهم بطرق مختلفة أن إسرائيل تسعىَ للقضاء على المنظمة ولذا يتعين القضاء عليها هى أولاً. وألح معلموه على بث كراهية مطلقة لكل شيء وأى شيء ما عدا منظمة التحرير الفلسطينية، وتذكر صوان كل الدوس التى تلقاها فى مدرسة تدريب الموساد عن القيام بالدور؛ فقد أمضى صوان الكثير من الساعات يستوعب دروس معلميه فى الموساد عن أساليب المنظمات الإرهابية وسلوكها وتكتيكاتها المحتملة. وفى ليبيا لُقن أن القتل ليس سوى وسيلة للتحرير وأن تفجير سيارة ملغومة ليس سوى خطوة جديدة نحو الحرية وأن الاختطاف ليس سوى طريقاً لتحقيق العدالة. وأخذ إسماعيل فى إظهار القدرات التى صقلتها الموساد فيه. فقد قبل تلقى كل تدريبات منظمة التحرير الفلسطينية لكنه لم يسمح بأن تؤثر على جوهر اعتقاداته. وأظهر مثابرة ودهاء وقدرة جسدية هائلة تؤهله للاختيار لما هو أكثر من جندى عادى. وبعد تركه معسكر تدريب منظمة التحرير الفلسطينية أدرج فى إحدى وحدات عمليات منظمة التحرير، وتدريجياً انتقل إلى الهيكل القيادى.

والتقى بقيادات المنظمة بمن فى ذلك ياسر عرفات، وطاف بمعسكرات منظمة التحرير الفلسطيية فى الشرق الأوسط. وبعد عودته إلى بيروت تعلم كيف يعيش تحت الغارات الجوية الإسرائيلية وتجنب الاختباء أسفل المبانى حتى لا يجازف بالتعرض لقصف وانهيار المبنى فوقه. لكنه لم يتخلف مطلقاً عن موعد مع المسيطر عليه فى الموساد والذى كان يتسلل إلى لبنان للحصول على أحدث المعلومات من صوان.

وتمكن دائماً من إحكام التستر على نفسه فعندما قتل على حسن سلامة قاد

إسماعيل صوان مظاهرة تندد بالإسرائيليين الملاعين. وكان يتفانى فى إظهار بهجته عندما يقتل قناص فلسطينى جندياً إسرائيلياً. وفى كل ما يفعله أو يقوله أظهر صوان نفسه فدائياً شديدالالتزام.

وفي عام ١٩٨٤ أُخرج عرفات من بيروت ليعيد تجميع المنظمة في تونس. وأرسلت المنظمة صوان إلى باريس لتعلم الفرنسية، واعتبر ناعوم أدمونى الذى كان قد خلف إسحاق حوفى فى رئاسة الموساد فى ذلك الحين انتقال صوان إلى باريس فرصة ذهبية لعميل يعمل فى قلب أنشطة منظمة التحرير الفلسطينية في أوربا.

كانت التجمعات العربية فى الدائرتين الثامنة عشرة والعشرين فى باريس قد تحولت إلى مأوى للإرهابيين: ففى الشوارع الضيقة حيث يعيش الناس عى حافة الشرعية كان المأوى جاهزاً دائماً للمسلحين وصانعى القنابل، ومن هذه المناطق انطلقت الهجمات على المطاعم والمتاجر والمعابد اليهودية فى فرنسا. وفى باريس كان التوقيع على أول بيان مشترك للمنظمات الإرهابية تتعهد فيه بالتأييد والدعم المشترك للهجمات على الأهداف الإسرائيلية فى كل أنحاء أوربا.

وردت الموساد على البيان بقسوتها المعهودة فقد دخلت فرق الاغتيال الجيوب العربية وقتلت الإرهابيين المشتبه فيهم فى أسرتهم. فقد قطعت رقبة أحدهم من الأذن حتى الأذن وذبح آخر تماماً مثل الدجاجة. ولم تكن تلك سوى انتصارات صغيرة. فقد تيقنت الموساد أن الإرهابيين استعادوا سيطرتهم إلى حد كبير بسبب التوجيه الجيد من منظمة التحرير الفلسطينية. كان وجود رجل لها من رجال منظمة التحرير الفلسطيية داخل مناطق العمليات فى باريس فكرة مثيرة لناعوم أدمونى.

وفى غضون أيام من وصوله إلى العاصمة الفرنسية اتصل صوان بضابطه الذى يعمل بالسفارة الإسرائيلية فى ٣ شارع رابيلياس بباريس. ولم يكن صوان يعرف عنه شيئا سوى أنه اسمه آدم. وحدد مكان اللقاء فى الكافتيريات والمترو، وفى العادة كان صوان يحمل نسخة من صحف اليوم يضع بداخلها المعلومات. وكان آدم يحمل نسخة مماثلة يضع فيها التعليمات الموجهة إليه، إضافة إلى راتبه الشهرى الذى ارتفع إلى ألف دولار. وبالأسلوب الذى أجاداه فى مدرسة تدريب الموساد فسوف يصطدم أحدهما بالآخر ثم يقدم اعتذارات بالغة ويمضى كل منهما إلى حال سبيله بعد أن يكونا قد

تبادلا نسخ الصحف بالفعل.

وبتلك الطرق البسيطة حاولت الموساد استعادة سيطرتها في مدينة عُرفت بتقديم المأوى إلى السياسيين المتطرفين شرط ألا يزعجوا فرنسا، فقط الموساد وحدها هي التي اختارت خرق هذا التفاهم بشن عملية ستوجه لطمة موجعة إلى الكبرياء الفرنسي لن تنساها فرنسا أو تغفرها حتى بعد مرور عشرين عاماً؛ بدأت الملحمة من على بعد ثلاثة آلاف ميل عند مدخل قناة السويس على البحر المتوسط وهي القناة التي أشرف على حفرها الفرنسي فيردينان ديليسيبس.

وعودة إلى الماضي غير البعيدوفي لحظات خاطفة بعد ظهر يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ اكتشفت إسرائيل وتأكدت أنها أصبحت عرضة لخطر الحرب الحديثة. فقد نجحت دورية من البحرية المصرية في إغراق مدمرة حدثتها إسرائيل. كانت في الأصل مدمرة بريطانية يعود تاريخها إلى الحرب العالمية الثانية وأطلقت عيها اسم إيلات بإطلاق ثلاثة صواريخ سوفييتية طراز ستيكس علي المدمرة قبالة بورسيعد ولقي سبعة وأربعون بحاراً إسرائيلياً مصرعهم وأصيب ٤١ آخرون بجراح خطيرة من بين ما جملته (١٩٧) ضابطاً وجندياً. وابتلع البحر المدمرة إيلات. ولم تكن هذه أفدح كارثة تصيب إسرائيل على الإطلاق بل كانت المرة الأولى في التاريخ البحري الطويل الذي تدمر فيه سفينة بواسطة صواريخ بعيدة المدى.

وبعد زوال الآثار المباشرة للكارثة أمرت حكومة ليفي أشكول بإعداد برنامج عاجل لتزويد البحرية الإسرائيلية بسفينة من طراز جديد لتحل محل المدمرة إيلات. وفي غضون أسابيع قلائل وضع المصممون تصميمات زورق حربي أكثر سرعة وقدرة على المناورة ومزود بإجراءات ألكترونية مضادة تستطيع توفير الثواني الحرجة الثمينة اللازمة لاتخاذ إجراء لمراوغة أي هجوم صاروخي في المستقبل. وقدمت طلبية لبناءسبع زوارق من هذاالطراز بهذه المواصفات في حوض سفن شركة شانتييه دي كونستراكسيوت ميكانيك دي نورمادي (ى ى إم) في شيربورج بفرنسا.

وفي الوقت الذي كان يجرى فيه بناء الزوارق في فرنسا كان علماءديمونة يصنعون الصواريخ التي ستتسلح بها تلك الزوارق إلى جانب المعدات الإلكترونية المتقدمة التي ستركب بها بمجرد وصولها إلى إسرائيل.

وسارت الأمور بهدوء تام إلى أن أمر الرئيس شارل ديجول بفرض حظر شامل على بيع الأسلحة لإسرائيل بعد قيام الكوماندوز الإسرائيليين بالهجوم على مطار بيروت في ٢١ ديسمبر ١٩٦٨ وتدمير ١٣ طائرة رابضة بالمطار انتقاماً لعملية فلسطينية ضد طائرة العال البوينج ٧٠٧ في مطار أثينا قبل يومين. وكان الحظر يعني عدم تسليم الزوارق إلى إسرائيل.

وأنهى هذا الرد الفرنسي تحالفاً دام عقداً مع إسرائيل بعد إقامته أثناء الثورة الجزائرية التي أدت إلى استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ وكان أحد أسبابه العداء المشترك للزعيم المصري جمال عبد الناصر. وفي ذلك الوقت زود الموساد فرنسا بمعلومات عن جهبة التحرير الوطني المناهضة للاحتلال الفرنسي وباعت فرنسا لإسرائيل في المقابل أسلحة وزودتها بمقاتلات الميراج المتقدمة.

ومع استقلال الجزائر سرعان ما استعادت فرنسا علاقتها التقليدية مع بقية الدول العربية وسُمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بفتح مكتب لها في باريس واعتبر ديجول الهجوم على مطار بيروت ازدراءً حاداً لطلبه بامتناع إسرائيل عما أسماه الرئيس الفرنسي «الهجمات الثأرية» ضد جيرانها العرب.

كان حظر السلاح الفرنسي يعنى عملياً أنه لن يصبح بوسع إسرائيل الحصول على إحلالات كافية من طائرات الميراج بما يمكنها من السيطرة على سماوات الشرق الأوسط أو تمكينها من الدفاع بفعالية عن مياهها. وعلى العكس فقد جاء في وقت كانت إسرائيل تتشبث فيه بثمن انتصارها الخاطف في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ التي أخضعت الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية لسيطرتها. ومع الأرض جاء أيضاً نحو مليون عربي يكن معظمهم كراهية بغيضة للغزاة الإسرائيليين.

وفي رأى مائير أميت فالمشكلة التي تواجهها إسرائيل «لا يمكن المبالغة فيها. فعلى حدودنا يوجد آلاف «الميهابيليم» الإرهابيين الذين يحظون بتأييد مجمل السكان العرب الذين سيقدمون لهم على الأقل المأوى والمساعدة؛ ومهمتي الأولى هي زيادة وتعزيز أهداف الموساد واختراقها لكافة المنظمات الفلسطينية».

وطلبت رئيسة الوزراء الجديدة جولدا مائير من أميت وضع خطة لنقل الزوارق التي اكتمل بناؤها خارج فرنسا. وقال أميت لاحقاً: «كان الاقتراح الأول هو أنه يتعين علينا

الإبحار إلى شيربورج مزودين بعدد كاف من البحارة المسلحين وأن نستقل الزوارق ونقفل عائدين إلى إسرائيل». وانتقد وزير الدفاع موشيه ديان هذا الاقتراح بعنف. وأشار بصدق إلى أن رد الفعل الدولي ستكون له تداعيات ضخمة وسيظهر إسرائيل بمظهر اللص. ويجب أن يتسم أي فعل نفعله بالشرعية. ويجب أن يكون لدينا حق للإبحار خارج المياه الإقليمية الفرنسية، وبمجرد أن نصل إلي المياه الدولية فسيختلف الأمر.

أما شرعية ما سيحدث فأمر ستقرره أعين الناظرين. وبرغم إلحاح ديان على الالتزام بالقانون حرفياً إلا أن ما عقد عليه العزم كان خدعة بارعة وبسيطة.

وفي نوفمبر ١٩٦٩ وضع أميت المرحلة الأولى لعملية قوس قزح موضع التنفيذ. فقد طلبت شركة فروت للملاحة البحرية - كبرى الشركات الملاحية في إسرائيل - والتي تقوم بالشحن لكافة أنحاء العالم، من شركة استشارات قانونية مقرها لندن تسجيل شركة جديدة باسم ستار بوت - تيمناً بنجمة داوود - وصاحب النصيب الأوفر في أسهمها هو ميلا برينر مدير شركة فروت للملاحة البحرية، وبقية حملة الأسهم وكلاء لمائير أميت.

وسار الجزء الثاني من العملية بسلاسة بالغة. ولعدة أشهر كان الأدميرال موردخاي ليمون ضابط الاتصال البحري الإسرائيلي في شيربورج بشأن الزوراق يتفاوض مع حوض بناء السفن علي التعويض الناجم عن فسخ العقد وفي كل مرة كان الفرنسيون يوشكون على الموافقة كان ليمون يتذرع بحجة جديدة. وفي ١٠ نوفمبر أبلغ مسئولي حوض بناء السفن بأن إسرائيل مستعدة مرة أخرى لبحث الأمر.

وفي تل أبيب أبرم ميلا برينر عقداً مع واحد من أساطين الملاحة البحرية في العالم هو أولي مارتين سيم الذي يتخذ من أوسلو مقراً له. ووافق على الانضمام لمجلس إدارة ستار بوت لغرض محدد هو شراء الزوارق البحرية.

وتحرك ليمون صاحب اليد الجديرة بمقامر عنيد والتقى في ١١ نوفمبر مع مسئولي حوض شيربورج وأصغى إلي عرضهم المحسن للتعويض وقال إنه لا يشعر بالارتياح حتى الآن. وذهل المسئولون لأن العرض كان سخياً للغاية. وأثناء تدارس الخطوة التالية سارع ليمون بالتوجه إلي باريس حيث كان ينتظره أولي سيم. وعقب لقائهما اتصل

ليمون هاتفياً بمسئولي حوض السفن ليبلغهم بأنه سيتصل بهم «في غضون أيام». وفي ظرف ساعة واحدة كان سيم يجلس في مكتب الجنرال لويس بونتييه مسئول مبيعات السلاح بالحكومة الفرنسية. وقال سيم إنه «سمع أن هناك عدداً من الزوارق الحربية المعروضة للبيع يمكن استبدالها بالتنقيب عن البترول».

وتدخل ليمون في وقت حدد باتفاق واتصل بمونتييه وأبلغه أنه في باريس وأنه مستعد لقبول عرض نهائي بالتعويض. وكان الرقم الذى اقترحه هو نفس الرقم الذى عرضه مسئولو حوض سفن شيربورج. وقال بونتييه «إن المفاوضات لا تزال مستمرة» وأنه سيرد عليه، وعاد الجنرال إلى سيم وكشف له عن العرض الذى وافق ليمون على قبوله لكنه قال إن المبلغ كبير وقد لا تقبل الحكومة دفعه. وبادر سيم على الفور بزيادة المبلغ الذى طلبه ليمون بنسبة (٥) في المائة. ورد بونييته علي ليمون وأبلغه بقبول عرضهم. وأعتقد بونتييه أنه أحسن صنعاً بانتشال فرنسا من مشكلة شائكة. فسوف تحصل إسرائيل على التعويض وستستفيد فرنسا بأرباح تقدر بخمسة فى المائة.

وطرح مونتييه سؤالين فقط على أولى سيم، هل ستذهب الزورواق الحربية إلى النرويج؟ وهل يمكن أن يضمن سيم عدم إعادة تصدير الزورواق بعد انتهاء أعمال التنقيب على البترول؟ وقدم سيم ضمانات غير مشروطة في الحالتين. وقبل بونتييه بضرورة أن يتم إبحار الزوارق من شيربورج بحرص بالغ تجنباً لاستفسارات الصحافة عن موقع حقول البترول وهى قضية بالغة الحساسية فى صناعة تشتهر بسريتها المفرطة. وتحدد موعد إبحار الزوارق بعشية عيد الميلاد عام ١٩٦٩ عندما تكون المدينة تحتفل ببداية موسم الإجازات.

كان لا يزال باقياً على هذا الموعد شهر كامل وكان أميت على يقين تام بأن هذا الوقت أكثر من كاف لتعقيد الأمور. فسوف تكون هناك حاجة إلى وجود (١٢٠) بحاراً إسرائيلياً لقيادة الزوارق فى رحلة طولها ثلاثة آلاف ميل من شيربورج إلى حيفا. وبالقطع فإن إيفاد هذا العدد فى وقت واحد سيثير انتباه السلطات الأمنية الفرنسية. ومرة أخرى كان هناك حلٌ لدى العبقرى أميت.

وقرر أميت أن يسافر كل اثنين من البحارة معاً فى وقت واحد لمدن فى أوربا قبل التوجه إلى شيربورج وتلقى البحارة تعليمات بعدم البقاء فى أى فندق بالميناء لأكثر

من ليلة واحدة قبل الانتقال إلى فندق آخر. وسوف يسافرون بجوازاتهم الإسرائيلية حتى إذا ما تم القبض عليهم فلا يمكن اتهامهم بحمل جوازات سفر مزورة، ومع هذا فلا يزال مائير أميت يعتقد أن المخاطر عالية. «فالأمر لا يحتاج سوى رجل شرطة فرنسي شكاك ليتساءل عن سبب وجود هذا العدد الكبير من الإسرائيليين في الكريسماس وحينئذ سوف تنفجر العملية».

وبحلول الثالث والعشرين من ديسمبر وصل كل البحارة إلى شيربورج، واستمع البحارة الذين تناثروا في أنحاء المدينة باستمرار إلى الأغاني وانضم بعض الذين ولدوا ونشأوا في القدس إلى الغناء.

وفي تل أبيب جلس أميت بارتياح يراقب المشاكل الأخرى ليقوم بحلها. فقد سويت مشكلة توفير إمدادات تكفي لثمانية أيام في البحر بقيام ضابط الإمداد بالعملية بزيارة لكل متجر في المدينة ولكن وعندما ألح عليه أصحاب المتاجر في الحصول على هدية الكريسماس كان يرفض بلطف. وتم تهريب نحو ربع مليون لتر وقود في براميل «أخفيت أسفل أسطح الزوارق». أما الشيء الوحيد الذي لا يمكن التكهن به فهو الطقس. فسيتعين أن تبحر السفن عبر خليج بسكاي في طقس شتوي قد يتسبب في غرقها. ويتذكر مائير أميت أنه في تل أبيب «كنا نتضرع بأن يسود طقس مماثل للطقس الذي ساد في عملية دونكرك. وقد أرسلت بالفعل خبراء أرصاد جوية لمتابعة التوقعات الجوية من إنجلترا وفرنسا وشيربورج وأسبانيا».

ومضت الساعات بطيئة تبعث على الضجر حتى حلت عشية عيد الميلاد. وأشارت توقعات الطقس في شيربورج إلى هطول أمطار جنوبية غربية ومع هذا صدر الأمر بضرورة الإبحار في الساعة الثامنة والنصف مساء. وفي الساعة السابعة والنصف كان البحارة قد اعتلوا سطح الزوارق. لكن الطقس ازداد سوءاً. وتحدد موعد جديد للإبحار في الساعة العاشرة والنصف.

وتأجل الإبحار مرة أخرى بسبب سوء الأحوال الجوية، لكن جاءت إشارة مشفرة عاجلة من تل أبيب بضرورة الإبحار مهما كانت الأحوال الجوية. وفي شيربورج تجاهل ضابط البحرية الإسرائيلي الضغوط فقد كانت أرواح جنوده هي الأهم بالنسبة له حتى تلك اللحظة. وفي زورق القيادة جلس صامتاً يتابع رجال الأرصاد الجوية وهم يدرسون

التغيرات الجوية وفي منتصف الليل أعلنوا «أن سرعة الرياح ستخف وتتجه شمالاً في غضون ساعتين ولن تكون قوية وستكون خلفنا. ويمكننا الإبحار». وفي الساعة الثانية والنصف صباح يوم عيد الميلاد بدأت محركات الزوارق في الدوران واتجهت ببطء للخروج من الميناء نحو البحر. وبعد سبعة أيام وفي أول يوم العام الجديد دخلت ميناءحيفا.

كان مائير أميت من بين مستقبلي الزوارق على رصيف الميناء. وبالنسبة له فلم يكن العام الجديد ليبدأ بداية أفضل من هذه البداية لكنه يعي تماماً أن الرئيس شارل ديجول لن يغفر لإسرائيل ما حدث.

وقد كان، فأثناء تعقب الموساد لإرهابيي الشرق الأوسط أُخضع ضباط الموساد لرقابة لصيقة - كأى إرهابى - من جانب أجهزة الأمن الفرنسية. والأدهى هو قيام الضباط الموالين للعرب في SDECE غالباً بإبلاغ منظمة التحرير الفلسطينية بأن الموساد على وشك القيام بهجوم مضاد. وفي الأغلب كان الإرهابي يستطيع الفرار.

كان أسوأهم سمعة هو أليش راميريز سانشيز الذى أكسبته أنشطته اسم «كارلوس: ابن آوى». وفي باريس كان هو السلاح الجاهز للانطلاق لخدمة إحدى الفصائل المنشقة على منظمة التحرير الفلسطينية، التي تتخذ من سوريا مقراً لها. وجعلته أعماله الخارقة شخصية جذابة ومثار إعجاب في الصحافة الماركسية السرية التي ازدهرت في أوربا ولطالما أعجب النساء من محاولات الموساد لاغتياله. فيوما ما يكون في الريفيرا يلهو مع فتاة وفي اليوم التالي يُرصد في لندن مع زمرة من إرهابيي الشرق الأوسط يساعدهم في وضع الخطط ضد منظمات عربية أخرى وبالطبع ضد إسرائيل. كان كارلوس وزملاؤه يعملون دون تدخل من أجهزة الأمن والمخابرات البريطانية بناءً على تفاهم بأنهم لن يلحقوا أى ضرر بالمواطنين البريطانيين.

وفي الوقت الذى تكون فيه الموساد في وضع يسمح لها بقتل كارلوس كان يجد مكاناً آخر له في القارة الأوربية أو يطير إلى دمشق أو بغداد أو دول عربية أخرى لإعداد الخطط للكوارث الإرهابية.

وأنيطت بإسماعيل صوان أثناء وجوده في باريس مهمة أخرى هى اقتفاء أثر كارلوس لفترة طويلة حتى تستطيع الموساد التبدير لاغتياله. وقدم إسماعيل صوان

إسهامات هامة للغاية في الحرب التى شنتها الموساد فى فرنسا مما أتاح لضباطها وفرق اغتيالاتها تحقيق نجاح باهر؛ فقد تم تفجير المكان الذى أعدته منظمة التحرير الفلسطينية لتزوير وثائق السفر ودمرت أيضاً مخازن أسلحتها، وتم اعتراض أفراد الاتصال وقتلهم. وفجرت الشحنات المتفجرة المهربة من أوربا الشرقية؛ وبعشرات ومختلف الطرق ردت الموساد على النار بالنار بفضل المعلومات التى قدمها صوان.

وفى يناير ١٩٨٤ أبلغ آدم المسئول عن صوان فى الموساد بأنه سيرسل إلى بريطانيا حيث سيعمل وراء ستار أنه طالب شاب يدرس للحصول على شهادة دراسية فى العلوم. ومهمته الجديدة هذه المرة هى اختراق منظمة التحرير فى لندن ومعرفة كل ما يمكنه معرفته عن القوة ١٧، التي يتولى قيادتها الآن عبد الرشيد مصطفى ومقره لندن، وكان مصطفى مدرجاً على قائمة اغتيالات الموساد.

وأبلغ إسماعيل صوان مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى باريس أنه انتهى من دراسته للفرنسية - أحضر مساعد فرنسي للموساد شهادة دبلوم مزورة ليؤكد صحة أقواله إذا طلب منه ذلك رغم أن أحداً لم يطلب منه هذا الطلب - وأنه يريد الذهاب إلى إنجلترا لنيل درجة فى الهندسة. وتمكن من إقناعه بتذكرته بأن مؤهله سيجعله «أكثر فائدة فى صنع القنابل».

كان احتمال ضم صانع قنابل جديدإلى فرق صناعة القنابل فى منظمة التحرير الفلسطينية موضوع ترحيب على الدوام بل إن هذا الترحيب سيتضاعف فى العام ١٩٨٤. كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في حاجة لأن تظهر للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة أنها لا تزال على قيدالحياة. كانت معاناة عشرات الآلاف تتفاقم فى ظل الاحتلال الإسرائيلى وكانوا لا يستوعبون لماذا لا يفعل ياسر عرفات المزيد ليساعدهم بطريقة عملية فقد كان الكلام شيئاً والعمل شيئاً آخر.

كانت الموساد تعرف أن عرفات واقع تحت ضغط متزايد لتأييد خطة الرئيس المصرى حسنى مبارك للسلام. وفى سوريا قرر النظام السورى الذى لا يمكن توقع توجهاته تجميد علاقاته مع مختلف الفصائل الفلسطينية وسجن المئات من مقاتليها. كان الرئيس السورى حافظ الأسد يريدأن يظهر للأمريكيين أنه ليس مثيراً للمشاكل كما يعتقد العالم.

وأدى هذا فقط إلى تعزيز مشاعر كوادر منظمة التحرير الفلسطينية في الخيمات بأن العالم العربى سيخذلهم ليعاودوا التنقل من مكان إلى آخر، وعليهم أن يأخذوا زمام الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم. ودار حديث صريح عن خيانة قيادتهم لهم. وواصل الإسرائيليون استغلال الموقف وأشاعت الموساد في مختلف أنحاء الأرض المحتلة أن منظمة التحرير الفلسطينية تمتلك أرصدة تبلغ خمسة مليارات دولار تستثمرها فى مختلف أنحاء العالم.

وأصبح عرفات ضحية حملة تشهير أخرى منفصلة وضعها خبراء الحرب النفسية بالموساد وأدعت أنه استخدم بعض تلك الأموال لإرضاء نزواته مع الفتية. وروجت الشائعة فى مخيمات اللاجئين ورغم عدم تصديقها إلى حد كبير إلا أنه كان لها بعض الأثر. وأمر عرفات مكاتبه السبعة عشر لمنظمة التحرير الفلسطينية بتسريب رواية عن تفتح شهيته للنساء وهو أمر صحيح.

وبالنسبة لمدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس فقد قوبلت فكرة استغلال صوان لرغبته في الحصول على شهادة فى الهندسة ليصبح خبيراً فى صنع القنابل بترحاب كبير، وكانت سبباً كافياً لمنحه مصروفات ورسوم الدراسة في بريطانيا إلى جانب تكاليف الإقامة أيضاً. وقدم آدم خمسمائة جنيه استرليني لصوان وطلب منه أيضاً أن يبحث عن عمل يسدد منه مصاريف الدراسة حتى لا يثير الشبهات.

ووصل صوان إلى لندن في شهر فبراير ١٩٨٤ بجواز سفر أردنى قدمه له الموساد. وكان لديه جواز سفر ثان كندى أخفى في جيب سحرى بحقيبته. وطلب منه أن يستخدمه فقط إذا اضطر إلى مغادرة بريطانيا على عجل. وأخفى مع جواز السفر الكندى نبذة أعدها الموساد عن عبدالرشيد مصطفى والقوة ١٧ التى يقودها.

وقد تشكلت هذه القوة أصلاً كقوة للحراسة الشخصية لياسر عرفات. ويعود سبب تسميتها بهذا الاسم إلى رقم هاتف عرفات فى مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية القديم في بيروت. وفى فترة ما في لبنان أصبحت القوة ١٧ جيشاً كبيراً يضم أكثر من ألف مقاتل ومن بين وحداتها كانت منظمة أيلول الأسود سيئة السمعة التى ارتكبت مذبحة الرياضيين الإسرائيليين فى ميونيخ. وقبيل إجبار منظمة التحرير

الفلسطينية علي الخروج من بيروت والانتقال إلي تونس قتل قائدها الأصلي علي حسن سلامة في انفجار سيارة ملغومة دبره رافي إيتان. وفي تونس وجد عرفات نفسه أمام واقع صعب فلم تكن الموساد هي التي تسعى في أثره فحسب، بل كان هناك المتطرفون العرب أيضاً؛ فأبو نضال الذي زعم أنه الصوت الوحيد للكفاح المسلح قال إنه لا يمكن إحراز النصر مالم يزح عرفات. ورد عرفات بإعادة تشكيل القوة (١٧) لتصبح وحدة شديدة الإحكام لتحقيق هدفين: أولاً مواصلة حمايته، ثانياً الإعداد لهجمات متقنة على أعدائه بدءاً بإسرائيل بطبيعة الحال. وتولى مصطفى قيادة القوة ١٧. وفي تونس تولي خبراء صينيون وسوفييت تدريب رجالها على حرب رجال العصابات وفي عام ١٩٨٣ بدأ مصطفى سيره إلى بريطانيا لتجنيد مرتزقة.

كانت لندن تعج بأعضاء (ساس) السابقين وقدامى المحاربين في الجيش النظامي الذين خدموا في أيرلندا الشمالية ويبحثون عن منفذ جديد لتوظيف مهاراتهم في القتل. كانوا يتلقون رواتب جيدة مثل رواتب مدربي منظمة التحرير الفلسطينية والكثير منهم يكن عداءً شديداً للسامية وتعاقد عدد منهم وسافر إلى تونس للعمل في معسكرات تدريب منظمة التحرير الفلسطينية. وجلب مدربون آخرون من الأعضاء السابقين بالفيالق الأجنبية الفرنسية بل وفي مرحلة ما كان من بينهم فرانك تيربيل ضابط المخابرات المركزية الأمريكية السابق الذي تورط في قضية محمد علي أغا الذي حاول اغتيال البابا يوحنا بولس الثاني.

وعلى مدى عام بأكمله جاء مصطفى إلى بريطانيا وخرج منها دون أن تعرف إم آي ٥ أو الفرع المخصوص شيئاً عنه أو تتأكد من حقيقته. وعندما أبلغتهما الموساد كان رد الفعل الوحيد هو قيام ضابط في إم آي ٥ بتذكير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لندن أنه سيتم إغلاق المكتب وسيطرد أعضاؤه إذا لاحت أي بادرة على تورطهم في نشاط إرهابي ضد بريطانيا، لكن بوسعهم الاستمرار في العمل ضد إسرائيل.

ولاح ضوء مكيدة في الحرب الدعائية بدعوة بسام أبو شريف كبير المتحدثين باسم عرفات حينذاك للقاء الروائي جيفري آرشر ويتذكر أبو شريف كيف أفاض أرشر بالشرح «كيف يجب علينا تطوير وإدارة علاقاتنا الإعلامية وتنظيم نشاطنا السياسي وإرساء أسس اتصالات مع السياسيين البريطانيين وتعبئة الرأي العام. إن لدى

انطباعات جيدة للغاية».

وعقب اللقاء وجد اسم أرشر طريقه إلى أجهزة كمبيوتر الموساد. وشعرت إسرائيل بالغضب لوضع مصطفى تحت حماية السلطات البريطانية على ما يبدو وبالتالى فسوف يكون لأى محاولة للتعامل معه في بريطانيا عواقب وخيمة للموساد.

وتمثلت مهمة إسماعيل فى استدراج عبد الرشيد مصطفى إلى شرك خارج البلاد ويستحسن أن يكون في الشرق الأوسط حيث تنتظر فرق اغتيالات الموساد التي يمكنها إعدامه. وأبلغ آدم، صوان في باريس أنه سيعمل تحت توجيه ضباط الموساد المتمركزين في السفارة الإسرائيلية فى لندن وكان الضابط الأول هو آريه ريجيف. والثاني هو جاكوب باراد الذى كان يشرف على المصالح التجارية لإسرائيل وضابط الموساد الثالث المتمركز فى لندن هو بشار سمارة الذى لا يتستر تحت صفة دبلوماسية والذى سيكون مسئول الاتصال الأول مع صوان. وطلب سمارة من مساعد للموساد يعمل فى مكتب تأجير عقارات تأجير شقة لصوان فى منطقة مايدا فالى فى المدينة.

وبعد أيام من الوصول إلى لندن أجرى صوان أول اتصال مع سمارة. والتقى سمارة وصوان أسفل تمثال إيروتيس فى البيكاديلي. كان كل منهما يحمل نسخة من الديلى ميرور التي اشتراها ماكسويل واستخدما نفس الأسلوب الذى أثبت فعاليته فى باريس أى تبادل الصحف، وتلقى صوان راتبه الشهرى (٦٠٠) جنيه استرلينى وتعليمات بكيفية الالتحاق بعمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية.

كان الكثيرون الذين يعملون هناك يريدون أداء الأعمال غير العادية مثل نقل الرسائل لخلايا منظمة التحرير الفلسطينية والسفر إلى مقر المنظمة حاملين المعلومات المهمة ثم الانتظار حتى ولو ساعات لمجرد إلقاء نظرة على ياسر عرفات. لم يكن هؤلاء الثوريون الملتزمون يهتمون بالعمل المكتبى كإعداد الملفات وقراءة الصحف واستقبال أو الرد على المكالمات الهاتفية.

وفى غضون بضع دقائق كان صوان يلتقى مع عبد الرشيد مصطفى، وسرعان وبعد تناول عشرة أكواب من الشاى ما نشأت صداقة قوية بينهما. فقد خبر كلاهما تجربة العيش فى ظل القصف الإسرائيلى لبيروت وسارا فى نفس الشوارع بنفس سرعة حركة العين وسرعة البديهة مارين أمام المبانى المليئة بالثقوب التى تبدو وكأنها مثل

الشبكة. وكم نام كلاهما في مكان مختلف كل ليلة ينتظر بزوغ الفجر مع أذان المؤذن وكم وقف كلاهما في إحدى نقاط تفتيش لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت يشير لسيارات الإسعاف بالمرور ويستوقف ما عدا ذلك ولا يترك المكان إلا لأخذ ساتر عندما يصم أزيز الطائرات الإسرائيلية الأذان مجدداً.

وتبادلا الضحك عندما استعادا تلك الذكريات بالقول «إذا سمعت انفجار القنبلة فأنت لا تزال حياً». لقد جمعهما الكثير من الذكريات كأنين القتلى والمحتضرين وعويل النساء ونظراتهن البائسة تشق عنان السماء. وأمضى صوان مع مصطفى يوماً كاملاً يستعيدان فيه الماضي. وأخيراً استفسر مصطفى عما يفعله صوان في لندن، ورد صوان لمزيد من الدراسة حتى أخدم المنظمة. ومن جانبه سأل صوان مصطفى عما جاء به إلي انجلترا.

وكشف السؤال الكثير فقد استفاض مصطفى في وصف عمليات القوة ١٧ وأنها كانت على وشك اختطاف طائرة إسرائيلية تقل سياحاً ألماناً عندما أمر عرفات بإلغاءالمهمة، خشية تأليب الرأى العام الألماني ضد المنظمة. لكن عبد الرشيد مصطفى نقل الحرب ضد إسرائيل إلي قبرص وإسبانيا. كان إسماعيل صوان يدرك تماماً أن أى شيء يتباهى به رفيقه سوف يزيد فقط من تصميم الموساد على قتله.

واتفقا على معاودة اللقاء مرة ثانية في ركن المتحدثين بحديقة هايد بارك. واتصل إسماعيل صوان بالرقم الخاص الذى أعطى له للاتصال في حالة وجود أخبار عاجلة. ورد بشار سمارة واتفقا على اللقاء في شارع ريجنت وأثناء تجوالهما بين الموظفين الذين يتناولون الغداء أبلغ صوان ضابطه سمارة بما قاله له عبد الرشيد مصطفى وقال سمارة إنه سيتواجد في ركن المتحدثين بهايد بارك لتصوير مصطفى ثم تعقبه أينما ذهب.

ولم يف مصطفى بموعده في الوقت المحدد ومضت أسابيع قبل أن يعاودا اللقاء، وفى تلك الأثناء قُبِلَ صوان طالباً في كلية بات بمنتجع سبا. كان يتوجه للندن مرتين في الأسبوع للمرور على مكتب منظمة التحرير الفلسطينية لإنجاز أعماله الإدارية. وفى إحدى تلك الزيارات كان مصطفى موجوداً.

ومرة أخرى تحدث الاثنان وهما يحتسيان عدداً غير محدد من أكواب الشاى بالنعناع وأخرج مصطفى من حقيبته كتاباً مصوراً عن تاريخ القوة (١٧). وتباهى

بطبع أكثر من مائة ألف نسخة سيتم توزيعها على الفلسطينيين. وعثر وهو يقلب الكتيب على صورة التقطت لمصطفى في لبنان. وبفرح وقع مصطفى على الصورة. وأهدى الكتاب لصوان ومرة أخرى اتفقا على اللقاء لكن مصطفى لم يفِ بموعده مرة أخرى.

وفى الوقت ذاته سلم صوان الكتاب إلى سمارة في المكان الذى تحول إلى مكان اللقاء الدورى بينهما وهو محطة سكة حديد باث. ودأب ضابط الموساد على السفر إلى بريطانيا في قطار تال إلى لندن حاملاً معه أي معلومات يكون صوان قد علمها من مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، ويسلمه أيضاً راتبه الشهرى (٦٠٠) جنيه استرليني.

وعلى مدى عام تقريباً سارت العلاقة بينهما على هذا الشكل. وفى ذلك الحين تعرف صوان على فتاة إنجليزية تدعى كارمل جرين سميث. ووافقت على الزواج منه. ولكن حتى عشية حفل الزواج لم تكن الأمور مستقرة.

وقام بزيارة أخرى لمكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى لندن والتقى بمصطفى الذى لم يقل كالعادة أين كان. وحمل مصطفى معه أعداداً من صحيفة القبس العربية التى تصدر فى لندن كانت كل صحفة تحمل رسماً كاريكاتورياً يسخر من عرفات. كانت تمول الصحيفة عائلة الصباح الحاكمة فى الكويت التى تعادى منظمة التحرير منذ أمد طويل(*).

كانت الرسوم الكاريكاتورية من رسم ناجي العلى رسام الكاريكاتير العربى الشهير، ومن مقر إقامته فى لندن شن ناجي العلى حرباً بمفرده ضد عرفات يصوره فيها على أنه سياسى مرتش يعمل لمصلحته الخاصة وأحمق سياسياً، وبهذه الرسوم أصبحت القبس صوت المعارضة ضد عرفات.

وألقى مصطفى بالصحف على المائدة قائلاً إن العلى يستحق الموت ولابد من تلقين مموليه الكويتيين درساً لا ينسى.

وابتسم صوان ابتسامة لا تحمل على التأييد لكن الموساد ترحب بكل رأى من شأنه

(*) ظهر هذا العداء بعد الغزو العراقي للكويت وعدم مساندة المنظمة للكويت (الترجمة).

تقويض مركز عرفات. طرح صوان قضية أكثر الحاحاً على المستوى الشخصي ليجد أفضل رجل للمشاركة في حفل الزواج وعرض مصطفى نفسه للقيام بهذا الدور على الفور وتعانقا، وربما كانت تلك هي اللحظة التي تمنى فيها صوان أن يبتعد بنفسه عن أحضان الموساد.

وفي تل أبيب بدأ ناعوم أدموني يتساءل عن الوقت الذى قد يمر قبل أن تكتشف إم آى ٥ أمر جوازات السفر الثمانية المزورة التى تركت فى كابينة تليفون في ألمانيا فى يوليو تموز ١٩٨٦. كانت الحكومة الائتلافية برئاسة رئيس الوزراء شيمون بيريز غير المنبهر بالموساد فى أيامها الأخيرة، والذى أخذ يثير أسئلة محرجة، فرئيس الوزراء الإسرائيلي يرى أن القضية ستقوض علاقات إسرائيل بحكومة تاتشر وأنه من الأفضل إيجاد مخرج آمن ونظيف للقضية وبمراعاة قول بيريز كلما قل الكلام سهل تسوية القضية.

وعارض أدمونى الفكرة لأنها يمكن أن تدفع إم آى ٥ والفرع الخصوص إلى التحقيق فى أعمال أخرى للموساد فى بريطانيا وقد يؤدى إلى طرد إسماعيل صوان من بريطانيا بعد أن أثبت أنه منجم للمعلومات فضلاً عن هذا فإن الاعتراف بحقيقة الجوازات سيكشف عن مدى العجز الذى يعصف بالموساد.

كانت الجوازات موجهة إلى السفارة الإسرائيلية فى بون. وكانت مهمة تسليمها من تل أبيب قد أوكلت إلى عنصر اتصال جديد في المهنة ولم يزر بون من قبل مطلقاً. وقد بدأ يجوب المدينة فترة من الوقت ولم يشأ أن يسأل أحداً عن أماكن المدينة حرصاً على عدم لفت الانتباه إليه. وأخيراً استخدم الهاتف للاتصال بالسفارة، وعنفه مسئول بالسفارة لتأخره. ونتيجة الخوف أو اللامبالاة فقد نسي العنصر الحقيبة في كابينة التليفون وتبين خطأه بمجرد وصوله إلى السفارة لكنه لم يستطع وبفعل ما انتابه من هلع شديد أن يتذكر مكان الشارع الذى أجرى منه المكالمة وبمرافقة رئيس أمن السفارة الذى تملكه الغضب عثر أخيراً على كابينة الهاتف ولم تكن الحقيبة موجودة ورحل عنصر الاتصال الجديد إلى النقب لكن القضية لا تزال تثير المشاكل لأدموني. فقد كانت وزارة الخارجية البريطانية تثير القضية مع الحكومة الإسرائيلية من خلال سفارتها فى لندن.

كان أحد تلك الجوازات مخصص ليستخدمه صوان لتمكينه من التنقل بسهولة بين لندن وتل أبيب. فحمله جواز سفر بريطانياً يعني خضوعه لتفتيش أقل بواسطة سلطات الهجرة فى مطار هيثرو عما لو كان يحمل جواز سفر كندياً.

وأثناء وجوده في لندن قام بالذهاب إلى إسرائيل عدة مرات لزيارة أسرته في إطار إجراءات الحفاظ على سرية مهمته. ولا يزال في نظرهم عضواً نشطاً بمنظمة التحرير الفلسطينية وأدى دوره بإتقان لدرجة حذره معه أخاه الأكبر إبراهيم من أن إسرائيل سوف تعتقله وأشار مازحاً إلى أن إسماعيل لابد وأن يحتاط للأمر بالعمل للمنظمة. وتظاهر إسماعيل بالخوف من الفكرة وعاد إلى لندن لاستئناف عمله.

وسرعان ما بدأت الأمور تأخذ منعطفاً غير متوقع. فقد طلبت منه زوجته بإلحاح القبول بوظيفة باحث في كلية هاميرسايد في هول. وبالنسبة لها كانت الوظيفة مصدراً إضافياً لتحسين دخله إلى جانب راتبه من العمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. وبالطبع لم تكن تعرف شيئاً عن علاقة زوجها بالموساد أو الستمائة جنيه التى يحصل عليها من الموساد شهرياً. وبالنسبة له كان الانتقال إلى هول فرصة جيدة للتخلص من مطالب ضابطه المتزايدة في الموساد.

وشأن الكثيرين من العملاء الذين يعملون لحساب الموساد أصبح صوان يشعر بخوف بالغ من المخاطر التي يواجهها. وبعد أداء مهمته على أكمل وجه أصبح مصطفى أكثر من صديق. فقد كان يعرج من حين لآخر بصفة دورية لزيارة إسماعيل وزوجته حاملاً لهما معه هدايا من الشرق الأوسط. وعلى العشاء قص مصطفى حكايات تعامله مع أحدث أعداء منظمة التحرير الفلسطينية. وعلي مدى أشهر تباهي بقتل «خونة القضية» وجلس صوان مفتوناً «على أمل ألا يدق قلبي بصوت مسموع». فقد انتابه الرعب هو الآخر عقب لقاءاته مع سمارة الذى بدأ يطلب منه الدخول على أجهزة كمبيوتر المنظمة ونسخ الوثائق الحساسة. وأن يحاول اصطحاب مصطفى في «إجازة» إلى قبرص حيث ستكون بانتظاره هناك فرقة اغتيالات. كان صوان حتى ذلك الحين يتمكن في كل مرة من اختلاق الأعذار فلم يستطع حتى هذه اللحظة التواجد بمفرده في حجرة الكمبيوتر أو أن ضغوط الدراسة تضطره إلى استغلال أيام العطلات، لكنه على أية حال شعر بتهديد متزايد من جراء طلبات سمارة. وراوده الأمل بأنه عندما

يكون في هول فسيستمع بحياة أكاديمية تجنبه مزيداً من الضغوط. لكن الموساد كانت تعد له خططاً أخرى.

وفي يوم الجمعة ١٣ مارس ١٩٨٧ سرت بمقر الموساد في شارع الملك شاؤول شائعة بأن أدموني ينتظر زائراً مهماً. وبعيدالظهر بقليل كان ضابط اتصال إم آي ٦ محاطاً بحراسة في طريقه إلى مكتب مدير الموساد بالدور التاسع. كان لقاؤهما قصيراً. وقيل لأدموني إن إم آي ٦ لا تشعر بالارتياح لأن جوازات السفر المزورة التي عثر عليها في ألمانيا من صنع الموساد. وتذكر أحد ضباط الفرع المخصوص الذين شاركوا في العملية، في يونيو ١٩٩٧ بالقول «إن رجلاً من الستة كان يسير وقال صباح الخير ورفض تناول فنجان من الشاي أو القهوة، كانت تعبيراته واضحة ثم أومأ وواصل السير ويحتمل أن الأمر لم يستغرق سوى أقل من دقيقة لتوصيل الرسالة».

وفي لندن استدعت وزارة الخارجية البريطانية السفير الإسرائيلي في لندن وسلمته احتجاجاً شديد اللهجة مقروناً بطلب بعدم تكرار هذا الأمر ثانية. كان مبعث الارتياح الوحيد لأدموني هو أن أحداً لم يتطرق بالذكر لصوان.

وفي ساعات المساء الأولى ليوم ٢٢ يوليو ١٩٨٧ أدار إسماعيل صوان جهاز التليفزيون بشقته في هول لمشاهدة نشرة التليفزيون المسائية. لم يكن قد سمع شيئاً من الموساد منذ أبريل عندما ذهب سمارة للقائه في محطة سكة حديد هول وطلب سمارة من صوان التواري حتى إشعار آخر مالم يتصل به مصطفى، والآن تملأ الشاشة صورة الرجل الذي قال مصطفى إنه يستحق القتل: إنه ناجي العلي رسام الكاريكاتير وقد أطلق عليه الرصاص لدى مغادرته مكتب صحيفة القبس في لندن. وأطلق المسلح عليه طلقة واحدة ثم اختفى. واخترقت الرصاصة خده الأيمن لتستقر في المخ. كان رد الفعل الأول لصوان هو أن الاغتيال ليس من عمل الموساد أو القوة ١٧ فكلتاهما تستخدم نفس طريقة المحترفين في القتل عدة رصاصات في الرأس والجزء الأعلى من الجسم. ويبدو أن هذا من عمل هاو. وذكر تقرير التليفزيون أنه تجرى عملية بحث شاملة وأن زملاء ناجي العلي يشيرون إلى أن اغتياله ما هو إلا نتيجة «للعداوات القوية» التي لم يحددوها والتي خلقها ناجي العلي.

وتذكر صوان حديثاً سابقاً مع مصطفى وأصبح أكثر يقيناً بأن ياسر عرفات هو

الذى أمر بإطلاق النار عليه. وتساءل فجأة عما إذا كان هو الشخص الوحيد الذى أسر إليه مصطفى بضرورة قتل ناجي العلي. وخلص صوان إلى أن الأفضل له ولزوجته السفر إلى تل أبيب لكن في اللحظة التي كانا يحزمان فيها أمتعتهما سمعا طرقاً على الباب يتذكر صوان شارحاً: «كان يقف بالباب رجل يحمل حقيبتين. وقال إن مصطفى يريد إخفاءهما بشكل ملح. وعندما قلت له إنني أريد أن أعرف ما بداخلهما اكتفى بالابتسام قائلاً لا تقلق. وتلفظ بكلمات «من لا يسأل أسئلة لا يتلقى إجابات كاذبة». وبعد ذهابه فتشت الحقيبتين. كانتا مليئتين بأسلحة ومتفجرات ومادة سيمتيكس تكفي لنسف برج لندن وبنادق أيه كي ـ ٤٧ ومسدسات ومتفجرات».

وأدار إسماعيل رقم الاتصال الخاص بالموساد في لندن ولم يكن الخط واصلاً. واتصل بالسفارة الإسرائيلية وأبلغ دائماً بأن أريبه ريجيف وجاكوب باراد ليسا موجودين. وطلب التحدث مع بشار سمارة، وطلب منه الشخص الجالس على الطرف الثاني من الخط الانتظار، وظهر صوت شخص جديد على الخط، وعندما أفصح عن اسمه رد الصوت «إن هذا وقت مناسب تماماً لقضاء عطلة تحت الشمس» كانت تلك الكلمات إشارة تعني توجه إسماعيل إلى تل أبيب.

وفي شيراتون التقى صوان جاكوب باراد وبشار سمارة وشرح ما عمله بعد اكتشاف حقيقة ما بالحقيبتين. وطلبا منه الانتظار حتى يبلغا رؤسائهما. وفي وقت لاحق من الليل عاد سمارة وأبلغ صوان بضرورة التوجه إلى لندن في الرحلة التالية. وعندما يصل سيجد أن كل شيء على ما يرام.

ولم يشك صوان فيما ينتظره؛ فحين توجه صوان إلى لندن في ٤ أغسطس ١٩٨٧. اعتقله ضباط الفرع المخصوص المسلحون في مطار هيثرو بتهمة قتل ناجي العلي وعندما احتج بأنه عميل للموساد ضحك الضباط. وهكذا ضُحي بصوان مثلما ضحي بناجي العلي الذى توفي متأثراً بإصابته بعد أسبوعين في المستشفى ظل خلالهما يتشبث بالحياة دون جدوى، وجاءت التضحية بصوان لاستعادة الثقة مع حكومة تاتشر وسوف يقضي وجود حقيبة الأسلحة والمتفجرات في شقته على أى محاولة يبذلها لإثبات أنه يعمل لحساب الموساد، فقد كان أحد مساعدى الموساد هو الذى جلب الأسلحة إلى شقة صوان.

وفى لندن سلم آربيه ريجيف لـ إم آى ٥ ملفاً بكافة «الأدلة» التى «جمعتها» الموساد عن «ضلوع صوان فى الإرهاب» وقامت إم آى ٥ بدورها بتسليم تلك الأدلة إلى اسكوتلانديارد. وتضمن الملف تفاصيل عن ملاحقة الموساد لصوان من الشرق الأوسط وأوربا حتى بريطانيا لكنها لم تستطع جمع الأدلة الكافية. لكن ومع اكتشاف حقيبة الأسلحة قررت الموساد «وباسم المصلحة الأمنية المشتركة» الإبلاغ عنه.

كان قرار تسليم صوان خير تذكار بقانون الموساد غير المكتوب عن الانتهازية. فقد أنفقت الموساد الكثير من الوقت والمال على تدريب ومساندة صوان فى الميدان لكن وعندما حان الوقت فإن هذا لا يساوى شيئاً إذا ما قورن بحاجة الموساد لستر مساراته الخاصة فى بريطانيا. وكان صوان هو الضحية الذى قدم لبريطانيا كمثال للإرهابيين الذين تحذر الموساد منهم على الدوام. وبالطبع ستكون هناك خسارة. فقد أبلى صوان بلاءً حسناً حتى وإن فشل فى تقديم ما طُلب منه. لكن حقيبة الأسلحة فرصة ذهبية نادرة لا يجوز إهدارها. فسوف تقوض علاقة منظمة التحرير الفلسطينية مع حكومة تاتشر وتسمح فى الوقت نفسه لإسرائيل بإظهار عرفات على أنه إرهابى بوجهين كما كانت الموساد لا تزال تعتقد. فضلاً عن هذا أنه سيكون هناك صوان آخر على الدوام مستعد للوقوع فى حبائل إغواء رجا ل إسرائيل الذين يجدون متعة فى خرق وعودهم.

وعلى مدى أسبوع كامل ظلت الموساد تعيش حالة استرخاء تام معتقدة بأن أى شيء سيقوله صوان لمستجوبيه سيقابل باللامبالاة.

لكن أدمونى لم يعول كثيراً عن محاولات صوان المستميتة للخروج من السجن، وأفاض فى الشرح لمحققى الفرع المخصوص عن تفاصيل وأوصاف ضباط الموساد الذين سيطروا عليه وكل ما تعلمه على يد الموساد. وشيئاً فشيئاً أدركت الشرطة البريطانية أن ما يقوله صوان يمكن أن يكون هو الحقيقة. واستدعى ضابط اتصال إم آى ٦ فى تل أبيب واستجوب صوان وكان كل ما قاله عن مقر الموساد وأساليبه تتفق مع ما يعرفه الضابط تمام الاتفاق.

وطُرد ريجيف وباراد وسمارة من بريطانيا؛ وأصدرت السفارة الإسرائيلية فى لندن بياناً يقسم بالتحدى «إننا نعرب عن أسفنا لأن ترى حكومة جلالة ملكة بريطانيا أنه من المناسب اتخاذ إجراءات من هذا القبيل. فإسرائيل لم تتصرف ضد المصالح

البريطانية. فالنضال ضد الإرهاب هو دافعها الأول والوحيد».

ولم ينقذ قول الحقيقة صوان من مصيره، ففي يونيو ١٩٨٦ صدر عليه حكم بالسجن لأحد عشر عاماً لحيازته أسلحة نارية لحساب منظمة إرهابية. وبعد خمسة أعوام من طرد ضباط الموساد الثلاثة بما يعني فعلياً إغلاق محطة الموساد فى بريطانيا عادت المخابرات الإسرائيلية مرة أخرى. فمع عام ١٩٩٨ قام خمسة من ضباط الموساد يعملون في السفارة الإسرائيلية فى كينسينجتون بالاتصال بإم آى ٥ والفرع المخصوص لتعقب الفصائل الإيرانية فى بريطانيا.

وقبل ثلاثة أعوام وفي ديسمبر ١٩٩٤ أفرج عن صوان من سجنه وأعيد إليه جواز سفره الأردني ورُحل إلى عمان. وكان آخر مرة شوهد فيها وهو يخرج من المطار حاملاً معه الحقيبة التى أعطتها له الموساد عندما سافر قبل سنوات إلى لندن لكن جيبها السرى قد أزيل.

ومن المملكة الصحرواية تابع العاصفة التى تتجمع لتعصف بالخليج، وقبلها كان التغيير فى قيادة الموساد. فقد انتهت أخيراً الثمانى سنوات التى أمضاها ناعوم أدمونى على قمة الموساد عشية رأس السنة اليهودية الجديدة «روشى هاناه». وجلس مكانه شبتاى شافيت الذى ورث سلسلة من الإخفاقات: قضية جوناثان بولارد وإيران جيت وبالطبع قضية جوازات السفر «الفضيحة» التى عثر عليها فى كابينة الهاتف بالمدينة الألمانية التى آذنت بانتهاء فترة ولاية أدمونى فى رئاسة الموساد. لكن وبالنسبة لخلفه كانت العاصفة تهب من وراء الأردن فقد قرر صدام حسين أن الوقت قد حان ليتحدى العالم.

واكتشفوا أن العراق لا يزال يملك كميات من ميكروب الجدري

والجمرة الخبيثة وفيروس الإيبولا ومخزونا من غاز الاعصاب يكفي ليس لقتل كل أطفال ونساء ورجال

إسرائيل فحسب بل أعداد ضخمة من سكان الكرة الأرضية قاطبة.



جواسيس على الرمال

في الثاني من ديسمبر ١٩٩٠ وإلى الجنوب من لبنان كان شخص يرتدى ثياباً بدوية رثة يرقد بلا حراك إلى الجنوب مباشرة من شفا أحد الأودية. كان الوقت فجراً وحبات الرمال باردة كما لو كانت حبات ثلج حيث الحرارة تهبط إلى درجة الصفر ليلاً. كانت رأس الرجل مغطاة «بالحطة»، وهي كوفية من صوف الغنم تميز رجال قبيلة سارامي أقدم الطوائف الصوفية الإسلامية التي تجوب الصحراء العراقية الشاسعة، لا يبرر تعصبهم سوى كلمة شرف لا تسايرهم فيها القبائل الأخرى. لكن ولاء هذا الرجل كان يقع على بعد ستمائة ميل إلى الغرب في إسرائيل فلم يكن سوى ضابط موساد.

وحصل الرجل على ملابسه من مخزن للموساد حيث يتم الاحتفاظ بملابس من مختلف أنحاء العالم ويجرى تحديثها باستمرار. وحصل مساعدو الموساد على معظم تلك الملابس وسلموها إلى السفارات الإسرائيلية التي أرسلتها إلى تل أبيب في الحقائب الدبلوماسية واشترى زوار موالون لإسرائيل ملابس أخرى من الدول العربية المعادية وقليل منها من تفصيل المشرفة على خزانة الثياب التي ترأس المخزن أيضاً. وعلى مدى سنوات استطاعت هي وفريقها الصغير من عاملات الحياكة أن تحقق شهرة

كبيرة بالاهتمام بأدق التفاصيل بل وحتى استخدام حياكة القطن لإدخال التعديلات والإصلاحات.

كان الاسم الكودى لضابط الموساد - شالوم - مستمداً من قائمة الأسماء المستعارة التى يحتفظ بها فى إدارة العمليات؛ وأدخل رافى إيتان تلك القائمة بعد عملية إيخمان، كان شالوم فايس واحداً من أفضل خبراء التزوير فى الموساد قبل أن ينضم إلى فريق المساعدة فى اعتقال أودلف إيخمان. وتوفى فايس متأثراً بالسرطان عام ١٩٦٣ لكن اسمه عاش من بعده واستخدمه ضباط الموساد فى بعض المناسبات، كان عدد قليل للغاية من كبار ضباط الجيش الإسرائيلى شبتاى شافيت ورئيس القسم الذى يعمل فيه شالوم يعرفون سبب وجوده فى الصحراء.

كان صدام حسين قد غزا الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ مما أدى إلى اشتعال حرب الخليج فى النهاية. وكان الغزو العراقى للكويت يمثل فشلاً ذريعاً لكافة أجهزة المخابرات الغربية؛ فلم يتوقع جهاز مخابرات واحد ما حدث، وحاولت الموساد التأكد من حقيقة التقارير التى تشير إلى أن صدام قام بالفعل بتخزين أسلحة كيماوية فى مواقع سرية جنوب بغداد مما يجعل تلك الأسلحة ليس فى مرمى مدينة الكويت

فحسب بل المدن الإسرائيلية أيضاً.

وداخل الموساد ثارت الشكوك حول ما إذا كان العراق يمتلك الصواريخ التى يمكنها إطلاق تلك الرءوس الحربية الكيماوية. كان جيرالد بول قد أُزيح من الساحة وأصبح مدفعه العملاق فى خبر كان حسبما تشير أقمار التجسس الأمريكية، وأشارت تقديرات شافيت إلى أنه حتى إذا كان صدام يملك بالفعل تلك الرءوس الحربية فليس هناك يقين بأنها زودت بالفعل بالسلاح الكيماوى؛ فقد سبق أن استعرض عضلاته من قبل.

وقال شافيت متوخياً الحذر الذى يظهره أى رجل جديد فى مهمته عما أُبلغ له: إن دق ناقوس الإنذار يمكن فقط أن يثير هلعاً لا مبرر له. وكُلف شالوم بالمهمة لمعرفة الحقيقة وقد سبق أن قام بعمليات سابقة فى العراق حيث يتنكر بمجرد وصوله إلى بغداد فى صورة رجل أعمال أردني. وفي بغداد كان يقدم له مساعد للموساد يد العون. لكن هنا وفي هذه الصحراء الشاسعة القفر فعليه الاعتماد على قدراته وعلى المهارات التى اختبرها مدربوه أكثر من مرة.

واجتاز شالوم اختبارات النجاة في صحراء النقب ممارساً «تدريبات الذاكرة» فى كيفية التعرف على الأهداف وتحديدها حتى فى حالة هبوب عاصفة رملية وعلى «الحماية الذاتية» أى التآلف والتكيف مع ما يحيط به. ودأب على ارتداء ملابسه ليل نهار لتظهر على أنها ملابس مستخدمة، وأمضى يوماً كاملاً فى ميدان الرماية مظهراً مهارة فائقة فى دقة إطلاق النار واصطياد الأهداف السريعة فى القتال المتلاحم. وأمضى ساعات مع صيدلى يعلمه متى يستخدم أدوية الطوارئ فى الصحراء، وقضى صباح أحد الأيام ليستظهر عن ظهر قلب الخرائط التى ستقوده عبر الرمال.

وبالنسبة لكل مدربيه كان تقييمه يتم بالأرقام فقط. فلم يؤنبوه أو يشيدوا به على الإطلاق. ولم يقدموا له أى معلومات عن كيفية أدائه بل كانوا مثل الإنسان الآلى. وكان جانب من التدريب اليومى لقياس قدرته البدنية على التحمل يشمل سيراً إجبارياً تحت شمس الظهر الحارقة حاملاً حقيبة ظهر مليئة بالحجارة. كان يؤدى اختباراته فى المواعيد المقرر لها لكن أحداً لم يبلغه على الإطلاق بما إذا كان قد أنجزها فى وقتها المحدد. وكان ثمة اختبار آخر يتعرض له باستدعائه من تدريب جار ليجيب

على أسئلة مثل هب أن طفلة بدوية شاهدتك هل تقتلها أم تواصل مهمتك؟ إنك على وشك الوقوع في الأسر هل تستسلم أم تقتل نفسك؟ هب أنك صادفت جندياً إسرائيلياً جريحاً كان يقوم بمهمة أخرى هل تسعفه أم تتركه وأنت على يقين بأنه سيموت؟ لم يكن القصد من إجابات شالوم أن تكون قاطعة وجازمة بل الهدف منها قياس قدرته على اتخاذ قرارات تحت ضغوط صعبة. وما هو الوقت الذى سيستغرقه فى الإجابة؟ وهل يرتبك أم أنه يجب بثقة؟

لم يكن يتناول سوى ما يقيم أوده من طعام فى الصحراء أى مركزات غذائية بمزجها بالماءالمالح الذى يتوقع أن يجده فى عيون الماء بالصحراء. وتلقى دروساً لا يحضرها سواه، كما كان طبيب فى الموساد يعلمه كيفية التعامل مع الضغوط والإجهاد وكيفية الاسترخاء، كان الطبيب يريد أيضاً التأكد من أن شالوم لا يزال يفكر فى نفسه حتى يمكنه الوقوف على مدى دهائه وحيلته فى التصرف فى المواقف المفاجئة التى سيتعرض لها فى الميدان. وأثبتت اختبارات الذكاء أنه يتمتع باستقرار نفسى وعاطفى وثقة بالنفس. وجرى تقييمه أيضاً لمعرفة ما إذا كانت قد ظهرت عليه مؤشرات توحش أو (ذئب وحيد) وهى سمة مقلقة أنهت الحياة المهنية لضباط آخرين كان ينتظرهم مستقبل مبشر بالموساد، وكم جلس مدرس لهجات معه لساعات يصغى إليه وهو يكرر لهجات الصوفية، ولإجادته الفارسية والعربية سرعان ما أجاد شالوم لهجات رجال القبائل. وفى كل ليلة كان ينقل إلى مكان مختلف فى صحراء النقب لينام فيه. وكان يحفر حفرة فى الأرض لينام فيها لفترة قصيرة لا تعدو أن تكون مجرد غفوة ثم ما يلبث أن ينتقل لمكان آخر حتى يتمكن من الفرار من ملاحقة مدربيه له. فاكتشافهم له وعثورهم عليه كفيل إما بتأجيل مهمته لتلقى مزيد من التدريب أو تكليف ضابط آخر بالمهمة.

واستطاع شالوم دوماً الفرار من رصد المدربين. وفى مساء الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٩٠ استقل طائرة هليوكبتر سى إتش - ٥٣٦ سيكورسكى تابعة لقيادة المنطقة المركزية بالجيش الإسرائيلى.

وتلقى طاقم الطائرة الهليوكبتر تدريباً منفصلاً على المهمة. ففى منطقة أخرى فى قاعدة النقب تدربوا على التحليق على ارتفاعات منخفضة فى الظلام فى ظل وجود

رادار . كانت التوربينات تضخ الرمال على الطائرة حتى يستطيع طاقمها تحسين أساليب الطيران فى التيارات الجوية غير المستقرة فى صحراء العراق، وكان الطيار يحلّق باستمرار على ارتفاع منخفض قريباً من الأرض قدر الإمكان دون الارتطام بها . وفى تدريب آخر اعتلى المدربون قواعد الهبوط يطلقون النار على أهداف مظللة بينما قائد الطائرة يحتفظ بالطائرة محلقة . وبين هذا وذاك كان الطاقم يدرس طريق الرحلة .

كان قائدهم الميجور جنرال داني ياتوم هو وحده فقط الذى يعرف الطريق الذى ستسلكه الطائرة إلى حدود العراق، كان ياتوم عضواً فى وحدة الكوماندوز سايربت ماتكال (القوات الخاصة) ذوى البيريهات الخضر فى إسرائيل التى اقتحمت بنجاح طائرة بلجيكية مختطفة فى تل أبيب عام ١٩٧٢ . ومن بين الكوماندوز الآخرين الذين شاركوا فى العملية بنيامين نتانياهو . وبفضل الصداقة مع رئيس وزراء إسرائيل نتانياهو وصل ياتوم إلى رئاسة الموساد وبفضل هذا المنصب أيضاً ستنتهى علاقة ياتوم بنتانياهو .

فى ذلك الصباح من ديسمبر الذى واصل فيه شالوم التحديق فى شفا الوادى لم يساوره أى شك فى أن رحلته الطويلة بالغة الخطورة التى أوجدته فى عمق أراضى العدو قد تقررت فى قاعة المؤتمرات فى كيريا مقر قيادة الجيش الإسرائيلى فى تل أبيب . وشارك فى الاجتماع إلى جانب ياتوم كل من عمنون ليبكين شاحاك رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية (آمان) وشبتاى شافيت. واجتمعوا لدراسة معلومات جلبها عميل اخترق أعماق شبكة إرهابية إيرانية فى أوربا . كان هذا الشخص - شافيت وحده هو الذى يعرف إذا كان العميل رجلاً أم امرأة - يُعْرَف فقط بحرف (آى) وكل ما استنتجه شاحاك وياتوم بالقطع هو أن هذا العميل لابد وأنه يصل إلى المجمع المحصن فى الدور الثالث بالسفارة الإيرانية فى بون بألمانيا .

ويضم هذا المجمع ستة مكاتب وغرفة اتصالات . والمنطقة بأسرها محصنة للصمود أمام أى انفجار بالقنابل كما يحرسها عشرون من رجال الحرس الثورى مهمتهم أيضاً تنسيق العمليات الإرهابية فى أوربا الغربية . وقد حاولوا مؤخراً شحن طن من مادة السيمتيكس ومفجرات إليكترونية من لبنان إلى إسبانيا . كان الهدف تزويد المنظمات الإرهابية الموالية لإيران فى الدول الأوربية بالمتفجرات . لكن تحذيراً من

الموساد كان كافياً لأن يعتلى مسئولو الجمارك الإسبان السفينة أثناء إبحارها فى المياه الإقليمية الإسبانية.

ومع صيف ١٩٩٠ كانت إيران تضخ عبر سفارتها فى بون أموالاً ضخمة لزيادة نفوذ الأصولية الإسلامية والإرهاب فى أوربا. كانت تلك الأموال أكثر المؤشرات المفاجئة دلالة على المصاعب الاقتصادية التى تعيشها إيران بعد حرب الثمانى سنوات مع العراق التى انتهت بوقف إطلاق النار عام ١٩٨٨.

لكن وفى ذلك اليوم من أيام نوفمبر وفى قاعة المؤتمرات الخاضعة لحراسة مشددة فى كيريا (مقر قيادة الجيش الإسرائيلى) لم يكن التهديد الذى اكتشف العميل المزدوج أن إيران تمثله أمراً جديداً. بل كانت المفاجأة إنه العراق؛ فقد حصل (آى) على نسخة لخطة حربية عراقية مفصلة سرقتها المخابرات الإيرانية من مقر القيادة العسكرية العراقية فى بغداد تحدد كيفية استخدام صواريخ سكود لإطلاق أسلحة كيماوية وبيولوجية ضد إيران والكويت وإسرائيل.

وسيطر سؤال واحد على عقل كل شخص من الموجودين فى قاعة الاجتماعات: هل يمكن أن تكون تلك المعلومات موثوقاً بها؟ وقد أثبت (آى) صدق كافة المعلومات التى قدمها فى السابق، لكن رغم أهمية المعلومات إلا أنها ضعيفة أمام ما يقدمه (آى) الآن. فهل تكون الخطة القتالية جزءاً من مؤامرة حاكتها المخابرات الإيرانية لدفع إسرائيل لشن هجوم وقائى على العراق؟ وهل اكتُشف (آى) وأصبحت إيران تستخدمه لحسابها؟

إن محاولة الإجابة على السؤال محفوفة هى الأخرى بالمخاطر؟ وسيستغرق الأمر وقتاً لتكليف ضابط موساد بالاتصال بـ(آى). وربما تمضى أسابيع قبل أن يتسنى هذا؛ فإحضار عميل ممعن فى التخفى عملية فى غاية الدقة والبطء. وإذا أثبت (آى) أنه لا يزال موالياً فإن أمنه لا يزال كذلك معرضاً للخطر. وبالتالى فإن عواقب التسرف بناءً على وثيقة عراقية دون التحقق منها يمكن أن تنطوى على كارثة لإسرائيل. فسوف يؤدى أى هجوم وقائى إلى رد عراقى مما قد يدمر التحالف الذى تقوم واشنطن ببنائه لطرد صدام حسين من الكويت. ومن المرجح أن يؤيد الكثير من الأعضاء العرب التحالف مع العراق ضد إسرائيل.

والطريق الوحيد لمعرفة مدى حقيقة خطة القتال المسروقة هى إيفاد شالوم إلى العراق. وتسللت طائرة الهليوكبتر بسرعة خاطفة فوق الصحراء مخترقة قطاعات فى أجواء الأردن في عتمة الليل. وحتى الرادارات الأردنية المتقدمة لم ترصد طائرة الهليوكبتر التى طليت بلون الشبح وكتم صوت ضجيج محركها. وحلقت في صمت لدرجة أن مراوحها لا تكاد تصدر أى صوت حتى وصلت الطائرة إلى نقطة إلقائه على الحدود العراقية.

وابتلعه جوف الليل، ورغم كل ما تلقاه من تدريب فلم يكن شيء معداً جيداً لهذه اللحظة؛ فقد كان يعتمد على نفسه، وللحفاظ على حياته يتعين عليه احترام ما يحيط به، فالصحراء ليست مثل أى مكان آخر في العالم في مفاجآتها. فيمكن أن تهب عاصفة رملية في لحظات وتغير وجه الأرض وتدفنه حياً بين جنباتها. أما السماء فقد يوحى شكلها بمعانٍ شتى متباينة. وسيتعين عليه الآن أن يتعلم القيام بتنبؤاته الجوية وعليه أن يفعل كل شيء بنفسه وأن يعلّم نفسه التآلف مع الصمت وأن يعى تماماً أن صمت الصحراء لا يشبهه شيء آخر. وعليه أيضاً أن يعى دائماً أن خطأه الأول قد يكون الأخير.

وبعد ثلاثة أيام من إسقاطه بواسطة الهليوكبتر فجر تلك الليلة الشتوية الباردة كان شالوم ملقى خائر القوى فى الوادى العراقى. وفى كوفيته احتفظ بنظارة لحماية النظر كانت عدساتها تنعكس في الطبيعة الصحراوية فى الليل المظلم بلون الغسق. وكان السلاح الوحيد الذى يحمله شالوم هو السلاح الذى يمكن توقع وجوده مع رجل سارامى: أى خنجر صيد. وتعلم أن يقتل به بأكثر من طريقة. وفيما يتعلق بإمكانية استخدامه فى مواجهة قوة أكثر منه تفوقاً فإنه لا يدرى أكثر من أنه قد يستخدمه ضد نفسه. أو ببساطة شديدة يُقدم على الانتحار بالقرص القاتل الذى يحمله معه. ومنذ تعذيب إيلى كوهين وموته فقد رخص لضابط الموساد الذى يعمل فى إيران والعراق واليمن وسوريا قتل نفسه بدلاً من الوقوع فى أيدى مستجوبيه البرابرة. وفى الوقت نفسه واصل شالوم الانتظار والترقب.

كان رجال القبائل فى خيامهم على بعد نصف ميل وراء الوادى قد بدأوا فى أداء صلاة الفجر والرياح تحمل صوت نباح كلابهم لكن حيواناتهم لن تغامر بترك

الخيمات قبل أن تلوح الشمس في الأفق، كانت أنماط السلوك أحد الدروس الأولى التي تعلمها شالوم للنجاة في الصحراء.

ووفقاً للمعلومات التى أعطيت له فلابد وأن تمر القافلة ما بين الخيم والتلال الواقعة على يساره وللعين غير الخبيرة يبدو الطريق الذى تسلكه القافلة غير مرئى أما بالنسبة لشالوم فقد كان واضحاً وضوح الشمس فأثار حوافر البغال علي الرمال ظاهرة على آثار المركبة، كانت الشمس قد ارتفعت عندما لاحت القافلة أخيراً؛ وهاهى منصة إطلاق صواريخ سكود ومركبة الدعم. كانت القافلة تبعد نصف ميل عندما توقفت وبدأ شالوم فى التصوير ولم يمر شيء آخر سوى الوقت.

واستغرق الأمر من الطاقم العراقى خمس عشرة دقيقة لإطلاق الصاروخ. وارتفع الصاروخ على شكل قوس ثم تلاشى فى الأفق وبعد دقائق تحركت القافلة بسرعة بالغة تجاه التلال. ولابد وأن هذا الصاروخ كان سيصيب تل أبيب أو أى مدينة إسرائيلية أخرى فى غضون دقائق لو لم يكن تجربة على إطلاق الصاروخ، وما لبث شالوم أن بدأ رحلة العودة الطويلة إلى إسرائيل.

وبعد ستة أسابيع وفى ١٢ يناير ١٩٩١ كان شالوم أحد أفراد فريق مشترك من الموساد والمخابرات العسكرية الإسرائيلية يجلس حول مائدة بمقر القيادة المشتركة للعمليات الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية (جى إس أو سى) ويسميها العاملون فيها (جاى سوك) فى قاعدة البابا الجوية بجورجيا وتتولى قيادة العمليات الخاصة المشتركة قيادة وحدات ذوى الباريهات الخضر (S.E.A.L) وتحتفظ بعلاقة عمل وثيقة مع الموساد.

وبعد عودة شالوم من العراق أبلغ شافيت الجنرال إيرل ستيتنر قائد العمليات بقيادة العمليات الخاصة المشتركة أن صدام حسين يفعل ما هو أكثر من الاستعراض. كان الجنرال المقدام شخصية ودودة بسيطة لاذع اللسان، وهى صفات يعجب بها الإسرائيليون، لكن وفى غرفة الحرب سرعان ما تفسح تلك الصفات الطريق أمام القرارات الثاقبة. وبصفته أعلى قائد للكوماندوز فى البلاد فإنه يقدر تماماً قيمة المعلومة كما علمته خبرته فى الشرق الأوسط أن الموساد هى أفضل من يقدمها.

ومنذ غزو صدام للكويت داوم ستيتنر على اتصالاته الدورية مع الإسرائيليين.

وتعـود بعض تلك الاتصـالات إلى عـام ١٩٨٣ عندمـا أوفـدته وزارة الدفـاع سـراً إلى بيـروت وهو مرقى حديثاً لرتبـة ميجور جنرال ليعد تقارير مـباشـرة إلى هيئة الأركـان العامة المشتركة توضح إلى أى مدى يجب على الولايات المتحدة أن تتدخل فى الحرب اللبنانية .

ولاحقاً عـمل مع الموسـاد عن كثب أثناء اختطاف السـفينة أكيلى لاورو وهبط بكومـاندوز قوات دلتا بقاعدة جوية إيطالية فى صـقلية حيث توقفت طائرة الخاطفين هناك بعد خروجهم من مصر . ومنعت القوات الإيطالية قوات ستيتنر من أسر الخاطفين وأوشك الأمر على حدوث تبادل لإطلاق النار . وقام ستيتنر بمطاردة ساخنة بطائرته النقل العسكرية لطائرة الخاطفين ولم يتوقف إلا عندما دخلت الطائرتان المجال الجوى لروما وهدد ضباط المراقبة الجوية بإسقاط طائرة دلتا بتهمة «القرصنة الجوية» . وفى عام ١٩٨٩ تولى ستيتنر قيادة قوات الغزو البرية لبنما وتولى مسئولية اعتقال الجنرال مانويل نوريجا بسرعة .

ولم يكن يعلم بأمر علاقة ستيتنر بالموساد سوى الجنرال كولين باول رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية والجنرال نورمان شوارتسكوف . وأثناء قيام شوارتسكوف بإقامة خط دفاعى على الحدود مع السعودية للتعامل مع أى هجوم تشنه القوات العراقية انطلاقاً من الكويت ، كان ضباط استطلاع ستيتنر يعملون عن كثب مع رجال الموساد لتشكيل حركة مقاومة داخل العراق للإطاحة بصدام حسين .

وعندما دعا الميجور جنرال واين داونج قائد قيادة العمليات الخاصة المشتركة لعقد الاجتماع فى قاعة المؤتمرات كان الجميع يدرك أنه مع مرور الساعات نحو المهلة التى حددتها الأمم المتحدة للحرب الثلاثاء ١٥ يناير ١٩٩١ كان العالم يجرى حواراً مع صم فى بغداد ، وواصل صدام التهليل لما أسماه «أم المعارك» .

وبدأ داونج بتذكير الحضور بأن واشنطن لا تزال تطلب من إسرائيل أن تظل خارج الحرب وفى المقابل ستجنى منافع وفوائد سياسية واقتصادية طويلة المدى لالتزامها .

وكان الرد الفورى هو إظهار مجموعة مكبرة للصور التي التقطها شالوم لإطلاق صاروخ سكود فى العراق . ثم ثارت أسئلتهم ماذا لو زود صدام الصاروخ برأس نووية ؟ كانت الموساد تعرف تماماً أن العراق بنى بالفعل المنشآت اللازمة لإنتاج الشحنات

البدائية. كما أن لديه القدرة علي تزويد سكود برءوس كيماوية وبيولوچية. فهل يفترض أن تنتظر إسرائيل ليحدث هذا؟ ثم ما خطة التحالف للتعامل مع صواريخ سكود قبل إطلاقها؟ وهل لدى الأمريكيين أى فكرة عن عدد الصواريخ التى يملكها صدام؟

ورد أحد ضباط استطلاع داوننج أنها خمسون صاروخاً على «أفضل تقدير». لكن شبتاى شافيت رد «بأننا نعتقد أن صدام يملك خمسة أمثال هذا الرقم بل وربما خمسمائة صاروخ إجمالاً».

وقطع الجنرال داوننج الصمت المذهل الذى ران على القاعة بطرح سؤاله عن إمكانية تحديد مواقعها؟ ولم يجد شافيت ما يقوله بشكل دقيق سوى الإشارة إلى أنها منصوبة إما فى صحراء غرب العراق أو فى شرق العراق. واتفق الأمريكيون مع رأى داوننج «بأن لدى صدام صحراء شاسعة يمكنه إخفاء الصواريخ فيها».

وقال شافيت غير مبال بإخفاء إحباطه «حينئذ كلما أسرعت فى البدء كان أفضل».

ووعد داوننج بدراسة مستفيضة وشاملة، ثم فض الاجتماع بتكرار التذكير بضرورة الابتعاد عندما تندلع الحرب مع الترحيب في الوقت نفسه بكل ما يمكن أن تجمعه الموساد وأمان. فضلاً عن هذا عليهم الاطمئنان بأن الولايات المتحدة وحلفاءها سوف يتعاملون مع صواريخ سكود. وعاد الفريق الإسرائيلى إلى تل أبيب وقد شعر بأنه حصل على الجانب الأسوأ فى الصفقة.

وبعيد الساعة الثالثة فجر ١٧ يناير ١٩٩١ وفور بدء عملية عاصفة الصحراء سقطت سبعة صواريخ سكود على تل أبيب وحيفا ودمرت (١٥٨٧) منزلاً فضلاً عن إصابة (٤٧) مدنياً بجراح.

وفي وقت لاحق فى ذلك الصباح سأل إسحاق شامير رئيس وزراء إسرائيل عبر الخط الساخن مع واشنطن عن عدد الإسرائيليين الذين يتعين أن يقضوا نحبهم قبل أن يتخذ الرئيس بوش إجراءً؟ وانتهت المكالمة القصيرة بمناشدة من بوش لشامير بضبط النفس. وبإنذار من شامير بأن إسرائيل لن تقف على الهامش طويلاً.

كان شامير قد أصدر أوامره بالفعل بقيام الطائرات الإسرائيلية بمهام الدورية فى

شمال العراق لكن بوش وعد على الفور بأنه إذا تم استدعاء الطائرات الإسرائيلية فسوف يرسل بطاريتي صواريخ باترويت «بأسرع ما يمكن إلى إسرائيل» لتعزيز الدفاع عن المدن الإسرائيلية وأن التحالف «سيدمر ما بقى من صواريخ سكود خلال أيام».

واستمرت الصواريخ في الانهمار على إسرائيل. وفي ٢٢ يناير سقط صاروخ على ضاحية رامات جان بتل أبيب. وأصيب (٩٦) مدنيا بعضهم في حالة خطيرة وتوفى ثلاثة متأثرين بنوبات قلبية. ووصلت أصوات الانفجارات إلى مقر الموساد. وفي كيريا اتصل أمنون بيبكين شاحاك على الرقم المباشر لمركز القيادة العسكرية الوطنية بالدور الثاني بوزارة الدفاع الأمريكية، كانت مكالمته أقصر من مكالمة شامير: «افعلوا شيئاً وإلا فسوف تفعله إسرائيل».

وبعد ساعات كان داونج وقواته الخاصة في الطريق إلى العربية السعودية. وكان شالوم في انتظارهم في بلدة عزعر الحدودية الصغيرة. كان شالوم يرتدى زى الجيش البريطاني المموه ولم يشرح مطلقاً ولم يسأله أحد كيف وصل إليهم. كانت الأنباء التي يحملها صاعقة. إنه يؤكد أن هناك أربع منصات لإطلاق صواريخ سكود على بعدأقل من ثلاثين دقيقة بالطائرة.

وقال دوانج «فلنذهب نحو الهدف» ونقلت طائرات الشينوك الهليوكبتر تجهيزاتها التي تستطيع الهبوط في الأراضي القاحلة التي تشبه تضاريس القمر الفريق إلى الصحراء العراقية. وخلال ساعة استطاعوا رصد منصات إطلاق الصواريخ، وعبر لاسلكي مؤمن استدعى قائد الكوماندوز القاذفات المقاتلة الأمريكية المسلحة بالذخيرة العنقودية والقنابل زنة ألف رطل. وصورت طائرة من طراز بلاك هوك حلقت بالمنطقة الغارة على المنصات.

وبعد ساعات كان شامير يشاهد نسخة من شريط الفيديو بمكتبه في تل أبيب. وفي مكالمة هاتفية لاحقة مع بوش اعترف رئيس الوزراء الإسرائيلي بأنه شاهد ما يكفي لإبقاء إسرائيل بعيداً عن الحرب ولم يتطرق أى منهما بالذكر للدور الذى قامت به الموساد.

وفي الأيام الباقية لحرب الخليج قتلت صواريخ سكود أو أصابت نحو خمسمائة شخص من بينهم (١٢٨) أمريكياً قتلوا أو أصيبوا نتيجة سقوط صواريخ سكود على

العربية السعودية كما تشرد أكثر من أربعة آلاف إسرائيلي.

وعقب حرب الخليج تعرضت الموساد وأمان لهجوم ضار في الجلسات السرية للجنة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيست. وأُشبِعَ الجهازان انتقادات لفشلهما في توقع حدوث الغزو العراقي للكويت أو تقديم «تحذير كاف» عن التهديد العراقي. وأشار الحديث الذي تسرب من غرفة الاجتماعات إلى مباراة في الإهانات والشتائم بين عمنون ليبكين شاحاك رئيس المخابرات العسكرية أمان وشبتاي شافيت وأعضاء اللجنة. وبعد أحداث تلك المصادمات أوشك شافيت على الاستقالة لكن شافت لم يكن خسر كل شيء.

فقد شحذت إدارة الحرب النفسية بالموساد التي عادة ما تستدعي لتشويه وتلطيخ صورة أعداء إسرائيل بالاستعانة بالصحفيين الأجانب قدراتها مع وسائل الإعلام المحلية هذه المرة. وجرى استدعاء الصحفيين المفضلين وأُبلغوا بأن القضية ليست قدرة المعلومات الاستخباراتية بل هي أن الرأي العام لإسرائيل بات معتاداً على التدليل في اختياراته وتمادى في ذلك في هذه المنطقة.

وخرجت حقائق مماثلة عن إدارة الحرب النفسية بالموساد مثل أنه ما من بلد آخر في مساحة وعدد سكان إسرائيل يقوم بتحليل واستخدام المعلومات الاستخبارية كما تفعل إسرائيل ولا يمكن لجهاز مخابرات آخر أن يجاري الموساد في تفهم ومعرفة عقلية ونوايا خصوم أعداء البلاد أويضاهي سجل الموساد في إحباط خطط الذين نكبت بهم إسرائيل لنحو خمسين عاماً. كانت مادة ملونة ووجدت مساحة جاهزة في وسائل إعلام تبدى الامتنان لإمدادها بمعلومات «من مصادر مطلعة».

ونشرت سلسلة مقالات تذكر القراء بأنه رغم التحصينات الدفاعية التي أجريت قبيل حرب الخليج فقد استمرت معارك الموساد في لبنان والأردن وسوريا والعراق. واستطاع القراء قراءة ما بين السطور: أن حركة الموساد تتعرض للعرقلة لأن السياسيين أساءوا التعامل مع الميزانية الدفاعية. كانت حيلة مألوفة ودائماً ما تؤتي ثمارها. وبالنسبة لشعب لا يزال يتعافى من آثار هجمات صواريخ سكود فإن التعلل بنقص التمويل يحوِّل مصدر الانتقاد الموجه للموساد إلى السياسيين. وسرعان ما توفرت الأموال. وأسرعت إسرائيل التي ظلت تعتمد لوقت طويل على بيانات أقمار التجسس

الأمريكية بتنفيذ برنامج أقمارها الصناعية للتجسس. وكانت الأولوية الأولى هي إطلاق قمر صناعي عسكرى لرصد العراق تحديداً. وبدأ إنتاج الصاروخ الجديد المضاد للصواريخ «حيتس» على نطاق تجارى وطُلب عدد من بطاريات صواريخ باتريوت من الولايات المتحدة.

ووضخت لجنة الكنيست وتوارت أمام الشعبية الطاغية المؤيدة للموساد وخرج شافيت منتصراً وشرع فى إعادة تأكيد مركز الموساد. وصدرت الأوامر لضباط الموساد العاملين فى العمق العراقى بضرورة اكتشاف إلى أى حد نجت ترسانة العراق الكيماوية والبيولوچية من قصف الحلفاء.

واكتشفوا أن العراق لا يزال يملك كميات من ميكروب الجدرى والجمرة الخبيثة وفيروس الإيبولا ومخزوناً من غاز الأعصاب يكفى ليس لقتل كل أطفال ونساء ورجال إسرائيل فحسب بل أعداد ضخمة من سكان الكرة الأرضية قاطبة.

وكانت القضية التى تواجه شافيت هى أن رؤساء أجهزة المخابرات الأخرى والسياسيين الإسرائيليين بصدد اتخاذ قرارات حول إباحة نشر المعلومات الاستخبارية المتعلقة بالترسانة العراقية من أو منع نشر هذه المعلومات؟ وإذا أبيح النشر فسيؤدى هذا إلى إشاعة الخوف والهلع فى إسرائيل ويمكن أن يثير آثاراً سلبية واسعة النطاق. فقد دمرت حرب الخليج بالفعل صناعة السياحة فى إسرائيل وكان الاقتصاد الإسرائيلى على وشك الانهيار وتباطأت الاستثمارات الأجنبية. فكشف أن إسرائيل لا تزال فى مدى الأسلحة القاتلة لن يجذب السياح أو الأموال.

فضلاً عن هذا فإن انفضاض تحالف حرب الخليج الذى خاض أعضاؤه العرب الحرب على مضض ضد دولة شقيقة أدى إلى تزايد التعاطف مع محنة العراقيين. وكانت الأدلة الأ[illegible]برت عن حجم الدمار الشامل فى العراق نتيجة قصف قوات التحالف للعراق واستمرار معاناة المدنيين الأبرياء قد أيقظ المشاعر القوية فى الشرق الأوسط وجدد العداء العربى الإسرائيلى. وإذا ما نشرت تل أبيب تفاصيل الترسانة البيولوچية والكيماوية العراقية التى لا تزال سليمة فسوف تنظر الدول الغربية الموالية للعرب إلى هذا الأمر على أنه محاولة لتحريض بريطانيا والولايات المتحدة لشن هجمات جديدة على العراق.

وتأثرت قضية نشر المعلومات المتعلقة بترسانة صدام حسين أيضاً بالمباحثات التي رتبت في سرية مطلقة لإنهاء حالة العداء بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وبحلول عام ١٩٩٢ انتقلت تلك المباحثات إلى النرويج وكانت تسير على ما يرام وسيستغرق الأمر عاماً كاملاً للتوصل إلى اتفاق أعلن ووقع عليه في أكتوبر ١٩٩٣(*) عندما تصافح عرفات مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين بحديقة البيت الأبيض وسط ابتسام الرئيس كلينتون وكان الأمر بالنسبة لكليهما نصراً دبلوماسياً.

ومع هذا فلم يراود الجميع في الموساد الأمل في أن صيغة (الأرض) مقابل (السلام) أي وطن للفلسطينيين مقابل عدم شن عمليات ضد الإسرائيليين سوف تؤتي ثمارها؛ فالأصولية الإسلامية قائمة، كما أن جيران إسرائيل الأردن ومصر وسوريا، منكوبون بقوى التطرف الإيراني. وبالنسبة لملالي إيران فلا تزال إسرائيل دولة منبوذة. وفي داخل الموساد وبالنسبة للكثير من الإسرائيليين أيضاً فإن احتمال إقامة سلام دائم مع منظمة التحرير الفلسطينية ظل حلماً غير واقعي فإسرائيل الصهيونية غير معنية إلى حد كبير بالتعايش مع جيرانها العرب؛ فكل ما يتعلق بديانتهم وثقافتهم يراه الصهاينة جحيماً لمعتقداتهم وتاريخهم؛ فلا يمكنهم قبول أن اتفاقات أوسلو ضمنت مستقبل أرض الميعاد وأن هذين العنصرين سيعيشان معاً - إن لم يكن في سعادة دائمة - فعلى الأقل باحترام كل منهما للآخر.

وقيم شافيت كل هذا بعناية فائقة وهو يدرس مسألة ما إذا كان يتعين السماح بنشر المعلومات المتعلقة بترسانة العراق من أم لا، وفي النهاية قرر الإبقاء على المعلومات طي الكتمان حتى لا يعكر صفو موجة التفاؤل المنتشرة خارج إسرائيل والتي تلت التوقيع على اتفاق أوسلو في واشنطن. وفضلاً عن هذا فإذا سارت الأمور على ما يرام فإن المعلومات الخاصة بمخزون العراق من أسلحة الدمار الشامل يمكن نشرها في أي وقت. كان إظهار صورة صدام قاسي القلب في صورة عملاء له يضعون علبة مليئة بميكروب الجمرة الخبيثة في مترو أنفاق نيويورك أو إرهابي ينشر فيروس الإيبولا في تكييف

(*) جرى توقيع الاتفاق يوم الاثنين ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ (الترجمة).

الهواء بطائرة بوينج ٧٤٧ بكامل حمولتها ليتحول كل راكب إلى قنبلة بيولوچية موقوتة يمكن أن ينقل الفيروس لآلاف الأشخاص قبل اكتشاف الحقيقة، سيناريوهات متقنة أعدها خبراء الحرب النفسية في الموساد لاستخدامها عند الحاجة لتعبئة الرأى العام ضد العراق.

وثم حادثان آخران أخفت الموساد حقيقتهما كانا يمكن أن يلحقا ضرراً بالغاً بالولايات المتحدة. ففى مساء أحد أيام ديسمبر ١٩٨٨ انفجرت طائرة بان أمريكان رحلة ١٠٣ التى كانت في طريقها من لندن إلى نيويورك فوق بلدة لوكيربى الاسكتلندية. وخلال ساعات بدأ العاملون فى إدارة الحرب النفسية بالموساد في إجراء اتصالات هاتفية بوسائل الإعلام يلحون فى نشر تقارير تفيد بأن هناك «دليلاً دامغاً» على تورط ليبيا من خلال مخابراتها فى تفجير الطائرة. (وتلقى مؤلف هذا الكتاب مكالمة هاتفية بهذا الخصوص من مصدر فى إدارة الحرب النفسية بالموساد بعد ساعات من انفجار الطائرة) وسرعان ما فرض الغرب عقوبات اقتصادية على نظام القذافى. وأصدرت الولايات المتحدة وبريطانيا لائحة اتهامات بحق اثنين من الليبيين بأنهما فجرا الطائرة الأمريكية ورفض القذافى تسليم المتهمين.

ثم انتقلت الموساد لاتهام سوريا وإيران بالضلوع فى التحريض على تفجير طائرة البان أمريكان فوق لوكيربى. ولم تكن القضية مع نظام سوريا تتجاوز أكثر من تأييده المعروف للإرهاب، أما مع إيران فكان الاتهام أكثر تحديداً؛ فقد فجرت طائرة البان انتقاماً لإسقاط السفينة الحربية الأمريكية فينسينس طائرة ركاب إيرانية مدنية فى ٣ يوليو ١٩٨٨ فوق الخليج مما أسفر عن مقتل (٢٩٠) راكباً. كان خطأ مأساوياً اعتذرت عنه الولايات المتحدة.

ثم عادت إدارة الحرب النفسية بالموساد لتدير دفة الاتهام إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالتآمر لتفجير الطائرة، ولم يتوقف أحد من الصحفيين الذين أفاضوا في نشر تلك الرواية ليفكر فى السبب الذى يدعو ليبيا باعتبارها الجانى الأصلى لطلب المساعدة من سوريا أو إيران ناهيك عن المنظمة الفلسطينية.

وأشار مصدر فى المخابرات البريطانية إلى أن «إدارة الحرب النفسية بالموساد كانت تترنح وجاءت حادثة لوكيربى لتقدم لها فرصة ذهبية لتعلن عن وجود شبكة الإرهاب»

التى طالما تحدثت عنها. وفى الحقيقة فإن وضع عدة أسماء فى بوتقة واحدة يأتى دوماً بنتائج عكسية. فنحن نعرف فقط أن الليبيين هم المسئولون، ومع هذا فإن هناك حقائق لا تجعل قضية البان أمريكان قابلة للأخذ والرد».

ووقع حادث تفجير الطائرة فى وقت كان فيه الرئيس الأمريكى چورج بوش رئيساً منتخباً. وكان فريقه الانتقالى فى واشنطن يتعرف على الوضع الراهن فى الشرق الأوسط حتى يستطيع بوش «تحريك الأمور» فور دخوله المكتب البيضاوى.

وكان بوش قد عمل مديراً للمخابرات المركزية الأمريكية ١٩٧٦ - ١٩٧٧ فى الفترة التى كان فيها هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى الأسبق يملى إلى حد كبير سياسة واشنطن المؤيدة لإسرائيل. وبينما أبقى بوش علانية على نهج ريجان فى تأييد إسرائيل إلا أن سنواته فى رئاسة المخابرات المركزية الأمريكية أقنعته بأن ريجان «كان مفرطاً فى تدليل إسرائيل». وترقباً لتوليه الرئاسة لم يكن بوش يحتاج لمن يذكره بأنه فى عام ١٩٨٦ اضطرت الولايات المتحدة لإلغاء صفقة أسلحة قيمتها ١,٩ مليار دولار للأردن بسبب تدخل اللوبى اليهودى فى الكونجرس، وأبلغ بوش فريقه الانتقالى بأنه بعد توليه الرئاسة فلن يتسامح مع أى تدخل فى حق «الأمريكيين فى التعامل مع أى أحد وفى أى مكان يريدون». وسيكون لهذا النهج دوره فى تدمير طائرة بان أمريكيا فى رحلتها رقم ١٠٣.

وغادرت طائرة بان أمريكان لندن مساء ذلك اليوم فى ديسمبر ١٩٨٨ وعلى متنها ثمانية من أفراد المخابرات الأمريكية عائدين بعد انتهاء مهتمهم فى الشرق الأوسط. كان أربعة منهم من الضباط الميدانيين فى المخابرات المركزية الأمريكية بقيادة ماثيو جانون وكان على متنها أيضاً الميجور تشارلز مكى وفريقه الصغير لإنقاذ الرهائن. وكانوا فى الشرق الأوسط لتقصى إمكانية تحرير الرهائن الغربيين الذين كانوا لا يزالون محتجزين فى بيروت. ورغم أن تحقيقات كارثة بان أمريكان من اختصاص فريق اسكتلندى إلا أن فريقاً من عملاء المخابرات المركزية الأمريكية كان موجوداً بالمنطقة عندما تم تحديدمكان حقيبة مكى التى كانت لا تزال مغلقة وسليمة بأعجوبة. ونقلت من المنطقة لفترة قصيرة بواسطة ضابط المخابرات المركزية الأمريكية على ما يعتقد رغم أنه لن يتم مطلقاً تحديد هويته بشكل إيجابى.

وأُعيدت الحقيبة لاحقاً إلى فريق التحقيق الاسكتلندى الذى أدرج محتوياتها على أنها «فارغة». ولم يتساءل أحد عما حدث لمتعلقات مكي ناهيك عن التساؤل عن سبب سفره بحقيبة فارغة، لكن وفي ذلك الوقت لم يشتبه أحد في أن ضابط المخابرات المركزية الأمريكية ربما يكون قد استولى على البيانات والمعلومات الموجودة في الحقيبة والتى تفسر سبب إسقاط الطائرة فى رحلتها ١٠٣ ولم يعتد بأمتعة جانون على الإطلاق مما يثير اعتقاداً متزايداً بأن القنبلة الفعلية وضعت فى حقيبته. ولم يقدم تفسير مرضٍ لكيف ولماذا يحمل ضابط بالمخابرات المركزية الأمريكية قنبلة فى حقيبته.

وادعى برنامج التحقيقات التليفزيونى (خط المواجهة) لشبكة (PBS) فيما بعد أنه توصل لتفسير سبب وقوع الكارثة فقد بدأت الرحلة ١٠٣ فى فرانكفورت حيث استقلها الركاب المتجهون إلى الولايات المتحدة والقادمون من الشرق الأوسط ومن بين هؤلاء الركاب جانون وفريق المخابرات المركزية الأمريكية الذين كانت حقائبهم مشابهة لآلاف الحقائب التى تناولتها أيدى عمال النقل فى المطار كل يوم. كان الإرهابيون قد استأجروا أحد هؤلاء العمال. وفى مكان ما بمخازن البضائع كان عامل النقل قد أخفى الحقيبة التى تحتوى على القنبلة. كانت العمليات الصادرة إليه أن يرصد حقيبة مشابهة قادمة فى رحلة ربط ثم تبديل الحقيبة التى بحوزته بها ثم يضعها لتصل إلى طائرة بان أمريكان. إنه تفسير مقبول لكنه ليس إلا واحداً من عدة تفسيرات جيدة لتفجير الطائرة.

وفى محاولة مستميتة لإظهار أن انفجار طائرة بان أمريكان وقع نتيجة عمل إرهابى لا تتحمل الشركة مسئوليته قامت الشركة المؤمنة على الطائرة باستئجار شركة تحقيقات خاصة تسمى انترفور مقرها نيويورك. وتأسست هذه الشركة عام ١٩٧٩ على يد الإسرائيلى يوفال أبيب الذى كان قد هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٨. وادعى أبيب أنه ضابط سابق بمكاتب الموساد، لكن الموساد نفت هذا الادعاء. ومع هذا فقد أرضى أبيب شركة التأمين بأن لديه الصلات الكافية لكشف الحقيقة.

وماكادت الشركة تتسلم التقرير حتى أصابها الذهول فقد خلص تقرير أبيب إلى أن تفجير طائرة البان من تدبير وتنفيذ «مجموعة متمردة من المخابرات المركزية

الأمريكية مقرها ألمانيا وكانت تقوم بتوفير الحماية لعملية مخدرات تقضي بنقل مخدرات من الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة الأمريكية عبر فرانكفورت. ولم تفعل المخابرات المركزية الأمريكية أى شيء لإفشال العملية لأن المهربين ساعدوها فى إرسال أسلحة إلى إيران فى إطار صفقة الأسلحة مقابل الرهائن. وكانت طريقة تهريب المخدرات غاية فى البساطة فسوف يقوم شخص بالتقاط حقيبة من أمتعة الرحلة ويقوم عامل شريك فى منطقة نقل الأمتعة بتبديل الحقيبة بأخرى تضم المخدرات. وفى الليلة المشئومة علم إرهابى سورى بأمر عملية المخدرات وبدل الحقيبة بأخرى بها قنبلة. وكان دافعه هو قتل ضباط المخابرات المركزية الأمريكية الذين اكتشفت سوريا أنهم سيستقلون الطائرة».

وادعى تقرير أبيب أن مكى علم بأمر «المجموعة المتمردة بالمخابرات المركزية الأمريكية» والتى تعمل تحت اسم كوريا وأن أعضاءها يرتبطون بصلات وثيقة بأحد الشخصيات الغامضة التى وجدت بيئتها على حافة عالم المخابرات. كان منذر الكسار قد صنع شهرته كتاجر سلاح فى أوربا بما فى ذلك تزويد الكولونيل أوليفر نورث بأسلحة لنقلها إلى متمردى الكونترا فى نيكاراجوا عامى ١٩٨٥ - ١٩٨٦. وكان الكسار يرتبط أيضاً بعلاقات بمنظمة أبو نضال كما كانت صلات عائلته تثير الشكوك أيضاً، فعلى عيسى الضبع رئيس المخابرات السورية هو زوج أخت الكسار كما أن زوجة الكسار قريبة للرئيس السورى. وأشار تقرير أبيب إلى أن الكسار وجد فى مجموعة كوريا شريكاً جاهزاً لعملية تهريب المخدرات. وجرى الإعداد للعملية قبل أشهر من تفجير الطائرة بان ام. وادعى التقرير أيضاً أن مكى اكتشف الخطة وهو يجرى اتصالاته السرية فى الشرق الأوسط فى محاولة لتحديد طريقة لإنقاذ الرهائن فى بيروت. وذكر أبيب فى تقريره أن «مكى اعتزم العودة إلى واشنطن ومعه الدليل عن علاقة المجموعة المتمردة فى المخابرات المركزية الأمريكية بالكسار».

وفى عام ١٩٩٤ كتب يوئيل بانيرمان ناشر تقرير المخابرات الإسرائيلية والذى تنشر تحليلاته فى صحف وول ستريت جورنال وكريستيان ساينس مونيتور والفانيسانشيال تايمز البريطانية «إنه قبل أربع وعشرين ساعة قبل الرحلة أبلغت الموساد المكتب الجنائى الفيدرالى الألمانى بأن هناك خطة لوضع قنبلة على الرحلة

١٠٣ ، ونقل المكتب الإخبارية إلى مجموعة كوريا بالمخابرات المركزية الأمريكية الذى يعمل فى فرانكفورت وطمأنهم بأن المجموعة ستعتنى بكل شىء.

واستدعى المدعى العام الذى تولى التحقيق فى قضية بان أم جريجورى بولر مسئولى مكتب التحقيقات الفيدرالى ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة الطيران الفيدرالية وإدارة مكافحة المخدرات ومجلس الأمن القومى ووكالة الأمن القومى للإدلاء بأى معلومات لديهم لكنه ادعى لاحقاً «أن الحكومة ألغت أوامر الاستدعاء بدعوى الحفاظ على الأمن القومى».

ولم يقدم محققو برنامج «خط المواجهة» أو يوفال أبيب أو يوئيل بانيرمان إجابات شافية للأسئلة الشائكة : فإذا كان هناك تستر على نشاط مجموعة كوريا فإلى أى مستوى وصلت داخل المخابرات المركزية الأمريكية؟ ومن أمر بهذا العمل؟ وهل أمر هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص بإخفاء المعلومات المحرجة من حقيبة مكى؟ ولماذا اتصل المكتب الجنائى الفيدرالى الألمانى بوحدة كوريا؟ هل هى محض مصادفة؟ أم أن دافعها هو قرار اتخذ بأن نشاط مجموعة كوريا أصبح على درجة لم تعد مقبولة وبالغة الخطورة على الآخرين فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ثم ما «دواعى الأمن القومى» التى أدت إلى رفض صريح لأوامر الاستدعاء التى أصدرها المدعى العام؟

وعلى مدى سنوات ثارت تلك الأسئلة داخل أروقة مختلف أجهزة المخابرات وظلت الإجابات طى الكتمان وليس أقلها الحقيقة المتعلقة بلغز أخير : فلماذا أرسل ضابط موساد يعمل فى لندن إلى لوكيربى خلال ساعات من تفجير الطائرة؟

وحتى ذلك الحين احتفظت الموساد لنفسها بكل ما تعرفه عن تفجير طائرة بان أم رحلة ١٠٣ . وهناك مصادر تطلب عدم ذكر اسمها لأن حياتها معرضة للخطر، تدعى أن الموساد تحتفظ بتلك المعلومات كورقة ضغط لاستخدامها ضد واشنطن إذا زادت من ضغوطها على الموساد لتقليل أنشطتها داخل الولايات المتحدة.

والمؤكد هو أن هناك قضية أخرى يمكن أن تسبب إحراجاً وإرباكاً بالغين لأجهزة المخابرات الأمريكية وهى مقتل عميرام نير الرجل الذى يتمتع ببعض صفات روايات جيمس بوند والذى حل محل ديفيد كيمحى كرجل إسرائيل فى مسألة إيران جيت.

وجعلت مؤهلات عميرام نير منه مستشاراً مثالياً لرئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز. كان نير جريئاً فضولياً ميالاً للاستحواذ ومناوراً وصارماً وشخصية آسرة ومتهورة تتمتع بقدرة فائقة على السخرية واتخاذ خطوات خيالية تحطم كل القواعد ويعمل بما يفوق أى واقع أو خيال وكان صحفياً.

كانت خبرته الاستخباراتية السابقة التى استمدها من عمله صحفيا بالتليفزيون الإسرائيلي ثم صحيفة يديعوت أحرونوت كبرى الصحف الإسرائيلية التى تملكها موسيس ديناستى التى تزوجها نير. كانت دار النشر التى تصدر عنها الصحيفة تملك أشياء لا يملكها روبرت ماكسويل؛ فهى مثال للاحترام والاستقرار المالى المؤمن، وهى تعامل موظيفها بالطريقة القديمة المحترمة أى دفع راتب مجز لمن يتفانى فى عمله. ولم يجعله زواجه من موسيسس زوجاً لواحدة من أغنى أغنياء إسرائيل بل هيأ له فرصة الاتصال بأرفع مستوى للقيادة السياسية فى إسرائيل.

ومع ذلك فقد سرت صدمة وذهول عندما أصبح واحداً من أهم أعضاء أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية عام ١٩٨٤ بعد أن عينه بيريز مستشاراً له لمكافحة الإرهاب وهو موقع بالغ الحساسية.

كان نير فى الرابعة والثلاثين من العمر وكل صلته وخبرته بعالم المخابرات دورة قصيرة تلقاها فى الجيش الإسرائيلي. وحتى بين أصدقائه هناك إجماع عام أنه يحتاج لمهمته الجديدة أكثر من مجرد مظهره الجذاب الذى لا يخلو من فظاظة. كان ناعوم أدمونى رئيس المخابرات أول من أصدر رد فعلى على تعيين نير فى منصبه الجديدوبادر بتغيير هيكل لجنة رؤساء أجهزة المخابرات ليستبعده من مداولاتها. وغير مبال بشيء أمضى نير الأسابيع الأولى فى وظيفته الجديدة فى قراءة سريعة لكل ما تطاله يده. وسرعان ما أصبح بؤرة عملية الأسلحة لإيران التى كانت لا تزال جارية فى ذلك الحين. واستشعاراً منه بأنها فرصته لإثبات نفسه نجح نير فى إقناع بيريز باضطلاعه بالدور الذى تركه ديفيد كيمحى. وبينما كان يعمل تحت توجيه لا يكل من آرييه بن منشى، فقد وجد نفسه يعمل مع أوليفر نورث.

وسرعان ما تطورت العلاقة بين الرجلين فهما يطوفان ويتعاملان فى كل العالم. وخلال سفرياتهما أعدا خطة تضمن نهاية ناجحة مذهلة لصفقة الرهائن مقابل

الأسلحة. فسوف يتوجهان إلى طهران ويلتقيان بالقيادة الإيرانية ويتفاوضان لإطلاق سراح الرهائن.

وفي ٢٥ مايو ١٩٨٦ ومتنكران في صورة فنيين يعملان بشركة الطيران الأيرلندية توجه نير ونورث من تل أبيب إلى طهران على متن طائرة تحمل العلامات المميزة لشركة الطيران الأيرلندية شعار النقل. وأقلت الطائرة أيضاً (٩٧) صاروخ تو الموجهة وصندوقاً لقطع غيار صاروخ هوك. كان نير يحمل جواز سفر أمريكياً مزوراً قدمه له أوليفر نورث.

ونجح أوليفر نورث المسيحي البروتستانتي بطريقة ما في إقناع الرئيس الأمريكي رونالد ريجان بكتابة إهداء على الكتاب المقدس لإهدائه لآية الله رفسنجاني(*) المسلم التقى وحمل أيضاً تورتة شيكولاتة ومسدسات للمضيفين الإيرانيين، وكلها تذكار بأيام مقايضة التجار الأرمن مع الهنود في مانهاتن.

ولم تعلم الموساد بأمر المهمة لأول مرة إلا عندما دخلت الطائرة المجال الجوى الإيراني، ووصف رد فعل ناعوم أدموني بأنه (غاضب عارم). ولحسن الحظ فقد أمر الإيرانييون ببساطة بطرد الزوار واستغلوا المهمة لتحقيق انقلاب دعائي ضد الولايات المتحدة. وانتاب الغضب الشديد الرئيس الأمريكي، وفي تل أبيب وصف أدموني، نير بأنه راعي بقر «كاوبوى». ومع هذا تمكن نير من الاستمرار في الخدمة الحكومية لعشرة أشهر أخرى إلى أن تصاعد الامتعاض الداعي إلى التخلص منه في أروقة المخابرات ليصل إلى حد انتقاد قاس لا هوادة فيه. وفي تلك الأثناء مرت على مكتبه قضايا هنداوى وفانونو وصوان لكن الموساد رفضت بتأفف أى إسهام عرضه نير حول كيفية معالجة تلك القضايا.

وحين لم يصبح موضع ترحيب في واشنطن وغدا معزولاً في تل أبيب استقال عميرام نير من منصبه كمستشار لرئيس الوزراء الإسرائيلي لمكافحة الإرهاب في مارس ١٩٨٧ . وفي ذلك الوقت كان زواجه يتعرض للاضطراب ودائرة أصدقائه

(*) هو الرئيس الإيراني السابق ولكنه لم يصل إلى رتبة آية الله. ويرأس حالياً ما يسمى بمجلس تشخيص مصلحة النظام. (الترجمة).

تتقلص. وظل آربيه بن منشى أحد الصلات القليلة التي تربط نير بماضيه. وفي أوائل ١٩٨٨ غادر نير إسرائيل ليستقر في لندن.

وما لبث أن أسس بيتاً مع أدريان ستانتون الفتاة الجميلة سوداء الشعر ابنة الخمسة وعشرين ربيعاً وتدعى أنها سكرتيرة من تورنتو، وكان نير قد التقاها في سفرياته. واعتقد عدد من ضباط الموساد أنها على علاقة بالمخابرات المركزية الأمريكية أى إحدى النساء اللاتى تستخدمهن الوكالة في عمليات الإيقاع. وفي لندن عمل نير كممثل أوربى لشركة تشترى الأبوكادو(*) المكسيكية، (نوكال دى مكسيكو) مقرها أوروابان. وكانت الشركة تسيطر على ثلث صادرات البلاد من الأبوكادو.

لكن لم يكن شراء الأبوكادو هو الذى دفع آربيه بن منشى ليطرق باب نير في ليلة شتوية ممطرة في نوفمبر ١٩٨٨. كان بن منشى يريد أن يعرف على وجه الدقة ماذا يعتزم نير كشفه حيث إنه شاهد رئيسى في المحاكمة المرتقبة لأوليفر نورث لدوره في فضيحة إيران كونترا. وأوضح نير بوضوح أن شهادته لن تكون بالغة الإحراج لإدارة ريجان فحسب بل لإسرائيل أيضاً. واعتزم أيضاً إظهار مدى السهولة التي أمكن بها تهميش كافة الضوابط والتوازنات للقيام بعمليات غير مشروعة يتورط فيها عدد من الدول منها جنوب إفريقيا وشيلى. وأضاف أنه يعتزم إصدار كتاب يعتقد أنه سيجعله واحداً من أعظم الرموز في تاريخ إسرائيل ورتب آربيه بن منشى للقاء نير مرة أخرى عقب قيامه بزيارة أخرى لشركة نوكال في المكسيك. في الوقت نفسه حذر بن منشى، نير «بتوخى الحذر من تلك السيدة». وفور خروج أدريانا ستانتون وتركهما بمفردهما رفض بن منشى كشف الدافع الذى حدا به لتحذيره مكتفياً بالقول «لقد عرفتها من قبل، كما أن أسمها الحقيقى ليس أدريانا ستانتون» وهو مالم يكن يعرفه نير.

وفي ٢٧ نوفمبر ١٩٨٨ سافر نير وستانتون معاً إلى مدريد باسمين مستعارين. وأسمى نفسه «باتريك فيبر» وهو نفس الاسم الذى انتحله في رحلته المشئومة إلى طهران، ودون ستانتون في قوائم ركاب شركة الطيران الإسبانية تحت اسم «ايستر

(*) نوع من ثمار الفاكهة لنبات أمريكى استوائى. (الترجمة)

آريا ، أما السبب الذى حدا بهما إلى السفر باسمين مستعارين في تذكرة الطائرة بينما يسافران بجوازى سفريهما الحقيقيين إسرائيلي وكندى فأمر لن يجد تفسيراً أبداً. وثمة غموض آخر هو : لماذا استقلا الطائرة أولاً إلى مدريد بينما هناك الكثير من الرحلات العادية إلى المكسيك. فهل حاول نير إبهار حبيبته بمدى سهولة خداع معظم الناس معظم الوقت؟ أم أن الخوف قد استقر فى نفسه بعد زيارة آربيه بن منشى؟ وظلت كل تلك الأسئلة دون إجابة.

ووصلا إلى مكسيكو سيتى فى ٢٨ نوفمبر وكان بانتظارهما رجل لن تعرف هويته على الإطلاق. واتجه ثلاثتهم إلى أوروابان ليصلوها بعد الظهر وقام نير باستئجار طائرة كى ٢١٠ سيسنا من شركة إيروتاكسى دى أوروابان الصغيرة.

ومرة أخرى تصرف نير بغرابة فقد استأجر الطائرة باسم «باتريك فيبر» مستخدماً بطاقة ائتمان بهذا الاسم لدفع تكلفة استئجار الطائرة واتفق مع الطيار على نقلهما إلى مصنع نوكال فى غضون يومين. وفى فندق محلى اقتسما فيه الغرفة سجل نير نفسه باسمه الخاص. أما الرجل الذى رافقهما من مكسيكو ستيى فقد اختفى بنفس الطريقة الغامضة التى ظهر بها.

وفى ٣٠ نوفمبر توجه نير وستانتون إلى مطار أوروابان الصغير وبرفقتهما رجل آخر هذه المرة. وفى قائمة الركاب سجل نفسه باسم بيدرو إسبيونوزا. أما لحساب من يعمل فسيظل لغزاً مبهماً. ولغز آخر فلماذا عندما جاء دور إدخال اسميهما على قائمة الركاب استخدم نير وستانتون هويتهما الحقيقية؟ فلو أن الطيار لاحظ التناقض مع الاسم الذى قدمه نير عند استئجارالطائرة لما مر الأمر مرور الكرام.

وأقلعت الطائرة فى طقس جيد وعلى متنها الطيار ومساعده وثلاثة ركاب ولم تكد الطائرة تقطع سوى مائة ميل من رحلتها حتى تعرضت فجأة لخلل فى محركها وإن هى إلا لحظات وهوت الطائرة متحطمة ليلقى نير والطيار حتفهما. وأصيبت ستانتون بإصابات بالغة أما مساعد قائد الطائرة وهانتادو فكانت إصابتهما أقل، وفى اللحظة التى وصل فيها أول المنقذين ويدعو بيدرو كروشيه إلى مكان تحطم الطائرة كان هونتادو «فص ملح وذاب» وكشأن الأخير لم يظهر مرة ثانية.

أما لماذا كان كروشيه أول الذين وصلوا لمكان التحطم فتلك حكاية أخرى. ففد

ادعى أنه يعمل بشركة نوكال، ومصنع الشركة يبعد مسافة كبيرة. ولم يستطع تفسير سبب وجوده قرب المكان وعندما طلبت منه الشرطة إثبات هويته تعلل بأنه فقدها أثناء مصارعة للثيران. واتضح أن كروشيه ليس سوى رجل أرجنتيني يعيش في المكسيك بصورة غير شرعية. وما لبث أن اختفى هو الآخر في الوقت المناسب مخلفاً نفس الغموض. وفي موقع الحادث تعرف كروشيه على جثة نير وانتشلها ورافق ستانتون إلى المستشفى وكان يرافقها عندما جاء صحفي محلي لمعرفة مزيد من التفاصيل.

ويدعي يوئيل بانيرمان ناشر بوليتيكال انتليجينس دايجيست الإسرائيلية «أن شابة أدعت وجود كروشيه وعندما ذهبت لتناديه ظهرت سيدة أخرى عند الباب وأبلغت الصحفي بأن كروشيه غير موجود بل إنها لم تسمع به مطلقاً. وأكدت المرأة الثانية أن وجود ستانتون على الطائرة سيسنا كان صدفة محضة وأنه ليس لها علاقة «بالإسرائيلي» ورفضت الكشف عن هويتها سوى القول أنها «سائحة أرجنتينية تزور المكسيك».

وأضافت ستانتون غموضاً إلى الغموض. فقد أبلغت المحققين وفقاً للصحفي ران إيديلست عام ١٩٩٧ «أنها شاهدت وقت صدمتها وأصابتها عميرام نير على بعد عدة أمتار يلوح لها ويطمأنها بصوت طبيعي للغاية وقال «سيكون كل شيء على ما يرام فالإنقاذ في الطريق!». وفي الأيام التالية تلقت تطمينات بأن نير لا يزال على قيد الحياة».

ونقلت جثة عميرام إلى إسرائيل لدفنها. وشارك في الجنازة أكثر من ألف شخص وتحدث إسحاق رابين وزير الدفاع في نعيه عن «مهمة نير لجهات لن يكشف عنها الآن في تكليفات سرية وعن الأسرار التي طواها بين ضلوعه».

فهل قُتل عميرام نير للتأكد من أنه لن يكشف أسراره مطلقاً؟ بل هل يضم هذا التابوت جثة عميرام نير فعلاً؟ أو هل قتل عميرام قبل سقوط الطائرة؟ ولو كان الأمر كذلك فمن قتله؟ وفي واشنطن وتل أبيب لا يزال الصمت المطبق هو مصير كل تلك الأسئلة؟

وبعد يومين من تحطم الطائرة ظهر آربيه بن منشي خارجاً من مكتب بريد في قلب

سانتاجو عاصمة شيلي. كان يرافقه اثنان من الحرس الخاص بات يشعر بأهميتهما البالغة في حمايته. «وفجأة تهشم زجاج النافذة التي كنا نمر بجوارها ثم ارتطم شيء ما بالحقيبة المعدنية التي كنت أحملها. وانبطحت أنا والحارسين على الأرض بعدما تأكدنا أننا نتعرض للرصاص».

وحل دور ستانتون لتتأكد هي الأخرى أن حياتها باتت مهددة بالخطر، وكما يقول الصحفي إيدليست، فقد أبلغته مصادر في المخابرات أنها «اعتكفت الناس وأجرت جراحة تجميل وغيرت ملامحها».

وأصبحت الموساد تعتقد بشكل متزايد أن المخابرات المركزية الأمريكية قتلت نير، ويشير آريه بن منشي إلى «أن المخابرات الإسرائيلية تعتقد أنها عملية إعدام متقنة نفذتها المخابرات المركزية الأمريكية وضمن قتل نير عدم تعرض ريجان أو بوش لأى حرج في محاكمة أوليفر نورث».

ويدعم هذا الرأى قائد بالبحرية الأمريكية رافق نير إلى طهران في مهمة بائع الفاكهة لتحرير الرهائن المحتجزين في بيروت. وتدور رواية هذا القائد حول ادعائه بأن نير التقى مع چورچ بوش وهو حينذاك نائب للرئيس يوم ٢٩ يوليو ١٩٨٦ بفندق الملك داوود بالقدس لاطلاعه على مبيعات الأسلحة الأمريكية الجارية لإيران عبر إسرائيل.. وقال يوئيل باينمرمان «إن نير سجل سراً الحديث برمته وبهذا أصبح لديه دليل على تورط بوش في صفقة الأسلحة مقابل الرهائن. وحضر اللقاء كل من مكي وجانسون اللذين قتلا في حادث انفجار طائرة بان أم فوق لوكيربي». ووصف بانيمرمان الزيارة التي قام بها القائد إلى مقر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في لانجلى حيث التقى بأوليفر نورث قبل أشهر من تقديمه للمحاكمة وبكلمات المؤلف سأل القائد نورث «ماذا حدث لنير فرد نورث أن نير قُتل لأنه هدد بنشر تسجيل الحديث الذى دار في اجتماع القدس».

وأبعد الصحفيون الذين حاولوا سؤال نورث عن القضية. وظل مساعدو بوش لسنوات على نفس النهج، أى أن الرئيس السابق للولايات المتحدة قال كل ما يمكن أن يقال حول قضية إيران جيت، وفي أواخر يوليو ١٩٩١ تعرض منزل أرملة نير «جودى» لحادث سطو لم تسرق خلاله سوى تسجيلات ووثائق نير، وذكرت الشرطة

أن الحادث نفذ بواسطة «محترفين على درجة عالية من الحرفية». وقالت جودى إنها واثقة تمام الثقة أن المواد المسروقة تحتوى على «معلومات تعرض بشخص ما» ورفضت استدراجها لما هو أبعد من هذا ولم تُستعد المسروقات مرة أخرى مطلقاً. أما السؤال من هو السارق؟ فلا يزال بلا إجابة.

واستمر شبتاى شافيت على مدى الأعوام الأربعة التالية فى رئاسة الموساد محاولاً إبعادها عن الفضائح والانتقادات وصانعى الأساطير مع استمرارها فى جمع المعلومات.

وبعيداً عن أعين الرأى العام تواصل التنافس القديم بين مختلف أجهزة الخابرات دون أن يفقد قوته. ويتذكر السياسيون الذين لا يزالون أعضاء فى لجنة الكنيست الخاصة بالخابرات، الهزيمة التى أنزلها بهم شافيت عقب حرب الخليج، واستمرت حملة الشائعات ضد شافيت، وقيل إن تركيزه ضيق وأن القناة الخلفية مع الخابرات المركزية الأمريكية مفتوحة بالكاد، وأنه لا يحسن تمثيل الجهاز وأن الهوة شاسعة بينه وبين كوادر الموساد الذين بدأت معنوياتهم فى التردى.

وأهمل شبتاى شايت علامات الإنذار، وفجأة وفى صباح يوم ربيعى مشرق فى عام ١٩٩٦ استدعى لمكتب رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو وأبلغ أن شخصاً أخر سيتولى قيادة الموساد بدلاً منه ولم يجادل شافيت فقد رأى الكثير من نتانياهو مما يجعله يعتقد بأن جدله لا طائل منه، وسأل سؤالاً وحيداً من خليفتى؟ أجاب نتانياهو: دانى ياتوم، وهلت أيام البروسى فى الموساد.

عندما فشلت فرقة اغتيالات إسرائيلية في اغتيال

زعيم حركة حماس خالد مشعل وصف داني ياتوم لأصدقائه الأشهر السبعة الماضية بأنها

«كالعيش على حافة بناية في انتظار السقوط».

الفصل
السابع
عشر

فضيحة العمليات الخرقاء

الخميس ٦ يناير ١٩٩٨ وعتمة الليل تتراجع أمام ضوء الفجر الذى ينبلج على استحياء تسير سيارة حكومية على مهل خارجة من منزل مطلى باللون الأبيض بإحدى الضواحى الفاخرة بالقرب من السور المكهرب الذى يرسم الحدود الإسرائيلية الأردنية. وفى أحد تلك المنعطفات التى يحفل بها تاريخ إسرائيل كان هذا المنزل يرتفع فوق أرض طالما أُعد فيها جواسيس جدعون ـ المحارب اليهودى العظيم ـ مهامهم لجمع المعلومات من أجل الإسرائيليين من هزيمة القوى التى تفوقهم بكثير. والآن يجلس دانى ياتوم ليضع اللمسات النهائية على عملية يمكن أن تنقذ تاريخه المهنى.

وبدءاً بالكارثة التى شهدتها شوارع عمان فى يوليو ١٩٩٧ عندما فشلت فرقة اغتيالات إسرائيلية فى اغتيال زعيم حركة حماس خالد مشعل وصف دانى ياتوم لأصدقائه الأشهر السبعة الماضية بأنها «كالعيش على حافة بناية فى انتظار السقوط».

كان الجلاد الذى ينتظره هو رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتانياهو ؛ فقد فترت العلاقات الحميمة السابقة بينهما إلى درجة لا يكاد يمر معها يوم إلا وقناصة مكتب رئيس الوزراء يمطرون رئيس الموساد بنفس الرصاصة : إنها مسألة وقت فقط قبل أن يعفى من منصبه ولو أن الأمر حدث مع رجال آخرين لكانوا قد استقالوا. لكن ياتوم

ليس من هذا النوع من الرجال ؛ إنه المتغطرس المعتد بنفسه المستعد للاستماتة للحفاظ على تاريخه ؛ فكم من العمليات الناجحة التى أمر بها ولا يعلم أحد عنها شيئاً . وشرع يقول لأصدقائه فى مرارة «إن الفشل فقط هو الذى تجده مرابطاً عند بابك على الملأ» .

ولاحظ أصدقاؤه وأفراد أسرته علامات القلق الذى يساوره ؛ فقده النوم أثناء الليل ونوبات الغضب المفاجئ وتراجع البريق والحيوية بسرعة والتسرع الطائش ونوبات الصمت الطويلة ، كل تلك كانت مؤشرات لرجل يعيش توتراً رهيباً .

وبعد عامين من توليه منصبه كان لا يزال يواجه ضغوطاً لم يتعرض لها رئيس للموساد من قبل . ونتيجة لهذا تدهورت معنويات رجاله بشكل متزايد ، ولم يعد يعول كثيراً على ولائهم .

كانت وسائل الإعلام تعلم بما يدور وتستشعر أنه جريح لكنه يضبط نفسه انتظاراً ليوم يزيحه فيه رجل وثق فيه ياتوم لكن لم يعد هناك الآن وجود لهذه الثقة . وحتى هذه اللحظة كان بنيامين نتانياهو يحتفظ بمسافة فاترة فى علاقته مع ياتوم .

لكن وفى هذا الصباح البارد كان ياتوم يعرف تماماً أن أيامه أصبحت معدودات .

وهذا هو السبب الذى يريد من أجله أن تؤتى العملية التى أعدها على مدى الأسابيع الماضية ثمارها، فسوف يُظهر لرئيس الوزراءأن كبير جواسيسه لم يفقد مهاراته بعد، لكن قسمات وجه ياتوم لم تعكس شيئاً من هذا؛ فرغم كل ما كابده إلا أنه يسيطر على عواطفه، وجلس متكئاً فى ركن المقعد الخلفى للسيارة البيجو لتبدو هيئته مخيفة إلى حد الرعب وهو يرتدى جاكيت جلد أسود اللون وقميصاً مفتوح الياقة وبنطلوناً رمادياً. تلك هى الملابس التى عادة ما يرتديها فى العمل. فلم تكن الملابس تعنيه فى شىء.

كان شعره المنحسر عن الجبهة ونظارته ذات الإطار المعدنى وشفتاه الصغيرتان كل ذلك يتناسب تماماً مع كنيته: «البروسى» وكان يعرف أن ما يحركه شىء أقرب للخوف. وإلى جواره تكدست مجموعة من صحف الصباح وللمرة الأولى لا توجد بها تكهنات عن مستقبله.

وشقت السيارة البيجو طريقها بسرعة مخترقة التلال نحو تل أبيب وأشعة الشمس تنعكس على جسمها اللامع، فلم يكن السائق يكل صباحاً ومساءً من تنظيف السيارة. كان زجاج السيارة من النوع الواقى من الرصاص وهيكلها مدرعاً وأرضيتها مضادة للألغام. ولا تتمتع سيارة أخرى بنفس الحماية إلا سيارة رئيس الوزراء.

وأقر بنيامين نتانياهو تعيين ياتوم رئيساً للموساد فى غضون دقائق من إعفاء شبتاى شافيت. وخلال الأسابيع الأولى له فى المنصب كان ياتوم يقضى مساء يوم واحدعلى الأقل من كل أسبوع مع رئيس الوزراء نتانياهو. كانا يحتسيان البيرة المثلجة مع الزيتون ويتدبران شئون العالم ويعيدان تنظيمه ويستعيدان ذكريات الوقت الذى كان ياتوم يتولى قيادة وحدة الكوماندوز التى كان نتانياهو أحد أفرادها. وتفرقت بهما السبل ليصبح نتانياهو سفيراً لإسرائيل لدى الأمم المتحدة ثم نصب نفسه أثناءحرب الخليج خبيراً فى الإرهاب الدولى لدرجة كان يذيع معها وهو يرتدى قناعاً واقياً من الغازات يشرح كيفية استعماله فى حالة سقطو صاروخ سكود. ومن جانبه قال ياتوم إنه استساغ دور الدخيل الذى تولى أهم موقع فى عالم المخابرات فى إسرائيل الذى يطمح إليه كل عسكرى، فقد أصبح مستشاراً عسكرياً لرئيس الوزراء إسحاق شامير.

وكان يبدو أن العلاقة لن تنفصم عراها بين ياتوم ونتانياهو حتى حدثت واقعتان أحدثتا فجوة يستعصي رأبها بينهما. فقد وقعت كارثة عمان الخرقاء، كان نتانياهو قد أمر بتنفيذ العملية، وأثر فشلها أصبحت الموساد محور سخرية وسائل الإعلام العالمية وحمّل رئيس الوزراء ياتوم مسئولية الكارثة. وتحمل ياتوم النقد دون تردد لكن في دوائره الخاصة كان يقول إن نتانياهو «صلب الرأى».

أما الواقعة الثانية فكانت أفدح من الأولى ففي أكتوبر ١٩٩٧ اكتشف أن أيهودا جيل أحد كبار ضباط الموساد كان يلفق على مدى عشرين عاماً تقارير بالغة السرية بزعم تلقيها من «عميل» مزعوم لا وجود له في الحقيقة في دمشق. كان جيل يحصل على أموال ضخمة من الموساد باسم العميل ليستولى عليها لنفسه. وتكشفت الفضيحة عندما ارتابت الشكوك أحد محللى الموساد الذى كان يعكف على دراسة أحدث تقرير لهذا «العميل» المزعوم ويشير إلى أن سوريا على وشك شن هجوم على إسرائيل. وواجه ياتوم جيل بما هو موجه إليه فأدلى باعترافات تفصيلية.

وانقض نتانياهو بالهجوم على ياتوم؛ ففي اجتماع عاصف بمكتب رئيس الوزراء استُجوب ياتوم بقسوة حول طريقة إدارته للموساد. ولم يقبل نتانياهو بحجة أن جيل مارس وأخفى بنجاح خداعه وتلفيقاته تحت رئاسة أربعة رؤساء سابقين للموساد. وصاح نتانياهو: كان لابد أن يعرف ياتوم. إنها حماقة أخرى، ولا يتذكر العاملون في مكتب رئيس الوزراء أنهم سمعوا بمثل هذا التوبيخ من قبل. وتسربت التفاصيل إلى الصحافة مما سبب مزيداً من الإحراج لياتوم.

وشتان ما بين ياتوم عندما تولى منصبه واسمه الذى أصبحت تلوكه وسائل الإعلام في مختلف أنحاء العالم. ودأب الصحفيون على وصفه بأنه مأمون الجانب، فيما ثارت تكهنات بأنه سيسير على درب أساتذة الجاسوسية العظام - أميت وحوفي وأدموني - وسيؤجج مرة أخرى جذوة النار التى أطفأها شبتاى شافيت عن عمد.

ولم يستغرق الدليل وقتاً طويلاً حتى ظهر. فبرغم أن اتفاق أوسلو يمنح وطناً لمنظمة التحرير الفلسطينية - الضفة الغربية وغزة - إلا أن ياتوم زاد عدد العملاء العرب للتجسس على ياسر عرفات. كما أمر مبرمجى الكمبيوتر في الموساد بتطوير برامج جديدة للدخول على كمبيوترات منظمة التحرير الفلسطينية، وخلق «فيروسات»

جديدة لتدمير تلك الأجهزة عند اللزوم وقطع شبكة اتصالاتها. وطلب من العلماء والباحثين في مجال البحوث والتطوير التركيز على أسلحة الحرب «المعلومات» التى بإمكانها إدخال دعاية سوداء فى شبكات إذاعة العدو. كان يريد أن يكون جزءاً من العالم الجديد الجسور الذى ستكون أسلحة المستقبل فيه هى أجهزة الكمبيوتر التى تستطيع شل قدرة الخصم على معرفة حشد وتعبئة قواته العسكرية.

وعاد ياتوم إلى المسرح القديم للموساد فى إفريقيا. ففى مايو ١٩٩٧ قدمت الموساد معلومات استخباراتية مهمة ساعدت على الإطاحة بالرئيس الزائيرى موبوتو سيسيكو الذى هيمن على وسط إفريقيا لفترة طويلة، كما عززت الموساد علاقاتها مع جهاز أمن نيلسون مانديلا وساعدته فى تعقب المتطرفين البيض الذين عمل معه الكثيرون منهم من قبل؛ كما زاد ياتوم ميزانية وقوة الوحدة الخاصة بالموساد (آل) المسئولة عن سرقة أحدث الأبحاث العلمية الأمريكية.

وحتى مع بلوغه الحادية والخمسين لازمت دانى ياتوم صفة لا تتوقف؛ عدم الكلل والصرامة؛ حيث كان يتمتع ببرود أعصاب مقاتلى الشوارع. وكان هذا هو نفس رده على اكتشاف مكتب التحقيقات الفيدرالى فى يناير ١٩٩٧ لميجا عميل الموساد رفيع المستوى داخل إدارة كلينتون. فقد أبلغ لجنة رؤساء أجهزة المخابرات التى يشمل دورها الإعداد للرد فى حالة فشل عملية - أن المطلوب هو التأكد من مواجهة اللوبى اليهودى الأقوى فى الولايات المتحدة لمطالب المنظمات العربية بضرورة أن يتابع مكتب التحقيقات الفيدرالى ملاحقة ميجا بنفس قوة ملاحقته لجواسيس الدول الأخرى، فلم يدع الضيوف اليهود على العشاء على مائدة البيت الأبيض ناهيك عن نجوم هوليود والمحامين والصحفيين أى فرصة تمر لتذكير الرئيس الأمريكى بالأضرار التى قد تسفر عنها ملاحقة غير معدة جيداً والأدهى اعتقال أحد العاملين فى البيت الأبيض وفى رقابة محاصرة بالفضائح بالفعل فإن تلك الملاحقة يمكن أن نكون بداية قد تدمر كلينتون وبعد ستة أشهر وفى ٤ يوليو ١٩٩٧ الذى يوافق يوم الاستقلال فى الولايات المتحدة علم دانى ياتوم أن مكتب التحقيقات الفدرالى خفف ملاحقته لميجا.

ثم بعد شهرين حلت كارثة عمان وسرعان ما تلتها فضيحة العميل المزعوم الذى لا وجود له وبدأ ياتوم يسعى لعملية جديدة تؤكد سلطته. والآن وفى صباح ذلك اليوم

من أيام يناير ١٩٩٨ هاهو فى طريقه لوضع اللمسات النهائية فى الموقع.

بدأ التخطيط للعملية قبل شهر عندما التقى عميل عربى فى جنوب لبنان بضابطه من الموساد وأبلغه بأن عبد الله زين قام بزيارة خاطفة لبيروت للقاء قادة حزب الله فى المدينة.. وبعد هذا توجه زين إلى الجنوب لزيارة والديه فى بلدة زمانة وكانت المناسبة فرصة للاحتفال فلم يزر زين البلدة منذ عام. وعرض صور زوجته الإيطالية الشابة على أقاربه وشقتهما فى أوربا وتجلد الضابط حتى يستطيع مجاراة العميل فالطريقة العربية هى تقديم المعلومات بتفاصيلها المملة والدقيقة؛ فقد شرح كيف غادر زين منزل والديه فى اليوم التالى محملاً بالهدايا والتذكارات لزوجته وكيف تولى حزب الله حراسته طيلة الطريق حتى مطار بيروت ليستقل الطائرة المتجهة إلى سويسرا. وأخيراً سأل الضابط ما وجهة زين النهائية؟ فقال برن بسويسرا. فهل يعيش فيها زين؟ قال العميل أعتقد هذا لكننى لا أستطيع الجزم به.

ومع هذا كانت هذه أول أنباء إيجابية عن زين منذ مغادرته لبنان لجمع التبرعات لحزب الله من الأثرياء الشيعة فى أوربا. وتستخدم تلك الأموال إلى جانب الأموال التى تدفعها إيران عن طريق سفارتها فى بون فى تمويل حرب الاستنزاف ضد إسرائيل. وفى العام الماضى كان قد أبلغ أن زين يعمل من باريس ومدريد وبرلين. لكن وفى كل مرة كان ياتوم يرسل أحداً لتعقبه لا يعثر على أى أثر لهذا الفتى النحيل البالغ من العمر ٢٣ عاماً الذى يرتدى بذلاً وأحذية إيطالية أنيقة.

فقد أرسل ضابط موساد إلى برن من بروكسل حيث نقلت الموساد أخيراً مركز العمليات فى أوربا من باريس. وأمضى الضابط يومين بلا جدوى فى برن يبحث عن زين. وقرر توسيع بحثه واتجه جنوباً إلى ليبلفيلد وكانت آخر مرة سار فيها الضابط فى المدينة قبل خمسة أعوام وهو فى طريقه للخروج من سويسرا بعد مشاركته مع فريق قام بتدمير أوعية معدنية ضخمة فى شركة للهندسة الحيوية قرب زيورخ صممت لتحضير البكتريا وكانت إيران قد طلبتها. وقام الفريق بتدمير الأوعية المعدنية بشحنات ناسفة. وألغت الشركة كل تعاقداتها مع إيران.

وفى ليبلفيلد أظهر ضابط الموساد أن العمل المخابراتى الجيد يعتمد غالباً على التنقل الجيد على القدم فى صبر وأناة. فقد سار فى شوارع المدينة بحثاً عن أى شخص

يمكن أن يكون من الشرق الأوسط وبحث في دليل التليفون لمعرفة ما إذا كان زين يدرج اسمه فيه. واتصل هاتفياً بوكالات تأجير المنازل لمعرفة ما إذا كان أحد بهذا الاسم قد استأجر أو ابتاع أي ممتلكات. ومر على المستشفيات والمراكز الطبية المحلية لمعرفة ما إذا كان مريض بهذا الاسم قد تردد عليها. وكان يدعي في كل مرة أنه قريب له. وبعد أيام لم يتوصل خلالها إلى شيء قرر ضابط الموساد مسح المدينة للمرة الأخيرة لكن بالسيارة هذه المرة.

وظل يقود سيارته لبعض الوقت عبر الشوارع حتي وقعت عيناه علي رجل داكن البشرة يرتدي ثياباً ثقيلة لاتقاء البرد يقود سيارة فولفو في الاتجاه الآخر كانت نظراته خاطفة كالبرق لكنه اقتنع بأن سائقها لم يكن سوى زين. وفي أول منعطف على الطريق استدار بسيارته لكن الفولفو كانت قد اختفت. وفي المساء التالي عاد الضابط وانتظر بالسيارة في وضع يمكنه من الملاحقة وبعيد برهة ظهرت سيارة الفولفو وتابعها الضابط وبعد ميل توقفت السيارة الفولفو أمام مبنى سكني ونزل سائقها ودخل المبنى رقم ٢٧ بشارع فابير ساكر. ولم يساور الضابط أي شك في أن هذا هو عبد اله زين.

وتتبع الضابط زين إلى المبنى وخلف باب زجاجي كانت توجد قاعة صغيرة بها صناديق بريد. منها صندوق بريد باسم زين صاحب شقة بالدور الثالث ويؤدي باب الخروج من القاعة إلى البدروم الذي يشمل منطقة الخدمات. وفتح الضابط الباب ونزل إلي البدروم وكان مثبتاً على الحائط صندوق يضم توصيلات كافة هواتف المبنى وبعد لحظات عاد في سيارته المستأجرة.

وفي اليوم التالي استأجر بيتاً آمناً يبعد نصف ميل عن شارع فابير ساكر وأبلغ الشركة التي أجرت له المنزل أنه يتوقع انضمام أصدقاء له في عطلة للتزلج.

وواصل داني ياتوم التخطيط وأرسل خبيراً في الاتصالات إلى ليبلفيلد لفحص صندوق وصلات الهواتف. وعاد الخبير إلى تل أبيب مع مجموعة من الصور التقطها للصندوق من الداخل. ودرست الصور في إدارة الأبحاث والتطوير وجرى إعداد إضافات على الصندوق. كان أحدها جهاز تنصت قادر على مراقبة كل المكالمات الواردة والصادرة عن شقة زين وسيتصل جهاز التنصت بجهاز تسجيل يستطيع الاحتفاظ بساعات من المكالمات الهاتفية. وكان الجهاز يستطيع ذاتياً تفريغ التسجيل

إليكترونياً عن طريق إشارة مسبقة من البيت المؤمن وهناك يجرى نسخ المكالمات وإرسالها عن طريق فاكس مؤمن إلى تل أبيب.

وفى الأسبوع الأول فبراير ١٩٩٨ وضعت الخطط الفنية. وانتقل ياتوم إلى الجزء الحاسم فى العملية: أى اختيار الفريق الذى سينفذ العملية كانت العملية مؤلفة من مرحلتين الأولى هى جمع الأدلة الكافية على إظهار أن زين يواصل الاضطلاع بدور رئيسى فى أنشطة حزب الله. والمرحلة الثانية هى قتله.

وأصبح كل شيء جاهزاً بحلول منتصف فبراير، وقبيل الساعة السادسة والنصف صباحاً وفى يوم الاثنين ١٦ فبراير دخلت سيارة ياتوم البيجو ساحة الانتظار بأسفل مقر الموساد واستقل المصعد قاصداً قاعة الاجتماعات فى الدور الرابع. وكان بانتظاره رجلان وسيدتان والتفوا حول الطاولة كما لو كانوا أزواجاً وهو الدور المفترض أن يضطلعوا به فى سويسرا. كان كل منهم فى أواخر العشرينيات وكلهم جيوية. وخلال الأيام القليلة الماضية تدربوا على التزلج بشمال إسرائيل.

وفى الليلة الماضية كان قد تم اطلاعهم بالكامل على المهمة المكلفين بها وتم اختيار الأسماء التى سينتشرون بها. وكان على الرجلين أن يظهرا بصورة تجار فى البورصة يمضيان عطلة قصيرة من العمل فى البورصة مع صديقتيهما لكنهما لم يستطيعا ترك العمل وراء ظهريهما؛ ويفسر هذا وجود الكمبيوتر المحمول مع أحدهما، وأعد هذا الكمبيوتر ليكون بمثابة وصلة بين جهاز التسجيل الخفى المقرر وضعه ببدورم العمارة السكنية وبين المنزل الآمن. وسيقوم إثنان بمراقبة جهاز التسجيل على مدار الساعة بمجرد البدء فى تشغيله أما الاثنان الآخران فإنهما من فرقة اغتيالات ومهمتها هى الوصول لأفضل طريقة لقتل زين. وسيسافران بدون أسلحة إلى سويسرا وسيزودهما مكتب بروكسل بالأسلحة فيما بعد.

وبقاعة الاجتماع كان يوجد جهاز التنصت وجهاز التسجيل. وتفحصهما ياتوم الذى قال إنهما أكثر تقدماً من أى أجهزة شاهدها من قبل، كان كلامه الأخير مقتضبا وخاطفاً. وطلب لكل منهم اسماً مستعاراً من قائمة العمليات واختار الرجلان «سولى جولد بورج» و«ماتى فينكلشتاين» واختارت المرأتان اسمى «الياكوهين وراحيل جاكيسون» ولسفرهما مباشرة من تل أبيب على طائرة العال فسوف يستخدمون

جوازات سفر إسرائيلية. وسيستأنفون الرحلة إلى سويسرا بأسمائهم المستعارة حيث تنتظرهم جوازات سفر مزورة.

وحصل الأربعة جميعاً على حد تعبير مصدر مخابراتي إسرائيلي «على ترقية». وهذه هي الحقيقة فبعد كارثة عمان كان الاختيار محدوداً للعملاء الذين يمكنهم القيام بمثل تلك المهمة، وكان الفريق الذى نفذ عملية عمان أفضل فريق تستطيع الموساد دفعه إلى الميدان، وأجاد أعضاؤه التنكر في هيئة كنديين فقد كانوا جميعاً من ذوى الخبرة الدولية. أما رباعى مهمة سويسرا فلم يسبق لهم سوى العمل في القاهرة ـ وهى الآن هدف آمن نسبياً للموساد ـ ولم يسبق لهم العمل الفعلي مستترين في سويسرا.

وربما يكون هذا هو السبب الذى دعا ياتوم، وفقاً لصحيفة صنداى تايمز اللندنية ـ إلى تذكرتهم في ختام اللقاء بأن السويسريين الذين يتحدثون الألمانية في كانتونات مثل التي توجد في ليبلفيلد «يميلون إلى إبلاغ الشرطة إذا ارتابوا في أى شيء».

وصافحهم ياتوم متمنياً لهم حظاً سعيداً، وهو الوداع المعتاد لأى فريق في طريقه لتنفيذ مهمة. وحصل أعضاء الفريق على تذاكر الطيران وأمضوا اليوم التالي في بيت آمن من بيوت الموساد في تل أبيب. وصباح الثلاثاء التالي ٢٠ فبراير استقلوا رحلة العال ٣٤٧ إلى زيوريخ بعد أن وصلوا إلى مطار بن جوريون بناء على طلب الشركة قبل ساعتين من إقلاع الطائرة. وانضموا إلى بقية الركاب ومعظمهم من السويسريين أو الإسرائيليين الذين يجتازون الإجراءات الأمنية، وفي الساعة التاسعة صباحاً كان الأربعة قد استقروا على مقاعدهم في درجة رجال الأعمال يحتسون الشمبانيا ويناقشون كيف سيمضون عطلتهم القادمة. وكانت أدوات التزلج على الجليد معهم على الطائرة.

وانتظرهم في مطار كلوتين بزيوريخ ضابط موساد من محطة بروكسل بسيارة ميني باص، وقام بدور المرشد تحت اسم مستعار «افرايم روبنشتاين». وفي ساعة متأخرة بعد الظهر استقروا في بيت آمن في ليبيلفيلد وأعدت السيدتان العشاء وجلسوا جميعاً لمشاهدة التليفزيون. وفي المساء وصلت سيارتان مستأجرتان من زيورخ قادهما اثنان من مساعدى الموساد وغادرا في سيارة الميني باص.فقد انتهى دورهما. وفي حوالي

الساعة الواحدة صباح السبت ٢٠ فبراير(*) غادر الفريق البيت الآمن كل اثنين في سيارة. كان روبنشتاين في السيارة الأولى يتصدر الفريق إلى شارع فابير سكار. وتوقفت السيارتان فور وصولهما في مواجهة المبنى السكنى مباشرة لم تكن أنوار شقة زين مضاءة. وسار الأشخاص المتنكرين تحت أسماءسولى جولدبرج وراحيل جاكيسون وأفرايم روبنشتاين بسرعة تجاه الباب الزجاجي للمبنى كان روبنشتاين يحمل لفافة بلاستيك وجولدبرج يحمل الكمبيوتر المحمول وراحيل جاكسون تحمل حقيبة بها أجهزة التنصت. وفي الوقت نفسه اندمجت لياكوهين وماتى فينكلشتاين في أداءدورهما والظهور بمظهر العاشقين الولهانين، وعبر الشارع كانت سيدة عجوز تعانى الأرق وتتقلب في مرقدها لا يغمض لها جفن فقامت لتنظر من النافذة ليقع نظرها على مشهد مريب. أصرت الشرطة السويسرية فيما بعد على الإشارة إليها «بمدام إكس» فقد شاهدت السيدة في تلك اللحظة رجلاً - روبنشتاين - يغطى الباب الزجاجي برقائق البلاستيك لحجب رؤية أى ناظر من الخارج فيما كانت سيارة تنتظر على الجانب الآخر يجلس بهما اثنان يبدوان كالأشباح. وتماماً كما حذرهم دانى ياتوم فقد كان ما شاهدته السيدة مريباً وبادرت بالاتصال بالشرطة.

وبعيد الساعة الثانية فجراً وصلت إلى الشارع سيارة دورية بى إم دبليو وألقت القبض على كوهين وفينكلشتاين في حالة عناق. وأمرا بالبقاء في السيارة ثم وصلت سيارة شرطة ثانية في الوقت نفسه لتسأل الثلاثى الموجود داخل المبنى عما يفعله هناك. وقال جولدبرج وجاكيسون إنهما دخلا المبنى عن طريق الخطأ بحثاً عن أصدقاء وأصر روبنشتاين على أنه كان يزيل رقائق البلاستيك ولا يضعها.

وتسارعت التطورات لتتحول إلى مهزلة. فقط طلب جولدبرج وجاكيسون السماح لهما بالتوجه إلى سيارتهما. ولم يرافقهما أحد من أفراد الشرطة وفي الوقت نفسه سقط روبنشتاين مغشياً عليه متظاهراً بإصابته بنوبة قلبية. وتجمع كل رجال الشرطة حوله لمساعدته واستدعاء رجال الإسعاف. ولم يتحرك أحد منهم لمنع

(*) أحد أدلة عدم دقة المؤلف فهو يقول في الفقرة السابقة الثلاثاء ٢٠ فبراير، وفي هذه الفقرة السبت ٢٠ فبراير (الترجمة).

السيارتين من الانطلاق بأقصى سرعة للخروج من شارع فابير ساكر فى الليلة الذى تساقطت فيه الثلوج. وبعدفترة وجيزة توقفت السيارتان لينتقل اثنان إلى السيارة الأخرى. وعبر أربعتهم الحدود إلى فرنسا فى ساعات الصباح الأولى.

وفى الوقت ذاته نُقل روبنشتاين إلى المستشفى وتأكد الأطباء أنه لا يعانى من أى أزمة قلبية ونقل إلى الحجز.

وفى الساعة الرابعة والنصف صباحاً بتوقيت تل أبيب أيقظ ضابط المناوبة الليلية فى مقر الموساد رئيسه دانى ياتوم وأبلغه بما حدث. ولم يشأ ياتوم إيقاظ سائقه وقاد سيارته بنفسه متوجهاً لمقر الموساد.

وبعد مهزلة عمان (فشل اغتيال خالد مشعل) بدأ تنفيذ خطة للتعامل مع مثل تلك الكوارث. وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها ياتوم هى الاتصال بمناوب وزارة الخارجية. واتصل المناوب بمكتب رئيس الوزراء الذى أبلغ بنيامين نتانياهو. واتصل بسفير إسرائيل لدى المجموعة الأوربية إفرايم هاليفى. كان هاليفى الدبلوماسى البريطانى المولد قد عمل لنحو ثلاثين عاماً كأحد كبار ضباط الموساد مكلفاً بإقامة علاقات جيدة مع الأجهزة الأمنية فى الدول الأجنبية التى تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. كما لعب دوراً مهماً فى رأب الصدع مع الأردن عقب عملية عمان الخرقاء.

ولاحقاً نقل عن نتانياهو قوله لهاليفى «أخرجنا من هذه الورطة وستكون صديقى طيلة العمر» وبادر السفير بالاتصال بجاكوب كيللر بيرجر أحد كبار مسئولى وزارة الخارجية السويسرية. كان هاليفى فى قمة لباقته الدبلوماسية وقال لقد وقع حادث «مؤسف» يشمل الموساد. واستفسر كيللر بيرجر «مؤسف» كيف؟». ورد هاليفى «مؤسف للغاية» لقد انتهى الأمر أى أن هناك تفاهماً يلوح فى الأفق. أو هكذا اعتقد هاليفى حتى اتصل كيللر بيرجر بالمدعى العام السويسرى الفدرالى كارلا ديل بونتى.

كانت كارلا شخصية مرهوبة الجانب داخل القضاء السويسرى تماماً مثل ياتوم فى عالم المخابرات الإسرائيلى. وحدد أول سؤال بادرت بطرحه النهج الذى ستسير عليه: لماذا لم تعتقل شرطة ليبيلفيلد كل عملاء الموساد؟ وحار كيللر بيرجر. وعاودت بونتى السؤال: هل هناك صلة لعملاء الموساد «بطهران»؟ - ومنذ حرب الخليج ادعت إسرائيل مراراً أن عدداً من الشركات السويسرية تزود إيران بالتكنولوچيا التى تمكنها

من تصنيع الصواريخ - وهل يمكن أن تكون العملية مرتبطة إلى حد ما بشواغل إسرائيل حول ما أصبح معروفاً «بفضيحة ذهب اليهود». أى الحسابات غير المتحركة لضحايا النازى فى الحرب الثانية فى البنوك السويسرية التى استولت على عائداتها.

وعلى مدى يومى ٢١ و٢٢ فبراير أثارت ويل بونتى اسئلتها اللاذعة بينما هاليفى يجاهد للتكتم على الأمر؟ ولم يلق بالاً لقوى الاتهام - التى تكتلت ضد ياتوم فى إسرائيل. فداخل الموساد سرت أنباء فشل العملية لتصل المعنويات إلى الحضيض. وفى هذه المرة لا يستطيع ياتوم أن يلوم نتانياهو على ما حدث فلم يكن يعرف أى شىء عن عملية ليبيلفيلد. ومن داخل مكتب نتانياهو بدأ الهمس يصل إلى وسائل الإعلام عن حسم مصير ياتوم.

وعلى مدى ثلاثة أيام تالية واصل هاليفى مناشدة وحث كيللر بيرجر بتكتم الأمر، لكن كارلا ويل بونتى لم تعبأ بكل هذا. وفى الأربعاء ٢٥ فبراير دعت إلى عقد مؤتمر صحفى للتنديد بالموساد: «إن ما حدث غير مقبول بالمرة ويشوش العلاقات بين دولتين صديقتين».

وفى غضون ساعات استقال دانى ياتوم من منصبه فى رئاسة الموساد. فقد انهى حياته المهنية وسمعة الموساد فى وضع لا تحسد عليه، وفى لحظاته الأخيرة فى رئاسة الموساد فاجأ ياتوم العاملين بالموساد الذين تجمعوا بمطعم الموساد. وتبدلت صورة البروسى الجامد لتحل محلها صورة رجل جياش بالعاطفة وقال: «آسف لتركك‍م فى مثل هذا الوقت ولقد حاولت منحكم أفضل قيادة ممكنة. وعليكم أن تتذكروا دائماً أن الموساد أكبر من أى أحد». وتمنى ياتوم حظاً سعيداً لمن سيخلفه: «فسوف يحتاج هذا الحظ السعيد» وكان هذا أقرب إلى الإفصاح عما يعتقده عن رئيس الوزراء الذى استمر على اعتقاده بأنه يمكن السيطرة على الموساد من مكتبه. وخرج ياتوم وسط الصمت الذى ران على المطعم. وفقط عندما بلغ الممر بدأ التصفيق سريعاً لينتهى بنفس السرعة التى بدأ بها.

وبعد أسبوع وافق إفرايم هاليفى على تولى رئاسة الموساد بعد أن اعترف بنيامين نتانياهو علناً فى أول مرة يدلى فيها رئيس وزراء إسرائيلى بمثل هذا الاعتراف «لا يمكن إنكار أن صورة الموساد قد تأثرت نتيجة فشل مهام معينة». لكن السياسى البارع

نتانياهو لم يتطرق بأى ذكر للدور الذى لعبه.

وفي الخامس من مارس ١٩٩٨ أصبح إفرايم هاليفي الرئيس التاسع للموساد وكسر التقاليد ولم يستدع كبار مسئولى الموساد لسماع رأيهم فى كيفية إدارة الجهاز خلال العامين القادمين. ولدى تعيين هاليفى أعلن نتانياهو أيضاً أنه اعتباراً من ٣ مارس عام ٢٠٠٠ أن النائب الجديد لرئيس الموساد عميرام ليفين سيتولى رئاسة الموساد. وكان لهذا النبأ وقع المفاجأة، فلم تحدد سلفاً فترة ولاية أى رئيس آخر للموساد ولم يصدر تأكيد لنائب لرئيس الموساد أنه سيعين فى رئاسة الموساد.

ومثل مائير أميت لم تكن لدى هاليفى أى خلفية استخباراتية سوى قيادته باقتدار القيادة الشمالية فى الجيش الإسرائيلى. كانت أولى مهام هاليفى هى تخفيف حدة التوتر والاستياء الهائل داخل الموساد الأمر الذى ألحق أضراراً فادحة بصورة الموساد سواء فى داخل إسرائيل أو خارجها وفي الاتصالات الهاتفية الروتينية للتهنئة من المخابرات المركزية الأمريكية وإم آى ٦ أبلغ رئيس الموساد الجديد بأنهما سينتظران ويترقبان كيف سيتعامل مع الأزمة داخل الموساد قبل إلزام جهازيهما بتعاون يقوم على عدم السرية. وأحد العناصر هو كيفية تعامل هاليفى مع المتشددين فى الحكومة الإسرائيلية خاصة رئيس الوزراء الإسرائيلى.

فهل سيستطيع هاليفي الذى لم يتبق له لبلوغ سن التقاعد سوى عام واحد وأكبر من تولى رئاسة الموساد سناً وبفارق كبير، هل سيستطيع إبقاء نتاياهو بعيداً بالقدر المناسب؟ وبالنسبة لهاليفى وقدراته الدبلوماسية حيث لعب دوراً محورياً فى المفاوضات التى أسفرت عن التوصل لمعاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية عام ١٩٩٤ فقد ظل بعيداً عن عالم المخابرات لعدة سنوات. فمنذ تركه العمل المباشر فى الموساد بدأت تظهر على الموساد مؤشرات تنبىء عن خروجها عن نطاق السيطرة؛ حيث تعانى كبار ضباطه فى تأمين فرصهم فى الترقية. وظل معظم العاملين فى المستوى الأوسط فى الخدمة. فهل يستطيع هاليفى التعامل بحزم معهم؟ وهل يملك رئيس الموساد الجديد المهارات اللازمة لرفع المعنويات؟ فلم يكن عمله فى بروكسل يمثل أفضل إعداد له لتولى قيادة عملاء بعيدين عن حافة الاشتباك والأدهى أن هاليفى لا يتمتع شخصياً بخبرة عملية ميدانية. فقد كان عمله السابق فى الموساد عملاً مكتبياً.

وماذا يستطيع عمله خلال عامين؟ أم أنه جاء إلى هنا ليبصم فقط على ما يريد نتانياهو عمله أو في هذه الحالة ما تريد سارة زوجة نتانياهو عمله؟ وقد ثارت تكهنات كثيرة عن الدور الذى لعبته سارة فى إزاحة ياتوم الذى لم يكن يروق لها بأى حال.

وسيكون إنجاز كل ما يتعين عليه إنجازه اختباراً هائلاً لقوته الجسدية والعقلية فى عالم المخابرات القاسى فى إسرائيل. فقد انتهزت أمان والشين بيت ما تتعرض له الموساد من مشاكل لتعزيز مركزيهما، ولم يشر أحد حتى الآن إلى أنه لا يتعين على الموساد أن تستعيد دورها كعين إسرائيل السرية على العالم. فبدون قدراتها فربما تجد إسرائيل نفسها مهزومة أمام أعدائها فى القرن القادم. فإيران والعراق وسوريا تطور جميعاً تكنولوچيا فى حاجة إلى مراقبتها عن كثب.

وبداية يجب على الموساد عمل ما يتعين عمله لكن فى سرية تامة، وفى لقاءاته المتفردة مع العاملين أعرب هاليفى عن أمانيه بأن يرى عالم المخابرات الإسرائيلى وقد عاد أسرة واحدة مرة أخرى «والموساد هم العم بدون جدال». ولن تنبؤنا سوى الأيام بما إذا كان هذا حلم من قبيل التمنى أم أن الأمر سينتهى - كما يخشى كثير من المراقبين - إلى أنه كلما ابتعدت الموساد عن آخر كبوة جلبت لها العار دنت من الأخرى.

جمعت حوالى ٨٠ ساعة تسجيل من ذكريات، بما فيها مقابلات معادة، مع شخصيات لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع الموساد، ولقاءات مع أشخاص حاولت الموساد قتلهم، من بينهم ليلى خالد التى اشتركت في خطف الطائرات ١٩٧٠، ومحمد عباس الذى أدار عملية خطف الباخرة «أكيلى لاورو» التي وقع منها عجوز أمريكي مشلول ولقى حتفه.

كلمة حول المصادر

كانت لدى الوسيلة للوصول إلى أعلى المستويات الكافية فى مجموعة المخابرات الإسرائيلية، لتجعل من هذا الكتاب وثيقة رسمية، ومثلما حدث فى كتبى السابقة، دخلت على موضوع الموساد بأيد فارغة، واستخدمت المعلومات التى زودنى بها أعضاؤها مثلما يفعل أى كاتب يتعامل مع وكالة مخابرات : يراجع ليتأكد، ويراجع، ويراجع.

جمعت حوالى ٨٠ ساعة تسجيل من ذكريات، بما فيها مقابلات معادة، مع شخصيات لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع الموساد، ولقاءات مع أشخاص حاولت الموساد قتلهم، من بينهم ليلى خالد التى اشتركت فى خطف الطائرات ١٩٧٠، ومحمد عباس الذى أدار عملية خطف الباخرة «أكيلى لاورو» التى وقع منها عجوز أمريكى مشلول ولقى حتفه. لقد قابلتهما فى غزة فى مايو ١٩٩٦ حيث سمح لهما بزيارة إسرائيل كجزء من التقارب مع «م. ت. ف». كما تحدثت مع ياسر عرفات الذى كان يوماً ما هدفاً للموساد.

وقد تعرضت للعمل فى المسائل المخابراتية فى ١٩٦٠ حين عملت مع «شابمان بنشر» الذى كان آنذاك أشهر كاتب فى الموضوع، لقد استخدمتنا جريدة «الديلى إكسبريس» فى لندن. وقد ساعد عدد من الموضوعات التى نشرناها - خاصة مأساة «بيرجز وماكلين» للمخابرات البريطانية - فى تغير التصور عن كيفية كتابة مثل هذه

الأمور. وهو مركز حاولت تأكيده بكتب مثل «رحلة عبر الجنون» و«بونتف Pontiff (الأسقف)»، «فوضى تحت السماء».

وكتبت عن حروب المخابرات السرية التى شنت ضد إيران والعراق وسوريا وأفغانستان، أماكن كانت الموساد متورطة فيها مباشرة، وكتبت بشكل واسع عن علاقة الموساد بالفاتيكان، وقد أتاحت لى اتصالاتى بالنظام البابوى القيام بالمزيد من المقابلات لهذا الكتاب.

وفى ١٩٨٩ كنت فى الصين فى ذروة تمرد الطلبة، ومرة أخرى شاهدت آلية عمل وكالات المخابرات، واكتشفت يد الموساد وهى تعمل فيما يخصها من تصدير الصين الأسلحة إلى إيران والعراق، والذى تعتبره تهديداً خطيراً لإسرائيل، وكتبت عن دور الموساد فى حرب الخليج الفارسى، وبعد ذلك فى الشيوعية السوفييتية.

فى أغسطس ١٩٩٤، تسلمت دعوة من «زفى سبيلمان»، وهو رجل كالأسطورة فى إسرائيل، حارب بشكل متميز فى حرب الاستقلال، ثم عمل على إنشاء شركة استديوهات الأفلام المتحدة الإسرائيلية، وأنتج الكثير من الأفلام معظمها إنتاج مشترك مع هوليود، وسألنى هل أرغب فى الكتابة وثائقياً عن الموساد، وأكد لى أنى سأكون مطلق اليد تماماً، وأن القيد الوحيد على المعلومات هو السؤال الذى اسأله،

فكلما سألت أكثر، سأعلم أكثر.

واكتشفت أنه عدا كتاب «فيكتور أوستروفسكى» وعمل «آرى بن منشى» هناك القليل من المعلومات التى يمكن الوثوق فيها عن الموساد، وذلك يتناقض مع وكالة المخابرات المركزية CIA التى يوجد حولها حوالى مائتى كتاب، كما يوجد عن المخابرات البريطانية حوالى خمسين كتاباً، ومثلها عن المخابرات الروسية KGB والألمانية والفرنسية، ولكن بتصفح ومراجعة محتوياتها تجد فجوات فى الحروب السرية التى خاضتها، ومن الواضح أن الموساد تملأ الكثير منها.

فى رحلاتى إلى إسرائيل - بعضها غطته القناة الرابعة البريطانية، وكانت عملية المقابلات مثل أى شيء آخر - تحدث من قابلتهم عن الإطار الزمنى أولاً الذى نشأت فيه الموساد بين التاريخ الحديث والذاكرة المتلاشية، ثم كلما ازداد تعارفنا أصبح حديثهم قريباً من العصر الحاضر، وأصبحوا أكثر تحديداً وأقدر على تذكر التفاصيل من وماذا ومتى وأين؟

وبدا واضحاً أنه حتى هؤلاء الذين ساعدوا فى تأسيس الموساد ولهم ذكريات حية عن فترة كانت جزءاً من تاريخهم الشخصى، لم يسردوها من منظور شخصى، الأكثر أهمية أنهم ربطوا بين هذه الأوقات المبكرة والعصر الحاضر، مثلاً حين حددوا دور الموساد فى أيام الشاه الأخيرة فى إيران، يفسرونه كجذور البلوى الحالية للأصولية الإسلامية، وحين يكشفون عن تورط الموساد فى جنوب أفريقيا، يضعونه جنباً إلى جنب مع موقف تلك الدولة اليوم، ومرة وأخرى يوضحون كيف أن الماضى هو جزء من حاضر إسرائيل، وكيف ملأت الموساد الفجوة بين حينئذ والآن.

وأوضحوا أن الأساطير التى تعزى للموساد قد بدت تافهة حين تواجه بما حدث بالفعل. أتذكر «رافى ايتان» وهو يضحك بصوت خافت ويقول «كل الحقائق التى نشرت عن خطف ايخمان كلام فارغ. أعرف ذلك لأننى أنا الرجل الذى اختطفته».

لقد حوّل ايتان وزملاؤه الأساطير إلى واقع قهرى. وطلبوا منى ألا أفعل أقل من ذلك.

وأنا أصغى إلى ايتان، بدت إنجازاته وكأنها لا تنضب مثل حيويته، لقد حارب حرباً سرية كبيرة، رجل ذو رؤية غير متناهية، وكل ما يطلبه أن يعيش ليرى إسرائيل تتمتع بسلام حقيقى.

عرفت بسرعة أن بين من قابلتهم، هناك زمرة متميزة ولاذعة، هناك مجموعة «آسر هاريل» وجماعة «مئير أميت»، والازدراء الذى تكنه كل مجموعة للأخرى لم

ينجل عبر السنين، وأدركت أن أحداً لن يلين من الطرفين، وقادني هذا إلى مشكلة أخرى: تقييم التوكيدات التي جاءت في معلوماتهم. كذلك كان من قابلتهم في سباق مع الزمن، فرجل مثل «مئير أميت» في أواخر أيامهم، ولقد تحمل، بناء على رغبته، المقابلات المطولة والأسئلة المعادة، وكانت آخر مقابلة بعد وقت قصير من عودته من فيتنام حيث ذهب ليتعلم أولاً كيف استطاع «الفيتكونغ» التغلب على المخابرات الأمريكية في حرب فيتنام.

إحدى المقابلات الساحرة كانت مع «أوري ساجي»، لقد جلس في مكتب «سبيلمان» وتكلم بصراحة في موضوعات مختلفة مثل حاجة إسرائيل إلى التوافق مع سوريا، وعن المشاكل التي كان يواجهها أحياناً في العمل مع الموساد، حين كان «السوبريمو» لكل المخابرات الإسرائيلية.

أما «ديفيد كيمحي» فنادراً ما كان يتخلى عن حذره، ويصر أن يرى الأسئلة أولاً، ومع ذلك فقد أفشى الكثير فيما يتعلق بموقفه الشخصي من الناس والأحداث، أتذكر دائماً مراقبتي له وهو يطعم كلبه، متحدثاً بلباقة، مدمراً مصداقية أولئك الذين لم يقيموا وزناً لآرائه.

ولقد فتح «ياكوف كوهين» بيته وقلبه وعقله لي، جلسنا ساعات عديدة في الكيبوتز الذي يعيش فيه الآن، متذكراً ما قاله وما شعر به، وكمثال، فهو الوحيد الذي يذكر الخوف والندم اللذين مر بهما عندما قتل أول رجل في حياته. إن رد فعله يتناقض تماماً عن مشاعر «ايتان» حول القتل.

أما «يوئيل بن بورات» فإن له عقلية المحامي، يتعامل فقط مع الحقائق، ويتراخى عند التخمين، في كثير من الحالات استطاع أن يملأ الفجوات التي تركها التاريخ فارغة. وكان «ريوفين مرحاف» كنز معلومات عن موقف الموساد في إطار العمل السياسي الإسرائيلي.

ومن بين الصحفيين الإسرائيليين الذين تحدثت معهم، يستحق الذكر اثنان منهم: «أليكس دورون» الذي كانت مساعدته قيمة جداً، ثم «ران ايدبلست» الذي انشغل كباحث للقناة الرابعة للتليفزيون بالفيلم الذي كنت سأقدمه عن الموساد، وغالباً كان يواظب على الحضور في أحد المكاتب في مجمع استوديوهات «زفي سبيلمان»، مصراً على أنه ليس من الصواب إعطاء تفاصيل كاملة عن بعض الحالات، وأحياناً يبدو مهتماً بدرجة أكبر بما لن يذاع في البرنامج مما يذاع. وفي بعض المقابلات التي حضرها، كان يقاطع المحاور مراراً ليحذره بأن يكون «حريصاً»، الحمد لله إن القليلين

هم الذين أخذوا بنصيحته.

قابلت بعض رجال المخابرات المتفهمين تماماً، والذين رفضوا ذكر أسمائهم مباشرة، دعوني إلى منازلهم، وقابلت عائلاتهم وعلمت جانباً من حياتهم الخاصة، إنه تذكير بأن حياة الجواسيس ليست ذات بعد واحد، اذكر بعد انتهاء مقابلة مع ضابط موساد سابق وقد قدم لي معلومات عن كيفية ممارسته القتل، أنه نظر فجأة حوله في غرفة الجلوس المريحة التي تطل على مناظر توراتية، وتنهد بعمق قائلاً: «هذا العالم ليس هو هذا العالم».

وظلت الكلمات ترافقني، وأظن ما يعنيه، أن هذا العالم بالمقارنة بعمله السابق، بإيقاعه العادى ومظاهر الحياة فيه، فإن الظلام والخطر لم يفارقانه قط، ولقد وجدت ذلك عند العديد ممن تحدثت معهم. وإنها لتذكرة مفيدة أن نقول مع القديس «بول» إن عالم المخابرات يُرى غالباً من خلال زجاج معتم.

* * *

مقابلات أساسية مع:

- مئير أميت Aeir Amit
- حاييم كوهين Haim Cohen
- ناديا كوهين Nadia Cohen
- يعقوب كوهين Yaakov Cohen
- وليم كيسى william Casey
- وليم كولبى William Colby
- رفائيل ايتان Rafeal Eitan
- زفى فريدمان Zvi Friedman
- أسر هاريل Isser Harel
- أميرى كابونجو Emery Kabongo
- إدوارد كمبل Edward Kimbel
- ديفيد كيمحى Daivd Kimche

- أتو كورماك Otto Kormak
- هنرى ماكوناشى Henry McConnachie
- اريل ميرارى Ariel Merari
- ريوفين مارحاف Reuven Merhav
- دانى ناجيير Danny Nagier
- يوئيل بن بورات Yoel Ben Porat
- أورى ساجى Uri Saguy
- شيمون فيزنتال Simon Wiesenthal

* * *

جرائد ومجلات:

Daily Express London

Dail Mail London

Daily Telegraph London

New York Times, Los Angeles Times, Jerusalem Post, And Sunday Times London

* * *

مؤسسات ومنظمات

- أرشيف البلماخ - إسرائيل - مكتب التسجيل العام - لندن
- الأرشيف القومى - واشنطن - مكتبة نيويورك العامة.
- مكتبة جمعية الصحفيين - لندن - مكتبة جامعة ترينتى - دبلن.
- الأرشيف السرى للفاتيكان.
- أرشيف جيلوت - إسرائيل.

ملحوظة: ترجم الفصول من ١ - ٨ أحمد عمر شاهين
والفصول من ٩ - ١٧ مجدى شرشر

المحتـويـات

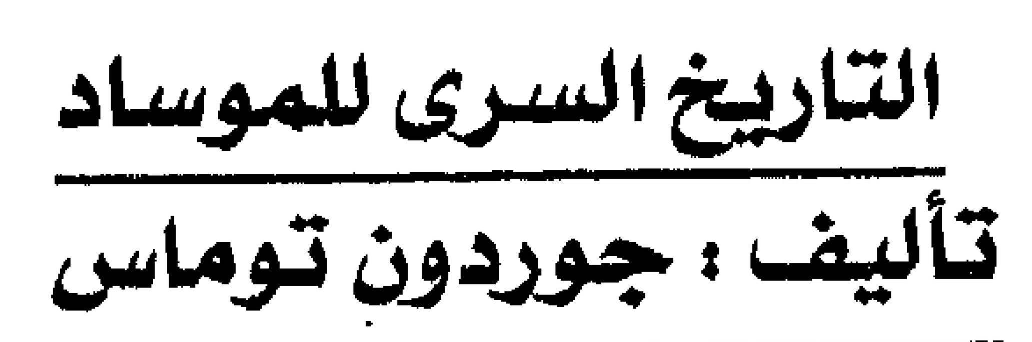
رقم الإيداع بدار الكتب

٩٩/٨٣٥٥

الترقيم الدولي

٩٧٧-١٩-٩٠٢٢-٥

صدر عن سطور: ٨ و٢٣ تقسيم الشيشيني - بجوار الكوبري الدائري امام
النيل جاردن - كورنيش للعادى تليفون: ٥٢٤٠٠٢٠ - ٥٢٦٣٥٩٩



التاريخ السرى للموساد

تأليف : جوردون توماس

ترجمة : أحمد عمر شاهين - مجدى شرشر

تقديم عادل حمودة

الإخراج الفنى : جوبي

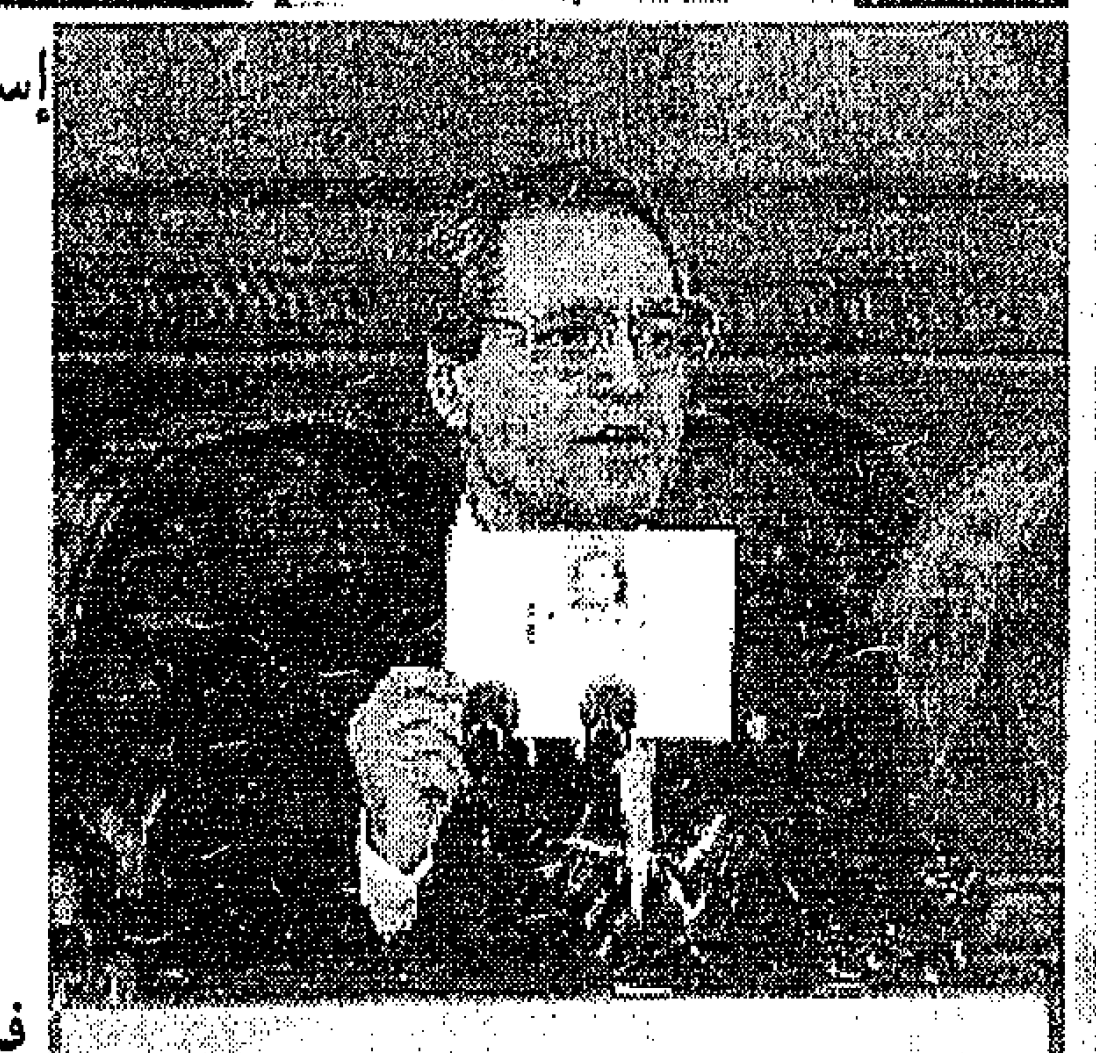


شامير :
المياه العربية مطلب صهيوني



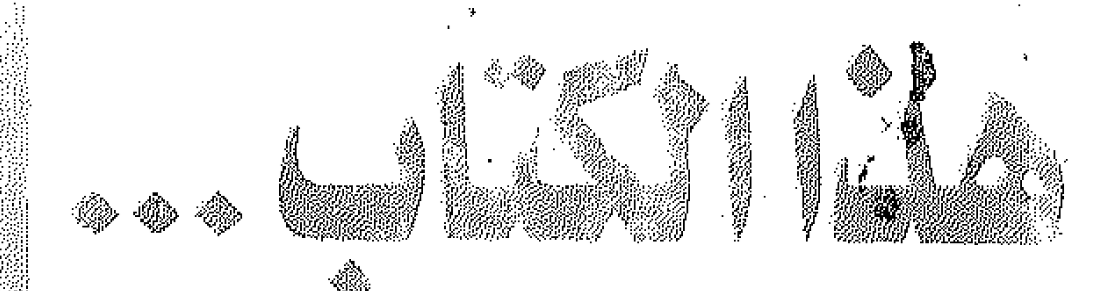


إسرائيل الكبرى كما يريدها شارون



فاروق الشرع :
شامير مطلوب للعدالة كمجرم حرب

كتاب سطور



هذا الكتاب...

«والله ما هو بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس»

على بن أبى طالب



يعتقد عادل حمودة عن حق، أن هدف هذا الكتاب هو «تلميع» الموساد بعد عملياتها الفاشلة الأخيرة وماتبعها من فضائح. لذا، فهو يحذر القارئ من الانبهار بسطوة الموساد ويدها الطائلة. من جانب آخر تطرح تفاصيل بعض عمليات الموساد الناجحة التساؤل عن المرجعية الأخلاقية أو الإنسانية لهذه العمليات، وعن السلطة التي تخول لإسرائيل تسخير آلتها الشيطانية هذه لتتخذ من الكرة الأرضية ملعباً لها تنفذ فيه عملياتها دون أدنى مسائلة. يستوجب هذا منا أيضاً إعمال العقل للتمييز المعرفي والواقعى بين البطولة والقرصنة، بين الفداء والأرهاب، بين البذل لدرء الضررو التخطيط الجهنمى لتكريس الهيمنة وإشباع شهوة الأنتقام.

تصميم الغلاف: